

نايخ أوروبًا في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت من.ب. ٧١٩

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

اهداءات ٢٠٠١

اد. اسمتة محمود خنيم
أستاذ التاريخ وأدابة الإسكندرية

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول

الامبراطورية الرومانية

يبدأ المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ أوروبا في العصور الوسطى باستعراض أحوال الامبراطورية الرومانية في أقصى مراحل قوتها وعظمتها • وليس معنى هذا أن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى يبدأ بداية دقيقة من هذه المرحلة ، وإنما نستهدف من هذا العرض أن يساعدنا على فهم الأسس والعوامل التي كيفت التاريخ الأوربي في العصور الوسطى (١) • هذا الى أن حضارة أوروبا في العصور الوسطى ليست في حقيقة أمرها الا مزيجاً من حضارة الرومان من جهة وحضارة العناصر البربرية التي اجتازت حدود الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها واختلطت بأهاليها من جهة أخرى (٢) •

والواقع أن الامبراطورية الرومانية كانت أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ ، اذ لم يقدر لامبراطورية أخرى في تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الامبراطورية الرومانية من قوة واتساع • ذلك أن هذه الامبراطورية ضمت بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة – باستثناء فارس والهند – وذلك عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧) (٣) • وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسي غرباً حتى الفرات شرقاً ، فشملت في الغرب البلاد المعروفة بأسماء بريطانيا وغاليا وأيبيريا وإيطاليا واليربا فضلاً عن شمال أفريقيا من المحيط الأطلسي حتى طرابلس ، في حين شمل الجزء الشرقي من الامبراطورية

(1) Stephenson: Med. History. p. 5.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 3.

(3) Cary : A Hist. of Rome down to the Reign of Constantine, pp. 646.647.

البلقان وآسيا الصغرى وأعلى بلاد النهرين فصلا عن الشام ومصر وبرفه (١) . هذا مع ملاحظة أن نفوذ روما امتد بعيدا الى ما وراء حدودها السياسية ، حتى بلغ فارس والهند ، وتطوق الى النوبة والسودان ، ونفذ الى جوف الصحراء الكبرى عبر جبال أطلس ، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة فى مجاهل أوروبا شرقى الراين وشمالى الدانوب (٢) .

' وترجع عظمة الامبراطورية الرومانية الى أن السلطة المركزية فيها استطاعت أن تحكم سيطرتها على هذه المساحات الجغرافية المترامية الأطراف ، وعلى تلك الشعوب والأمم المتباينة الأصول والحضارات ، الأمر الذى تطلب من الحكومة الرومانية إصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التى اختلفت بعضها عن بعض فى تراثها التاريخى وحضاراتها ولغاتها ودياناتها . وليس هذا وحده هو مصدر عظمة الامبراطورية الرومانية ومثار الإعجاب بها ، وإنما تبدو هذه العظمة واضحة جلية فى مقدرة امبراطورية الرومان على استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين ، جنباً الى جنب مع شعوب أخرى حديثة المولد وما زالت فى فجر تاريخها مثل الغالين والرومان . وهنا نلاحظ أن امتداد الامبراطورية الرومانية على شواطئ البحر المتوسط جعل من هذا البحر شرياناً رئيسياً يربط بين مختلف أجزائها ، فى حين ساعدت الأنهار الداخلية على الربط بين اطراف الولايات (٣) ، هذا فضلا عن الطرق المعدة التى اشتهرت بها حضارة الرومان ، والتى أقاموا منها شبكة واسعة مترامية ليس لها نظير فى التاريخ (٤) .

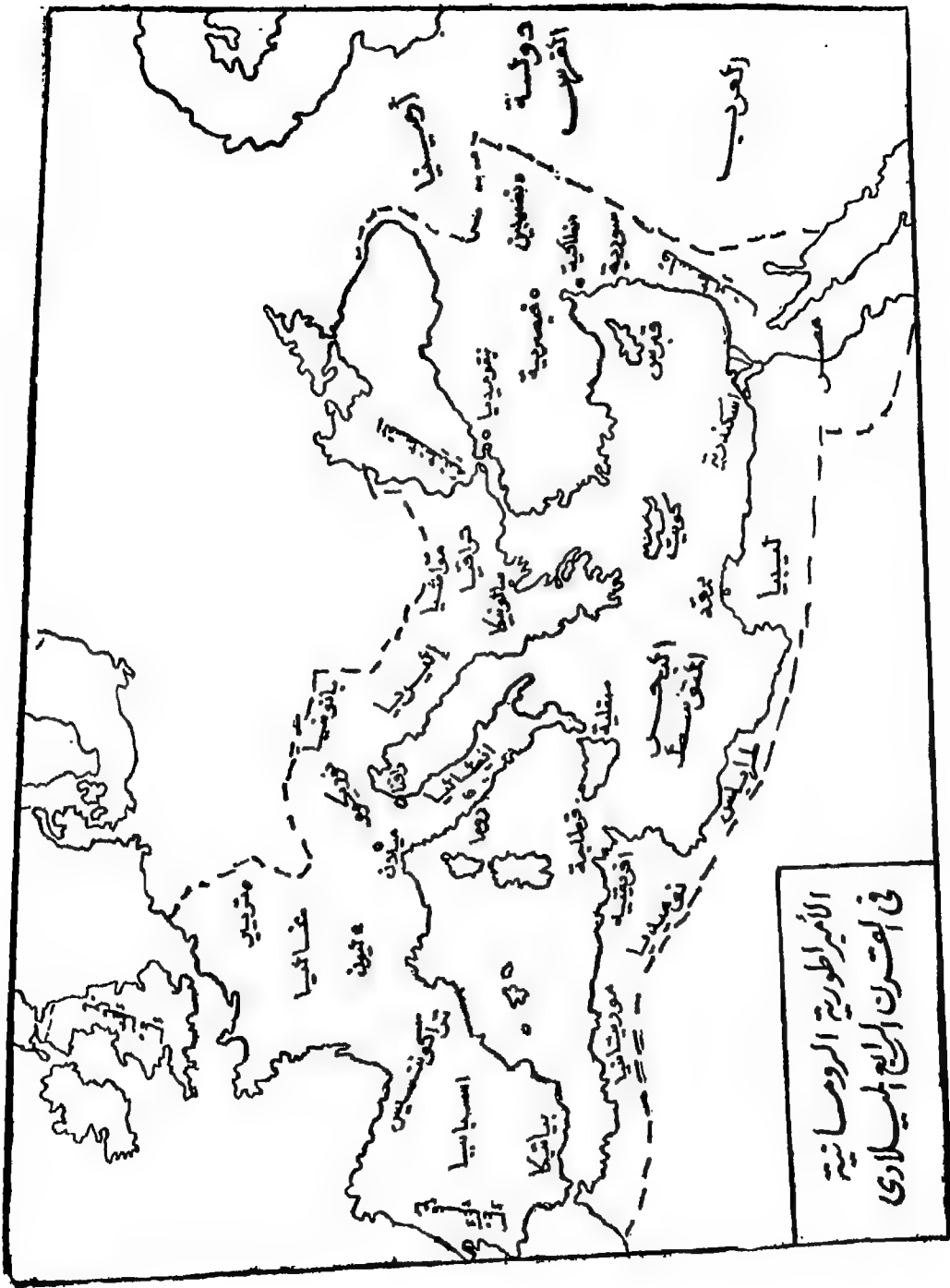
وكانت الامبراطورية الرومانية فى أزهى عصورها - وهى الفترة الواقعة بين قيام أوغسطس سنة ٢٧ ق.م. ووفدة ماركوس أورليوس ١٨٠ م - تمثل بناء اجتماعيا سليما مترابط البناء . ذلك أنها كانت فى نظر الطبقات العليا تعبر عن

(1) Chapot : Le Monde Romain, pp. 68-71.

(2) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1. p. 4.

(3) Rostovtzeff : A Hist. of the Ancient World, Vol. 2. p. 286.

(4) Chapot : Le Monde Romain, p. 103-105.



الأميراطورية الروسية
في القرن الرابع الميلادي

نظام إدارى امتاز بالكفاية والدقة ، فى حين اعتقدت الطبقات الدنيا أن الحكومة الرومانية تقوم بحماية الممتلكات والأرواح فى ظل قانون عادل دون أن تحاول التدخل فى حياة الناس اليومية أو تعمل على تغيير لغاتهم أو معتقداتهم أو نظمهم الاجتماعية (١) .

أما عن طابع الحكومة الرومانية فى أوائل عصر الامبراطورية - أى حتى الإصلاحات العظيمة التى أدخلها دقلديانوس فى أواخر القرن الثالث - فيلاحظ أن هذه الحكومة كانت ملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهورى السابق (٢) ، أو ربما كن من الأدق القول بأنها ظلت جمهورية مع ظهور رأس للدولة وللجيش الرومانى يتمتع بمنصبه طوال حياته . وهكذا ظل السناتو يباشر سلطاته الواسعة ، واستمرت المناصب العليا فى الدولة بأيدى الأرستقراطية من كبار ملاك الأراضي ، كما بقى المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة وان فقدوا كثيرا من أهميتهم السياسية (٣) . ولذلك يبدو من الخطأ أن ننظر الى هذه الحكومة على أنها كانت عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة . حقيقة انها لم تكن ملكية دستورية ، ولكنها امتازت - ولا سيما فى العصر الأول للامبراطورية - بسيادة العرف والتقاليد والقانون ، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهورى مما أكسب الحكومة الرومانية عندئذ مظهرا دستوريا واضحا (٤) .

والواقع أن النظام السياسى الذى وضعه أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤ م) يعتبر حلا وسطا بين النظامين الملكى الاستبدادى والجمهورى الدستورى (٥) . ذلك أنه كان أمام أوغسطس ان يختار بين نظامين للحكم ، الأول نظام قيصر الذى قام على أساس حكم عسكري اعترف فيه جميع الناس - سواء فى إيطاليا أو الولايات - بالطاعة العمياء لسيدهم الأعلى ، والثانى نظام الحكم الجمهورى

(1) Thompson : op. cit. pp. 4—5.

(2) Cam. Ancient Hist. Vol. 10 : p. 160.

(3) Stephenson : Mediaeval History, p. 6.

(4) Lot : The End of the Ancient World, pp. 6—7.

(5) Cam. Ancient Hist, Vol. 10. p. 158—168.

الذى يقر أهمية المواطنين الرومان فى إيطاليا والولايات الى جانب الاعتراف
بسلطة قائد القوات المسلحة فى الدولة • وهنا لجأ أوغسطس الى التوفيق بين
النظامين ، أى بين الزعامه العسكرية التى ورثها عن أسلافه والتى أضحت
ضرورية للمحافظة على سلامة الامبراطورية وأمنها وصالحها العام ، وبين رغبة
المواطنين الرومان فى الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة - على الأقل فى الميدانين
الاجتماعى والاقتصادى ، ان لم يكن فى الميدان السياسى (١) • وهكذا نبذ
أوغسطس حكم تيسر المطلق ولكنه ركز فى يد الامبراطور معظم السلطات التى
اعتاد أن يباشرها كبار الموظفين فى العصر الجمهورى ، وبخاصة القيادة
الحربية التى انتقلت من أيدي القناصل الى يد الامبراطور • واذا كان السناتور
قد ظل محتفظا بهيئته ومكانته القديمة فى ظل النظام الجديد ، الا أن سلطاته
التشريعية والقضائية والادارية تناقصت بصورة واضحة (٢) ، كما أصبح
يتألف من أعضاء يختارهم الامبراطور من مختلف أنحاء الامبراطورية
على الاطلاق ، بعد أن كان فى العصر الجمهورى يمثل أقلية ممتازة محدودة ،
مما جعل الطبقة السناتورى Senatorial Class تعتمد على أوغسطس
اعتمادا تاما (٣) •

وقد عاب بعض المؤرخين على الامبراطورية الرومانية فى أوائل عهدها
افتقارها الى وجود قانون وراثى ثابت ينظم وظيفة الامبراطور • ونحن لا ننكر
مدى خطورة هذه الثغرة فى النظم الرومانية عندئذ ، ولكننا يجب أن نعترف
بأن علاجها لم يكن أمرا يسيرا بالدرجة التى قد نتصورها • ذلك أن ثمة
حقيقة كبرى ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا ، هى أن الامبراطورية
الرومانية فى عصرها الأول لم تكن مجرد امبراطورية فى
قالب جمهورى فحسب ، بل كانت استمرارا للنظام الجمهورى السابق
وامتدادا له ، مما تعذر معه وضع قانون وراثى ثابت للحكم دون

(1) Rostovtzeff : A Hist. of the Ancient World, Vol. 2.
pp. 175—176.

(2) Cam Ancient Hist. Vol. 10 pp. 161—165.

(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 191.

التخلص من هذا القناع الجمهورى الذى استترت خلفه الامبراطورية الجديدة (١) • وعلى هذا فقد كان من الصواب - بل من الضرورى من الناحية السياسية - أن تحتفظ الامبراطورية الرومانية بهذا المظهر الجمهورى فى عصرها الأول عندما كان أنصار التقاليد والمبادئ الجمهورية القديمة مازالو يمثلون أغلبية ذات نفوذ قوى فى السناو •

على أن ضعف الامبراطورية الرومانية أخذ يبدو واضحا فى القرن الثالث، عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية فى عزل الأباطرة واقامة غيرهم بعد أن كان الجيش خادما مخلصا للامبراطور (٢) • ولم تلبث الفرق الامبراطورية فى مختلف الولايات أن أخذت تتحكم فى اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الامبراطور والسناو ، مما جعل الأباطرة وأعضاء السناو العوبة فى أيدي رجال الجيش (٣) • ولكن لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن بسبح - بر - ، القرن الثالث كانوا غير أكفاء فقد أظهر أول الأباطرة العسكريين فى ذلك القرن وهو سبتيوس سفروس (١٩٣ - ٢١١) مقدرة كبيرة ، على الرغم من نزعته الاستبدادية ، حتى أن عهده يعتبر مرحلة تحول فى تاريخ الامبراطورية والنظم الرومانية جميعا • وقد استطاع هذا الامبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر ظلت فى الحكم حتى سنة ٢٣٥ ، واشتهر من أباطرتها كاراكلا (٢١١ - ٢١٧) بسبب القانون الذى منح به الجنسية الرومانية لجميع أهالى الامبراطورية من الأحرار (٤) • ومهما يكن من أمر ، فإن الفضل يرجع الى الامبراطور سبتيوس سفروس فى تأجيل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية • ويتضح نفوذ الجيش الرومانى فى ذلك الوقت ونظرة الأباطرة الى رجال الجيش فى النصيحة التى قدمها هذا الامبراطور

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 8.

(2) Cary : op. cit. pp. 721—723.

(3) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 303.

(4) Stephenson : Med. Hist. p. 33.

الى أبنائه وهو على فراش الموت ، اذ قال « أجزلوا العطاء للبحد ، ولا تهتموا بالآخرين (١) » .

وبتولى الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ - ٢٥١) منصب الامبراطورية ، بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين الذين أخذوا يتابعون عما تبقى من مظاهر الحكم الجمهورى ، حتى جعلوا من الجمهورية نظاما إستبداديا يعتمد على الجيش فى تنفيذ مشيئة الامبراطور والضغط على أهالى الامبراطورية . وهكذا أمست الحاجة ملحة فى الداخل الى اصلاح النظم الادارية الخاصة بالولايات فضلا عن نظم الضرائب والعملة . أما فى الخارج فقد أخذ يتزايد ضغط الجرمان وبخاصة على جبهتى الراين والدانوب ، فى الوقت الذى ازداد الخطر الفارسى على الولايات الآسيوية (٢) .

وفى وسط الفوضى الشاملة والحروب الأهلية التى عصمت الامبراطورية عقب انتهاء حكم أسرة سفروس سنة ٢٣٥ ، ظهر جندى دلماشى من أصل متواضع - هو الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) - ليتدارك الموقف ويعالج مشاكل الامبراطورية فى عزم واصرار ، فأحدث ثورة ضخمة فى نظم الحكومة الرومانية مما جعل عهده من أهم عصور تاريخ الامبراطورية . ذلك أن جميع المتاعب الداخلية والخارجية التى واجهت الامبراطورية فى أواخر أيامها كانت قد أخذت تبلور لتظهر عندئذ فى صورة خطيرة واضحة . وفى الداخل تفاقم المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وفى الخارج اشتد خطر الجرمان والفرس وضغطهم على حدود الامبراطورية (٣) . وبسبب هذه العوامل التى أدت الى اضمحلال الامبراطورية الرومانية ثم سقوطها ظهرت واضحة فى أواخر القرن الثالث (٤) .

(١) Lot : op. cit. p. 10.

(٢) Ibid.

(٣) Cary : op. cit. pp. 723—726.

(٤) Thompson : op. cit. Vol. I p. 12.

ويحسن بنا قبل أن نعالج اصلاحات دقلديانوس ، أن نبدأ أولاً باستعراض المشاكل الأساسية الهامة التي شكت منها الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث . وكانت أولى هذه المشاكل هى كيفية احتفاظ الامبراطورية الرومانية بوحدة سليمة كاملة ، بعد أن اتجهت بعض الولايات - فى الشرق والغرب - نحو الانفصال عن جسم الامبراطورية ، وقامت فيها فعلا - وذلك منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ٢٠٠ - حركات ثورية انفصالية (١) . ومن الخطأ وسوء المبالغة أن ننسب هذه الحركات الى مطامع بعض الأفراد الطموحين وتجاهل روح الاستياء والغضب التى عمت أهالى الولايات ، والتى كانت العامل الأساسى فى تشجيع هؤلاء الطموحين على الظهور . فإذا دققنا النظر فى معظم الثورات التى نشبت فى مختلف ولايات الامبراطورية منذ القرن الثالث ، وجدنا من ورائها جميعا عوامل مشتركة - اقتصادية واجتماعية وعنصرية - حركتها وساعدت على سرعة اشتعالها . وهنا نشير الى أنه ليس من الصواب الأخذ بالرأى القائل بأن ازدياد تركيز السلطة الحكومية فى أواخر عهد الامبراطورية الرومانية هو سبب اضمحلال هذه الامبراطورية لأنه أدى الى كبت الروح العنصرية فى الولايات . فالواقع أن الحكومة الرومانية اضطرت الى اتباع سياسة التركز هذه فى أواخر عصر الامبراطورية نتيجة للفساد الذى عم الولايات فعلا ، ولا سيما بعد أن أصبح حكام الولايات على قسط غير كاف من المقدرة مما أفقدهم ثقة الحكومة ، فى الوقت الذى أصاب مجالس الولايات الانحلال والوهن (٢) . لذلك لجأت الحكومة المركزية الى التدخل لمحاولة اصلاح الأوضاع الادارية فى الولايات ، وكان العلاج المألوف عندئذ هو تصغير مساحة الولاية عن طريق تقسيمها أو تفتيتها ، فضلا عن الفصل بين السلطين المدنية العسكرية فى الولاية (٣) وهكذا أخذ عدد الولايات الرومانية فى تزايد مستمر نتيجة لهذه السياسة حتى قفز هذا العدد من ست وأربعين ولاية سنة ٤١ الى مائة وتسعة عشر ولاية سنة ٣٢٧ . ولم يكن الانحلال

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 24—25.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 25—26.

(3) Chapot : op. cit. p. 127.

فى الحكومات البلدية الخاصة بالمدن ذات الادارات المستقلة عن ادارة الولاية - أقل وضوحا منه فى حكومات الولايات ، فكثير من المدن أسرفت فى إقامة المنشآت العامة وزخرفتها كالحمامات والمسارح والملاعب ، الأمر الذى تطلب زيادة اعباء الضرائب المحلية (١) وقد دفع ذلك بعض الأباطرة الى تعيين مراجعين ومحاسبين لفحص دفاتر بلديات المدن ، كما دفعهم أحيانا الى حرمان بعض البلديات من حرياتها واستقلالها الذاتى وجعلها تابعة لحكومة الولاية (٢) .

أما الناحية الاقتصادية فقد ساءت فى الامبراطورية نتيجة لكثرة الحروب الأهلية التى مزقت وحدة الدولة وجعلت طسرق التجارة غير مأمونة فى البر والبحر (٣) وزاد الطين بلة ثقل عبء الضرائب فى القرن الثالث ، سواء تلك التى فرضتها الحكومة المركزية أو التى جمعتها السلطات المحلية . وذلك أن الامبراطورية أصبحت مقسمة الى دوائر جمركية عديدة ، فى حين فرضت الضرائب على جميع السلع التجارية بنسبة تتراوح ٢٪ ، ١٢٪ ، هذا فضلا عما فرضته المدن من ضرائب صغيرة على المأكولات - كالفنجر والفواكه والطيور واللحوم - التى ترد اليها من الأقاليم المجاورة (٤) . وكان من المتبع أحيانا أن تكون هذه الضرائب عينية ، أى تؤخذ من نوع البضاعة أو الصنف ، بعكس الحال فى الضريبة الذهبية *Chrysargyrum* ، وهى الضريبة الرئيسية فى الانتاج الصناعى والتى سميت بهذا الأسم لأنها كانت تدفع نقدا (٥) .

ومنها يكن من أمر ، فإن العبء الأكبر للضرائب وقع على الأراضى والمزارعين . وإذا كان العالم الرومانى قد اشتهر بالملكيات الزراعية الكبيرة ، فإن المفروض هو أن تقوم طبقة كبار الملاك بتحمل الجزء الأكبر من أعباء الضرائب . ولكن الواقع العملى لم يطابق هذا الفرض النظرى ، اذ تحرر كبار

(1) Dill : Roman Society from Nero to Marcus Aurelius pp. 245—250.

(2) Chapot : op. cit. pp. 113—125.

(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 317.

(4) Charlesworth : The Roman Empire, pp. 70—81.

(5) Lot : The End of the Ancient World, p. 121.

الملاك من هذا العبء الباهظ وألقوا به على كواهل المستأجرين ، عن طريق رفع قيمة الايجار أو عن طريق انقالبهم بالالتزامات والخدمات التي يتعين عليهم أدائها للمالك(١) . أما المزارع الصغير فكان يلجأ الى رهن أرضه عندما يعجز عن الوفاء بما عليه من ضرائب ، وعندئذ يستولى كبار الملاك المجاورين على الأرض ويصبح المزارع الحرقا ، أو يترك مزرعته لينزح الى إحدى المدن وينضم الى جموع الدهماء التي أخذت تتكاثر في المدن الرومانية(٢) . وبالإضافة الى ذلك وجدت في الامبراطورية الرومانية ضريبة اجبارية يؤديها أهل الولاية نفدا أو سخرة لصيانة الطرق والجسور والقنوات وغيرها من المرافق العامة . هذا عدا الضرائب المستحقة على جميع الأحرار ، والتي اقتصرت في أول الأمر على المواطنين الرومان الذين تمتعوا بالجنسية الرومانية حتى منح كاراكلا هذه الجنسية سنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية الأحرار للحصول على ايراد أوفر وأعم ، وان كان هذا الاجراء قد ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة للامبراطورية ونظمها(٣) .

وهكذا نلاحظ ازديادا مطردا في الضرائب المباشرة وغير المباشرة داخل الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث . ذلك أن الأمر لم يقتصر على تضاعف عدد الضرائب المفروضة ، بل صاحب ذلك ارتفاع نسبة الضريبة الواحدة ارتفاعا مستمرا(٤) . وقد أثر هذا الوضع تأثيرا خطيرا في بناء المجتمع الروماني الذي احتل توازنه نتيجة لأن الأغنياء - وهم الطبقة الارستقراطية المؤلفة من كبار ملاك الأراضي - ازدادوا غنى ، في الوقت الذي ازداد الفقراء فقرا . أما الطبقة الوسطى في المدن والأرياف فقد أخذت تتناقص وسارت في طريق الاضمحلال السريع نتيجة لتحويل أفرادها الى فئة من الأتباع والعبيد

(1) Rostovtzeff ; op. cit., pp. 313—315.

(2) Katz : The Decline of Rome, p. 37.

(3) Rostovtzeff ; op. cit., Vol. 2 p. 317.

ويلاحظ أن الهدف الأساسي الذي توخاه كاراكلا من منح الجنسية الرومانية لجميع أهالي الولايات الأحرار ما زال موضع نقاش وجدل بين المؤرخين

(4) Chapot ; op. cit., pp. 106 — 111,

(م - ٣ - أوروبا)

فى ميدان الزراعة والصناعة • كذلك أدى هذا الوضع الى تدهور الانتاج وانخفاض قيمة العملة التى لم يتردد بمض الأباطرة فى تزيفها والاكار من سكها • ذلك أن الأباطرة عندما وجدوا أنفسهم لا يملكون المعادن الكافية لسك العملة ، لجئوا الى خلط الذهب بالفضة ، والفضة بالنحاس ، والنحاس بالرصاص ، وبذلك انحطت قيمة العملة وأفلس من التجار من كان ثريا بسبب التلاعب فى النقود (١) • هذا الى أن تزيف العملة أدى الى اختفاء النقود الجيدة من السوق ، وقصر التداول على النقود الرديئة - وفقا لقانون جريشام الحديث - الأمر الذى أدى الى ارتفاع الأسعار ارتفاعا جنونيا (٢) • وفى ضوء هذه الاعتبارات جميعا يمكن تفسير الثورات العديدة التى انتشرت فى مختلف ولايات الامبرطورية فى القرن الثالث ، عندما أخذ المزارعون والفلاحون يهجرون مزارعهم ويهاجمون المدن المجاورة لنها ، كما اتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة حتى عم الفساد البر والبحر (٣) •

وبالإضافة الى هذه المفاسد والمشاكل الداخلية ، تعرضت الامبرطورية الرومانية لأخطار خارجية جسيمة نتيجة لهجمات أعدائها على حدودها وتوغلهم داخل هذه الحدود فى القرن الثالث • فالفرنجة أغاروا على أراضي الراين الأدنى سنة ٢٣٥ ثم سنة ٢٥٦ (٤) ، والقوط الذين اجتأحوا اقليم داشيا غزوا مواشيا سنة ٢٥١ ولم يكن طردهم من هذا الاقليم الا بعد أن انتصر عليهم كلوديوس سنة ٢٩٨ (٥) • وفى سنة ٢٧٠ اندفع الألمانى خلال ممرات الألب مهددين شمال ايطاليا • وفى عهد الامبراطور فالريان (٢٥٣ - ٢٦٠) دأب البدو الرحل والبربر الضاربون على الحدود الصحراوية لولاية أفريقية الرومانية على مهاجمة هذه الولاية مرة بعد أخرى لنهب مدنها ومزارعها •

(1) Rostovtzeff ; op. cit. Vol, 2, p. 317.

(2) Stephenson : Med. Hist. p. 38.

(3) Katz ; op. cit. pp. 36—37.

(4) Cary : op. cit. p. 723

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 204—206

هذا في الوقت الذي تطرقت جموع البرابرة المعروفين باسم اللان الى آسيا الصغرى من جهة الشمال الشرقي عبر القوقاز (١) .
وزاد من هذه الأخطار الخارجية التي هددت الامبراطورية الرومانية موقف دولة الفرس الساسانية التي أخذت منذ سنة ٢٣٣ تهدد أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وسوريا تهديدا خطيرا مستمرا ، حتى تمكن الفرس من انزال الهزيمة بالامبراطور فالريان وأسر سنة ٢٥٩ (٢) . واذا كان بعض الأباطرة الرومان قد نجحوا بعد ذلك في احراز شيء من الانتصارات الجزئية على الفرس ، الا أن هذه الانتصارات ليس معناها وقف الخطر الفارسي أو حتى الاقلال منه (٣) .

٢٨. الامبراطور دقلديانوس :

وهكذا بدت الامبراطورية الرومانية على شفاهاوية عندما اعتلى الامبراطور دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ ليقوم بأعظم عملية ترميم في بناء الامبراطورية المتداعية . ويبدى أنه لس من الواقع في شيء أن تعتبر دقلديانوس أول الأباطرة المصلحين الذين عملوا على انقاذ الامبراطورية في القرن الثالث ، اذ وجد من الأباطرة الذين تعاقبوا على عرش الامبراطورية بين سنتي ٢٥٣ ، ٢٨٢ جماعة أحسوا بخطورة الموقف ورغبوا في الإصلاح ، ونخص بالذكر الامبراطور أورليان Aurelien (٢٧٠ - ٢٧٥) الذي أطلقت عليه الوثائق المعاصرة لقب « مجدد الامبراطورية »
ولكن المشكلة كانت أشد تعقيدا من أن تحل في سهولة ، فاكفى هؤلاء الأباطرة المصلحون ببعض الإصلاحات الجزئية التي تناولت الضرائب والعملة الزراعيه كما سمحوا لبضعة آلاف من العناصر الجرمانية المرابطة على حدود الدولة باجتياز هذه الحدود والاقامة داخلها ، وذلك لتوفير الأيدي العاملة اللازمة

(1) Thompson ; op. cit. Vol. 1 p. 16

(2) Cary ; op. cit. p. 724.

(3) Moss; The Birth of the Middle Ages, pp. 6—7.

(4) Vasiliev; Hist, de l'Empire Byzantin; Tome 1 :
p. 77.

للزراعة من جهة ولاتقاء شر هذه العناصر وخطرهما من جهة الأخرى (١) .

ولكن أحدا من أباطرة القرن الثالث لم يستطع أن يقوم بما قام به دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) من اصلاح شامل بعيد الأثر في مختلف مرافق الامبراطورية . وهنا نجد دقلديانوس يوجه جهوده نحو ثلاثة أهداف كبرى ، هى تقوية نفوذ الحاكم أو الامبراطور ، واعادة تنظيم الجهاز الحكومى ، وتجديد نظام الجيش (٢) ولتحقيق هذه الأهداف بدأ هذا الامبراطور باقرار الأمن والنظام فى مختلف الولايات الامبراطورية ، فأخضع الثورات المتأججة فى غاليا ومصر وولاية أفريقية وبريطانيا ، كما صد البرابرة على امتداد جهتي الراين والدانوب . ولم يكد دقلديانوس يفرغ من ذلك حتى هاجم الفرس سنة ٢٩٧ واسترد منهم بلاد ما بين النهرين ، وبذلك امتدت الحدود الرومانية شرقا مرة أخرى حتى نهر دجلة ، كما عادت رقعة الامبراطورية من جديد الى ما كانت عليه سنة ١١٧ باستثناء أقليم أو اقليمين (٣) وقد فكر دقلديانوس فى حماية العالم الرومانى من الأخطار الجسيمة التى كانت تهدده ، وذلك بإنشاء قوة حربية متقلة - أى غير مرتبطة بجهة واحدة - لتتحرك فى أى وقت الى أية جهة حسب الظروف ووفق مشيئة الامبراطور (٤) .

على أن الخدمات الحقيقية التى أداها دقلديانوس للامبراطورية والتى تركت أثرا بالغا فى أحوالها ، لم تكن فى ميدان الحرب بقدر ما كانت فى ميدان الإصلاح الادارى . ذلك أنه أعاد تنظيم الجهاز الادارى فى صورة حرمت ايطاليا مما كان ليا فى العصور القديمة من مكانة ممتازة ، كما قضت على التفرقة بين الولايات الامبراطورية وولايات السناو (٥) . وقد أدرك دقلديانوس بثاقب بصره أن المركز الحقيقى لقوة العالم الرومانى لم يعد فى الغرب وانما أصبح فى الشرق ، حيث امتازت الولايات بوفرة الخيرات وكثرة السكان ومهارة

(1) Bloch : L'Empire Romain, pp. 188—194

(2) Rostovtzeff ; op. cit. Vol. 2, p. 320

(3) Thompson ; op. cit Vol. 1 p. 17

(4) Stephenson ; Med. Hist. p. 38

(5) Ostrogorsky ; Hist. of the Byzantine State, p. 32

الأيدي العاملة في الزراعة والصناعة والتجارة • لذلك مهد دقلديانوس لما فعله
الأمبراطور قسطنطين فيما بعد (١) فاتخذ عاصمة جديدة للامبراطورية في
الشرق ، هي مدينة نيقوميديا في الشمال الغربى من آسيا الصغرى على بحر
مرمرة (٢) • هذا فضلا عما تطلبته الاعتبارات العسكرية من نقل عاصمة إيطاليا
من روما الى ميلان ، وهي المدينة التي تتحكم فى معظم ممرات جبال الألب
مما يجعل من السهل انتقال الجيوش الامبراطورية منها الى غاليا أو ألمانيا
لصد هجوم أو إخماد أية فتنة (٣) •

وقد صحب تغيير عاصمة العالم الرومانى إعادة تنظيم الجهاز الادارى تنظيما
جوهريا شاملا • ذلك أن دقلديانوس أدرك ضرورة إيجاد علاج للخطر الناجم
عن تضاعف عدد الولايات ، وما ترتب على هذه الظاهرة من فيادات انفصالية •
لهذا فكر فى ربط الولايات الرومانية بعضها ببعض ، فقسم الامبراطورية الى
أربعة أقاليم أو أقسام إدارية كبرى ، على رأس كل قسم منها حاكم إدارى
عام يتمتع اما بـ « أوجسطس » أو بـ « قيصر » ، ويعتبر من الناحية
العملية شريكا للأمبراطور فى حكم الامبراطورية (٤) • أما هذه الأقسام
الإدارية الأربعة الكبرى فكانت غاليا (وتشمل بريطانيا وغاليا وأسبانيا والجزء
المعروف حاليا باسم مراكش) ، وإيطاليا (وتشمل الأراضى الواقعة بين
الدانوب والبحر الأدرياتي فضلا عن إيطاليا والبلاد المعروفة حاليا بأسماء
الجزائر وتونس وطرابلس) ، واليريا (وتشمل داشيا ومقدونيا وبلاد
اليونان) ، ثم أخيرا إقليم الشرق ويشمل بقية الامبراطورية أى تراقيا
وآسيا الصغرى والشام ومصر (٥) • وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه بالقسم
الأخير ومركزه نيقوميديا ، هذا فضلا عن احتفاظه بـ « لقب الامبراطورية
ووظيفتها » •

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1 p. 24

(2) Cary : op. cit., p. 195

(3) Bloch : op. cit. p. 195.

(4) Idem, pp. 194—195

(5) Painter; A Hist. of the Middle Ages, pp. 5—6.

وهكذا أصبحت الامبراطورية من الناحية النظرية مقسمة الى أربعة أقسام كبرى يحكمها أربعة حكام ، اثنان منهم أعلى مقاما ويحملان لقب «أوغسطس» والاثنان الباقيان أقل درجة ويحملان لقب « قيصر » ويخلفان الأولين ، فى حالة الوفاة أو العجز(١) . أما الامبراطور نفسه فلم يعد أن يكون أحسد الحاكمين الأولين ، ولكن كانت بيده السلطة العليا فى الامبراطورية والاشراف العام على جميع شئونها كما كان القائد الأعلى للجيش(٢) . وهنا نلاحظ أنه اذا كانت السلطة الادارية فى الامبراطورية قد قسمت أو وزعت ، إلا أن الامبراطورية نفسها ظلت وحدة قائمة لا تتجزأ ، بحيث أن كل أوغسطس كان له حق المرور فى أراضى القيصر التابع له . كذلك يلاحظ أنه اذا كانت السلطة العليا فى النواحي التشريعية والادارية قد أصبحت نظريا فى أيدي الأوغسطين ، إلا أن دقلديانوس ظل من الناحية العملية يقبض على زمام الأمور فى الامبراطورية (٣) . وبعبارة أخرى فإنه ليس معنى تقسيم السلطة أن الامبراطورية نفسها انقسمت ، اذ ظلت هذه الامبراطورية تمثل وحدة على عهد دقلديانوس(٤) . ثم كان أن قسم دقلديانوس هذه الأقسام الأربعة الكبرى الى سبعة عشر وحدة أصغر Dioceses كل وحدة منها يرأسها نائب Vicarus عن الحاكم العام ، وتشمل عددا من الولايات . أما هذه الولايات فقد أصبح عددها مائة ولاية وولاية ، لكل منها ثلاث ادارات هامة تشرف احداها على العدالة والثانية على المالية والثالثة على الأملاك الخاصة بالباطرة(٥) . وهكذا أصبح حكام الولايات مسئولين أمام نواب الحاكم العام ، والنواب مسئولين أمام الحاكم العام للاقليم ، وهؤلاء الحكام مسئولين أمام دقلديانوس الذى كان يتمتع بسلطة تامة فى تعيينهم أو عزلهم . وعن هذا الطريق أراد دقلديانوس أن يجعل الاجراءات الادارية تتم بصورة أسرع وأدق ، وفى الوقت نفسه يقضى على عوامل الانفصال والفساد المحلية التى

(1) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 78

(2) Rostovtzeff . op. cit. Vol. 2; pp. 321-323.

(3) Lot: The End of the Ancient World, p. 14

(4) Vasiliev, op. cit. Tome, 1, p. 78

(5) Rostovtzeff : op. cit. Vol 2, 325

طائفا سبيت متاعب جسيمة للامبراطورية فى القرن الثالث • وهكذا رفض دقلديانوس التعلق بأذيال النظم الجمهورية اسطحيه التى لم يبق منها سوى أرهام خيالية ، فخلص من مظاهر الحكم الجمهورى بحيث بدت الامبراطورية فى عهده - كما كانت فعلا فى باطنها - ملكية استبدادية مطلقة • وهذا يحاول بعض الكتاب تفسير هذه الاتجاهات فى ضوء النفوذ الشرقى ، بحيث لم يقتصر أثر هذا النفوذ على تنظيمات دقلديانوس فحسب ، بل امتد أيضا الى اعلاء كلمة الامبراطور وتمتعه بسلطة مطلقة أشبه بسلطة الأكاسرة (١) •

أما نظام الجيش فقد أقامه دقلديانوس على أساس الاعتماد على الجند الذين يرجع أصلهم الى أكثر شعوب الامبراطورية تخلفا فى الميدان الحضارى ، وبخاصة الجerman • فبقدر ما قل نصيب الجندى من الحضارة ، بقدر مسا ازدادت أهميته ومكانته ، وهكذا اعتمد دقلديانوس على الفرق المؤلفة من البرابرة المرتزقة فى حماية الامبراطورية ، وجعل مراكزهم قرب عواصم كبار الحكام الأربعة حتى يكونوا على أهبة السير الى الحدود فى أى وقت يطلب منهم ذلك (٢) • وليس هناك شك فى أن عدد أفراد الجيش الرومانى ازداد على عهد دقلديانوس ، كما أصبح الطريق مفتوحا أمام الجندى ليرتقى ويصبح ضابط مائة ثم يتدرج فى مختلف درجات القيادة حتى يصل الى مرتبة القائد الأعلى للجيش • وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات فى هذه الحالة هو أن يكون شجاعا خيرا بفنه مخلصا للامبراطور (٣) •

ثم أتبع دقلديانوس هذه التنظيمات الادارية والحربية باصلاح النظم المالية والضرائب فقام بعملية واسعة تستهدف حصر الأراضى الزراعية فى الامبراطورية وتحديداتها لتقرير الضرائب فى صورة عادلة • واذا كان دقلديانوس لم ينجح فى علاج الأزمة الاقتصادية علاجا ناجحا ، الا أنه نجح فى حماية الفقراء من جشع المستغلين والمنجربين فى أقوات الأهالى (٤) • وكان العلاج الذى لجأ اليه

(1) Katz; op. cit. p. 44.

(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 323.

(3) Idem, p. 324.

(4) Chapot : op. cit. p. 111

دقلديانوس هو سك عملة صحيحة سليمة حازت ثقة التجار والتعاملين من جهة ، ثم تحديد كميات البضائع المتداولة والتي تعرض للبيع من جهة أخرى . هذا فضلا عن تسعير الحاجيات الأساسية والأجور من جهة ثالثة (١) على أن هذه المقاييس لم تفلح في علاج ما كان يعانيه أهالي الامبراطورية من ضغط وفاقه بسبب كثرة الضرائب التي وقع الجزء الأكبر من عبئها على الطبقات الدنيا في حين تمتعت الطبقات العليا بكثير من الاعفاءات المالية (٢) . وهكذا يمكن القول بأن كل ما فعله دقلديانوس لاصلاح الحالة المالية هو أنه بسط جهار الضرائب وحاول منع وفوق أزمة مالية ، ولكنه لم يستطع بأي حال اعادة الأوضاع المالية في الدولة الى حالتها الطبيعية نتيجة لتدهور مستوى المعيشة (٣) . هذا الى أن اصلاحات دقلديانوس المختلفة وما تطلبت هذه الاصلاحات من نفقات طائلة ، ألفت حملا ثقيلا على الأهالي في وقت كانت مالية الامبراطورية تعاني اجهادا شديدا منذ أوائل القرن الثالث ، مما زاد الحال سوءا .

الامبراطور قنسطنطين :

ثم كان أن نحى دقلديانوس عن عرش الامبراطورية سنة ٣٠٥ بعد أن بلغ الستين من عمره . واستبد به المرض . وأحسن أن الوقت قد حان ليتخلى عن الحكم لغيره بعد أن أدى واجبه في انقاذ الامبراطورية وتدعيمها (٤) . وقد أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الامبراطورية قيام حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة ، وبرزت خلالها شخصية قنسطنطين الذي استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدا بعد آخر حتى تم توحيد الامبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣ ، وعندئذ أخذ هذا الامبراطور على عاتقه مهمة اتمام الاصلاحات التي بدأها دقلديانوس (٥) .

(1) Lot : op. cit, pp. 18—19

(2) Stephenson ; Med. Hist. pp. 38—39

(3) Rostovtzeff ; op. cit, Vol. 2, p. 327

(4) Lot: op. cit. pp. 22—23

(5) Vasiliev: op. cit, Tome 1, p. 80.

والواقع ان الامبراطور قنسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) يتمتع بأهمية خاصة فى التاريخ نظرا للأعمال الهامة التى قام بها ، والتى كان لها أثر واضح فى تغيير وجه التاريخ ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم الى عالم العصور الوسطى (١) . ذلك أن هذا الامبراطور قام بخطوتين على جانب كبير من الأهمية : الأولى اعترافه رسميا بالديانة المسيحية ، والثانية نقله عاصمة الامبراطورية من روما القديمة على ضفاف التير فى ايطاليا الى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور (٢) . وسوف نرجى الكلام عن الجانب الدنى من أعمال قنسطنطين الى الباب الآتى مكثفين فى هذا الباب بالاشارة الى الركن الدنى من أعماله .

سج أن قنسطنطين أقضى فى اصلاحاته الادارية أثر السياسة التى لنديانوس ، فقام باتمام الأعمال التى بدأها هذا الامبراطور ، حتى أننا نجد من الصعب فى كثير من الأحيان الفصل بين الامبراطورين . وهنا نلاحظ أن الاصلاحات الادارية التى انوس وقنسطنطين فمت على أساس التفرقة بين السلطتين الحرية وظهرت هذه التفرقة واضحة فى حكم الولايات ، اذا اصبح مسئولاً عن شئونها الادارية المدنية فحسب ، فى حين اختص بالاشراف على النواحي الحرية فى ولايه أو أكثر من ولايات . على أن أهم تغيير أدخله قنسطنطين كان ادخال مبدأ الحكم الوراثى ، فأصبح المنصب الامبراطورى وراثيا فى أسرته التى اعتمدت على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى (٣) . أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قنسطنطين نحو انقاص عدد

(1) Bynes : Constantine the Great and the Christian Church ; p. 3.

(2) Vasiliev: op. cit. Vol. 1. p. 54.

(3) Bury: Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1, p. 1.

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 80

(5) Ostrogosky: op. cit. p. 33.

(6) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 332.

أفراد الفرق العسكرية ، كما استمر في سياسة فتح الباب أمام الجerman
للانخراط في سلك الجيش الروماني كجند نظاميين .

وعلى الرغم من أن قسطنطين كان مشرعا نشيطا ، إلا أن كفايته الادارية
ما زالت موضع شك . ذلك أنه ضاعف من الضرائب والخدمات الجمركية ،
وأُنزل طبقة الصناع الى مرتبة العبودية عندما جعل الحرف والأعمال وراثية
حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب (١) . هذا في الوقت الذي شدد في
فرض العقوبات على جامعي الضرائب في المدن اذا عجزوا عن استيفاء الضرائب
التي قررتها الحكومة . أما بخصوص المزارعين فقد وضع تشريعا مشددا يمنع
أولئك الذين يغرقون في الديون - نتيجة لكثرة الضرائب وارتفاع الأسعار -
من ترك أراضيهم والانتقال الى ولايات أخرى ، عسى أن تكون الأحوال
الاقتصادية فيها أقل قسوة ، الأمر الذي عجل بالقضاء على طبقة المزارعين
الأحرار وتحويل أبناء هذه الطبقة الى أفنان مربوطين بالأرض (٢) .

على أنه ليس هناك من شك في أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة
للامبراطورية الرومانية ، يدل على أن قسطنطين أوتي بصيرة سياسية حكيمة .
حقيقة أن الفضل في فكرة نقل عاصمة الامبراطورية الى الشرق لا يرجع الى
قسطنطين بقدر ما يرجع الى دقلديانوس ، الذي أقام في مدينة نيوميديا على
الشاطئ الشرقي لبحر مرمرة واختصها برعايته وأنشأ فيها كثيرا من المباني
الجميلة الرائعة (٣) . ولكن اصرار قسطنطين على نقل العاصمة رسميا يدل
على بعد نظره وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التي أمست فيها
الامبراطورية الرومانية ، كما يدل على أنه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما
مكنه من تنفيذ رأيه .

(1) Katz : op. cit. p. 50.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 27

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1. p. 72.

ومهما تكن الأسباب التى دفعت الامبراطور قسطنطين الى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة ، وسواء كان الدافع الأساسى اليها هو أن الامبراطور وجد أن سياسته الدينية واعترافه بالنسحية لا يمكن أن تستقيم فى روما حصن الوثنية ودرعها الحامى ، ففكر فى نقل عاصمته الى الشرق حيث يزداد عدد المسيحيين ، أو كان الدافع غير ذلك من الاسباب الحربية أو السياسية أو الشخصية ، فالمهم هو أن قسطنطين نفذ فكرته فعلا سنة ٣٣٠ فشيّد عاصمة جديدة محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف البسفور (١) . وتمثل المنطقة التى أقيمت عليها هذه العاصمة شبه جزيرة ، اذ تحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرية ومن جهة الشرق مياه مضيق البسفور ، ومن الشمال مياه القرن الذهبى الذى هيا مرفأ طبيعيا عظيما للمدينة الجديدة (٢) . ومن الواضح أن موقع هذه المدينة على درجة كبيرة من القوة والمناعة لأنها تسيطر على المضائق التى تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط من جهة ، كما انه يصعب مهاجمتها والاستيلاء عليها من جهة أخرى . هذا الى أن القسطنطينية كانت مركزا تجاريا ممتازا اذ أصبحت ملتقى الطرق التجارية العظيمة التى تربط البحر الأسود ببحر ايجه ، وشمال أوروبا وغربها بآسيا (٣) . ولم يدحر قسطنطين نفسه وسماهى أن يجعل هذه المدينة الجديدة التى سميت باسمه روما ثانية ، فأقام بها قصرا امبراطوريا وسوقا ومحاكم ودارا للسناتو وحمامات وملعبا عظيميا . وسرعان ما أثبتت القسطنطينية أنها مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى وقتنا الحالى (٤) .

والواقع أن أحدا لا يستطيع أن يقلل من خطورة هذه الخطوة التى اتخذها قسطنطين وأثرها فى التاريخ ، لأن قيام القسطنطينية فى القرن الرابع عرّ وجه التاريخ الأوروبى الألف سنة التالية . فلولا قيامها لما استطاعت البابوية الوصول الى ما وصلت اليه من مجد وعظمة فى العصور الوسطى ، ولحرم

(١) Lot : op. cit. pp. 36—37.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. I p. 17.

(٣) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental, p. 4

(٤) Stephenson : Med. Hist. p. 36.

شرق أوروبا من تلك القلعة المنيعة التي صمدت في وجه المسلمين وبالتالي حالت دون غزوهم شرق أوروبا (١) . هذا بالإضافة الى أن القسطنطينية صارت حصناً للحضارة اليونانية وللدراسات والآداب الهلنسية ، ولولاها لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد الى اقتلاع جذور هذه الحضارة مما يستتبع تغيير وجه التقدير الحضارى لأوروبا .

الامبراطورية الرومانية بعد قسطنطين :

تم حدث بعد وفاة قسطنطين ٣٣٧ أن قسمت الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة ، حتى استطاع أحدهم - وهو قسطنطيوس - توحيدها مرة أخرى سنة ٣٥٠ تحت حكمه الذي استمر حتى سنة ٣٦١ (٢) . وعلى الرغم من ذلك فإن الامبراطورية الرومانية سرعان ما أخذت تتعرض للانحلال السريع في النصف الأخير من القرن الرابع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها ، دون أن تفلح جهود الأباطرة الذين تولوا الحكم في هذه الفترة مثل جوليان (٣٦١ - ٣٦٣) وجوفيان (٣٦٣ - ٣٦٤) ، وفالتر (٣٦٤ - ٣٧٨) في صد ذلك المخطر أو في رفع نيار الانحلال . ذلك أن جوليان قتل أثناء الحرب مع الفرس سنة ٣٦٣ في حين لجأ حليفه جوفيان الى شراء السلم من الفرس عن طريق التنازل لهم عن أراضي ما بين النهرين (٣) . أما فالتر فقد عاد مسرعاً من الجبهة الفارسية لمواجهة خطر القوط والتقى بهم في موقعة أدرنسة (أديانوبل - أغسطس سنة ٣٧٨) حيث مكن القوط الغربيون - بمساعدة اخوانهم الشرقيين - من محو الجيش الروماني وقتل الامبراطور نفسه في المعركة (٤) . ويعتبر مقتل هذا الامبراطور نقطة تحول خطيرة في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، إذ أخذت قبائل القوط الغربيين عندئذ داخل أراضي الامبراطورية تحت ضغط الهون الأتوبيين . هذا في الوقت الذي

(1) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 18-19

(2) Vasiliev : op. cit. Tome, I p. 82.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. I p. 85.

(4) Ostrogorsky, op. cit. cit, p. 48

أخذت الكنيسة تظهر على درجة من القوة والثروة حتى أصبحت المسيحية ديانة
الامبراطورية الرسمية على عهد الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥) •
وبذلك أسمى مصير الامبراطورية الرومانية معلقا بين أيدي الجرمان من
جهة ورجال الكنيسة من جهة أخرى •

وقد انتهى الأمر عند وفاة ثيودسيوس سنة ٣٩٥ بتقسيم الامبراطورية
الرومانية الكبرى بين ولديه الى قسمين شرقي وغربي ، فكان القسم الشرقي
من نصيب ابنه أركاديوس في حين صار القسم الغربي من نصيب ابنه هو
هونوريوس (١) • ومن الواضح أن هذا التقسيم جاء طبيعيا ، لأن القسم الشرقي
اليوناني يختلف اختلافا بينا في حضارته واتجاهه وميوله وعقلية عن القسم
الغربي اللاتيني • على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا التقسيم أنه منح
الامبراطورية قوة جديدة ، بل على العكس لا يمكن اعتباره الا مظهرا من مظاهر
النفك والانحلال الذي أصاب الامبراطورية الرومانية ، والذي حاول
الأباطرة المصلحون مثل دقلديانوس وقسطنطين تداركه ، ولكن عواميل
الانحلال كانت أقوى من جهودهم التي لم تؤد الا الى تأجيل الكارثة التي
حلت بالامبراطورية فيما بعد (٢) •

ذلك أن عوامل الانحلال اشتد خطرهما في النصف الأخير من القرن الرابع
عندما ازداد الفساد الاداري وتضاعف عبء الضرائب وتفاقم الخلل الاجتماعي ،
بعد أن تكاثرت عدد العبيد المشتغلين بالزراعة والصناعة وتناقص عدد الأحرار ،
وانحطت أحوال المدن بوجه عام (٣) • وهكذا بسهل على دارس أحوال
الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع أن يدرك أنها كانت تعاني عندئذ
آلام الموت البطيء ، وبالتالي فإن العصور القديمة أُمست في طريق الزوال
وباتت الأحوال ممهدة لأن تنتقل أوروبا الى طور جديد من أطوار تاريخها
أكثر ارتباطا بالعصور الوسطى (٤) •

(1) Vasiliev: op. cit, Tome. 1 pp. 82—83.

(2) Moss : op. cit. pp. 78—79

(3) Kätz : op. cit. pp. 78—79

(4) Cam, Med, Hist, Vol, 1 pp. 543—552.

وقد أجهد المفكرون أنفسهم فى الوقوف على أسباب انحلال الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، فمنهم من قال بأن السبب فى ذلك هو فشل هذه الامبراطورية فى حل مشكلة العلاقة بين الفرد والدولة ، ومنهم من نادى بأن انهيار نظام المدينة الحرة ذات الحكم الذاتى هو مصدر اضمحلال الامبراطورية (١) ، فى حين قال فريق ثالث أن سبب الكارثة هو الافراط فى الاعتماد على المدن والتوسع فى منحها استقلالاً ذاتياً ، مما أفسد وحدة النظام الادارى فى الولايات وأثار البغضاء بين أهالى المدن وأهالى الريف ، كما أوجد تعارضاً بين الأوضاع الاقتصادية التى سادت المدن من جهة وتلك التى سادت الريف من جهة أخرى . وأخيراً يأتى رأى رابع يعلل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية بازدياد نفوذ أرستقراطية كبار الملاك الاقطاعيين ونموها على حساب الطبقة الوسطى من الأحرار التى تناقص أفرادها فى الريف والمدن وتحولوا الى عبيد (٢) .

ويشبه بعض المؤرخين الامبراطورية الرومانية بشجرة ضخمة امتدت جذورها القوية فى مختلف الاتجاهات ، مما يجعلها أقوى من أن تنهار نتيجة لعامل واحد أو سبب بعينه . لذلك يرجعون انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها الى عدة أسباب تضامنت جميعها لاسقاط الامبراطورية . وسواء كانت هذه الأسباب طبيعية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو حربية أو دينية (٣) ، فإن يجب أن نعترف بأنه لم توجد دولة أو حكومة فى التاريخ استطاعت الخلود والبقاء على حال واحد من الرفعة أو الحطّة ، وأن الدول تتفق مع الكائنات الحية فى خضوعها لسنة الموت والبعث .

(١) Idem. p. 553.

(٢) Thompson, op. cit. vol, 1 pp. 28—29

(٣) Cary, op. cit. pp. 778—779.

الباب الثاني

الإمبراطورية والمسيحية

ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أثناء عهد الامبراطور أوغسطس (ت ١٤ م) في بيت لحم بفلسطين ، في وقت أخذ العالم الروماني يشعر بنوع من الفراغ أو الجذب الروحي . فالرومان أنفسهم بدءوا ينظرون الى عبادة الدولة الرسمية وتقديس الأباطرة ، على أنها أمور شكلية (١) ، مما دفع المتعلمين منهم بوجه خاص الى الاستخفاف بالعقائد الدينية السائدة - سواء أكانت يونانية أو رومانية الأصل - ومن ثم أخذ بعضهم يتجه نحو الآراء التي نادى بها الرواقيون (٢) . ولكن حتى هذه التعاليم الزواقية أخذت هي الأخرى تبدو تدريجيا أضعف من أن تشبع الحاجة الروحية للمثقفين نظرا لما امتازت به من تطرف في الجمود والمنطق فضلا عن بعدها عن الآفاق السماوية (٣) .

والواقع أن القرنين الثالث والرابع لم يشهدا انتصارا سريعا للمسيحية فحسب ، بل أيضا لكثير من الديانات الأخرى الأخرى الوثنية . ذلك أن الديانة الرومانية لم يكن لها وقع عاطفي في نفوس الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية لا لشيء سوى قضاء مصالحهم الدنيوية الخاصة . أما الآلهة ذات الأصل الأجنبي التي وجدت في روما أو غيرها من أنحاء الامبراطورية - مثل غاليا وبريطانيا - فكانت هي الأخرى رموزا شكلية لا تثير حماسة دينية في نفوس المعاصرين (٤) . وفي وسط هذا الفراغ الديني الكبير لم يجد أهالي الامبراطورية وسيلة سوى الاتجاه شطر العقائد الدينية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. I. p. 89

(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 51—52

(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2, p. 345. & Glover. op. cit. p. 155

(4) Cary : op. cit. p. 531 & 590

المختلفة المستوردة من الشرق مثل ديانة سييل (Cybele) من آسيا الصغرى وديانة ميثراس Mithras من فارس وديانة ايزيس من مصر ، وأخيرا المسيحية التي تبنت في فلسطين (١) .

ومن الواضح أنه لا يوجد محل للمقارنة بين المسيحية وغيرها من الديانات التي عرفها الشرق منذ أقدم العصور حتى ذلك الوقت ، لأن قصة المسيح وحياته فاقت في سموها وجمالها بقية القصص الدينية المعاصر . ويكفى ان تعاليمه مستمدة من كتاب مقدس يمكن أن يفهمه ويتأثر به الخاصة والعامة ، لا من فلسفة اليونان التي لا يمكن أن يفهمها سوى فئة من خاصة المثقفين . فاذا أضفنا الى ذلك أن المسيحية جاءت دينا سماويا عاما دون أن تختص بطائفة أو تميز فريقا على آخر ، أدركنا سر انتشارها السريع وتفوقها في النهاية على غيرها من العقائد الشرقية المعاصرة (٢) .

ومن المعروف أن معلوماتنا عن تاريخ الكنيسة في عصرها الأول ، وكذلك عن انتشار المسيحية في أركان الامبراطورية الرومانية ضئيلة وغير كافية ، وإن كان من الثابت أن الفضل الأول يرجع الى القديس بولس في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط به من فلسفة المسيحية المتعلقة بالأخلاق والأخرويات كالموت والبعث والحساب والخلود ، فضلا عن جهوده في وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالية (٣) . وهكذا أخذت المسيحية تنتشر انتشارا حثيثا بحيث لم يكد ينتهى القرن الأول الا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية ، بل ان المسيحيين كونوا جالية ملحوظة في روما نفسها منذ وقد مبكر يرجع الى سنة ٦٤ مما عرّضهم لنقمة الامبراطور نيرون واضطهاده (٤) . وهنا نشير الى أنه ليس من الواقع في شيء ما يظنه البعض

(1) Dill: op. cit. pp. 529—546

(2) Glover : The Conflict of Religions in the Early Roman Empire pp. 33—74

(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2, p. 335

(4) Painter : op. cit. p. 11.

من أن إنتشار المسيحية فى أوائل عهدها اتخذ اتجاها أفقيا فحسب ، أعنى بين الطبقات الفقيرة والمعدمة فى المجتمع الرومانى دون غيرها من الطبقات ، اذ يثبت الواقع أن هذا الانتشار الأفقى صحبه انتشار آخر رأسى تصاعدى ، من الطبقات الدنيا الى الطبقات الراقية العليا التى تمثل الجانب الأرستقراطى فى المجتمع الرومانى (١) • ويبدو هذا بوضوح فى كتابات الرومان المعاصرين فى قبرس وسالونيك وبيثينيا وغيرها من الولايات الرومانية ، فضلا عن رسائل القديس بولس (٢) • حقيقة ان الغالبية العظمى ممن اعتنقوا المسيحية فى أوائل عهدها كانوا من الطبقة العاملة ، وأن الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى لم تقبل على اعتناق المسيحية فى أعداد ضخمة الا بعد أن تم الصلح بين الكنيسة والدولة بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، ولكن ليس معنى ذلك أن المسيحية عدمت أنصارا لها بين أفراد الطبقة الارستقراطية خلال القسرون الثلاثة الأولى عن عمرها (٣) •

وهنا نلاحظ أن ظروف الامبراطورية الرومانية والأوضاع التى أحاطت بها كانت أكبر مساعد على سرعة انتشار المسيحية بين ربوعها • فهذه الامبراطورية امتازت بشبكة واسعة من الطرق الضخمة التى ربطت مدنها وأطرافها برباط وثيق ، فضلا عن الأمن والسلام الذين سادا ربوعها ، ونشاط التبادل التجارى بين مختلف أجزائها • هذا كله عدا سيادة اللغة اللاتينية فى الأجزاء الغربية من الامبراطورية ، واللغة اليونانية فى أجزائها الشرقية ، مما جعل من اليسير انتقال الآراء والأفكار والمعتقدات فى سهولة بين مختلف أنحاء الامبراطورية ، وبالتالي انتشار المسيحية ووصولها الى أقصى أطراف البلاد فى سرعة فائقة (٤) •

(1) Thompson, op. cit. vol. 1, p. 32

(2) Katz : op. cit., pp. 64—65

ومن ذلك ما جاء فى العهد الجديد « فافتتح قوم منهم وانحازوا الى بولس وسيلا ، ومن اليونانيين المتعبددين جمهور كثير ومن النساء المتقدمات عدد ليس بقليل » •

(سفر أعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ٤٠)

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 95—96

(4) Duchesne : Hist. Ancienne de l'Eglise; Tome 1, p. 9

(م ٤ - أوروبا)

على أن التعارض لم يلبث أن ظهر حادا بين تعاليم المسيحية وعقائدها من جهة والنظم والقواعد التي قامت عليها الدولة الرومانية من جهة أخرى • هذا الى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنيسة منفصلة عن الدولة جاءت غريبة عن العقليّة الرومانية والفكر الرومانى جميعا (١) •

وكان الوضع المعروف فى النظم الرومانية أن فئة واحدة من كبار الموظفين لها أن تمسك بزمام جميع الوظائف الكبرى فى الدولة من سياسية ومدنية وحربية ودينية ، مع ترك حرية العقيدة لكل مواطن رومانى طالما هو يعترف بألهة الدولة الرسمية من جهة ، وطالما أن عقيدته لا تهدد سلام الامبراطورية من جهة أخرى (٢) • وكل ما هنالك هو أنه يجب على الرعايا - مع اختلاف عقائدهم - أن يعترفوا بعبادة الامبراطور القائم ، وهو اجراء يشبه يمين الولاء للحاكم فى أيامنا • ولم يعف من هذا التكليف الأخير داخل حدود الامبراطورية الرومانية سوى اليهود ، فى حين لم يتمتع المسيحيون بهذا القدر من الحرية الدينية (٣) •

ومن الثابت أن المسيحية لم تكن الديانة الأجنبية الوحيدة التى كان على الحكومة الرومانية أن تحدد موقفها منها ، لذلك يبدو أن الأمر اختلط على الرومان فى أول الأمر فظنوا أن المسيحية ليست الا فرقة من الديانة الموسوية اليهودية (٤) ، لا سيما أن المسيحيين رفضوا - مثل اليهود - تأليه الامبراطور وعبادته • ولكن لم يكد ينتهى القرن الأول حتى اتضح الأمر وظهرت الفوارق واضحة بين الديانتين ، لأن المسيحيين لم يؤمنوا بأية عقيدة أخرى وأخذوا يجتمعون سرا لمباشرة طقوسهم الدينية ، كما رفضوا الخدمة فى الجيش الرومانى ، واتخذوا الأحد أول أيام الأسبوع ليكون ذا صفة دينية بدلا من السبت عند اليهود (٥) • وهكذا أخذت الحكومة الرومانية تتغير نظرتها الى

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 52

(2) Katz. op. cit. p. 58

(3) Stephenson : op. cit. p. 53

(4) Hardy : Studies in Roman History, vol. 1 ; p. 2

(5) Katz ; op. cit. p. 62

المسيحيين وتعتبرهم فئة هدامه تهدد أوضاع الامبراطورية وسلامتها (١) * والمعروف أن أية حكومة تعتبر الاجتماعات السرية الخاصة التي يعقدها فريق من رعاياها أمرا يخشى منه على كينها ، لا سيما اذا كانت هذه الاجتماعات تضم الطبقات الفقيرة التي انتمى اليها معظم المسيحيين الأوائل (٢) * وبعبارة أخرى، فإن سبب حقن الحكومة الرومانية على المسيحية كان اجتماعيا لا دينيا ، لأن المسيحية بدت في صورة ثورة اجتماعية خطيرة تنادى بمبادئ من شأنها تقويض الدعائم التي قام عليها المجتمع الروماني (٣) * وهنا نلاحظ أن نظرة الحكومات الى الطوائف والجماعات الصغيرة تختلف عنها الى الجماعات الكبيرة ، بمعنى أن نظرة الحكومة الرومانية الى المجتمعات المسيحية الصغيرة في أول الأمر كانت لا تعدو الاستخفاف بها والتهوين من أمرها ، بعكس ما أصبح الحال عندما ازداد انتشار المسيحية وكثر أتباعها وعندئذ تحولت نظرة الحكومة الرومانية الى نوع من الخوف والشك في أمره (٤) *

وكان أن بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرما في حق الدولة ، فمكنت اجتماعات المسيحيين وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم * ولم يبق بهذه الموجة الاضطهادية ضد المسيحيين بعض الحكام المتسفين المعروفين بعجبروتهم مثل نيرون الذي قدم مسيحي روما طعاما للنار العظيمة التي أشعلها سنة ٦٤ فحسب (٥) ، بل شارك فيها أيضا فئة من خيرة الأباطرة المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيذ القانون مثل تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أورليوس (٦) ومن أولى الوثائق التي تصور لنا بداية عهد المسيحيين بالاضطهاد ، تلك الرسالة التي أرسلها بليسي الصغير حاكم بيشيا الى الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) يفيد فيها بأنه عفا عن جميع المشكوك في أمرهم بعد أن قبلوا تقديم القرابين لتمثال الامبراطور ، في حين

(1) Charlesworth : op. cit. p. 149

(2) Painter : op. cit. p. 15

(3) Hardly : op. cit. vol. 1, p. 34

(4) Idem, p. 37

(٥) Cary : op. cit. p. 531

(6) Duchesne, op. cit. Tome 1, pp. 110—115 & 359

أعدم الذين امتنعوا عن فعل ذلك • وقد أجاب الامبراطور تراجان معبرا
عن استحسانه لتصرفه (١) •

على أنه يبدو أن هذا الاضطهاد أتى بنتيجة عكسية ، لأن روح الشجاعة
والصبر والايمان اتى واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم أصبحت موضع
اعجاب الكثيرين الذين أقبلوا هم الآخرون على اعتناق الديانة الجديدة (٢) •
وهكذا لم يكد يحل القرن الثالث الا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة
نتيجة لازدياد عدد أتباعها ازديادا مطردا ، مما دفع الامبراطور دقلديانوس الى
التطرف فى قمعها فى أوائل القرن الرابع ، لاسيما بعد أن أدى ازدياد نفوذ
المسيحية بين رجال الجيش الى التهديد بالقضاء على ولاء الجند للامبراطورية (٣) •
وقد أصدر هذا الامبراطور عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم
كنائسهم واحرق كتبهم وحبس قساوستهم وطردهم نهائيا من الوظائف
الحكومية ، الى غير ذلك من الاجراءات المشددة التى جعلت المسيحيين يطلقون
على الفترة الأخيرة من حكمه « عصر الشهداء » (٤) • ويبدو أن هدف
دقلديانوس من هذه السياسة كان محاولة اجبار الكنيسة - عن طريق
الاضطهاد - على الخضوع للدولة ، شأنها شأن بقية الهيئات والمنظمات
الاجتماعية فى الدولة الرومانية • ذلك أن قيام الكنيسة كهنة مستقلة أو كدولة
داخل الدولة ، أمر يتعارض مع المبدأ الأول الذى أقام عليه دقلديانوس نظامه
وبنى اصلاحاته ، والذى يقضى بخضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة (٥) •
وهنا نلاحظ أن اضطهاد الأباطرة والحكام لم يكن الخلل الوحيد الذى هدد
المسيحية فى هذا الدور من تاريخها ، بل كان على الديانة الجديدة أن تواجه
عندئذ تهديدا خطيرا من شأنه أن يفقدها طابعها الأساسى ، وذلك من ناحية
الأدريين (الغنوسيين) Gnostics الذين حاولوا خلط تعاليم المسيحية

(1) Hardy : op. cit. Vol. I, pp. 78 - 94

(2) Katz : op. cit. p. 94.

(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2 p. 346 & Lot. op. p. 24

(4) Duchesne : op. cit. Tome 2. pp. 6 - 15

(5) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 350

بالآراء الميتافيزيقية والأفلاطونية الحديثة ، هذا فضلا عن الهجوم الذى واجهته المسيحية من جانب اليهود (١) .

ومما يكن من أمر فان المسيحية خرجت من جميع هذه المعارك ظافرة مرفوعة الرأس ، لاسيما بعد أن أخذ الامبراطور قسطنطين بسياسة الأمر الواقع فأصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ مقررًا بوضع الديانة المسيحية كاحدى الشرائع المصرح بعتناقها داخل الامبراطورية ، بمعنى أن يتمتع المسيحيون فى الامبراطورية بكافة الحقوق التى تمتع بها غيرهم من أتباع الديانات الأخرى (٢) . وهنا يصح أن نتوقف قليلا لتدبر أهمية هذه الخطوة الجريئة التى أقدم عليها قسطنطين . فإذا تذكرنا أن الامبراطورية الرومانية قامت على أساس الوثنية وفكرة تأليه الأباطرة ، وإذا تذكرنا ما نزل بالمسيحية فى مختلف الولايات الرومانية من تعذيب واضطهاد ، وإذا أدركنا ما ترتب على اعتراف قسطنطين بالمسيحية من انتشار سريع لهذه الديانة الجديدة وازدياد نفوذ رجالها حتى أصبحت الكنيسة أقوى العوامل التى كيف تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، أمكننا فى النهاية أن نتحقق من أهمية هذه الخطوة التى أقدم عليها قسطنطين . ويمكن أن نضيف الى هذا ما سبق أن أشرنا اليه فى الباب السابق من أن قسطنطين أتبع اعترافه بالمسيحية بنقل عاصمة الامبراطورية من روما الى القسطنطينية ، وأنه هجر روما الخالدة الى عاصمته الجديدة بالشرق ، مما يشير الى أن ثمة تغييرا أساسيا أخذ يعترى وجه العالم القديم ، وأن العالم أصبح على أبواب عصور وسطى جديدة لم تعد فيها روما مركز الامبراطورية من جهة ، وأصبحت المسيحية ورجالها بمثابة القوة الفعالة فى المجتمع الأوروبى من جهة أخرى (٣) .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الحافز الذى دفع قسطنطين الى اصدار مرسوم ميلان السابق ، وهل جاء صدور هذا المرسوم عن عقيدة صادقة وإيمان

(1) Glover : op. cit. p. 173

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 61—63 .

(3) Katz : op. cit. p. 52

بالمسيحية أم هو مجرد اجراء سياسى اتخذه قنسطنطين لتحقيق مآرب خاصة .
والواقع أنه توجد أدلة كثيرة تثبت ايمان قنسطنطين بالمسيحية ، كما توجد أدلة
أخرى عديدة توضح استمرار اعتقاده فى الوثنية (١) . ذلك أن عدد المسيحيين
عندئذ لم يتجاوز عشر مجموع سكان الامبراطورية ، الأمر الذى يؤيد رأى
الأول بأن قنسطنطين اتخذ قراره عن شعور دينى لا بدافع المصلحة السياسية (٢) .
على أننا اذا تأملنا الموقف قليلا وجدنا أن المسيحية كانت أوسع انتشارا وأشد
تركيزا فى الشرق منها فى الغرب ، بحيث أن آسيا الصغرى غدت من المراكز
الرئيسية للمسيحية فى القرن الرابع (٣) . هذا فى الوقت الذى كان قنسطنطين قد
انتصر على خصمه ماكسنتيوس Maxentius فى موقعه جسر ملويان Milvian
Bridge بايطاليا سنة ٣١٣ ، وبذلك دان لسلطانه الجزء الغربى من
الامبراطورية ولم يبق أمامه سوى اخضاع جزئها الشرقى ، حتى تتحقق له
السيادة التامة على الامبراطورية كلها . لذلك لا يستبعد أن يكون قنسطنطين
قد أصدر مرسوم ميلان غداة انتصاره على ماكسنتيوس فى الغرب ليفتح أمامه
أبواب الشرق (٤) . وتتواتر فى المراجع التاريخية قصة شهيرة حكاه
أيوزيب Eusebe أسقف قصرية المعاصر نسبها الى قنسطنطين نفسه ، وخلصتها
أنه حدث أثناء زحف الامبراطور على روما لمحاربة خصمه أن رأى بعد
غروب الشمس هالة من النور مضيئة فى السماء على شكل صليب وتحتها
عبارة « سننصر بفضل هذا ! » فلما نام الامبراطور رأى فى منامه مسودة
المسيح ومعه الصليب نفسه وقد أبى ليأمره باتخاذ هذا الصليب شعارا له والزحف
على عدوه فورا . فكانت هذه الظاهرة وما تبعها من نصر حققه قنسطنطين
على خصمه من الدوافع الأساسية لاعترافه بالمسيحية واعتناقه لها (٥) .

وهما يكن من أمر ، فإن مرسوم ميلان سنة ٣١٣ جعل من المسيحية ديانة
مرخصة Religio licita ، كما ساوى بينها وبين غيرها من الديانات

(1) Ostrograsky : op. cit. pp. 42-43

(2) Vasiliev : op. op. cit. Tome 1. pp. 56-58

(3) Idem. p. 57

(4) Cam. Med. Hist. vol. 1, pp. 5-6

(5) Vasiliev : op. cit. Tome 6, p. 61

الأخرى داخل الامبراطورية الرومانية وتعهد بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم، أسوة ببقية رعايا الامبراطورية • ومن هذا يبدو أن سياسة قنسطنطين الدينية تمثل حلقة انتقال ، كما أنها تعبر عن تطور فكري أكثر منها عن تحول روحي (١) • ذلك أنه تسامح مع المسيحيين في الوقت الذي لم يضطهد الوثنيين، وعن هذا الطريق حاول أن يمسك العصا من وسطها ليحقق نوعا من التوازن بين المسيحية والوثنية (٢) • والواقع أن عهد الامبراطور قنسطنطين يمثل عدة تيارات دينية متضاربة ، اذ لم يقتصر فيه الوضع على التلاحن بين المسيحيين والوثنيين ، بل انقسمت المسيحية الناشئة على نفسها بين أريوسيين وأثناسيوسيين ، مما جعل كل فريق يعمل للفوز والحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات على حساب المذهب الآخر • وهنا وجد قنسطنطين فرصته فحاول أن يرضى الجميع دون أن يفضّ فئة أو مذهبا (٣) • وهكذا اعترف قنسطنطين بالمسيحية بمذهبيها دون أن يتنكر لديانة الدولة أو يتخلى عن عبادة الامبراطور التي كانت مصدرا أساسيا لقوة الأباطرة ونفوذهم • وبعبارة أخرى فإن قنسطنطين اختار أن يقيم قوته السياسية على ثلاثة دعائم رئيسية هي العبادة الامبراطورية ، والعقيدة الأريوسية ، والعقيدة الأثناسيوسية، كما ينضج ذلك من سياسة الامبراطور وتصرفاته • ذلك أنه احتفظ بعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها ، كما احتفظ كأسلافه من الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم (٤) Pontifex Maximus • أما بلاطه فقد أصبح ينص بالأساقفة والقساوسة من مختلف المذاهب المسيحية ، جنبا الى جنب مع الكهنة والفلاسفة الوثنيين • هذا في الوقت الذي صارت وظائف الدولة الكبيرة قسمة بين الوثنيين والمسيحيين ، كما نقشت على نقوده شعارات المسيحية والوثنية (٥) • أما عن حياته الخاصة فإن قنسطنطين لزوجته وولده يدل على أنه لم يتأثر إطلاقا بتعاليم المسيحية وأخلاقها • وهكذا يمكن

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 43

(2) Lot : op. cit. p. 29

(3) Thompson : op. cit. vol. 1 pp. 35—36

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 43

(5) Lot : op. cit. p. 26

القول بأن قسطنطين ظل حتى أواخر حياته وثنيا مع الوثنيين وأثناسيوسيا مع الأثناسيوسيين وأريوسيا مع الأريوسيين (١) •

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية خطيرة كان لها أثر عظيم في تاريخ الشرق والغرب جميعا • وربما يبدو من الأنسب في كثير من الأحيان الابتعاد عن الخوض في هذه الخلافات والمشاكل الدينية في دراسة تاريخية كالتي تقوم بها ، ولكننا عندما نجد الخلاف المذهبي يتحكم في توجيه التيارات السياسية بل في تغيير مجرى الأحداث التاريخية - كما حدث فعلا في القرنين الرابع والخامس - نرى أنفسنا مضطرين الى الإشارة الى مختلف وجهات النظر الدينية حتى نستطيع في ضوءها أن نفهم ما ترتب عليها من أحداث سياسية (٢) • وهنا نلاحظ أن الخوض في المسائل اللاهوتية لم يقتصر في القرن الرابع على رجال الدين ، وانما كان أمرا مباحا وموضوعا مفتوحا أمام الجميع • وخير شاهد في ذلك ما كتبه القديس جريجورى أسقف نيسا (Nysa ٣٤٠ - ٤٠٠) عن القسطنطينية ، اذ يصف العمال والعييد في هذه المدينة بأنهم جميعا من المشتغلين باللاهوت ، فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود أوقفك ليروي لك أوجه الخلاف بين المسيح الابن والاله الأب ، واذا ذهبت لشراء رغيف خبز أخبرك صاحب المخبز بأن الابن يجب أن يكون دون الأب ، اذا طلبت من الحمامي أن يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شيء (٣) •

أما المشكلة الكبرى التي قسمت المسيحيين وبالتالي العالم الروماني الى معسكرين وأثارت البغضاء الدينية والسياسية بينهما لمدة قرنين من الزمان ، فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والاله الأب • ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجل الكنيسة بامسكندرية حول تحديد هذه العلاقة ، فقال أريوس - وهو كاهن سكندري مثقف - بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل

(1) Cam. Med. Hist. I p. 10

(2) Diehl & Marçais : Le Monde Oriental pp. 21-2.

(3) Thompson : op. cit. vol. I p. 37

الأب ، ولما كان المسيح الابن مخلوق للاله الأب فهو اذا دونه ولا يمكن بأي حال أن يعادل الابن الاله الأب في المستوى والقدرة (١) . وبعبارة أخرى فإن المسيح ، مخلوق لا اله بمعنى هذه الكلمة المطلق ، والا فان المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وعبادة الهين (٢) . أما اثناسيوس فقال بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساويا للاله الأب تماما في كل شيء . بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه ، هذا وان كانا شخصين متميزين . ويبدو أن الأثناسيوسيين أدركوا أن المسيحية تعتمد في دعوتها على مكانة المسيح ، وأن أى اتجاه نحو التقليل من مركزه يؤدي الى اضعاف الدعوة المسيحية . وهكذا كان أنصار أريوس من الموحدين . ومن الواضح أن المذهب الأريوسي كان يتفق ومنطق المثقفين لأنه أراد أن يقيم العقائد المسيحية على أساس من المنطق والتعقل ، في حين كان المذهب الأثناسيوسى يستقيم وتفكير شامة الناس من البسطاء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم (٣) . وهنا نلمس أثر الفوارق الحضارية بين الشرق والغرب ، اذ لم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسى في بلاد الغرب اللاتينى فى حين أصبحت الغلبة فى الشرق الهليني للمذهب الأريوسى . هذا فضلا عما نلاحظه من أن معظم المفكرين والفلاسفة والأدباء كانوا أريوسيين موحدين ، فى حين كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التى انتمى اليها رجال الدين من الأثناسيوسيين .

وعندما اشتد الجدل وتفاقم النزاع بين الطرفين ، خشى الامبراطور قسطنطين أن يؤثر ذلك فى وحدة الامبراطورية ، فحاول أن يوفق بين المذهبيين ، وأرسل مبعوثا (هوسىوس Hosius) الى الاسكندرية لهذا الغرض ، ولكن جهود الامبراطور لم تكمل بالنجاح (٤) . لذلك دعا قسطنطين الى عقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣٢٥ لحسم الخلاف (٥) . وكان هذا المجمع أول مجمع مسكونى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. p. 119

(2) Lot : op. cit. pp. 43—44

(3) Pain'er : op. cit. p. 16

(4) Vasiliev : op. cit. Tome I p 68

(5) Bynes : Constantine and the Christian Church. pp. 19—22

عالمى فى تاريخ الكنيسة ، اذ حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين فى الشرق والغرب ، ورأسه الامبراطور قسطنطين نفسه ، على الرغم من أنه لم يكن معمدا . وقد أدان مجمع نيقية هذا أريوس ، وبالتالي تقرر نفيه الى اليريا واعداد كتاباته وتحريم تداولها واضطهاد أتباعه من الأريوسيين (١) . ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قائمة فى الأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، وعن هذا الطريق انتقلت الى الأمم الجرمانية بواسطة المبشرين ورجال الدين (٢) .

اولعل بقاء المذهب الأريوسى قويا فى الشرق كان من العوامل التى أدت بالامبراطور قسطنطين الى تغير رأيه ، فاستدعى أريوس من منفاه سنة ٣٢٧ . ونستطيع أن نعلم هذا التغير الذى طرأ على مسلك قسطنطين بما كان يعترمه الامبراطور من نقل عاصمته الى القسطنطينية ، وهو الأمر الذى تم فعلا سنة ٣٣٠ مما استلزم استرضاء أهالى الجزء الشرقى من الامبراطورية (٣) . وتؤكد هذه الخطوة من جانب قسطنطين الرأى القائل بأنه كان على استعداد تم لتغيير ميوله المذهبية - بل الدينية - وفق ما تتطلبه مصالحه السياسية . ذلك أنه ظل يؤيد المذهب الأثناسيوسى طالما كانت عاصمته فى الغرب وطالما اعتمد على الغرب فى قوته ، ولكنه عندما شرع فى نقل عاصمته الى الشرق وأحس بالحاجة الى استرضاء سكان القسم الشرقى من الامبراطورية ، لم يجد نضاضة فى تغيير عقيدته أو ميوله نحو المذهب الأريوسى (٤) . وهكذا تم عقد مجمع دينى جديد فى صور سنة ٣٣٤ ألغى قرارات مجمع نيقية السابق ، وقرر العفو عن أريوس وأتباعه ، وبذلك دارت الدوائر على اثناسيوس الذى عزل فى العام التالى ونفى الى تريف فى غاليا حيث ظل حتى أطلق سراحه الامبراطور جوليان (٣٦١ - ٣٦٣) ، الذى كان بحكم وثيقته لا يهتم بأمر الأريوسيين أو الأثناسيوسيين (٥) . على أن أريوس لم يلبث أن توفى فجأة فى القسطنطينية

(1) Cam, Med. Hist. Vol. 1 pp. 122—123

(2) Stephenson. op. cit. p. 83

(3) Bynes : op. cit. pp. 26—30

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 70—71

(5) Lot : op. cit. p. 45

سنة ٣٣٦ مما جعل أتباعه يهيمسون بأنه مات مسموماً ، في حين هلك من مومته واعتبروا ذلك حكم الله العادل • ولم يلبث أن لحق به الامبراطور قنسطنطين فتوفي هو الآخر سنة ٣٣٧ بعد أن تم تعميده على فراش الموت وفق مبادئ المذهب الأريوسى •

وكان قنسطنطين قد قسم الامبراطورية قبل وفاته بين أبنائه الثلاثة ، فأخذ قنسطنطين الثانى الغرب وأخذ قنسطنطيوس الشرق فى حين كانت اليربا والجزء الأوسط من شمال افريقية من نصيب قنسطانز (١) • وهنا نجد كل حاكم من هؤلاء الحكام الثلاثة يعمل على توطيد نفوذه عن طريق المذهب السائد فى بلاده ، فاتجه قنسطنطيوس نحو تشجيع الأريوسية ، فى حين دأب أخواه على تأييد الأثناسيوسية ، مما جعل الخلاف المذهبى يتطور الى انقسام فى الكنيسة بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى (٢) • وعندما توفي قنسطنطين الثانى أصبحت مهمة الزود عن العقيدة الأثناسيوسية تقع على عاتق البابوية ورجال الدين فى الغرب ، فصار عليهم أن يتكاتفوا لاسيما بعد مقتل قنسطانز وتوحيد الامبراطورية الرومانية تحت حكم قنسطنطيوس (٣٥٣ - ٣٦١) (٣) • ذلك أن الامبراطور قنسطنطيوس عرف بولائه للمذهب الأريوسى ولأنه دفعه الى العمل على فرض هذا المذهب على أجزاء الامبراطورية الغربية ، مما جعل كفة الأريوسية ترجح فى الامبراطورية الرومانية عند وفاته سنة ٣٦١ • على أن هذا الرجحان كان مؤقتاً ، اذ لم يلبث الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) أن أعلن نهائياً عدم شرعية المذهب الأريوسى فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ كما فرض عقوبات شديدة على أتباع المذهب الأريوسى فى جميع أنحاء الامبراطورية (٤) •

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 40

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 84

(3) Katz : op. cit. pp. 87—88

(4) Bury : Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1 p. 349

صحوة الوثنية :

أما عن موقف الوثنية المتداعية فى هذه الحقبة فقد رأينا كيف ظل قنسطنطين الأول حتى وفاته سنة ٣٣٧ يتخذ موقفا وسطا بين المسيحية بمذهبيها من جهة والوثنية من جهة أخرى • ولكن حدث أن أبناء هذا الأمبراطور خالفوا أباهم واختاروا عدم الاستقرار فى معجانة الوثنية وأهلها ، بل شنوا عليها موجة عنيفة من الاضطهاد ، فصادروا ما لمعابدها من أراض وممتلكات ، حتى اذا ما حلت سنة ٣٤٠ منع الأباطرة الثلاثة تقديم القرابين لآلهة الوثنية ، ثم أغلقت معابدها بعد ذلك بعدة سنوات (١) •

على أن الوثنية لم تستسلم فى سهولة مطلقة ، اذ أيت الا أن تصحو من جديد ، وذلك عندما تولى حكم الامبراطورية جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣) الذى كان متمسكا بأهداب الحضارة اليونانية الوثنية ، فتخلى عن المسيحية سرا قبل أن يتولى منصب الامبراطورية • ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الامبراطور قنسطنطيوس الثانى سنة ٣٦١ حتى أعلن ارتداده عن المسيحية ، وأخذ يعمل على تخليص الوثنية من المحنة التى تعرضت لها نتيجة لطغيان المسيحية عليها ، ولذلك أمر بفتح معابد الوثنية التى أغلقت وفقا لمرسوم قنسطنطيوس (٢) • ويبدو لنا من واقع الحقائق التاريخية أن الامبراطور جوليان لم يكن متعصبا ضد المسيحية ، وانما أراد فقط أن يرفع عن الوثنية وأهلها الحيف الذى أنزله بهم أنصار الديانة الجديدة ، أو بعبارة أخرى أراد جوليان أن يحقق نوعا من المساواة والتوازن بين المسيحية والوثنية وفقا للغرض الذى أملى اصدار مرسوم ميلان سنة ٣١٣ (٣) ويمكننا أن نحكم على جوليان حكما أكثر عدالة واتزاناً اذا علمنا أنه امتدح بعض المبادئ الكريمة التى نادى بها المسيحية مثل الاحسان والرحمة والعطف على الفقراء والمرضى،

(١) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 85

(٢) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 367.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 103

حتى أنه كتب الى أحد الكهنة الوثنيين يخبره فى صراحة تامة بأن الوثنية تفقر الى مثل هذه الخلال الحميدة (١) •

على أن هذا الشعور لم يمنع الامبراطور جوليان من العمل على رفع شأن الوثنية حتى لا تبدو فى مستواها دون المسيحية، فأعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به فى الكنيسة ، وعنى بالمعابد الوثنية وزيتها حتى لا يبدو أقل جمالا من الكنائس (٢) • وفى الوقت نفسه منع جوليان رجال الكنيسة من السفر مجانا على حساب الحكومة صحبة البريد الامبراطورى ، كما أخذ يستبعد المسيحيين تدريجيا من وظائف الجيش والادارة ليحل الوثنيين محلهم (٣) •

ولكن يبدو أن هذه الصحوة التى مرت بها الوثنية على عهد الامبراطور جوليان لم تكن الا صحوة الموت • اذ لم يلبث المسيحيون أن استردوا فى عهد جوفيان - الذى حكم مدة لا تتجاوز سبعة أشهر - مكانتهم وامتيازاتهم التى حردهم عنها جوليان • ثم جاء الامبراطور جراشيان (٣٧٥ - ٣٨٣) فتخلى عن لقب « الكاهن الأعظم » الذى تمسك به جميع الأباطرة السابقين ، بل ان هذا الامبراطور سرعان ما استأنف سنة ٣٨٢ سياسة مصادرة ممتلكات المعابد الوثنية (٤) • حقيقة أن هذه الاجراءات لا تمنى القضاء على الوثنية قضاء تاما مبرما ، اذ ظلت الوثنية قوية - وبصفة خاصة فى الغرب وروما - حيث استمرت تشيد لها المعابد حتى أواخر القرن الرابع • ولكن تشييد المعابد الوثنية فى هذه الفترة المتأخرة أصبح لا يتم على نفقة الحكومة كما كان الحال من قبل (٥) • ثم كانت بداية التطرف فى استخدام القوة والعنف ضد الوثنية

(١) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 44

(٢) Duchesne : op. cit. Tome 2 pp. 326—332

(٣) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 90—92

(٤) احتفظ جراشيان لنفسه بحكم الأجزاء الغربية من الامبراطورية - وبصفة خاصة إقليم غاليا - فى حين كان الجزء الشرقى من الامبراطورية تحت حكم عمه فالنز • وعندما لقي فالنز حتفه على أيدي القوط الغربيين فى موقعة أدونة سنة ٣٧٨ ، انتقل حكم الجزء الشرقى من الامبراطورية الى جراشيان الذى خشى بأس القوط فتنازل عن حكم الجزء الشرقى من الامبراطورية لثيودوسيوس • وهذا هو السبب فى تداخل سنوات حكم جراشيان وفالنز وثيودوسيوس •

(٥) Thompson ; op. cit. Vol. 1 pp. 44—45

وأهلها على عهد الامبراطور ثيودسيوس الأول الذى نجح فى توحيد العالم الرومانى تحت حكمه سنة ٣٩٤ • وقد استمرت الحرب التى بدأها ثيودسيوس الأول ضد الوثنية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة هذا الامبراطور ، أقفلت فيها معابد الوثنيين وأعدمت كتبهم ومنعوا من مباشرة طقوسهم الدينية حتى داخل منازلهم ، بل ان الامبراطور أركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨) أصدر مرسوما بتحطيم معابد الوثنية - لا اغلاقها فحسب - واستغلال أحجارها ونوادها فى إقامة منشآت عامة (١) • وعندئذ أدركت الوثنية قرب مصيرها المحتوم فلم تجد بدا من الفرار والاتجاء الى مناطق العزلة النائية فى ايطاليا وغاليا • وهكذا ظل الحال حتى القرن السادس عندما أقام القديس بندكت دير الشهير سنة ٥٢٩ على أنقاض آخر ما تبقى من معابد أبولو فى مونت كاسينو • وفى السنة السابقة نفسها أغلق جستنيان مدارس الفلاسفة فى أثينا بوصفها ركنًا من أركان الوثنية (٢) •

على أن انتصار المسيحية استلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة من جهة والدولة والمجتمع من جهة أخرى • ذلك أن الامبراطورية الرومانية كان لها دين رسمى وكهنة يتمتعون بمساندة الحكومة وتأيدها • ولكن رجال الدين فى العصر الوثنى لم يحاولوا اطلاقا التدخل فى شئون السلطة الزمنية، بعكس الكنيسة التى أخذت تكتسب شيئًا فشيئًا صفة سلطة جديدة منافسة للسلطة العلمانية ، مما أوجد نفورا بين السلطتين الزمنية والروحية (٣) • وهنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة فى شئون السلطة الزمنية أخذ يستفحل بازدياد ضعف الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، حتى انتهى الأمر بأن حلت الكنيسة محل الامبراطورية عندما غربت شمس الأخيرة فى غرب أوروبا • ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك أنها حذت حذو الامبراطورية الرومانية فى تنظيماتها حتى أصبح الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الادارى فى أقاليم الامبراطورية فضلا عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسى (٤) •

(1) Bury : p. cit. Vol. I p. 371

(2) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 113—114.

(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 46

(4) Deanesly : A Hist. of Early Med. Europe, p. 165

والواقع أن الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً للامبراطورية كانت له نتائج بعيدة الأثر بالنسبة للكنيسة ونظمها • ذلك أن التنظيم الكنسي امتاز بالبساطة المطلقة في العصر المسيحي الأول ، إذ لم يتعد الرابطة الدينية بين مجتمعات مسيحية مستقلة بعضها عن بعض ، لكل مجتمع منها أسقف يساعده فريق من القساوسة والشمامسة (١) • حقيقة أن بعض هؤلاء الأساقفة امتازوا عن رملاتهم بحكم ما لكراسيهم من أهمية قديمة أو ثروة عظيمة أو مساحة واسعة ، ولكن مع ذلك لم توجد هيئة كنسية تمثل سلطة دينية ذات نفوذ فعال في الحياة العامة • وقد ظهر على رأس الكنيسة عندئذ خمسة بطاركة في روما والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، وهؤلاء يمكن تسميتهم بكبار الرؤساء الإداريين في الامبراطورية الرومانية • وكان يتبع كل واحد من هؤلاء البطاركة مجموعة من رؤساء الأساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات ، ثم الأساقفة الذين يشرف كل منهم على شئون كرسيه الأسقفى ، وأخيراً يأتي قس الأبرشية في القرية • وهكذا ظهر سلم كهنوتي متدرج يشبه إلى حد كبير سلم الوظائف الإدارية في الامبراطورية الرومانية (٢) •

ثم كان أن أخذت الكنيسة المسيحية تحصل - بصفتها راعية الديانة الرسمية للدولة - على امتيازات خاصة من الحكومة الامبراطورية • وأهم هذه الامتيازات حق الحصول على الهبات والاعفاء من الضرائب فضلاً عن قيام الأساقفة بالفصل في المنازعات التي تنشأ بين المسيحيين (٣) • ولم يلبث أن ازداد نفوذ الأساقفة تدريجياً في أقاليمهم بفضل مكاتبتهم الدينية من جهة وما جمعوه من صدقات وهبات من جهة أخرى ، لا سيما وأن الصدقات التي جاد بها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء والمحتاجين عن طريق الأسقف نفسه ، مما أوجد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين (٤) • وهكذا أخذت

(1) Cam. Med.H ist. Vol. 1, p. 143.

(2) Idem, Vol. 1 p. 147

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 65.

(٤) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٤٣ •

تزداد ثروة الكنيسة ، حتى امتلكت الأراضى والضياح الواسعة التى قام العبيد والأقنان بفلاحتها ، هذا فضلا عن الهبات التى أغدقها الأباطرة بسخاء من جهة ، والتبرعات التى قدمها الأهلئ عن طيب خاطر من جهة أخرى (١) .

ولكن يلاحظ أنه اذا كان هذا التطور الذى مرت به الكنيسة فى القرن الرابع امتاز بعمقه وسرعته ، حتى أدى الى تحويلها من منظمة بسيطة ديموقراطية الى هيئة وراثية ذات ادارة بيروقراطية مركزه ، الا أن الكنيسة دفعت ثمنها باهظا مقابل ما أحرزته من عظمة ، كلفتها التخلئ عن سياسة التسامح من جهة ، وانتشار الفساد - من رشوة وسرقة ومحاباة - فى جهازها من جهة أخرى . ذلك أن النعمة الكبيرة التى أصبحت فيها الكنيسة أدت الى اتساع الفجوة بين رجالها وجمهور المسيحيين . وبعبارة أخرى فإن ازدياد ثروة رجال الدين أدى الى اختفاء روح الأخوة والبساطة والمساواة - وهى الروح التى ميزت الكنيسة فى عصرها الأول ، وحلت محلها مسحة من القسوة والتعالى والتباعد - هى النتيجة الطبيعية للبنى المفرط المفاجئ . وهكذا أخذ الأساقفة يتقاعدون شيئا فشيئا عن رعاياهم ، وصار الواحد منهم يجلس على عرشه الأسقفى كما كان يفعل الحاكم الرومانئ من قبل . ولم يلبث أن تضائل قصر حاكم الولاية أمام القصر الأسقفى بعد أن تشبه الأساقفة بالأمراء وأحاطوا أنفسهم بالحشم والأتباع والموظفين (٢) .

على أن القرن الرابع لم يشهد قيام التنظيم الكهنوتئ للكنيسة وازدياد نفوذها السياسئ فحسب ، بل شهد أيضا تطور اللاهوت المسيحئ وتقدمه . ذلك أن المسيح وضع للناس أسلوبا جديدا للحياة ، ولكنه لم يقم بأية محاولة لوضع لاهوت علمئ منظم . وطالما كان أتباعه ورسله يقومون بتقديم مواعظهم ونشر دعوتهم بين أناس غير مثقفين فإن الحاجة لم تكن ماسة لمثل هذا اللاهوت ، لأنه كان يكفى هؤلاء البسطاء أن يستمعوا الى قصة المسيح وحياته ليتفهموا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 561

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 49

أسلوب المسيحية فى الحياة • ولكن انتشار المسيحية بين المثقفين - الذين ألفوا التفكير الكلاسيكى ومرنوا طرق الجدل وأساليب المنطق والفلسفة - أدى الى تطور جديد فى الدراسات اللاهوتية (١) • ذلك أن هؤلاء المتعلمين أخذوا يتساءلون عن العلاقة بين الله والمسيح ويحاولون تحديد هذه العلاقة ، كما استفسروا عن طبيعة الملائكة وعن المقصود بأن الخبز والنبيذ تحولا الى لحم المسيح ودمه • وسرعان ما أصبحت هذه المسائل تحتل جانبا كبيرا من تفكير المسيحيين عندما غدت المسيحية دينا رسميا للدولة ، مما استلزم وضع دراسات لاهوتية يقنع بها المثقفون من معتقى الديانة الجديدة • وقد قام بهذه المهمة مجموعة من كبار مفكرى المسيحية الذين يطلق عليهم عادة لقب آباء الكنيسة ، أهمهم القديس كلمنت السكندرى فى القرن الثالث ، وأوريجن (١٨٥ - ٢٥٤) وجيروم (٣٣١ - ٤٢٠ تقريبا) وأمبروز (٣٤٠ - ٣٩٧) وأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) • وكان هؤلاء الآباء على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية - لاسيما آراء الأفلاطونية الحديثة - فأفادوا منها فى تبرير آرائهم والتدليل عليها وتقديم العقائد المسيحية فى صورة علمية يتقبلها المثقفون • هذا الى أن هؤلاء الآباء عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة ومطالب الدولة والكنيسة فى عهدها الجديد من جهة أخرى (٢) •

نشأة البابوية :

على أن التيار الذى انساق فيه الكنيسة ، ومحركاتها لنظم الحكومة الامبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها كما كان للامبراطورية امبراطور يتزعمها • وهنا نلاحظ فارقا واضحا بين الشرق والغرب ، ففي الشرق أسلمت الكنيسة زمامها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم فى الشئون الكنيسة وبخاصة فيما بين القرنين السادس والثامن بحيث أنشؤا يتدخلون لا فى سياسة الكنيسة الخارجية فحسب بل فى نظمها وسياساتها الداخلية أيضا •

(1) Duchesne : op. cit. Tome III; p. 18

(2) Painter : op. cit. p. 15

(م ٥ - أوروبا)

وهكذا أصبح من العسير وقف تدخل الامبراطور البيزنطى فى شئون الكنيسة الشرقية ، حتى غدا امبراطور القسطنطينية يمثل نوعا من القصرية البابوية *Caearo Papism* أى الجمع بين السلطتين السياسية والدينية . ومن الواضح أن هذه السياسة وضع أسسها قسطنطين نفسه منذ اعترافه بالمسيحية وانشائه القسطنطينية . هذا الى أنه استن سنة جديدة اتبعها خلفاؤه من الأباطرة الشرقيين ، هى قيام الامبراطورية بدعوة الجامع الدينية العامة لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية (١) . أما فى الغرب فان الوضع اختلف عن ذلك كثيرا لأن الامبراطورية الغربية أصبحت بعد تقسيم العالم الرومانى ضعيفة لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعا كما حدث فى الشرق (٢) . وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربية ضالتها فى شخص أسقف روما الذى تحول كرسيه الى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة فى مختلف بلدان العالم الغربى .

وليس من العسير علينا أن نكشف العوامل التى هأت لأسقف روما هذه الأهمية والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب . ذلك أنه من المعروف أن أهمية الأسقف تتناسب عادة والأهمية السياسية والاقتصادية للمدينة التى يقوم فيها كرسيه الأسقفى . وإذا كان الشرق الرومانى غنيا بمدنه الهامة التى صارت مراكز لكراسى دينية كبرى مثل الاسكندرية وبيت المقدس وقصرية وأنطاكية والقسطنطينية ، فان الغرب لم يوجد به فى هذه المرحلة الأولى من تاريخ المسيحية سوى روما وقرطاجا . ومهما يبلغ أمر هذه الأخيرة ، فانها كانت لا يمكن أن ترقى الى مكانة روما ذات الماضى العريق والشهرة الواسعة والصيت الذائع (٣) لهذا ليس من الغريب أن يتمتع أسقف روما بمكانة خاصة مستمدة من أهمية مدينته ، حتى استغل أساقفا روما هذه الأهمية والمكانة فى تحقيق نوع من السمو أو الزعامة على بقية أسقفيات الغرب . هذا مع ملاحظة أن أساقفة روما لم يتمكنوا من تحقيق هذه السيادة فى سهولة ، اذ تعرضوا لكثير

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 63.

(2) Lot : op. cit. p. 53

(3) Cam, Med. Hist. Vol. 1 pp. 169—173

خُطَا جَهَنَّا

من ألوان المعارضة والمقاومة من بقية أساقفة الغرب لاسيما أساقفة قرطاجنة (١) •

أما إذا انتقلنا الى التنافس بين روما والقسطنطينية حول الزعامة الدينية على العالم المسيحي ، فإن القسطنطينية اعتمدت على أنها مركز الأباطرة ومحل اقامتهم ، وبالتالي يحق لبطرس أن تكون له الزعامة الدينية على العالم المسيحي ، كما كان لامبراطورها الزعامة السياسية • ولكن هذا الرأي صادف معارضة من القائلين بأن تراث المسيحية انتقل عن طريق الرسل والحواريين وظل محفوظا في الكنائس التي أسسوها ، وبخاصة في أنطاكية (٢) والاسكندرية وروما (٣) • وهنا تبدو القسطنطينية مفتقرة الى مثل هذا التشریف ، لأن أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب الى موضعها أو الاستشهاد قربها أو تأسيس كنيسة في منطقتها ، لأن القسطنطينية نفسها لم تؤسس الا في القرن الرابع (٤) • أما روما فيكفيها فخرا أنها ارتبطت ارتباطا أبديا بذكرى القديس بطرس الذي اتخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته ، فضلا عن أنه أعطاه مفاتيح ملكوت السموات (٥) • وإذا كان بطرس - بحكم هذا التشریف - يعتبر زعيم الحواريين ومقدم الرسل ، فإن خلفاء - أساقفة روما - أحق الناس بأن يرثوا زعامة العالم المسيحي (٦) •

على أن تذرع أساقفة روما بهذه الحجج والأسانيد شيء ، ومحاولة فرض

(١) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 51—52

(٢) ترتبط أنطاكية ارتباطا وثيقا بتاريخ المسيحية في أدواره الأولى وكانت أول بلد أطلق فيه اسم المسيحيين على تلاميذ المسيح « ودعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا » (سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦) •

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 171

(٤) Deanesly : op. cit. 169

(٥) انجيل متى : الاصحاح السادس عشر (١٨ - ١٩) • والمعروف أن القديس بطرس اسمه الأصلي سمعان « استدع سمعان الملقب بطرس » سفر أعمال الرسل اصحاح ١١ (١٣) ، وأن المسيح هو الذي أطلق عليه بطرس Petrus بمعنى صخرة (وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي) انجيل متى - الاصحاح السادس عشر ١٨ - ١٩ •

(٦) Stephenson : op. cit. p. 84

سيطرتهم على العالم المسيحي شئ آخر • والواقع أننا لا نعرف عن أساقفة روما في القرنين الأول والثاني أكثر من أسمائهم • ولم يكن ذلك إلا بعد عهد قسطنطين عندما أخذت المراجع تشير الى بعض البابوات (١) الذين لعبوا دورا فعلا في توجيه سياسة الكنيسة • ومن هؤلاء البابا داماسوس الأول (Damasus) (٣٦٦ - ٣٨٤) الذي كتب مؤلفا استعرض فيه مكانة كرسى روما الأسقفى وأكد سيادة البابوية وسموها (٢) • كذلك عهد هذا البابا الى جيروم بترجمة الانجيل الى اللاتينية • أما خليفته البابا سيركيوس (Siricius) ٣٨٤ - ٣٩٩ ، فترجع اليه أولى المراسيم البابوية التى وصلتنا ، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها • وبعد ذلك اشتهر البابا ليو الأول أو العظيم (٤٤٠ - ٤٦١) الذى تم فى عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية فى الغرب • وفى هذه الأثناء كان الشرق البيزنطى مصرا على عناده ، فاستمر الأباطرة يدعون المجامع الدينية للنظر فى المسائل الدينية المعلقة ، كما أخذوا يساندون مبدأ المساواة المطلقة بين روما والقسطنطينية من حيث المركز الدينى • وقد حاول زعماء الكنيسة الشرقية فى مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ تأكيد هذه المساواة فى المكانة والامتيازات بين كرسى روما وكرسى القسطنطينية ، ولكن مندوب البابا ليو الأول عارض هذا المبدأ واستشهد ببعض قرارات مجمع نيقية على أسبقية كرسى روما (٣) • وهكذا تمسك بابوات روما دائما بفكرة أنهم خلفاء القديس بطرس ، حتى اعترف بزعامتهم جميع أسقفيات الغرب فى القرن الخامس ولم تعارضه سوى الكنيسة الشرقية • وفى سنة ٤٥٥ أصدر الامبراطور فالنثيان الثالث امبراطور الغرب مرسوما يقضى بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا (٤) • وهنا نشير الى وجود عوامل أخرى ثانوية ساعدت

(١) من الواضح أن لفظ بابا Pope إنما هو تحريف للفظ اللاتينى Papa بمعنى أب ويمكن اطلاق هذا اللفظ على أى فرد من رجال الكنيسة ، ولكن العرف جرى فى الغرب على أن يختص به أسقف روما وحده من باب التشريف •

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 171—173

(3) Idem : Vol. 1 pp. 510—511

(4) Duchesne : op. cit. pp. 631—632

على تحقيق سيادة البابوية ، منها ازدياد الالتجاء الى أساقفة روما لاستئناف الأحكام القضائية التي أصدرتها المجامع الإقليمية أو صغار الأساقفة ، مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحكم الأكبر والسد الأعلى (١) . ومن هذه العوامل أيضا عظم ثروة أسقفية روما وتعاقب عدد من ذوى الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفى مثل ليو الأول وجريجورى الأول ، هذا فضلا عن أن سقوط الامبرطورية فى الغرب سنة ٤٧٦ ترك البابا وحيدا لا ينافسه سيد سيدي فى الغرب ، فى الوقت الذى كان بعيدا عن سلطان امبراطور القسطنطينية ونفوذه فى الشرق .

وهكذا سارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية فى صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) الذى دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها ، وذلك بوصفه خليفة للقدس بطرس (٢) . أما الشرق فقد ظل على عناده مستقلا بامبراطوريته وكنيسته عن الغرب . وهنا نلاحظ أن الخلاف حول تفسير بعض المسائل الدينية كان دائما من العوامل التى زادت من اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية . ومن أمثلة ذلك الخلاف الذى قام حول تفسير طبيعة المسيح ، اذ أدان مجمع افسوس سنة ٤٣١ رأى القائل بفصل طبيعة المسيح الالهية عن طبيعته البشرية (٣) . ومنذ ذلك الوقت ظهرت جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم أقطاب الكنيسة المصرية ، تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح ومن ثم أطلق على هذا المذهب « الطبيعة الواحدة Monophysite » . وعلى الرغم من أن مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ أدان مذهب الطبيعة الواحدة وأخذ برأى البابا ليو الأول بأن للمسيح طبيعتين فهو اله من طبيعة أبية وبشر من طبيعة أمه - وهو المذهب الملكاني - الا أن هذه المشكلة استمرت قائمة لتمثل سببا جديدا للخلاف الدينى والتباعد بين الشرق والغرب (٤) .

(1) Thompson : op. cit. pp. Vol. p. 54

(2) Deanesly : op. cit. pp. 177—184

(3) Duchesne ; op. cit. pp. 459—463

(4) Bury ; op. cit. Vol. I pp. 357—358

الباب الثالث

البرابرة وسقوط الامبراطورية في الغرب

رأينا كيف أخذت الظواهر تدل منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع على أن أوجه التاريخ القديم بدأ يتعرض لكثير من المسخ والتغيير . ذلك أن اعتراف قسطنطين بالمسيحية يعتبر خطوة خطيرة ، بل انه الحقيقة التاريخية في تاريخ عالم البحر المتوسط في الفترة الواقعة بين ظهور روما وتحقيق زعامتها من جهة وبين ظهور الاسلام وانتشاره من جهة أخرى (١) . ويكفي أن هذا الاعتراف وما تبعه من انتشار المسيحية انتشارا آمنا سريعا يدل على أن دعامة كبرى من الدعائم التي قامت عليها الامبراطورية الرومانية أخذت تترنح لتنتهار أمام عقيدة جديدة ومبادئ جديدة وآراء جديدة ، تستهدف جميعها تنظيم العلاقات بين الله والبشر ، وبين الحكام ورعاياهم ، وبين الناس بعضهم وبعض ، على أسس تختلف كلية عما عرفه العالم القديم . أما نقل عاصمة الامبراطورية الرومانية من روما الى القسطنطينية فكان لا يقل أثرا في مسخ وجه العالم القديم ، إذ أحس المعاصرون بأن القديم المؤلف أخذ يتداعى ليدخل العالم المحيط بهم في طور جديد تختلف مظاهره عما اعتاده الناس من قبل (٢) . ذلك أن الناس تلفتوا حولهم ليجدوا روما - وهي المدينة المخلدة الجبارة مهد الأباطرة العظام والتي سادت الشرق والغرب حتى أصبحت شعارا للمدينة والحضارة وصار كل ما عداها رمزا للبربرية والتأخر - هذه المدينة أصبحت فجأة مهددة بالذبول بعد أن هجرها الأباطرة وتركوها تنعى من بناها وتأسف على مجدها السالف ، في حين أقام الأباطرة على شاطئ السفور حيث بنوا القسطنطينية ليجعلوا منها روما جديدة تراث روما القديمة في مجدها

(1) Lot : op. cit. p. 39

(2) Katz : o p. cit. pp. 50-51.

وعظمتها(١) • ويرتبط بهذه الأحداث ما اتصفت به حكومة الامبراطور قسطنطين من طابع وراثي بحيث أصبحت الامبراطورية فى هذا العهد الحديد تعتمد على حق الوراثة فضلا عن تأييد الله ورجال الكنيسة • كذلك شهدت هذه المرحلة بعينها اندثار فكرة أساسية طالما ميزت الحضارة اليونانية - الرومانية ، هى فكرة المواطنة ، اذ لم يعد هناك مجال فى العصر الذى أعقب قسطنطين للمواطنين الذين اكتظت بهم المدن الحرة فى العالمين اليونانى والرومانى ، وحلت محل ذلك فكرة الرعوية بمعنى أن جميع رعايا الامبراطور أصبحوا متساوين فى تبعيتهم له(٢) •

هذه الظواهر وغيرها من التيارات والأحداث التى أخذت تبدو على مسرح العالم الرومانى فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، تجعلنا نعتقد أن أوروبا كانت تمر عندئذ بمرحلة انتقال كبرى ، تحملها من العصور القديمة الى العصور الوسطى • ولعل هذا التطور هو الذى دفع مؤرخا مثل بيورى الى القول بأن حكم قسطنطين العظيم بالذات يمثل بداية عهد جديد ، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لحكم أوغسطين مؤسس الامبراطورية(٣) • والمعروف أن العصور الوسطى استمدت حضارتها وكيانها من ثلاثة أصول ضخمة : أولها التراث الكلاسيكى بوجه عام والرومانى بوجه خاص ، وثانيها المسيحية وكنيستها وثالثها الجرمان(٤) • أما هؤلاء الجرمان فكانوا جزءا من العالم البربرى الواسع الذى أحاط بالامبراطورية الرومانية من معظم نواحيها ، والذين لم يلبثوا أن أثروا فى تفسير مصائر هذه الامبراطورية عندما أخذوا يهاجمونها منذ منتصف القرن الثانى • والواقع أنه كان من الممكن أن تعيش الامبراطورية الرومانية فى الغرب عمرا أطول وأن تموت موتا أبطلًا رغم الانحلال الاقتصادى والاجتماعى والسياسى التى تعرضت له ، لولا هجمات البرابرة التى

(1) Charlesworth: op. cit. pp. 180—181

(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. p. 11. p. 333.

(3) Bury : op. cit. Vol. 1. p. 1

(4) Thompson : op. cit. 1 p. 56

أسرعت بالامبراطورية نحو مصيرها المحتوم (١) •

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن لفظ « بربرية » بالمعنى الذى نستعمله لا يرادف لفظ « همجية » أو لفظ « وحشية » بأى حال ، لأن المقصود بالبربرية مرحلة من التنظيم الاجتماعى القبلى ، الذى لم يرق بعد الى مرحلة الاستقرار المدنى وإقامة الدول ذات الحدود الثابتة • فالمجتمع البربرى يعتمد على أساس رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفرادها ، ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نتهم الشعوب البربرية التى أحاطت بالدولة الرومانية بأنها عاشت سلبية مفتقرة الى أسس ودعائم حضارية ، لأن هذه العناصر تمتعت فى الواقع بتقاليد حضارية خاصة تزداد أمانا كلما ازداد البحث فى أصول هذه العناصر التى تمتد الى ما قبل التاريخ (٢) •

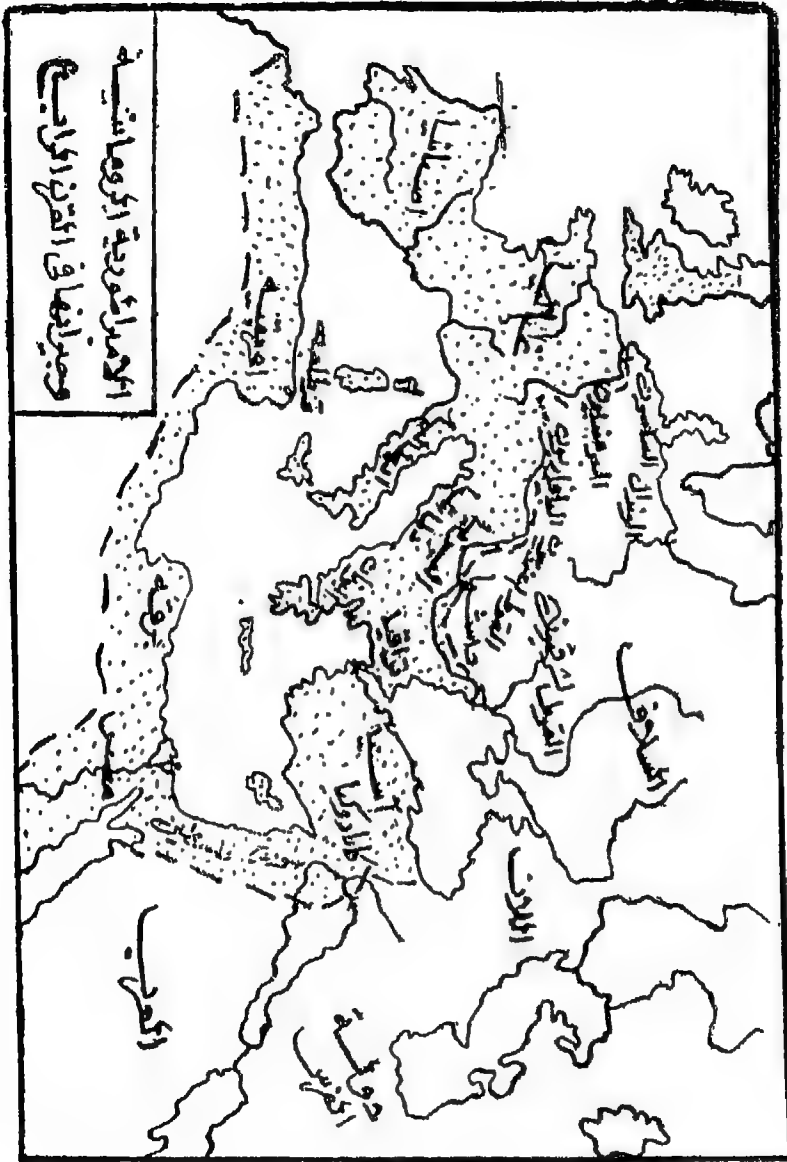
أما هذه الشعوب التى أحاطت بالعالم الرومانى فكانت كثيرة ومتباينة ، ففي الجنوب كان البربر فى غرب افريقية ، وفى الجنوب الشرقى كان العرب ، وفى الشرق وجد الفرس ، وفى الشمال الشرقى - بين جبال اورال وألطاي - ربضت شعوب آسيوية رعوية مثل السكيثيين Scythians والسارماشيين Sarmatians والهون والبلغار والآفار والمجريين والمغول والأتراك ، وإلى الغرب من هذه الشعوب سأتى داخل الحدود الأوروبية وجد السلاف والجرمان والكلت •

أما مجموعة الشعوب الآسيوية الرعوية ، فكانت فى أول الأمر تسدو بعيدة جدا عن حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ ظلت تعيش فى سهول آسيا معتمدة على قطعان الخيل والماشية ، وتنتقل وراءها من مرعى الى آخر تبعاً لظروف الأمطار والمناخ (٣) • على أن قسوة هذه الظروف اضطرت بعض الشعوب

(1) Lot : op. cit. p. 187

(2) Dawson . The Making of Europe, p. 68

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 323 — 330



الأمم المتحدة
وجديرانها في القرن الحادي والعشرين

الآسيوية الى القيام باغارات مدمرة للسلب والنهب • ولم تك أوروبا بمنجاة من هذه الاغارات ، لأن السهول الواقعة شمالى بحر قزوين فتحت بابا أمام القبائل الرعوية الآسيوية - وبخاصة قبائل الهون - نفذت منه الى أوروبا ، وبالتالي أثارت جوا من الرعب والفرع بين الشعوب الرابضة على حدود الامبراطورية الرومانية(١) •

وكانت أولى ضحايا هذه العناصر الآسيوية الرعوية - وبخاصة الهون - هم السلاف الذين استقروا فى المناطق المعروفة الآن بأواسط روسيا • ويبدو أن هؤلاء السلاف تعرضوا لكثير من المتاعب فى أوائل العصور الوسطى بسبب ضغط بقية العناصر الآسيوية عليهم من الجنوب والشرق وضغط العناصر الجرمانية عليهم من الشمال ، مما عرض كثيرين منهم للاستعباد ، حتى اشتقت كلمة عبد فى كثير من اللغات الأوربية Slave من اسم السلاف. ومع ذلك فقد عكف السلاف على فلاحه الأرض وأخذوا ينتشرون تدريجيا فى الأجزاء الشرقية من أوروبا حتى حولوها الى كتلة سلافية(٢) •

أما الكلت Celts - وهم الذين عرفهم الرومان باسم الغالين Gauls فكانوا يحتلون فى أول الأمر الثابات الواقعة فى شمال أوروبا حتى نهر الألب شرقا ثم قاموا بعد ذلك بحركة توسعية ضخمة هددوا فيها جمهورية روما الناشئة بالزوال ، اذ تدفقوا عبر جبال الألب فى ايطاليا وعبر نهر الراين فى الأراضى التى عرفت بعد ذلك باسمهم (غاليا) ، كما غزوا الجزر البريطانية، وبذلك أصبح الكلت فى القرون الخمسة السابقة للميلاد يحكمون بلادا واسعة امتدت من جوف ألمانيا حتى البلقان والمحيط الأطلسى(٣) • وفى الوقت الذى غزا قيصر غاليا كان الجرمان قد طردوا الكلت من الجهات الواقعة شرقى الراين ، ولم يحل دون غزو الجرمان لغاليا عندئذ سوى فتح الرومان

(1) Stephenson : op. cit. p. 59 & Deanesly, op. cit. p.22

(2) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 349—355

(3) Idem; Vol. I pp. 186—187

لها • ثم كان أن فتح الرومان بريطانيا في القرن الأول الميلادي ، وبذلك لم يبق للكلت مأوى مستقل سوى أيرلند (١) •

الجرمان :

والواقع ان الجرمان أو التيتون كانوا أقرب عناصر البرابرة الى حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ انتشروا في القرنين الأول والثاني في أواسط أوربا وشرقيها عبر نهري الراين والدانوب • أما الموطن الأول للعناصر الجرمانية فكان البلاد المحيطة بالبحر البلطي (٢) • ومن هناك أخذوا يتحركون جنوبا ليحلوا محل الكلت حتى استقروا في المناطق الواقعة بين نهري الألب والراين ، حيث حالت استحكامات الامبراطورية الرومانية دون تقدمهم بعد ذلك (٣) • ويمكن الوقوف على كثير من أحوال الجرمان في هته المرحلة المبكرة من تاريخهم بالرجوع الى كتابات قيصر وتاكيوس Tacitus ، ومنها يتضح أنهم احتفظوا بكثير من التقاليد والنظم التي كانت تعارض الى حد كبير مع ما ألفته العقلية الرومانية (٤) • ذلك أن الجرمان توخوا الناحية الفردية في كل شيء ، فالفرد هو محور الحياة ، وعلى أساس قوته الشخصية وسلطوته كانت أهميته ونفوذه • وإذا كان الجرمانى قد تمسك بطاعة زعيمه فان هذا الشعور بالطاعة انبثق عن احساس باطنى لا تنفيذ لأمر أو قانون • أما أخلاق الجرمان الأوائل فكانت مزيجاً من الفضائل والنقائص التي عرفت بها الشعوب البدائية (٥) • ذلك أنهم جمعوا بين الشجاعة والقسوة وبين الكرم وعدم مراعاة أصول الجيرة ، هذا فضلاً عما عرفوا به من احترام للعهد وترايط بين أفراد الأسرة الواحدة ورعاية للمرأة ، وهى الصفات التي ظلوا عليها والتي لم يفسدها سوى اختلاطهم

(1) Painter : op. cit. p. 19

(2) Deanesly : op. cit. p. 25

(3) Hubert: Les Germains. pp. 16—17

(4) Painter . op. cit. pp. 20—21. &

ابراهيم طرخان : تاكيوس والشعوب الجرمانية •

(5) Katz : op. cit. pp. 100—101.

بالرومان وتأثرهم بهم (١) • كذلك أولع الجرمان بالميسر والمقامرة حتى بلغ الأمر بالشخص الذى يفقد ماله أن يقامر على حريته • وكان أهم ما امتدحه تاكيوس فى الجرمان هو كرمهم المطلق ومراعاتهم الشديدة لرباط الزوجية المقدس (٢) • والمرجح أن القاعدة السائدة بينهم هى أن يكتفى الزوج بزوجة واحدة ، وإن كان بعض النبلاء قد خرجوا عن هذا المبدأ بعد أن ازدادت ثروتهم • أما ديانة الجرمان فكانت خليطا من الأساطير وعبادة القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والرعد وغيرها ، ولكنهم لم يقيموا معابد أو تماثيل لآلهتهم ، كما أن الكهنة لم يؤلفوا طبقة خاصة ممتازة فى مجتمعهم (٣) •

وكانت الأسرة تمثل وحدة النظام الجرمانى فى أول الأمر ، حيث تمتع الأب بسلطة مطلقة على زوجته وأولاده بلغت حقه فى سلبهم الحياة • ومن مجموعة الأسر التى تربطها قرابة الدم تألفت العشيرة ، ثم تكونت الدولة أخيرا من مجموعة عشائر (٤) • ولم يتمتع بحق ملكية الأرض سوى الأحرار والنبلاء فقط ، فى حين كان جميع أفراد الأسرة مسئولين مسئولية مشتركة عما يرتكبه أحد أفرادها من جرائم • وفى حالة القتل كان لابد لأهل القتل من الأخذ بثأره الا اذا دفع القاتل أو أهله فدية مرضية •

وقد انقسم الجرمان من حيث البناء الاجتماعى الى ثلاث طبقات : النبلاء والأحرار والعبيد (٥) • وكان النبلاء يكونون الطبقة المحاربة التى تمتعت بنوع خاص من التثريف ، فلا يشغل أفرادها بالفلاحة وإنما يقضون وقت السلم فى الأكل والنوم والصيد والتسكع ، فى حين تقع بقية أعباء المجتمع — وأهمها الفلاحة وأعمال المنزل — على غير المحاربين من النساء والأولاد

(١) Lavissee : Hist. de France ; Tome II, Première Partie, p. 46

(٢) Tacitus : Germania, p. 11

(٣) Thompson : op. cit. Vol. I p. 63

(٤) Eyre : European Civilisation. Vol. III, p. 13.

(٥) Lavissee, op. cit. pp. 48—49

والعيد • ولم يقيم هؤلاء العيد بدور هام فى الخدمة المنزلية - مثل عيد الرومان - وانما اقتصر عملهم على الزراعة حيث وزعت عليهم حصصا من الأرض يدفعون جزءا من غلتها فى نهاية الموسم (١) • أما الأحرار - من غير النبلاء - فلم يكونوا أحسن حالا بكثير من العيد (٢) • وهنا نلاحظ أمرين : أولهما أن الحرية وملكية الأرض كانا أمرين متلازمين سارا جنباً الى جنب فى المجتمع الجرمانى ، وثانيهما أن النسالة ارتبطت بشرف المولد والوراثة لا بملكية الأرض • ولم يعرف الجرمان حياة المدن فى عصورهم الأولى • وانما عاشوا فى قرى متناثرة وسط الأضغال والغابات ، فى حين كانت منازلهم عبارة عن أكواخ مشيقة من الأغصان والطمى (٣) • واعتاد الجرمان أن يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات ويطلقون شمس رؤوسهم ولحاهم ، وربما ربط الرجال شعرهم على هيئة ضفائر معقودة فوق رؤوسهم • أما طعامهم فكان بسيطاً يتألف من اللبن والفاكهة ولحوم الصيد والحبوب (٤) • ولم يعرف الجرمان النبيذ الا عندما استقروا على الحدود الرومانية ، أما شرايهم الأساسى فكانوا يصنعونه من الحنطة أو الشعير ، أى أنه كان أقرب الى الجعة منه الى النبيذ • وكان لكل قرية جمعية أو مجلس moot يتكون من رجالها الأحرار ، فى حين أن القرى لم تكن فى عزلة عن بعضها البعض ، وانما وجد اتصال دائم بينها عن طريق الأنهار أو الممرات التى تتخلل الغابات (٥) • والمعروف أن الثروة عند الجرمان قومت بالخيول والماشية وغيرها من الحيوانات الأليفة النافعة • حقيقة أن الجرمان عرفوا النقود الرومانية كما عرفوا الأوانى الذهبية والفضية ، ولكن الحيوانات السابقة حلت عندهم محل النقود فى التبادل والمعاملة (٦) •

(1) Tacitus : Germania; p. 15

(2) Stephenson : op. cit. p. 61

(3) Katz : op. p. 99 & Tacitus: Germania ; p. 10

(4) Tacitus ; Germania, p. II

(5) Thompson, op. cit. Vol. I p. 64

(١) إبراهيم طرخان : تاكيتوس ص ٥١ •

أما التنظيم السياسي فكان بسيطا ، وحدثه القرية أو المارك Mark ، ومن بعدها تأتي المائة hundred وهي وحدة عسكرية تكبر القرية (١) ، ثم تأتي المقاطعة أو المديرية (Gau) وتتألف من عدة مئات ، ومن مجموع المقاطعات تتألف الدولة القبلية التي أطلق عليها فيما بعد مملكة أوراينخ Reich عندما تقدم النظام الملكي بين الجرمان (٢) . وكانت للدولة الجرمانية جمعية عمومية تضم جميع أفرادها المحاربين ولا تتعدى إلا في حالة الحرب أو الهجرة . كذلك وجدت جمعيات أو مجالس للمقاطعة وللمائة على مقياس أصغر ، تتألف من النبلاء والأحرار ولكنها تجتمع في وقت السلم أيضا لبحث المسائل المدنية . وعلى رأس كل أمة من الأمم الجرمانية وجد بعض الرؤساء أو القادة Princes الذين لم يكونوا ملوكا أو نبلاء ، وإنما كانوا زعماء منتخبين اختارهم شعبهم لما تحلوا به من صفات تؤهلهم للزعامة وأهمها الشجاعة . وفي وقت الحرب كان يتولى القيادة قائد معروف بالشجاعة والاقدام ، فيتمتع بسلطات استثنائية واسعة تنتهى بانتهاء الحرب (٣) على أنه لما كانت الحروب طويلة وشبه مستمرة ، فإن هذا القائد أصبح يتكرر انتخابه حيناً بعد آخر . ثم تطور الأمر فصار يختار ابنه بعد وفاته ، مما أدى تدريجياً إلى قيام نظام ملكي وراثي في الدول والجماعات الجرمانية (٤) . على أن ملوك الجرمان لم يكونوا في هذه المرحلة المبكرة أكثر من قادة حربيين ، دون أن يتمتعوا بسلطة مطلقة في التشريع أو فرض العقوبات ، وهي المسائل التي حددتها التقاليد السائدة بين الجرمان والعرف المتوارث دون أن يمتلك فرد أو زعيم حق تفسير الأوضاع المألوفة (٥) . وإذا كان بعض المؤرخين يميلون

(١) يرجع اصطلاح المائة الى الجرمان الأوائل الذين انتشروا في شمال أوروبا ووسطها . ويرجع أن هذا الاصطلاح كان يعنى عندئذ جماعة من المحاربين عددهم مائة فرد . وكما أن أفراد هذه الوحدة حاربوا سوياً فكذلك اختاروا عند الاستقرار أن يجتمعوا سوياً ، ومن هنا أطلق هذا الاصطلاح على الوحدة السياسية التي تتوسط القرية والمقاطعة .

(Karsten : Les Anciens Germains, p. 178) :

(2) Moss : op. cit. pp. 40—41.

(3) Tacitus : Germania, n. 9

(4) Thompson : op. cit. Vol. I n. 65

(5) Stephenson : op. cit. p. 62

الى وصف المجتمعات الجرمانية الأولى بأنها كانت ديموقراطية ، فانه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أنها اتبعت نظاما ديموقراطيا فى الحكم ، لأننا سبق أن رأينا أن المجتمع الجرمانى قام على أساس التفرقة الاجتماعية بين مختلف طبقاته . وانما المقصود من لصق هذه الصفة بالجرمان هو وجود بعض المبادئ التى تتم عن اتجاهات ديموقراطية فى المجتمع الجرمانى مثل انتخاب الزعماء ، والفصل فى القضايا فى محاكمات عامة (١) .

هذه هى خلاصة أحوال الجرمان الذين استقروا على حدود الامبراطورية الرومانية من جهتى الشمال والغرب . وهنا نلاحظ عدم وجود أى عداء بين الرومان والجرمان فى أول الأمر ، كما أنه لم توجد مطامع للجرمان فى أراضي الامبراطورية ، وانما كل ما أراده الطرفان هو الحياة الآمنة المستقرة فى بلادهم . وعلى هذا ليست من الواقع فى شىء تلك النظرية التى تقول بأن روما ظلت منذ بداية عهدها تعيش فى رعب من الخطر الجرمانى ، وأن الجرمان أخذوا منذ أول أمرهم يمتنون أنفسهم بفوز الامبراطورية الرومانية والقضاء عليها (٢) . وهناك من الدلائل ما يثبت أن السنوات الواقعة بين قيصر وماركوس أورليوس (٥٠ ق م - ١٨٠ م) شهدت بوجه عام جوا من السلام ساد العلاقات بين الرومان والجرمان ، كما أن القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الامبراطورية عاشت حينئذ فى حالة واضحة من الهدوء والاستقرار . على أن هذا الوضع أخذ يتغير فى أواخر القرن الثانى ، عندما تعرض المجتمع الجرمانى لنوع من الضغط والقلق سبب له شيئا من الحركة (٣) . ذلك أن السلاف وغيرهم من العناصر الشرقية أخذوا يضغطون على الجرمان من جهة الشرق ، فى الوقت الذى ازدادت أعداد الجرمان وضافت أمامهم سبل العيش . وهنا تلفت هؤلاء الجرمان حولهم فلم يجدوا الا أرضا فقيرة مجدبة تغطيها الغابات وتكتنفها المستنقعات،

(1) Painter . op. cit. p. 23

(2) Katz: op. cit. p. 103

(3) Cam. Med. Vol. I p. 188

فضلا عن تأخرهم ووقوعهم تحت رحمة الطبيعة وظروفها القاسية من فيضانات خطيرة الى قحط ومجاعات ، مما جعلهم فى حالة من الشدة ونقص فى الأقوات دفعتهم الى الحركة • وهكذا أخذ الجرمان يتطلعون الى أراضي الامبراطورية الرومانية التى جذبتهم اليها بنظامها المستقر وخيراتها الوفيرة وحضارتها الزاهرة (١) •

وقد بدأ موقف الجرمان السلبي من الامبراطورية الرومانية يتغير منذ عهد الامبراطور ماركوس أورليوس (١٦١ - ١٨٠) ، عندما تحالفت بعض الطوائف الجرمانية المعروفة باسم الماركوماني Marcomanni والقواضي Quadi لمهاجمة جبهة أعلى الدانوب عند بانونيا (٢) • وعلى الرغم من أن الأزمة انتهت بالقضاء على خطر هؤلاء المهاجمين وتدمير قوتهم ، إلا أن تهديد الجرمان لحدود الامبراطورية لم ينقطع بعد ذلك ، اذ لم يلبث أن ظهر خطرهم على الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث على عهد الامبراطور كارا كالا (٢١١ - ٢١٧) عندما تقدم القوط جنوبا من شواطئ البحر البلطى فسحقوا السارماثيين وهاجموا اقليم داشيا على الدانوب ، حيث ظلوا خمسين سنة يعيشون فسادا فى البلقان حتى هزمهم الامبراطور كلوديوس الثانى (٢٦٨-٢٧٠) فى نيسوس Naissus سنة ٢٦٩ (٣) •

ويهمنا فى أمر هذا الدور المبكر من أدوار الحرب بين القوط والرومان أن أباطرة الرومان اختاروا أن يسالموا القوط على الرغم من تفوق الرومان ، فتنازلوا لهم عن اقليم داشيا وسحبوا منه الجيوش الرومانية والموظفين على عهد الامبراطور أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) ، وعندئذ استقر القوط وأعرضوا عن أعمال السلب والنهب وبدءوا يتأثرون بالمسيحية وغيرها من التيارات الحضارية، مما مهد لقيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الامبراطورية الرومانية (٤) •

(1) Katz : op. cit. pp. 101—102

(2) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 29

(3) Thompson. op. cit. Vol. I p. 72

(4) Cary : op. cit. p. 728

أن الخطر الذى مهد الامبراطورية الرومانية فى هذا الدور لم يأت من جانب القوط وحدهم ، وانما قام الألمان والفرنجة والبالفيون والسكسون والنورنجيون والفريزيون بعدة هجمات أخرى متفرقة ، حتى انتهى الدور الأول من حركة الهجرة الجرمانية سنة ٣٥٠ لتبدأ فترة أخرى جديدة من العلاقات السلمية الهادئة بين الرومان والجرمان (١) • على أن توغل الجرمان داخل حدود الامبراطورية لم يوقف فى هذا الدور السلمى الجديد ، وانما استمر بعد أن غير طابعه من الهجمات الحربية العنيفة الى الزحف البطيء والتسلل السلمى الهادئ • وهنا نجد الامبراطورية تفتتح صدرها لهؤلاء الوافدين من الجرمان ، فتستخدمهم جنودا فى بعض الفرق وتمنحهم مستعمرات وأراضى يقيمون فيها داخل الحدود الرومانية ، بل أن بعض ضباط الجيش الرومانى البارزين فى تلك الفترة جرت فى عروقهم دماء جرمانية (٢) • حقيقة أن استخدام الجرمان فى الجيش الرومانى والسماح لهم بالاقامة السلمية لم يك أمرا جديدا ، اذ ترجع جذور هذه الظاهرة الى أيام الامبراطور أوغسطس نفسه ، ولكنها أخذت تتخذ مظهرا شاملا واسع النطاق فى القرنين الثالث والرابع ، عندما بدأت العلاقة بين الرومان من جهة والجرمان المقيمين وسطهم من جهة أخرى تمتد الى التزاوج والتفاعل الاجتماعى ، مما ترك أثرا بعيد المدى فى مستقبل الحوادث • وهكذا لا يمكن القول بأن الحدود السياسية للامبراطورية الرومانية كانت فى القرن الرابع تفصل بين العالمين الرومانى والبربرى لأن كلا من الطرفين أخذ يتأثر بالآخر ويؤثر فيه (٣) •

ثم كان أن تجددت الهجمات الجرمانية على حدود الدولة الرومانية مرة أخرى منذ سنة ٣٧٥ متخذة طابعا جديدا • فحتى هذا التاريخ كانت تلك الهجمات عبارة عن عمليات حربية متقطعة لا تربطها رابطة ولا توحد بينها خطة جامعة • وكان يكفى أن تتعرض قبيلة لضغط قبيلة أخرى ، أو تصاب

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 207.

(2) Painter : op. cit. p. 19.

(3) Eyre : op. cit. p. 15.

منطقة من مناطق الجرمان يقحط أو نقص في الأقوات ، أو يستكشف أحد زعمائهم الطموحين نقطة ضعف في الحدود الرومانية ، للقيام بهجوم جزئي محلي على أراضي الامبراطورية . ولكن هجمات البرابرة أخذت تتخذ شكل اغارات عامة ضخمة منذ سنة ٣٧٥ (١) وقد امتدت هذه الحركة الواسعة حتى سنة ٥٦٨. أي نحو قرنين من الزمان استطاع فيها كثير من الجموع الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة داخل هذه الأقاليم ، مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما وجعل صورة أوروبا العصور الوسطى تبدو أقرب وضوحا (٢) . وهنا يحسن قبل أن نتناول كل عنصر من عناصر الجرمان المختلفة بالبحث ، أن نشير الى أن هذه العناصر تألفت من جماعات تفيض بالحيوية والقوة ، قطعت حضارة العالم القديم المتداعية بما جلبته معها من دماء جديدة ونظم جديدة . وليس من الصواب في شيء القول بأن الجرمان كانوا معادين للحضارة الرومانية ، وأنهم مسئولون عن تدمير هذه الحضارة ، لأن الحضارة الرومانية كانت تترنح قبل الغزوات الجرمانية ، وأخذت تتدهور فعلا في طريق الانحلال عندما بدأ الجرمان يتطرقون الى جسم الامبراطورية الرومانية عن طريق الغزو المفاجيء السريع أو عن طريق التسلسل الهادئ البطيء (٣) . وربما كان من الأصوب عندما نتحدث عن الأثر المباشر الذي أحدثته غزوات الجرمان في جسم الامبراطورية الرومانية وكيانها ، أن نذكر دائما أهمية هؤلاء الجرمان في تاريخ غرب أوروبا وحضارتها .

وثمة ملاحظة أخرى هي أن شدة التباين بين جموع البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية فيما بين القرنين الرابع والسادس تجعل من الضروري التفرقة بين الجماعات التي أخذت تجتاح البلاد لتسلب كل ما يصادفها دون أن تحاول الإقامة والاستقرار في تلك البلاد أو تترك أثرا في تاريخها سوى الخراب والتدمير ، وبين الجماعات المترابطة التي غزت اقليما من أقاليم الامبراطورية لتستقر فيه وتختلط بالأهالي الأصليين اختلاطا جنسيا وحضاريا

(1) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 59.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 79.

(3) Stephenson : op. cit. p. 68.

مما ترك أثرا عميقا فى تاريخها • ومن أمثلة النوع الأول أتباع راداجيسوس Radagaisus وهم خليط من البرابرة الذين انتهى الأمر بتحتيهم فى إيطاليا سنة ٤٠٥ (١) • وكذلك أتباع أتيليا من الهون وغير الهون الذين قدموا من سهول آسيا الغربية لغزو أراضى الامبراطورية بدون ضابط • أما النوع الثانى فمن أمثله القوط والفرنجة والبرجنديون والوندال والأنجلوسكسون واللمبارديون (٢) •

القوط الغربيون :

أما القوط فيبدو أنهم عبروا البحر البلطى من سكندناوة قبل حلول القرن الرابع قبل الميلاد حتى وصلوا مصب الفستولا • وقرب منتصف القرن الثانى الميلادى بدأت قبائل القوط رحلة طويلة نحو الجنوب الشرقى حيث استقروا شمالى البحر الأسود • وهناك انقسم القوط الى قسمين شرقيين وغربيين (٣) • فانتشر الشرقيون فوق سهول روسيا الجنوبية فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى هذه الجهات (٢٧٥ - ٣٧٥) (٤)

وكان أن ترتب على احتكاك القوط بالعالم الرومانى أن أفادوا من حضارة

(١) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 33.

(٣) Fliche : La Chrestienté Médiévale, pp. 10-14.

(٣) يلاحظ أنه لا توجد علاقة بين الموقع الجغرافى وتقسيم القوط الى شرقيين وغربيين • ويبدو أن هذه التسمية التى أطلقت على شعبتى القوط لا تعدو أن تكون نوعا من الخطأ التاريخى الذى اكتسب صيغة الحقيقة بحكم تواتره فى المراجع التاريخية • ذلك أن المدلول الأصل للفظ Ostrogoths - وهو اللفظ الذى جرى العرف على ترجمته فى المراجع الى القوط الشرقيين - هو فى الحقيقة القوط الساطعون أو الزاهرون (auster) لا الشرقيون ، كما أن المدلول الأصل للفظ Visigoths - الذى تعبر عنه المراجع بالقوط الغربيين ، هو القوط الأذكيا Wise • وإذا كانت الظروف شاعت أن يتجه القوط الغربيون غربا وأن يستقر القوط الشرقيون شرقيهم ، فإن هذا كان من محض المصادفات التاريخية •

(Lot : The End of the Ancient World, p. 191).

(3) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 44.

الرومان وتأثروا بها تأثرا ظهر بجلاء فى اعتناقهم المسيحية عن طريق مبشر منهم اسمه ولفلاس Wulfilas (٣١١ - ٣٦١) تلقى تعليمه بالقسطنطينية . وعندما عين ولفلاس هذا اسقفا على القوط حوالى سنة ٣٤١ قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القوطية ، وتعتبر هذه الترجمة - التى مازال جزؤ منها باقيا حتى اليوم - أقدم آثار اللغة الجرمانية (١) . على أن المهم فى أمر اعتناق القوط للمسيحية هو أنهم تلقوها فى مذهبها الأريوسى ، لأن ولفلاس نفسه كان أريوسيا ، الأمر الذى ادى الى انتشار الأريوسية بين القوط ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل الوندال والبرجنديين واللمبارديين ، مما كان له أبعاد الأثر فى مستقبل الحوادث التاريخية فى أوروبا المصور الوسطى (٢) .

ثم حدث فى النصف الثانى من القرن الرابع ان اندفع الهون الآسيويون خلال المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين نحو جنوب روسيا ، وبالتالى انقضوا على القوط (٣) . ويبدو أن هجوم الهون جاء على درجة من العنف والشدة جعلت الرومان والجرمان يتآزرون جميعا لصد هذا الخطر المشترك . على أن ضغط الهون أحدث رد فعل عنيف بين الجرمان ، مما أثر بالتالى فى أوضاع الامبراطورية الرومانية تأثرا خطيرا . ذلك أن القوط الغربيين لم يجدوا بدا من الفرار من وجه الهون فطلبوا من الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨) السماح لهم بعبور الدانوب ليسلموا من خطر الهون . واذا كان الامبراطور قد وافق على طلبهم ليتخذ منهم ستارا يحمى الحدود الرومانية من خطر الهون (٤) ، الا أن عبور ما يقرب من مليون ومائة ألف محارب من القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ - حيث سمحت لهم الحكومة الرومانية بالاقامة فى مواشيا وتراقيا - أحدث هزة عنيفة فى جسم الامبراطورية . ذلك أن هؤلاء الدخلاء لم يلبثوا أن ثاروا على الامبراطورية ، وأنزلوا الهزيمة

(1) Bradley : The Goths, p. 61.

(2) Moss : op. cit. p. 44.

(3) Lot : Les Invasions Germaniques. pp. 56-57.

(4) Painter . op. cit. p. 24.

بالامبراطور فالنز وذبحوه فى أدرنة سنة ٣٧٨ (١) ، مما دفع خليفته الامبراطور ثيودسيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥) الى العمل على اتقاء شر القوط ، فعقد معهم اتفاقية اصبحوا بمقتضاها معاھدين Foederati للامبراطور ، كما سمح للقوط الشرقيين بالاقامة فى اقليم بانونيا والقوط الغربيين بالاقامة فى شمال تراقيا . وقد تمتع القوط بسلطة مطلقة فى هذه الأقاليم التى احتلوها ، فأعفوا من الضرائب مقابل الخدمة العسكرية التى تعهدوا بتقديمها الى الامبراطورية (٢) . وتعتبر هذه الاتفاقية التى عقدها ثيودسيوس مع القوط سنة ٣٨٢ نقطة تحول كبرى فى سياسة الامبراطورية الرومانية تجاه الجرمان ، الذين اخذوا منذ ذلك الوقت يتجهون نحو تأسيس ممالك لهم داخل حدود الامبراطورية ، بعد ان اقتصر الأمر من قبل على مجرد السماح لهم بالاقامة المسلحة فى ظل الادارة والنظم الرومانية . على أن القوط الغربيين ظلوا محتفظين بطابعهم ، فضلا عن نظمهم وقوانينهم ومذهبهم الأريوسى مع التزامهم فقط بتقديم الخدمة العسكرية للامبراطورية وحراسة حدودها . واستمر هذا الوضع سائدا حتى وفاة الامبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ وعندئذ ثار القوط الغربيون من جديد (٣) .

ذلك أنه حدث عند وفاة ثيودسيوس أن قسمت الامبراطورية بين ولديه ، فكان الشرق من نصيب اركاديوس والغرب من نصيب هنريوس (٤) . وهنا أخذ نفوذ الجرمان السياسى والحربى يزداد قوة داخل الامبراطورية فاعتمد هنريوس فى الغرب على قائد وندالى قدير هو ستليكو ومنحه تفويضا تاما من الناحية الحربية ، فى حين اعتمد اركاديوس فى الشرق على روفينوس

-
- (1) Wallace - Hadrill : The Barbarian West, p. 21,
 - (2) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 48.
 - (3) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 90.
 - (4) Lot & Pfister & Ganshof : Les Destinées de L'Empire-En Occident, p. 24.

Rufinus وهو وزير قوطى عرف بالأنانية والقسوة وعدم الاخلاص (١) ويبدو أن القوط الغربيين كانوا فى حالة استياء منذ اتفاقهم مع الامبراطورية سنة ٣٨٢ لأنهم لم يلبثوا أن تبرموا بما ألقته عليهم هذه الاتفاقية من التزامات وخدمات عسكرية يؤدونها للامبراطورية فى الوقت الذى كانوا ينشدون حياة الاستقرار والهدوء . لذلك ناروا سنة ٣٩٥ تحت زعامة ملكهم أرك ففزوا مقدونيا وتساليا واقتحموا آثينا ونهبوا كورنثه حتى اقتربوا من القسطنطينية (٢) . وكانت حكومة الامبراطورية الشرقية عندئذ فى حالة تبلد وجمود فلم تتحرك لدفع خطر القوط الغربيين ، مما جعل ستليكو قائد الامبراطورية الغربية يقوم بهذه المهمة ، فعبر البحر الأدرياتي وحصر القوط فى الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة المورة (مقاطعة اليس Elis) وان كان ملكهم أرك قد استطاع الفرار (سنة ٣٩٦) .

وأخيرا رأى اركاديوس امبراطور الدولة الشرقية أن يمنح أرك اقليم البريا سنة ٣٩٨ ، حيث ظل القوط الغربيون قابعين أربع سنوات ، فى حين عباد ستليكو الى غاليا وجبهة الدانوب لمحاربة الوندال (٣) . وفى سنة ٤٠٢ حاول أرك غزو ايطاليا لأول مرة ، ولكن ستليكو رده على أعقابهم ولم تلبث ايطاليا أن تعرضت مرة أخرى سنة ٤٠٥ لغزو جماعات من الوندال والسويفى والبرجنديين واللان الذين اضطروا الى الاتجاه نحو ايطاليا أمام ضغط الهون ، ولكن ستليكو أنزل بهم الهزيمة وأسر زعيمهم راداجيسوس وأعدمه سنة ٤٠٦ ، وبذلك نجت ايطاليا مرة أخرى من غزو البرابرة (٤) . على أن ستليكو اضطر فى سبيل الدفاع عن ايطاليا فى هذه المرة الأخيرة الى سحب بعض الفرق الحربية التى تقوم بحراسة جبهة الراين ، مما أتاح الفرصة لجماعات من الوندال واللان والسويفى لمبور الحدود الرومانية سنة ٤٠٦ ، ومن ثم قضوا ثلاث سنوات فى غاليا اجتاحوا فيها البلاد ونهبوها ثم اندفخوا منها الى

(1) Cam Med, Hist. Vol 1, p. 260.

(2) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 110.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, p. 116.

(4) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 28.

(5) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 168.

أسبانيا سنة ٤٠٩ (١) • وقد أفرغت هذه الأحداث الامبراطور هنريوس الذى رأى فيها فرصة طيبة للتخلص من قائدة ستليكو. بعد أن ازداد نفوذه ازديادا خطيرا حتى أوشك أن يصبح الحاكم الفعلى فى الدولة - مما اثار حقد الامبراطور - فوجه اليه تهمة الاهمال فى حماية حدود الامبراطورية والتامر ضد سلامتها وسلامة الامبراطور نفسه ، وبالتالي تم اعدامه سنة ٤٠٨ (٣) •

ويبدو أن الامبراطور تطرف فى التخلص من أتباع ستليكو عن طريق القتل ، مما جعل بعضهم يفرون نحو ألرك ملك القوط الغربيين حيث زينوا له غزو ايطاليا (٣) • وقد وجد ألرك فرصته سانحة بعد مقتل ستليكو - لرجل الوحيد الذى استطاع انزال الهزيمة به - فرحف على رأس رجاله من القوط الغربيين الى روما التى تعرضت لأول مرة منذ عهد هانيال لحصار جيوش أجنبية معادية • وعندما فشلت المفاوضات بين ألرك والامبراطور هنريوس - الذى كان عندئذ آمنا فى عاصمته الجديدة رافنا - اقتحم القوط الغربيون روما سنة ٤١٠ (٤) ، فنهبوا بيوت نبلاتها وأحرقوها ولكنهم لم يحدثوا مذبحة بين الأهالى ، كما احترموا الكنائس على الرغم من أديوسيتهم • أما ألرك فقد توفى قرب نهاية ٤١٠ حيث تذكر الأساطير أنه دفن فى قاع أحد الأنهار بجنوب ايطاليا (٥) •

وأخيرا لم يجد الامبراطور وسيلة لاجراج القوط الغربيين من ايطاليا سوى اعطائهم اقليم اكوئين من اللوار حتى البرانس (٦) • والواقع أنه كان على القوط الغربيين أن يبذلوا جهدا جديدا لاستخلاص هذه الهبة من جموع الوندال والالان والسويفى الذين كانوا قد تطرقوا الى هذه الأقليم الغالية كما

-
- (1) Cam. Med. Hist, Vol. 1, pp. 266-268.
 - (2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 202-204.
 - (3) Lot . Les Invasions Germaniques, pp. 74-75,
 - (4) Bury : op. cit. Vol, 1, p. 180.
 - (5) Deanesly : op. cit. pp. 27-28.
 - (6) Bradley : The Goths,, pp. 106-107.

سبق • وقد استطاع واليا ملك القوط الغربيين الجديد أن يطرد السويفى الى الجزء الشمالى الغربى من أسبانيا وأن يزيح الوندال الى جنوبى نهر ابرو ، وبذلك تمكن القوط الغربيون من الاستقرار سنة ٤١٨ فى الجزء الجنوبى من غاليا - أى فى إقليم اكويتين وحول تولوز - بعد ان قضوا زهاء أربعين عاما فى التنقل والترحال (١) • وكانت المنطقة التى انتشر فيها القوط الغربيون عندئذ تمتد من تولوز على نهر الجارون الى اسبانيا ، التى طردوا الوندال منها سنة ٤٢٩ •

وعندما توفى واليا خلفه ثيودريك الأول (٤١٩ - ٤٥١) الذى عمل على تثبيت أركان مملكة القوط الغربيين وتوسيع رقعتها • وكان أهم ما قام به فى سبيل تحقيق ذلك انتزاعه عدة مدن فى جنوب غاليا من الرومان سنة ٤٣٦ (٢) • وقد حاول الرومان الوقوف فى وجهه ولكنه أنزل بهم الهزيمة سنة ٤٣٩ ، ومن ثم ساد السلام بين الطرفين • أخيرا مات ثيودريك الأول سنة ٤٥١ أثناء حربه مع الهون ، فخلفه فى حكم القوط الغربيين ثيودريك الثانى (٤٥١ - ٤٦٥) الذى حارب السويفى فى شمال غرب أسبانيا وغزا ناربون قرب الحدود الغالبة الأسبانية كما مد مملكته حتى نهر اللوار • على أن ثيودريك الثانى لم يلبث أن قتل سنة ٤٦٥ بواسطة أخيه ايورك (٤٦٥ - ٤٨٤) الذى يعتبر أقدر ملوك القوط الغربيين (٣) • ذلك أنه قضى على ما تبقى من النفوذ الرومانى فى أسبانيا ، وأخضع السويفى كما وضع أول مجموعة للقانون الجرمانى عرفها التاريخ (Antiqua) والحق ان مملكة القوط الغربيين - التى ظلت قائمة فى أسبانيا حتى الفتح العربى فى أوائل القرن الثامن - تعتبر أقوى الممالك الجرمانية فى الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ من جهة ، وقيام مملكة الفرنجة فى شمال غاليا ومملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من جهة أخرى (٤) •

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 205.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 279.

(3) Bury . op. cit. Vol. 1, p. 341.

(4) Thompson ; op. cit. Vol, 1, p. 94.

الوندال :

أما الوندال فقد ظلوا يقاومون القوط الغربيين في أسبانيا طوال أربع عشرة سنة اضطروا بعدها الى عبور البحر الى شمال افريقية سنة ٤٢٩ تحت زعامة ملكهم جزريك Gaiseric (١) • وصادف عندئذ قيام حرب أهلية في ولاية شمال افريقية ، وقيام امبراطور قاصر هو فالنسيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥) على عرش الامبراطورية ، مما سهل على الوندال مهمتهم • وسرعان ما أثبت جزريك - ذلك الرجل القصير الأعرج - أنه على جانب كبير من المقدرة والكفاية (٢) ، اذ استولى على البلاد من طنجة حتى طرابلس ، كما سقطت قرطاجة - أهم مدينة في الغرب بعد روما - في أيدي الوندال سنة ٤٣٩ ، وبذلك ضاعت ولاية شمال افريقية فخرت الامبراطورية الرومانية بضياعها جزءا آخرًا من أهم اجزائها التي كانت تمونها بالغال (٣) • ولم يستطع أهالي شمال افريقية سوى الامتثال لحكم القدر ، لأن عدد الغزاة من الوندال بلغ نحوًا من ثمانين ألفًا من رجال ونساء وأطفال • وزاد من سوء أحوال الأهالي ان جزريك نهج في حكم مملكته الجديدة نهجًا استبداديًا عنيفًا فصادر الضياع وانتزع الأراضي من أصحابها ، كما تعسف في جمع الأموال والضرائب من الأهالي وعاملهم في قسوة بالغة (٤) • هذا الى أنار حنق أهالي البلاد الأصليين بصورة بالغة عندما اتبع سياسة دينية متطرفة ، فصادر - وهو الملك الأريوسي - ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية في شمال افريقية ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك اضطهادًا بالغًا أنار سخط الرأي العام ، حتى أصبح لفظ الوندالية Vandalism ، في اللغات الأوروبية الحديثة يستخدم مرادفًا للهمجية والوحشية (٥) •

-
- (1) Wallace-Hadill : op. cit. pp. 38-39.
 - (2) Oman : The Dark Ages, p. 7.
 - (3) Lot & Pfistor & Ganshof; op. cit. p. 63.
 - (4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 95.
 - (5) Oman : The Dark Ages, pp. 7-9.

على أن خطر الوندال لم يقف عند هذا الحد ، اذ لم يلبثوا أن أصبحوا قوة بحرية خطيرة فى البحر المتوسط ، فأغاروا على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية ، فضلا عن ايطاليا حتى هاجموا روما نفسها سنة ٤٥٥ (١) . ومهما يكن من أمر فان عظمة دولة الوندال فى شمال افريقية سرعان ما ولت عقب وفاة جزريك سنة ٤٧٧ ، هذا على الرغم من أنه ترك بعده أسطولاً قويا وثروة طائلة وقصرا ذاخرا بالمنهوبات . وكان ذلك سنة ٥٣٤ عندما استطاع بلزاريوس قائد جيوش الامبراطور البيزنطى جستنيان أن يسترد ولاية شمال افريقية من الوندال ، بعد أن عمرت دولتهم خمسا وتسعين سنة منذ استيلاء جزريك على قرطاجة سنة ٤٣٩ (٢) .

الهون :

أما الهون الآسيويون فكانوا قد اجتاحتوا اقليم الدانوب الأدنى بعد أن تغفل القوط الترييون داخل جسم الامبراطورية سنة ٣٧٥ (٣) . ثم ظلى الهون مقيمين على شواطىء البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا الى تراقيسا وأخذوا يهددون القسطنطينية نفسها . ويبدو أنه اشتد عبث الهون - تحت زعامة أثيلا بالولايات الرومانية الواقعة فى حوض الدانوب الأدنى بين سنتي ٤٣٠ و ٤٣٣ ، مما اضطر ثيودوسيوس الثانى امبراطور الدولة الشرقية (٤٠٨ - ٤٥٠) الى دفع حزية مالبة سنوية لهم مقابل عدم اعتدائهم على أراضي دولته ، ومن ثم أخذوا يوجهون نشاطهم تجاه الغرب . وكان أن تقدم أثيلا غربا بحذاء الدانوب سنة ٤٤٧ هزب مواشيا وتراقيا واليريا وبانونيا حتى عبر الراين وهاجم غاليا سنة ٤٥١ (٤) . وقد نهب الهون كثيرا من مدن غاليا مثل

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1, pp. 306-308.

(2) Deanesly : op. cit, p. 77.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 215

(4) Lot & Pfister & Ganshof ; op. cit. p. 66.

تريف وميتز وتروى وشالون وغيرها من المدن المهمة التي فر أهلها من وجه الهون طلبا للنجاة ، بعد ما شاع عنهم من قصص طويل يعبر عن بطشهم وقسوتهم(١) . ولم يكن منتظرا من الامبراطور الغربي عندئذ - وهو فالنشيان الثالث - أن يقوم بعمل ايجابي ضد هذا الخطر الجائم ، ولكن قائده أيتيوس Aetius برز في هذه الظروف ليحمل عبء الدفاع عن غاليا . وهنا حدثت ظاهرة جديدة بالاهتمام ، وهي أن القوط الغربيين تحالفوا مع الجيوش الرومانية لدفع خطر الهون المشترك ، حتى أنزل الحلفاء الهزيمة بجموع أثيلا قرب شالون سنة ٤٥١(٢) . ولسنا في حاجة الى القول بأن هذه الموقعة تعتبر من المواقع الفاصلة في التاريخ ، اذ أثقت غرب أوروبا من وحشية الهون الذين ارتدوا عبر الراين ليقوموا تحت قيادة أثيلا بغزوة مفاجئة لاطاليا/في العام التالي (٤٥٢) (٣) . ولم تلبث روما أن وجدت نفسها أمام خطر ساحق جديد ، مما جعل أسقفها البابا ليو العظيم يخرج بنفسه لمفاوضة أثيلا(٤) وهنا تجمع الأساطير المعاصرة على أن طيف القديس بطرس أفرع أثيلا فأسرع بالاياب . وإن كان الواقع هو أن أثيلا أحس باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الروماني الشهير أيتيوس ، مما جعله يسرع باخلاء ايطاليا في يوليو سنة ٤٥٢. بعد أن أخذ وعدا بتسليم جزية سنوية . ولم يلبث أن توفي أثيلا العام التالي (٤٥٣) في بانونيا وعندئذ حاول أبنائه اقتسام امبراطوريته الواسعة(٥) ، ولكن الشعوب الخاضعة للهون انتهزت الفرصة وثارت وأنزلت بهم الهزيمة في موقعة نديو Nedeo سنة ٤٥٤ . وبذلك انهارت امبراطورية الهون قبل أن تنضى على وفاة أثيلا عشرون عاما(٦) .

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, pp. 291-293.

(2) Cam. Med Hist. Vol. 1, pp. 280-281.

(3) Bury : op. cit. Vol. 1, 294.

(4) Fliche , La Chretiente Medievale, p. 24.

(5) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.

(6) Lot : The End of the Ancient World. 288.

البرجنديون :

أما البرجنديون فكانوا قد ذاقوا من ضغط الهون أضعاف ما ذاقته بقية قبائل الجرمان في الغرب ، كما أنهم كانوا أول من استفاد من تفكك إمبراطورية الهون . وقد ظهر البرجنديون لأول مرة على مسرح الحوادث الأوروبية في النصف الثاني من القرن الثالث عندما تحركت جموعهم عند الجزء الأوسط من حوض الراين سنة ٢٧٧(١) . وفي القرن الرابع استخدمتهم الإمبراطورية الرومانية في جيوشها كما كان الحال مع غيرهم من طوائف الجرمان . وعلى الرغم من أن البرجنديين كانوا أكثر قبائل الجرمان مسالمة إلا أنهم اضطروا إلى استخدام العنف في شق طريقهم إلى غاليا عبر الراين ، وذلك تحت ضغط الهون(٢) ، حتى سمح لهم القائد الروماني أيتيوس بالانقضاء أخيرا في المنطقة الواقعة قرب نهر الساوون . وقد استغل البرجنديون فرصة اشتراكهم مع الرومان والقوط الغربيين ضد الهون في موقعة شالون سنة ٤٥١ ، وأخذوا يتوسعون سلميا حتى انتشروا سنة ٤٦٨ في جميع الجهات الواقعة بين جبال الألب والرون ، ولم يحل دون وصولهم إلى شاطئ البحر المتوسط سوى غزو أيورك ملك القوط الغربيين لأقليم بروغانس(٣) .

سقوط الإمبراطورية الغربية :

وهكذا يبدو من العرض السابق لغزوات الجرمان أنه لم يكد ينتصف القرن الخامس حتى كانت الإمبراطورية الرومانية في الغرب قد مزقت أربا بضياع معظم أجزائها . ذلك أن الجيوش الرومانية انسحبت من بريطانيا سنة ٤٤٢ ، في حين انتزع الوندال ولاية إفريقية ، واحتل القوط الغربيون والبرجنديون أسبانيا فضلا عن جنوب غاليا والأجزاء الشرقية منها . هذا في

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 98.

(2) Bury : op. cit. Vol, 1, p. 249

(3) Deanesly : op. cit. p. 30.

الوقت الذى عبر الألمان الراين الأعلى واستقروا فى الألزاس ، كما عبر الفرنجة الراين الأدنى ووصلوا السوم والميز ، وبذلك فقدت الامبراطورية الغربية معظم أعضائها مما آذن بسقوط هذه الامبراطورية وضياع البقية الباقية منها (١) .

والواقع أن عوامل الاضمحلال التى أخذت تنخر ببطء فى عظام الامبراطورية الغربية على عهد الامبراطور هنريوس (٣٩٥ - ٤٢٣) والامبراطور فالنشيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥) ازدادت خطورة بعد ذلك ، لاسيما بعد أن كافأ فالنشيان الثالث قائده أيتيوس بقتله سنة ٤٥٣ ، وهو الرجل الوحيد الذى كان يستطيع صد هجمات الوندال التى تعرضت لها روما بعد ذلك بعامين (٢) . ذلك أن الوندال أصبحوا بعد احتلالهم ولاية افريقية قوة بحرية كبرى هددت جميع بلاد النصف الغربى من حوض البحر المتوسط . ولم يلبث أن ظهر أسطول وندالى عند مصب نهر التير فى صيف سنة ٤٥٥ ، وعندئذ حاول الباباليوس العظيم انقاذ روما من الوندال ، كما سبق أن أنقذها منذ سنوات قليلة من أيدي الهون ، ولكنه فشل فى هذه المرة (٣) وهكذا اقتحم الوندال روما وقضوا فيها أربعة عشر يوما سلبوا خلالها المدينة كنوزها ، فنهبوا ما فى القصر الامبراطورى والمعابد والكنائس والبيوت من نفائس ، فضلا عن عدة آلاف من الأهالى حملوهم معهم عبيدا عند انصرافهم (٤) . ولعلنا نلمس فى هذه الاغارة دليلا واضحا على أن معبد روما السياسى والحربى أدبر وتولى ، وبالتالي أضحي مستقبلها ومصيرها رهينا بمقدرة الكنيسة البابوية . والواقع ان الفترة الواقعة بين سنتي ٤٥٥ ، ٤٧٦ أى بين مقتل الامبراطور فالنشيان الثالث وسقوط الامبراطورية فى الغرب ، تعتبر من أظلم عصور تاريخ الامبراطورية الغربية ، بعد أن فقدت هذه الامبراطورية معظم أراضيها (٥)

(1) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. pp. 77-94.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 418-420.

(3) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 78.

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 100-101

(5) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.

- وأصبحت القوة الفعلية فى إيطاليا بأيدى فئة من قادة الفرق الجرمانية
المأجورة ، الذين ازدادوا تطرفا وقسوة لعدم وجود قوة أخرى تقف فى
طريقهم وتحد من بطشهم . أما الأباطرة فقد أصبحوا العوبة فى أيدى الجند ،
يولونهم ويعزلونهم وفق إرادتهم ، حتى انتهى الأمر بأن ثار أودواكر -
زعيم بعض جموع الجرمان - ودخل رافنا سنة ٤٧٦ ، حيث كان الامبراطور
عندئذ وهو رومولس أوغسطس *Romulus Augustulus* فى الثانية عشر من عمره ، فاكفى أودواكر بفيه الى جنوب إيطاليا مع
تخصيص معاش له (١) .

وعلى هذا الوجه انتهت الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وأصبحت إيطاليا
من الوجهة القانونية تابعة للامبراطورية الرومانية التى لم يبق غيرها على قيد
الحياة وهى الامبراطورية البيزنطية . وحتى هذه الامبراطورية لم يكن لها
عندئذ نفوذ فعلى ملموس فى إيطاليا ، مما ترك البابوية القوة الوحيدة القائمة
التى انف حولها الايطاليون طوال القرون التالية ، ورأوا فيها الزعامة والسند
الكفيلين بحمايتهم .

وإذا كان بعض المؤرخين قد اعتادوا أن يبالغوا فى أهمية الأحداث التى جرت
سنة ٤٧٦ ، ويتخذون هذه السنة التى سقطت فيها الامبراطورية الغربية حدا
فاصلا بين عصرين ، فانا يجب ألا ننساق معهم فى تفكيرهم وتيارهم . ذلك أن
الامبراطور الغربى كان لا يمتلك فعلا شيئا من مظاهر القوة ، فى الوقت الذى
سقطت امبراطوريته ، هذا فضلا عن أن إيطاليا كانت منذ أمد بعيد مسرحا لعبث
كثير من الطوائف الجرمانية التى تطرقت اليها . ومن هذا يبدو أن عزل
الامبراطور الطفل رومولس أوغسطس على يد أودواكر سنة ٤٧٦ لم يؤد
الى تغير كبير فى الحالة القائمة فعلا (٢) . وهنا ينبغى أن نسجل أيضا أن
أودواكر نفسه لم يقصد بعمله أن يبدأ عهدا جديدا أو يحدث انقلابا من
نوع غير معروف ، وإنما كل ما كان يطمح فيه هو أن يحظى به فعلا غيره من

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 406.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 430-433.

زعماء الجرمان داخل حدود الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من البعثين اللتين أرسلهما الى زينون امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٤٧٧ ، ٤٧٨ (١) * حقيقة أن العالم الغربى ظل بدون امبراطور منذ سنة ٤٧٦ حتى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ ، الأمر الذى ظهر أثره واضحا فى تطور الممالك الجرمانية الناشئة من جهة وفى تطور البابوية من جهة أخرى ، ولكن عدم وجود أباطرة فى الغرب طوال هذه القرون الثلاثة لا يعنى بآى حال زوال فكرة الامبراطورية ، تلك الفكرة التى ظلت تصور الامبراطورية طوال العصور الوسطى على أنها وحدة لا تتجزأ (٢) * هذا وإن كان بعض الكتاب - مثل أومان - يعترفون بالآراء السابقة ، ولكنهم يصرون على أن سنة ٤٧٦ لها أهمية خاصة كخط فاصل بين التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى (٣) *

ومهما يكن من أمر فالهم هو أن سنة ٤٧٦ لم تكد تنتهى حتى كانت هناك ست ممالك جرمانية قد قامت فى غرب أوروبا على أنقاض الامبراطورية الرومانية * وهذه الممالك هى مملكة أودواكر فى إيطاليا ، ومملكة الوندال فى شمال افريقية ، ومملكة القوط الغربيين التى امتدت من اللوار حتى مضيق جبل طارق ، ومملكة البرجنديين فى وادى الرون ووادى الساوون ، ودولة الفرنجة على الميز والموزل والراين الأدنى ، وأخيرا تأتى صغرى هذه الممالك الجرمانية وهى مملكة السوفى Suevi فى الجهات المعروفة حاليا باسم البرتغال وغاليسيا (٤) *

الفرنجة :

كان أهم حدث فى تاريخ الغزوات الجرمانية هو قيام دولة الفرنجة ، وهى الدولة الجرمانية الوحيدة التى استطاعت البقاء والاستمرار داخل حدود

(1) Eyre : op. cit. p. 23.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p, 431.

(3) Oman : The Dark Ages, p. 3.

(4) Idem, p. 5.

الامبراطورية . ذلك أن قبائل الفرنجة المتقلبة التي كونت فيما بينها حلقا مائعا فى القرن الثالث ، أخذت تظهر عند بداية القرن الخامس فى هيئة كتلة متراسة أهم عناصرها الفرنجة البحريون *Francs Ripuaires* والفرنجة البريون *Francs Saliens* وكان كل من هذين الفرعين قد استقر فعلا فى القرن الرابع داخل حدود الامبراطورية الرومانية ، فامتد الفرنجة البحريون بين الراين الأدنى والميز والشلد ، فى حين امتد الفرنجة البريون على امتداد الموزل الأدنى (١) .

ويعتبر كلوفس (٤٨٦ - ٥١١) المؤسس الحقيقى لدولة الفرنجة البحرين ، اذ استطاع أن ينزل الهزيمة فى سواسون سنة ٤٨٦ ، بسياجريوس *Syagrius* ، وهو الذى ظل يمثل آخر بقايا الادارة الرومانية فى حوض السين على الرغم من سقوط الامبراطورية فى الغرب قبل ذلك بعشر سنوات (٢) . وقد أخذ كلوفس يعمل بسرعة - بعد انتصاره فى سواسون - على مد نفوذ الفرنجة على الجهات الشمالية من غاليا . وكان من الطبيعى أن يقابل أهالى البلاد الأصليين هذا التغير بقليل من الدهشة وكثير من الفتور بعد أن اعتادوا الخضوع لفئة جديدة من غزاة الجرمان الفينة بعد الفينة . وهكذا جاء وقت على غاليا الرومانية أصبحت مقسمة بين القوط الغربيين والبرجنديين والفرنجة (٣) .

على أن حركة الفرنجة اختلفت كثيرا فى طابعها عن الحركات التى قامت بها بقية الشعوب الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تنصف بطابع الغزو . ومن هنا يميل بعض المؤرخين الى عدم اعتبار كلوفس فاتحا بكل معنى الكلمة ، والى وصف نضاله ضد سياجريوس بأنه صدام بين زعيمين طموحين أكثر منه بين قوميتين متعاديتين (٤) . ذلك أن بقية الشعوب

(1) Fliche : *La Chretienté Mediévale*, p. 30.

(2) Deanesly : *op. cit.* p. 58, & Gregory of Tours; *The Hist. of the Franks* 11-27.

(3) Thompson : *op. cit.* Vol, 1, p. 108.

(4) Lot : *The End of the 'Ancient World*, p. 249.

الجرمانية كالقوط والوندال والبرجنديين تخلت عن مراكزها الأولى ومواطنها الأصلية ، وأخذت تجوس خلال الأقاليم الأوربية عدة سنوات ، حتى استقر كل منها أخيرا وسط جزء من المحيط اللاتيني الغربى بعيدا عن موطنها الأول . أما الفرنجة فانهم لم يهاجروا ولم يتركوا موطنهم الأول عند الراين الأدنى ، وانما أخذوا ينتشرون منه ويضيفون اليه اقلما بعد آخر ، دون أن يتخلوا عن مركزهم الأساسى أو يقطعوا صلتهم به (١) . وقد ترتب على هذه الظاهرة احتفاظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية ، فى الوقت الذى ذابت بقية الشعوب الجرمانية فى المحيط اللاتينى الذى استقرت وسطه بعد أن قطعت صلتها بمواطنها الأولى . كذلك خالف الفرنجة بقية العناصر الجرمانية فى سياستهم الحكيمه التى امتازت بعدم الافراط فى العنف والاساءة الى أهالى البلاد الأصليين . ولا يوجد لدينا أى سند تاريخى يثبت أن الفرنجة حاكوا البرجنديين أو القوط الغربيين فى اغتصابهم الأراضى والضيايع من أصحابها وتقسيمها بين الغزاة ، بل على العكس عمل الفرنجة دائما على احترام شعور أهالى غالبا ولم يؤذوهم فى أملاكهم وأرواحهم (٢) ، هذا فضلا عن احتفاظهم بحسن العلاقات مع الامبراطورية الرومانية فى معظم الحالات (٣) . ولا شك فى أن هذا المسلك من جانب الفرنجة ساعد على التقريب بينهم وبين أهالى البلاد الأصليين ، وهو تقارب توثقت روابطه عندما اعتنق كلوفس الديانة المسيحية سنة ٤٩٦ (٤) . وليس المهم فى هذه الخطوة الهامة هو ما ترتب عليها من انتشار الديانة الجديدة بين أتباع كلوفس وشعبه من الفرنجة ، وانما المهم هو أن كلوفس اعتنق المسيحية على مذهبها الأثناسيوسى أو الغربى مخالفا فى ذلك بقية الشعوب الجرمانية التى ظلت معقونة فى الغرب بسبب

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, .p. 108.

(2) Dill : Roman Society in Gaul, p. 89.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 249.

(4) Cam. Med. Hist, Vol, 1, p. 285.

(م ٧ - أوربا)

أريوسيتها(١) • والواقع أن رجال الكنيسة الكاثوليكية في جنوب غاليا كانوا يرقبون توسع الفرنجة في الشمال باهتمام بالغ من أول الأمر ، لأنهم رأوا في كلوفس وأتباعه الوثنيين مادة خلايا سهل تشكيلها وفق مبادئ الكنيسة الغربية ، لا سيما أن مسلكهم تجاه أهالي البلاد الأصليين جاء مقرونا بكثير من مظاهر الرحمة والاعتدال بعكس الحال مع البرجنديين أو القوط الأريوسيين • لذلك أخذ رجال الكنيسة في غاليا يترقبون اليوم الذي اعتنق فيه كلوفس المسيحية في صورتها الأثناسيوسية ، لا سيما بعد أن تزوج من كلوتيسدا ، وهي أميرة برجندية دانت بالعقيدة الكاثوليكية(٢) • ويقال ان الظروف التي أحاطت بكلوفس أثناء حربه مع الألمانى فى الألزاس جعلته يتعهد باعتناق المسيحية فى حالة انتصاره ، وكان أن أوفى بعهده فتم تعميده سنة ٤٩٦م (٣) •

وهنا نستطيع أن نقول أن كلوفس استطاع بهذه الخطوة أن يحدد مصير الفرنجة ومستقبل دولتهم لأن اعتناق الفرنجة لمذهب الكنيسة الغربية جعلهم يكتسبون عطف الكاثوليك وتأييدهم ، ليس فقط في غاليا وإنما في جميع أرجاء غرب أوروبا(٤) ومعنى ذلك قيام نوع من التعاون والارتباط بل التآلف والامتزاج بين الفرنجة والرومان ، وهو أمر كان لا يمكن تحقيقه بين الرومان الأثناسيوسيين من جهة والبرجنديين أو القوط الأريوسيين من جهة أخرى(٥) • ويكفى أن الملكية الفرنجية كانت الوحيدة بين الملكيات الجرمانية التي اكتسبت عطف رجال الكنيسة وتأييدهم في غرب أوروبا ، حتى أصبح كلوفس قنسطنطينا آخر(٦) فى حين ظهر ملوك الفرنجة فى ثوب حماة المسيحية ورجالها فى الغرب مما مهد لايجاد نسوع من التحالف بين البابوية وملوك

(1) Dill : Roman Society in Gaul, pp. 86-89.

(2) Deanesly : op. cit. p. 59.

(3) Gregory of Tours : The Hist of the Franks, p. 2-30.

(4) Fliche : La Chretiente Medievale, p. 33.

(5) Lavissee : Hist de France. Tome, 11, Premiere. Partie, p. 99.

(6) Lot : The End of the Ancient World p. 317-318.

الفرنجة ، وهو التحالف الذى كان له اثر بعيد فى مستقبل أوروبا العصور الوسطى •

وهكذا ظهر عامل جديد ساعد الفرنجة على التوسع عقب سنة ٤٩٦ ، بعد أن أخذ الأهالى من الرومان الكاثوليك فى بقية أنحاء غاليا يتمنون الدخول تحت حكم كلوفس - الملك الجرمانى الذى يتفق معهم فى المذهب (١) • على أنه يلاحظ أن توسع الفرنجة فى هذه المرحلة لم يقتصر على الجهات الغربية والجنوبية وانما امتد ايضا فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى • وقد حدث سنة ٤٩٦ أن أخذ الألمانى يباشرون ضغطهم من أعلى الراين على الفرنجة البريين الذين انتشروا الى الجنوب منهم ، فاستجد هؤلاء الأخيرون بكلوفس الذى أسرع لنجدة أقاربه فشن هجومين على الألمانى أحدهما سنة ٤٩٦ والثانى ٥٠١ ، حتى انتهى الأمر بانزال هزيمة ساحقة بالألمانى الذين اضطروا الى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين لحماية انفسهم من الفرنجة (٣) وتعتبر هذه الحرب بين الفرنجة والألمانى على جانب كبير من الأهمية حيث أنها أدت الى توسع الفرنجة فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى ، كما أنه ترتب على نجاح الفرنجة فى صد الألمانى عدم قطع الصلة بين الفرنجة من جهة ووطنهم الجرمانى الأول فيما وراء الراين من جهة اخرى ، فضلا عن نجاح الفرنجة فى وقف التيار التوسعى لبقية العناصر الجرمانية مثل البافاريين والثورنجيين والسكسون (٣) •

على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكي لم يلبث أن أثار روح البغضاء والكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين فى غاليا ، مثل البرجنديين والقوط الغربيين • أما البرجنديون فقد استطاع كلوفس

(1) Deanesly : op. cit. p. 60.

(2) Lot : The End of the Ancient World, p. 317.

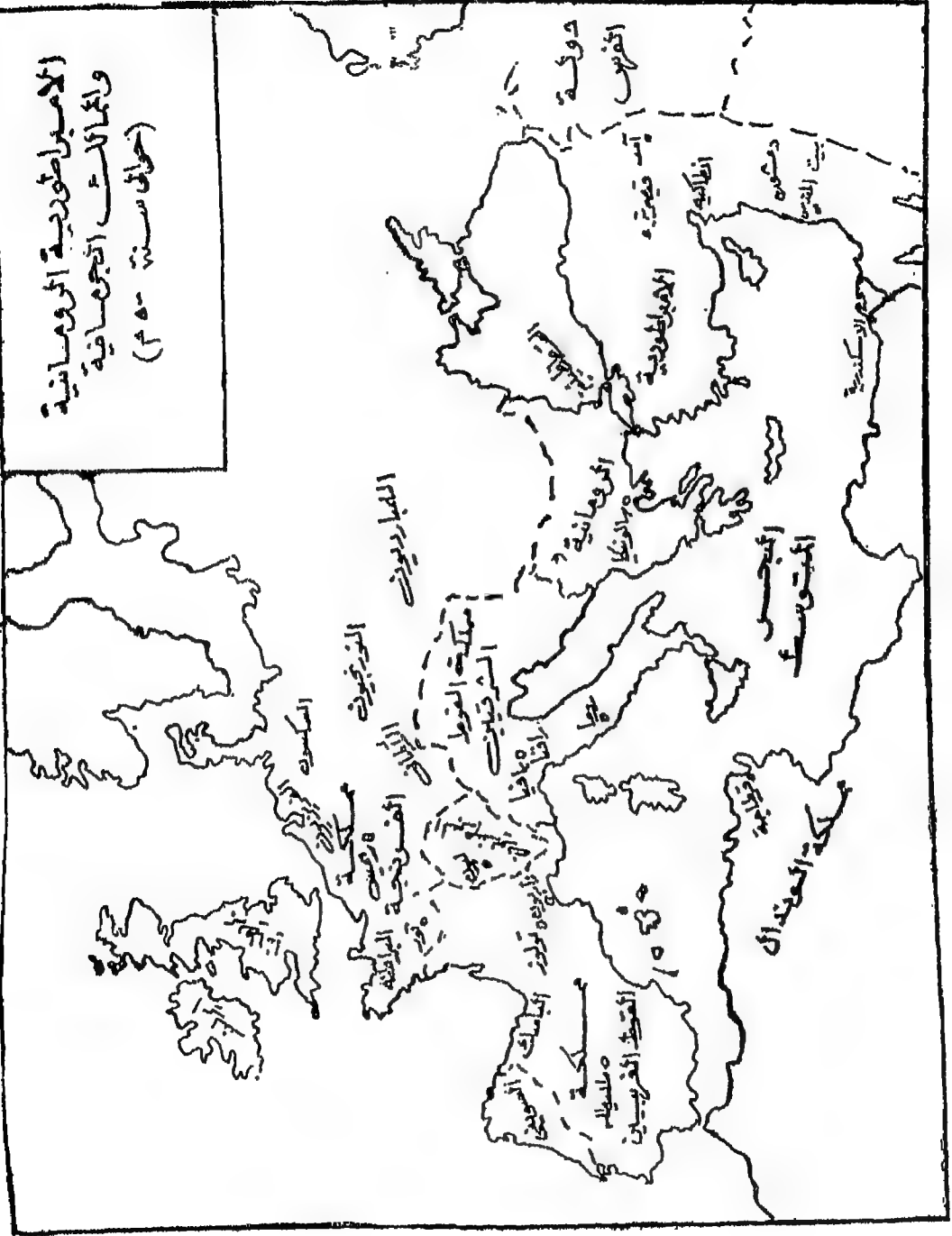
(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 109.

أن يجبرهم سنة ٥٠٠ على دفع الجزية رمزا للتبعية (١) • وأما القوط الغربيون فإن كلوفس شن الحرب عليهم سنة ٥٠٧ وقتل ملكهم ألك الثاني بعد أن هزمه في فوجليه Vougle كما استولى على تواريز سنة ٥٠٨ • ولم ينقذ القوط الغربيين من أيدي الفرنجة عندئذ سوى تدخل ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذي أسرع لتجدة أقرباه (٢) • وأخيرا حل الموقف بين الفرنجة والقوط سنة ٥١٠ بعد أن تم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين يمتد حتى نهر الجارون - بما فيه مدينة تولوز - في حين احتفظ ثيودريك بأقليمى بروفانس واربونيس (سبتمانيا) (٣) •

وعندما توفي كلوفس سنة ٥١١ كانت دولة الفرنجة تمتد على جانبي الراين ، وتشمل جميع غاليا ما عدا أرموريكا (بريتاني) وجاسكوني وبروفانس • على أن هناك حقيقة هامة أثرت في تاريخ الفرنجة ومستقبل دولتهم تأثيرا عميقا ، هي أنهم ظلوا يعتبرون الملك ارثا يقسم بين سائر أبناء الملك أسوة بسائر أنواع الارث ، ووفقا لهذا المبدأ قسم كلوفس مملكته الواسعة ذات السكان المتباينين في الأصل والجنس بين أبنائه الأربعة (٤) • ومع ذلك فإن توسع الفرنجة لم يتوقف نتيجة لهذا التقسيم أو نتيجة لما قام بين كلوفس من نزاع وخلاف • ففي سنة ٥٣٠ استولى الفرنجة على ثورنجيا ، كما استولى على اقليم ناربونيس (سبتمانيا) سنة ٥٣١ وأوفرن سنة ٥٣٢ ، وبرجنديا سنة ٥٣٤ ، وبافاريا سنة ٥٥٤ - ٥٥٥ ، وجاسكوني سنة ٥٦٧ • وساعد على هذه الفتوحات وازدياد نفوذ الفرنجة ، أن لوثر الأول (كلوتير) استطاع توحيد مملكة الفرنجة سنة ٥٥٨ بعد وفاة اخوته الثلاثة ، أي أنه حكم جميع مملكة كلوفس فضلا عن برجنديا وثورنجيا وبروفانس وبافاريا (٥) •

-
- (1) Dill : Roman Society in Gaul. p. 91.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 484.
 - (3) Lot : The End of the Ancient World pp. 318-319.
 - (4) Cam. Med. Hist. Vol. Vol, 1, p. 484,
 - (5) Deanesly : op. cit. p. 67.

الامبراطورية المروانية
والخلافة النجاشية
(حوالي سنة ٣٥٠م)



على أن مملكة الفرنجة لم تلبث أن انقسمت مرة أخرى بين أبناء لوثر الأول عند وفاته سنة ٥٦١ (١) . وقد ظهرت الخلافات التاريخية والجنسية واضحة هذه المرة بين الأقسام التي انقسمت إليها مملكة الفرنجة وهي أوستراسيا ونستريا ، في حين كان الطابع اللاتيني هو الغالب على برجنديا واكوتين . ومهما يكن من أمر فإن العصر الأول لتاريخ الفرنجة - وهو عصر البطولة الذي امتاز بالتوسع والغزو - انتهى سنة ٥٦١ (٢) ، ليبدأ عصر آخر سنعود إليه بعد قليل .

• القوط الشرقيون :

رأينا ما كان من أمر سقوط الامبراطورية العرية في إيطاليا سنة ٤٧٦ ، وهو الأمر الذي جعل لأباطرة الدولة الشرقية نوع من السيادة الاسمية على إيطاليا بحكم ما لأباطرة هذه الدولة من حق في وراثة أباطرة الغرب . ولكن حدث سنة ٤٨٩ - أى بعد موقعة سواسون بثلاث سنوات - أن انتهى ما كان لأباطرة الدولة الشرقية من سلطة اسمية في إيطاليا وذلك عندما غزاها القوط الشرقيون تحت زعامة ثيودريك (٣) .

وكان القوط الشرقيون قد تعرضوا سنة ٣٧٥ لخطر الهون ولكنهم لم يستطعوا الفرار عبر الدانوب كما فعل اقرباؤهم القوط الغربيون ، ومن ثم ظلموا تحت سيطرة الهون ما يقرب من سبع وسبعين سنة ، أى حتى سنة ٤٥٢ عندما توفي أثيلا وتفككت امبراطوريته وأخذت الشعوب الخاضعة للهون تتحرروا من سيطرتهم (٤) . على أن القوط الشرقيين وجدوا أنفسهم غداة تحررهم من سيطرة الهون في حال لا يحسدون عليها نظرا لما لحق أقاليم

(1) Lavissee : Hist. de France, Tome 11, Premiere Partie, p. 132.

(3) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 114.

(3) Oman : The Dark Ages, p. 16.

(4) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 365.

الدانوب فى ذلك الوقت من دمار وخراب شامل حتى أصبحت الاقامة فيها أمرا متعذرا . لذلك اتجه القوط الشرقيون جنوبا داخل حدود الامبراطورية حيث أخذوا يسبون لها مضايقات شتى (١) . وعلى الرغم من أن قسوات الامبراطورية الشرقية أسرت ثيودريك - ابن ملك القسوط الشرقيين - وأرسلته رهينة الى القسطنطينية ، الا أن المناصب والألقاب البراقة التى خلعها عليه البيزنطيون ، ومظاهر العظمة التى حفلت بها القسطنطينية ، لم تنس ثيودريك أهله وعشيرته الذين كانوا يقاسون آلام الفاقة والحرمان فى بيوتهم الفقيرة ، ففر اليهم سنة ٤٧٤ وأخذ يتجول بهم عدة سنوات فى أقاليم البلقان (٢) . وأخيرا رأى الامبراطور زينون أن خير وسيلة ينقذ بها أقاليم الدولة الشرقية من عبث القوط الشرقيين هى أن يلهمهم بإيطاليا ، فلقاها لهم لقمة سائغة سنة ٤٨٨ . وكان أن نفذ القوط الشرقيون الى ايطاليا سنة ٤٨٩ فأنزلوا عدة هزائم بأودواكر عند ايسونزو Isonzo وفيرونا ، حتى اعتصم أودواكر برفنا فحاصره القوط الشرقيون حتى استسلم سنة ٤٩٣ . ولم يلبث أن دخل ثيودريك رافنا ليقتل أودواكر ويصبح سيد ايطاليا (٣) ، والواقع أن ثيودريك كان من الوجهة القانونية نائبا عن امبراطور الدولة الشرقية فى ايطاليا ، حتى أنه سك اسم الامبراطور البيزنطى على العملة (٤) ، ولكنه أصبح من الناحية العملية ملكا مستقلا على مملكة القوط الشرقيين التى شملت ايطاليا وصقلية وغيرها من الأقاليم المجاورة مثل بانونيا ودماشيا واليريا وبروفانس ، فى حين ظلت كورسيكا وسردينيا فى أيدي الوندال .

وقد اتخذت غزوة القوط الشرقيين لايطاليا شكل هجرة عامة ، اذ اصطحبوا

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 115.

(2) Deanesly : op. cit. p. 35.

(3) Eyre : op. cit. p. 25.

(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 240.

مهم نساءهم وماشيتهم(١) • أما زعيمهم ثيودريك فكان أعظم شخصيه سياسيه فى عصره ، بل انه يكاد يكون الشخص الوحيد المعاصر الذى اجتمعت فيه مظاهر العصور القديمه والوسطى • ذلك أنه دخل الامبراطورية صديقا لا عدوا ، كما أراد أن يعتبره المعاصرون حاكما رومانيا لا زعيما بربريا • ويكفى أن ايطاليا تمتعت فى عهده بحكومة قوية حازمة سارت وفق الأساليب والنظم الرومانية (٢) • من ذلك أن ثيودريك العظيم لم يدخل سوى تعديلات قليلة نسبيا فى النظم القائمة بايطاليا ، وذلك فى خلال حكمه الطويل الذى امتد من سنة ٤٨٩ حتى سنة ٥٢٦ ، فاتخذ قصره فى رافنا مركزا لحكومة بيروقراطية تشبه فى طابعها النظام الامبراطورى القديم ، كما احتفظ بالسناتو والوظائف العمومية والنظام الادارى والمدارس ، فضلا عن أنه أبقى ملكية الأرض الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى • وإذا كان القوط الشرقيون قد احتفظوا لأنفسهم من الناحية الشكلية بقوانينهم الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى حتى أنها لم تلبث أن فقدت طابعها الأصيل بعد عدة أجيال (٤) • اما الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة فان ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الايطاليين الكفاة لها فحسب ، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء وطبقة السناتو الذين كانوا يديرون شئون الامبراطورية الرومانية فى سابق معجدها • ومن أمثلة الرجال الذين استعان بهم ثيودريك كاسيدورس Cassiodorus وانوديوس Ennodius وسناريوس Senarius وأجابيتوس Agapitus وبوئيوس Boethius وغيرهم (٥) • كذلك خالف ثيودريك بقية الجرمان فى أنه حافظ على المبدأ الرومانى القديم الخصاص بالفصل بين الوظائف المدنية والحربية ، الأمر الذى زاد من الحقد المتبادل

(1) Eyre : op. cit, p. 25.

(2) Idem : pp. 25-27.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 241.

(4) Oman : The Dark Ages, pp. 22-24.

(5) Eyre : op. cit, p. 6.

بين الموظفين المدنيين الرومانيين وقادة القوط العسكريين .

وعلى الرغم مما عرف عن ثيودريك العظيم من تسامح ورغبة صداقة في التوفيق بين أهالي إيطاليا الاتناسيوسيين والقوط الاريوسيين ، إلا أن الخلاف المذهبي ظل يحول دون حسن التفاهم بين الطرفين . حقيقة أن ثيودريك عنى بالمحافظة على آثار الحضارة الرومانية ، فضلا عن عنايته بجمع القوانين الرومانية معتمدا على مجموعة ثيودسيوس ، مما جعل من ثيودريك العظيم أحد بناء الحضارة في أوائل العصور الوسطى (١) . ولكن على الرغم من كل ذلك فإن هذا البناء الكبير الذي أجهد ثيودريك نفسه في إقامته كان لا يمكن أن يدوم أو يستمر طويلا . فالقوط الشرقيون الذين لم يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا أقاموا وسط مجتمع كبير من أهالي إيطاليا الأصليين الذين زاد عددهم عندئذ على تسعة ملايين . هذا فضلا عن أن القوط الشرقيين قطعوا صلتهم بصميم الوطن الجرمانى فيما وراء الدانوب والراين - بعكس الحال مع الفرنجة - مما ترتب عليه انقطاع الشريان الرئيسى الذى يحيى فيهم روحهم ويذكرهم بأصولهم ومبادئهم الجرمانية (٢) لذلك نجد أنه على الرغم من نفوذ ثيودريك الواسع وعظمة بلاطه فى فيرونا أو رافنا ، وتسامحه الدينى والسياسى ، ورعايته للآداب والفنون ، وحرصه على إقامة كثير من الجسور والطرق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة ، إلا أن البناء الذى أقامه لم يكن قوى الأساس وبالتالي لم يقدر له البقاء طويلا (٣) . ذلك أن ذكرى روما القديمة ، وموقف الامبراطورية البيزنطية التى استعادت سطوتها على عهد جستنيان ، والخلافات المذهبية بين القوط الشرقيين وأهالي إيطاليا الأصليين ، كل هذه العوامل تجمعت فى النهاية لتقضى على أمسل ثيودريك فى إقامة ملكية قوطية ثابتة الأركان فى إيطاليا . وقد اتضحت هذه

(1) Idem : op. 27.

(2) Thompson : op. cit. Vol, p. 118.

(3) Lot & Pfister, Ganshof : op. cit. pp. 113-116.

الحقيقة المؤلة لثيودريك فى أواخر أيامه لا سيما عندما قام جستين الأول - امبراطور الدولة البيزنطية (٥١٨ - ٥٢٧) بحركة اضطهاد واسعة صد الأريوسيين أدت الى تعذيبهم ومصادرة كنائسهم ، الأمر الذى جعل ثيودريك يرسل بعثة برياسة البابا حنا الأول سنة ٥٢٥ الى الامبراطور البيزنطى للعدول عن سياسته (١) . ويبدو أن فشل هذه البعثة فى تحقيق أغراضها جعل ثيودريك يتشكك فى جميع من حوله ، حتى قام بحركة اضطهاد مماثلة صد الكنيسة الكاثوليكية فى ايطاليا . ولم ينج من هذه الموجة الجارفة الفيلسوف بيثيوس الذى أعدم بلا ذنب سنة ٥٢٥ ثم لحق به فى السجن البابا حنا الأول فى العام التالى . وأخيرا لم يلبث ثيودريك نفسه أن مات فى العام نفسه (٥٢٩) بعد أن سلم جميع الكنائس الكاثوليكية فى ايطاليا للأريوسيين (٢) .

ولم تكد تمضى سنوات قليلة على وفاة ثيودريك حتى أرسل جستين - امبراطور الدولة الشرقية - جيشا الى ايطاليا سنة ٥٣٩ لاستردادها من القوط واعادتها الى أحضان الامبراطورية . وعلى الرغم من مقاومة القوط الباسلة الا أن قوتهم انهارت بعد سنوات قليلة (٥٥٢) وبذلك اختفى القوط الشرقيون كامة قائمة بذاتها من صفحة التاريخ (٣) .

الانجلز وبريطانيا :

صورت لنا الحوادث السابقة الخاصة بتسلسل الغزوات الجرمانية كيف تفككت الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس بعد أن استولى الجرمان على غاليا وأسبانيا وافريقية وأقاموا فيها ممالك جرمانية مستقلة . أما بريطانيا التى أشرنا الى أن الفرق الرومانية انسحبت منها فى أوائل القرن الخامس (٤)

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 454.

(2) Deanesly : op. cit pp. 43-44.

(3) Cam. Med Hist, Vol, 2. p. 18.

(4) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 72-73.

فلم تلبث الأحداث التي تلاحقت عليها في المائة والخمسين سنة التالية أن جعلتها تتوارى تماما من فوق مسرح التاريخ ، حتى اذا ما ظهرت على المسرح مرة أخرى كانت قد اتخذت صبغة جديدة وأصبحت انجلترا لا بريطانيا •

ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطئ بحر الشمال وفي شبه جزيرة جيتلاند - مثل الأنجلز والسكسون والجوت - أخذت تواصل اغاراتها على بريطانيا منذ القرن الرابع (١) • وقد جددت هذه العناصر اغاراتها بعد انسحاب الجيوش الرومانية سنة ٤٤٢ ، ولكنهم أغاروا في هذه المرة على بريطانيا مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم بقصد الإقامة ، حتى تم لهم - عند نهاية القرن السادس - اجتياح معظم البلاد المعروفة حديثا باسم انجلترا ، ماعدا إقليم كورنويل في الجنوب الغربي (٢) • ولكن اذا كان أمر الجرمان في صلب القارة قد انتهى باستقرارهم نهائيا وسط الشعب الروماني المنلوب على أمره ، والتأثر بأوضاع هذا الشعب من النواحي اللغوية والدينية والحضارية ، الا أن الموقف اختلف في بريطانيا حيث طرد الغزاة أمامهم أهالي البلاد الأصليين من الكلت ، مما جعل المسيحية تختفى مؤقتا من البلاد •

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم ، وانما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع Heptarchy (٣) ، وهي مملكة كنت التي تألفت من الجوت ، وممالك اسكس Essex وسنسس Sussex ، ووسكس Wessex التي كان أهلها من السكسون ، ثم ممالك انجلترا الشرقية ومرسيا Mercia ونورثمبرلاند ، وكان أهلها من الأنجلز • وقد استمرت الحروب والمنازعات بين هذه الممالك السبع حتى استطاع اثلبورت ملك كنت (٥٦٠ - ٦١٦) أن يفرض سيادته عليها جميعا • وكان هذا الملك قد تزوج برتا Bertha - وهي أميرة فرنجية مسيحية -

(1) Cam. Med. Hist. Vol, I, pp. 378-381.

(2) Hadgkin : The Hist of England, p. 108.

(3) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 95.

فى الوقت الذى وصل انجلترا القديس أوغسطين الصغير مبعوثا من البابا جريجورى العظيم • وكان وصول أوغسطين الى كنت سنة ٥٩٧ واعتنق ملكها أئلبرت المسيحية بشيرا بازدياد عدد البعثات التبشيرية من جهة وسرعة انتشار المسيحية فى انجلترا من جهة أخرى ، الأمر الذى أدى الى خروج أهالى بريطانيا عن عزلتهم وارتباطهم من جديد بمؤثرات الحضارة الغربية (١) • وهنا نلاحظ أن دخول بريطانيا دائرة الكنيسة الغربية عوض جزءا من الخسارة التى أصابت هذه الكنيسة فيما بعد باستيلاء المسلمين على أسبانيا • هذا الى أن البابوية احتفظت بالسيطرة العليا على الكنيسة فى انجلترا ، فظل الانجلوسكسون لا يعرفون شيئا عن الكنيسة الشرقية أو عن الامبراطورية وصاروا أينما ولوا وجوههم لا يجدون أمامهم سوى روما والبابوية (٢) •

والواقع ان القديس أوغسطين - الذى أصبح أول أساقفة كاتربورى (٥٩٧ - ٦٠٥) لم يصادف صعوبة فى نشر المسيحية فى كنت ، ولكن مبعوثيه صادفوا عنادا شديدا فى بقية أنحاء الجزيرة • وعلى الرغم من ذلك فإن المسيحية أخذت تتقدم تقدما حثيثا فى تلك البلاد حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها • حقيقة أن الكنيسة فى انجلترا صادفت عدة صعاب اعترضت سبيل تنظيمها وربطها بالبابوية ، ولكنها استطاعت أن تتخطى هذه الصعاب فى القرن السابع مما أتاح لانجلترا نصيبا عن تراث الحضارة الكلاسيكية • ومن أبرز أساقفة كاتربورى فى هذا القرن ثيودور الطرسوسى Theodore of Tarsus (٦٦٩ - ٦٩٠) الذى نظم الأسقفيات فى انجلترا وراى منها ، كما جمل من يورك كرسيا لرئيس أساقفة ، وعقد اولى المجامع الدينية التى عرفتها الكنيسة الانجليزية (٣) • وهكذا ليست هناك مبالغة فيما يصر عليه بعض الكتاب من اعتبار ثيودور هذا مؤسس الأمة الانجليزية التى كانت حتى ذلك الوقت

(1) Idem. p. 96.

(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 303-304.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 540.

مفتة الى قبائل صغيرة ، كما اعتبروه واضح دعائم الحياة العلمية فى انجلترا وهى الحياة التى بلغت ذروتها على عصر بدة Bede (٦٧٥ - ٧٣٥) (١) .

أما فى الجانب السياسى فقد ظلت انجلترا تعاني الكثير بسبب الانقسامات وعدم الوحدة حتى استطاع اجبرت Egbert ملك وسكس (٨٠٢ - ٨٣٩) ان يغزو الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة سنة ٨١٥ ، وأن يهزم مرسيا سنة ٨١٩ وبذلك اصبح سيد انجلترا وصارت وسكس أكبر قوة سياسية عندما بدأت تشتد اغارات الفيكينج فى القرن التاسع (٢) .

وبعد ، فعله من الواضح الآن أن الغزوات التى قام بها البرابرة - من جرمان وغير جرمان - تركت أثرا واضحا فى المجتمع الرومانى . ذلك أن هذه الغزوات أدت الى تحطيم الامبراطورية الرومانية فى الغرب وضياع معظم أقاليمها غنية فى أيدى الغزاة . حقيقة ان جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية (٥٢٧ - ٥٦٥) بذل جهدا كبيرا فى استرداد هذه الأقاليم التى فقدتها الامبراطورية الرومانية فى شمال أفريقية وإيطاليا وإسبانيا ، ولكن نجاحه كان مؤقتا سريع الزوال (٣) . أما فى الناحية الاقتصادية ، فقد رأينا أن الامبراطورية الرومانية كنت تشكو أعراض التدهور الاقتصادى قبل أن تقوم جموع الجرمان بغزو أراضيها ، ولكن هذه الغزوات جاءت لتزيد الطين بلة لأن التدمير الشامل الذى نتج عنها وما صاحبها من حروب بين الغزاة بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين الجيوش الرومانية أدت الى توقف التجارة والزراعة والصناعة بل الى تدهور مستوى المعيشة بوجه عام . ولا شك فى أن الأثر النفسى الذى تركته غزوات البرابرة وسقوط الامبراطورية الغربية فى نفوس المعاصرين كان عظيما حتى اعتبر البعض هذه الأحداث نذيرا بنهاية العالم (٤) .

(١) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 195-209.

(٢) Idem : pp. 263-265.

(٣) Eyre : op. cit. pp. 31-32.

(٤) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 36.

وإذا كانت هناك ثمة ناحية من نواحي الحياة فى الامبراطورية قدر لها البقاء والاستمرار فى ظل التطورات الجديدة ، فإنها كانت الكنيسة الكاثوليكية التى احترمتها الجرماني ولم يمسوها بسوء حتى ازدادت فى ذلك العصر قوة ونفوذا • والواقع أن الأخطار التى أملت بالعالم الرومانى من جهة ، وسقوط الامبراطورية الغربية من جهة أخرى ، جعلت الكنيسة الغربية تبدو فى صورة القوة الوحيدة التى يمكنها انقاذ ما يمكن انقاذه من تراث الماضى ، كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين اتفب حولهم الناس وسط الأزمة البعاة التى أحاطت بهم (١) •

(١) Painter : op. cit, p, 28.

الباب الرابع

الاسلام

على الرغم من أن الاسلام يعتبر ظاهرة شرقية من الناحيتين الدينية والحضارية الا أن أثره في أوروبا المصور الوسطى كان خطيرا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوروبا في تلك المصور دون الاشارة الى هذا الأثر . حقيقة أن الدولة الاسلامية في أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء محدودة من أوروبا مثل أسبانيا وصقلية ، فضلا عن بعض جزائر أخرى معروفة في البحر المتوسط ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الدولة ضمت جميع البلاد المطلة على الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط أي بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، في الوقت الذي كانت حضارة أوروبا لا تزال ترتبط الى حد كبير بذلك البحر . وبعبارة أخرى فإن حركة التوسع الاسلامية ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخا مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقية للمصور الوسطى وحدا فاصلا بينها وبين المصور القديمة . هذا فضلا عن أن الدولة الاسلامية غدت بحكم موقعها الجغرافي بمثابة الحلقة التي ربطت القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقية ، وبالتالي انتقل عن طريقها التراث الحضاري للشرق الى أوروبا المصور الوسطى (١) .

وتختلف الغزوات التي تعرضت لها أوروبا من جانب العرب منذ القرن السابع في طابعها العام وهدفها ونتائجها عن تلك التي تعرضت لها أوروبا قبل ذلك من جانب الجرمان . فهذه الغزوات الأخيرة قامت بها شعوب قديمة قدم الامبراطورية الرومانية نفسها ، وربطتها بالامبراطورية صلات تحالف

(1) Deanesly : op. cit. pp. 185-187.

وولاء أو حرب وعداء قبل أن تقوم بحركتها الشاملة التى أدت الى غزوا
أراضى الامبراطورية والاستقرار داخل حدودها • أما العرب الذين غزوا
الامبراطورية فى القرن السابع ، فلم تربطهم بها صلات سابقة على شىء من
الأهمية ، وكل ما هنالك هو أن الامبراطورية الرومانية اكتفت باتخاذ
بعض اجراءات لحماية أطراف الشام من خطر القبائل الرحل الضاربة فى
الصحارى المجاورة ، هذا فضلا عن إقامة دوائى الغساسة على حدود الشام
لحمايتها من الهجمات المعادية من جانب الفرس أو غيرهم • وفيما عدا ذلك
كان آخر ما يتوقعه الرومان هو أن تخرج جيوش من جوف البلاد العربية
لتهديد العالم الرومانى ، بل ابتلاع أجزاء واسعة من ذلك العالم (١) •

وقد سبق أن رأينا كيف كان الفرس والروم فى شغل شانغل بالنزاع
والحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجرى فى شبه الجزيرة
العربية من مولد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧٠ هـ هجرته
الى المدينة سنة ٦٢٢ ، ثم ما تبع ذلك من انتهاء حالة الفوضى والتفكك السياسى
والنزاع القبلى التى عاش عليها عرب الشمال قرونا طويلة • وبعبارة أخرى
فإن انتصار رسالة خاتم النبيين أدت الى جعل العرب أمة واحدة يخضعون
لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا اله الا الله محمد رسول الله •
على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله أرسل محمدا
شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة الى دين الحق ، ومن ثم غدت
مهمة الرسول بعد أن تم نشر الاسلام فى بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة
لاعتناق دياناته والايمان برسائله • ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفدهم
النبي الى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا اعراضا بل امتهانا ، مما جعل
النبي يعد العدة للغزو والجهاد ، وإن كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد
وتتسع الا بعد وفاة النبي نفسه سنة ٦٣٢ •

وليس العجيب فى أمر الغزوات هو أن العرب تجاسروا على مهاجمة

(1) Pirenne : Mohammed and Charlemagne. p. 147.

الفرس والروم ، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع ، وانما العجيب هو أن العرب غزوا فارس في الوقت نفسه الذى غزوا دولة الروم ، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين في وقت واحد . ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلا في بادية الشام سنة ٦٢٩ ، أى في العام التالى مباشرة لانتهاى الحرب بين الروم والفرس (١) . وكانت دولة الروم - أو الدولة البيزنطية - تعاني حينئذ الأمرين من جراء ما تطلبت حروبها ضد فارس من جهة وضد البرابرة المهاجمين لأراضيها في البلقان من جهة أخرى ، زيادة على النزعة الانفصالية التي أخذت تقوى عند أقباطا مصر والأراميين في سوريا والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى ، مما هزته كيان الدولة ووحدتها تهديدا خطيرا (٢) . ومهما يكن من أمر فإن موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكاسح الا عقب وفاة الرسول ، أى منذ خلافة أبى بكر الذى يادر بايفاد جيشين لغزو الروم والفرس سنة ٦٣٣ . وهكذا أخذت الجيوش العربية - بقيادة أبى عبيدة الجراح - تعمل في الشام ضد الروم ، في حين كان القسم الثانى من هذه الجيوش - بقيادة خالد بن الوليد - يعمل في العراق ضد الفرس (٣) . وقد حاول هرقل - امبراطور الروم - ارسال قوة بقيادة أخيه تيودور لانتفاذ الموقف في فلسطين ، ولكن القائد العربى - خالد بن الوليد - أتى مسرعا من العراق لنجدة اخوانه بالشام ، وبذلك أمكن انزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤ (٤) . وعندما توفى الخليفة أبو بكر في هذه السنة السابقة ، خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذى اتسمت الفتوح الاسلامية في عصره ، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل ، وعندئذ تار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب ، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ . وقد خيل لهرقل في هذه المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطى بنفسه ضد المسلمين ، ولكنه سرعان

(1) Oman : The Dark Ages, p. 216.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 2, p. 231.

(3) Idem pp. 338-339.

(4) Idem, p. 341.

ما استكشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد يعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدب في جسده . وإذا كان هرقل قد أمضى سنتي ٦٣٥ ، ٦٣٦ في جبهة الشام ، إلا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقع في أيديهم (٦٣٧ - ٦٣٨) (١) . ويرى القلقشندي أن هرقل عندما أيس من أمر الشام خرج إلى الرها ، حيث وقف على مرتفع والتفت إلى الشام وقال « السلام عليك يا سوريا ، سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومي بعدها إلا خائفا » . ثم عاد إلى القسطنطينية (٢) .

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثرا من انتصاراتهم على الروم . ففي سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق ، وفي سنة ٦٤١ أحرز العرب انتصارا عظيما على الفرس عند نهاوند مما فتح أمامهم الطريق إلى قلب بلاد فارس (٣) . ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة في وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزيدجرد الثالث . آخر موك بنى ساسان سنة ٦٥٢ وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس (٤) .

وفي هذه الأثناء استمرت القوات العربية التي اجتاحت بلاد النهرين تهاجم الأطراف الشرقية للدولة الرومانية من جهة الجنوب ، فضلا عن مهاجمتها من شمال الشام . وقد بذل الامبراطور هرقل محاولة يائسة لانقاذ شمال الشام والعراق من أيدي المسلمين ، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض ، ولكنها منيت بالهزيمة ، واضطرت إلى الانسحاب ، وبذلك سقطت المدن والمعاقل المهمة الموجودة في شمال العراق والشام مثل ماردين والرها وميافارقين (٦٣٨ - ٦٣٩) . وباستيلاء العرب على قيصيرية سنة ٦٤٠ فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس وبذلك جاء دور مصر وشمال افريقية (٥) . ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أى قبل أن ينتهوا من فتح فارس . ويعتبر فتح مصر بالذات مثالا واضحا على عظم الخسارة التي منيت بها المسيحية ، كما يتخذ دليلا قويا على مدى ضعف الامبراطورية

(١) Diehl & Marçais : op. cit. pp. 190-192.

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٩٧ .

(٣) Cam. Med. Hist. Vol, 2. p. 347.

(٤) Orton : op. cit. pp. 80-81.

(٥) Oman : The Dark Ages. p. 220.

البيزنطية وانحلالها السياسى (١) . وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدول الاسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠ ، ومن ثم استأنف العرب فتوحهم بنفس القوة والنشاط . وكان أن أخذ العرب فى فتح ولاية أفريقية سنة ٦٦٤ ، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد (٢) . وكانت حروب المسلمين فى شمال أفريقية طويلة وشاقة ، لأنهم لم يسطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب ، بل كان عليهم أيضا أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس . ومهما يكن من أمر فإن قرطاجة سقطت أخيرا فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧ ، وإن كان نفوذ الخلافة الاسلامية لم يستقر تماما فى شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير .

وهكذا تحول شمال أفريقية بأكمله من الحضارة اللاتينية الى الحضارة العربية ومن الديانة المسيحية الى الديانة الاسلامية ، حتى البربر الذين طالما أظهروا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا فى تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين . وبذلك مرت سبعمائة السنة التى سيطرت فيها أوروبا على شمال أفريقية دون أن تترك أثرا فى تلك البلاد سوى الأساطير والأطلال ، فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت ، والمدن تركها الرومان ليعودوا أدراجهم الى أوربا (٣) .

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال أفريقية حتى المحيط الأطلسى وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا ٧١١ ، كما عبر طارق بن زياد المضيق المعروف

(1) Eyre : op. Cit. p. 63.

(2) Oton : op. cit. p. 81.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 287.

باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتي ٧١١ ، ٧١٣ (١) . وفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية ، إذ فقدت بلادا ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر ، فضلا عن بلاد أخرى بمثابة أجزاء أساسية من الوطن المسيحي مثل شمال أفريقيا وأسبانيا . وفي جميع هذه البلاد أقيمت نسبة كبيرة من الأعلى على اعتناق الاسلام « عن اختيار واردة حرة » (٢) . وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديدة باهتمام المشتغل بالتاريخ . فالعرب الذين غزوا العالم الروماني في القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقل عددا بكثير من الجرمان الذين تدفقوا على قلب ذلك العالم من قبل . ومع ذلك فإن الحضارة الرومانية والكنيسة المسيحية تقلبت في النهاية على هؤلاء الجرمان واستوعبتهم ، في حين كانت القلعة في الجهات التي انتزعها العرب واستقروا فيها - مثل الشام ومصر وشمال أفريقيا والأندلس - لحضارة العرب وديانتهم . ونحن لا نجد لهذه الظاهرة الهامة البارزة سوى تفسير تاريخي واحد ، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الروماني ، في حين ظهر العرب مزودين بعبقيرة جديدة وديانة مساوية أدت الى تماسكهم وحالت دون ذوبانهم في المجتمع الجديد (٣) .

والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية ، والسرعة الفائقة التي تمت بها هذه الحركة ، والنجاح السريع الذي أحرزته ، كانت من الموضوعات التي احتلت جزءا كبيرا من تفكير المؤرخين المحدثين . ذلك أنه لم تكن نمض على وفاة الرسول سبعون سنة حتى كان الاسلام قد امتد من المحيط الهندي حتى المحيط الأطلسي . حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التي سهلت مهمة الفتوح العربية ، ولكن لابد من وجود قوى دافعة أدت بالعرب الى الصبر على الجهاد طوعا لا كرها ، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة في تاريخ العالم . وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة ، فالأستاذ بيكر Becker يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربي في القرن السابع لم تكن مقاضية - كما تبدو - وإنما هي

(1) Thompson : op. cit. vol. 1. pp. 163-164.

(٢) أدنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥١ .

(3) Pierenne : Mohammed and Charlemagne. p. 150.

حلقة أخيرة من سلسلة طويلة بدأت قبل ذلك بعدة قرون وأدت الى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية ، نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف وتدهور يدل على انهيار سد مأرب فى القرن السادس (١) . وبعبارة أخرى فان تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية الى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الأراميون والكنعانيون ، أو الهجرات اللاحقة التى قام العرب بها قبل ظهور الاسلام (٢) . ويميل برناردلويس الى مشاركة بىكر هذا الرأى ، فيقول ان بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفاف مستمر ، مما أدى الى زحف الصحراء على حساب الأراضي الخضراء ، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم (٣) . أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيراً أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : ان حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجربة وتحتاج بلاداً أكثر خصبا كانت ملكاً لجزران أسعد منهم حظاً .

ومن الواضح أن هذا الرأى يحوى كثيراً من المبالغة والبعد عن الحقيقة ، لأنه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصادقة فى الجهاد والاستشهاد ، وهى الروح التى تثبت الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع . حقيقة ان مؤرخاً محدثاً مثل توماس أرنولد يقول « ان الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت الا قليلاً فى نفوس أبطال الجيوش العربية » (٤) ، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين أو نصدق حاكماً رومانياً معاصراً فى القرن السابع وقد أرسل

(١) القرآن الكريم سورة سبأ (١٥ - ١٧) :

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 331 (C.H. Becker)

(٣) برناردلويس : العرب فى التاريخ ص ٢٨ ، ٥٧ .

(٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٧ .

(م ١٠ - أوروبا فى العصور الوسطى)

اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحي قائلا : انهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا . ذلك أنهم لا يطمعون فى شىء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم الى الجنة ، فى حين تتعلق نيجن بأهداب الحياة ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور ! » (١) • أما بيرين Pirenne فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، ويقول ان الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغيدا ، وبين العرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأنه لا اله الا الله محمد رسول الله ، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم • حقيقة ان حركة الفتح الاسلامى أعقبتها حركة أخرى للهجرة والاستقرار فى الولايات العربية الجديدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ الا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير (٢) •

أما عن نشاط المسلمين البحرى فى البحر المتوسط فيلاحظ أن وصول العرب الى شواطئ هذا البحر واستيلائهم على موانئ الشام ومصر ، جعلهم يهتمون بأمر الأسطول لدفع خطر الروم الذين حاولوا استرداد الاسكندرية سنة ٦٤٢ - ٦٤٣ ثم سنة ٦٥٢ كما استمروا يهددون الغرب بحريا فى فتوحهم الجديدة (٣) • والواقع أن العرب لم يجهلوا البحر فى جاهليتهم ، فقد عرف أهل الجنوب بناء السفن ، وباشروا نوعا من التجارة البحرية النشيلة قبل الاسلام ، ولكن عرب الشمال ظلوا بعدين عن ممارسة ركوب البحر حتى

(1) Eyre : op. cit. pp. 63—64

(2) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 47

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 160

كانت الفتوح الاسلامية ، وحيث أخذوا يكتفون أنفسهم فى وضعهم الجديد كقوة من قوى البحر المتوسط . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية خطيرة ففزوا قبرس سنة ٦٤٨ ، وأغاروا على الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى أنزلوا أخيرا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات النصارى سنة ٦٥٥ (Phoenix) ، وهى الموقعة التى تعتبر أعظم معركة بحرية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة إكتيوم سنة ٣١ ق م (١) . وإذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الاسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بحصار القسطنطينية عقب هذه الموقعة ، فإن الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا سياسة مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا على نطاق واسع حتى وصلت اغاراتهم الى بحر ايجه سنة ٦٦٥ . ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا خبرة كافية بفنون البحر جعلتهم يعبرون الى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرس ورودس وغيرهما من المواقع البحرية الحصينة فى بحر ايجه ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ - ٦٧٨) (٢) . ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية من السقوط فى أيدي المسلمين عندئذ سوى اختراع النار الاغريقية الذى توصل اليه مهندس سورى الأصل يدعى كالينيقوس Callinicus . أما هذا الاختراع فعباره عن عدة مركبات تشتعل عندما تصيب الهدف . مما أنزل بالسفن الاسلامية خسائر جسيمة (٣) .

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا ، حتى كانت أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى تستولى على القسطنطينية وتطبع بالامبراطورية البيزنطية . واختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على

(1) Oman : The Dark Ages, p. 239

(2) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 44

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 283.

رأس هذه الحملة التى شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته الى الشاطئ الأوروبى سنة ٧١٧ (١) • وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، اذا بالأسطول الاسلامى يهاجمها من ناحية البحر ، حتى كادت المدينة تقع فى أيدي المسلمين لولا النار الاغريقية التى لعبت دورها فى تشتيت سفنهم ، فى الوقت الذى أغرى الامبراطور ليو الايسنورى (٧١٧-٧٤١) البلغار بمهاجمة المسلمين من الخلف (٢) • وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف المسلمين أمرهم بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (٣) • وهكذا تم تجنيد الامبراطورية البيزنطية ، بل أوروبا بأجمعها تغييرا خطيرا كان من الثابت أن يترك أثرا بعيدا فى التاريخ لو أن العرب نجحوا فى تحقيق هدفهم بالاستيلاء على القسطنطينية ، مفتاح أوروبا من جهة الشرق •

وبعد أن فشل المسلمون فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن تشجع البيزنطيون وأخذوا يدفعون ضغط المسلمين تدريجيا عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قنسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منتهزا فرصة الضعف الذى أمست فيه الخلافة الأموية فى أواخر عمرها • وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصرا بحريا على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرس (٤) • ولم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية فى بغداد • وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية بحيث كان الضغط الاسلامى على الدولة البيزنطية شديدا وملموسا فى العصر الأموى • ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل مركزهم أكثر بعدا عن الدولة البيزنطية وأراضىها ، ومن ثم قل الضغط الاسلامى على حدود هذه

(1) Idem : pp. 313—314

(2) Ostrogorsky, op. cit. p. 139

(3) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 54,

(4) Grm. Med. Hist. Vol. 4 pp. 121—122

«الدولة بصورة واضحة في العصر العباسي (١) * ولكن ليس معنى ذلك أن العباسيين لم يهددوا الدولة البيزنطية ، إذ كثيرا ما أوغلت الجيوش العباسية داخل آسيا الصغرى ، حتى وصلت سنة ٧٨٢ الى البسفور ، مما اضطر الامبراطورة ايرين الى شراء مسالة المسلمين بالمال (٢) * هذا في الوقت الذي استمرت اغارات العرب البحرية على شاطئ الدولة البيزنطية وتغورها ، حتى استولى المسلمون سنة ٦٠٤ على سالونيك ونهبوها وأسروا بضعة آلاف من أهلها *

ويلاحظ أن صعود الدولة البيزنطية ونجاحها في صند المسلمين ، في الوقت الذي نجح الفرنجة في صد مسلمي الأندلس عن غاليا وغرب أوربا ، كان له أثر كبير في مستقبل تاريخ القارة الأوروبية * ذلك أن الدولة البيزنطية ظلت حتى الفتح الاسلامي تمثل المركز الأساسي للحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، ولكن هذه الصفة أخذت تزول عنها عقب حركة التوسع الاسلامي لتقوم الدولة البيزنطية بوظيفة الحد الشرقي للحضارة الأوروبية لا مركزها الأساسي * وهكذا أخذ التاريخ البيزنطي منذ اتساع الفتح الاسلامي يفقد أهميته العامة ، بعد أن صارت الدولة البيزنطية لا تعدو أن تكون درعا يحمي أوربا من خطر آسيا ، في حين انتقل مركز الثقل للحضارة الأوروبية الى الغرب (٣) *

✓ على أن أثر العرب والاسلام في تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التغيرات السياسية التي أحدثوها في أوضاع العالم المعروف ، وانما يبدو هذا الأثر أشد ما يكون وضوحا في الميدان الحضاري * وهنا نجد الحضارة العربية الاسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الاسلامية (٤) ، ومازالت السرعة التي انتشرت بها اللغة العربية والديانة

(1) Painter : op. cit. p. 44

(2) Vasiliev : op. cit. Tome I p. 317

(3) Eyre : op. cit. p. 64

(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48

الاسلامية تعتبر لغزا يثير حيرة المفكرين • فاللغة العربية ليست باللغة السهلة. القليلة التعقيد حتى يقال ان سهولتها أدت الى سرعة انتشارها من المحيط. الأطلسى حتى الخليج العربى ، ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية. فى أن، تبسط سيادتها على جميع البلاد التى فتحها العرب وحكموها زمنا طويلا . باستثناء فارس • لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية. الا فى ضوء انتشار العقيدة الاسلامية نفسها وما تطلبته هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين • ويقول بيكر أن أوروبا العصور الوسطى نظرت الى انتشار الاسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية • وكان الكنيسة قد أفزعها وآلها ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال العراق ترتبط جميعا بأصول المسيحية ونشأتها ، فراحت تفسر انتشار الاسلام فى هذه البلاد على أنه لم يتم الا بعد السف (١) • ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة - التى ما زال بعض المتعلمين فى أوروبا حتى اليوم يعتقدون فى صحتها - بعيدة عن الواقع ، لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة ، وانما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير • فسيطرة العرب السياسية هى التى انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الاسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالى البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود سواء ، وهو تسامح لم يحفظوا به فى ظل حكامهم السابقين (٢) •

وقد أجمع الباحثون أن الحضارة الاسلامية كانت أعظم حضارة شهدتها
العالم فى العصور الوسطى • فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العناصر
البربرية من جرمان ، وغير جرمان الذين انسابوا داخل الامبراطورية الرومانية،
والذين لا تقرن أسماؤهم فى التاريخ غالبا الا بالهدم والتخريب (٣) • وفى
الوقت الذى نسمع بما أحدثته غارات الهون والوندال والقوط من تخريب

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 330

(2) Ibid.

(3) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 46

شامل لكثير من أقاليم أوروبا وأفريقية ، اذا بالبلاد التي فتحها العرب واستعمروا فيها تنحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتزود والاستشارة . وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل أسبانيا وصقلية ، قبل فتح العرب لها وأحوالها بعد استقرارهم بها ، اذ تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب الى نشاط فكري وتقدم اقتصادي وعمران شامل وازدياد مطرد في السكان والأموال (١) .

حقيقة ان العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضاري شامل بمعنى الكلمة . ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القسرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها . وبفضل هذا استطاع العرب أن يشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات في غرب آسيا وشمال افريقية ، وهى الدراسات اليونانية التي ترجمها الأراميون والكنعانيون الى لغاتهم السامية حتى جاء العرب لينقلوها الى العربية (٢) . وهكذا أثبتت الأبحاث الأخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارة القديمة في منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلا منها حضارة جديدة ، لأن التطور التاريخي ثابت ومستمر . وبعبارة أخرى فإن الاسلام ورث الحضارة الشرقية الهلنستية وتمهد هذه الحضارة لحفظ اولمبية والتغذية المستمرة . ولكن حدث عندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد أن أخذ الأثر الهلنستى يضعف - الى حد ما - في الحضارة الاسلامية ليزداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية والصينية . وكان ذلك في الوقت نفسه الذي أخذ غرب أوروبا يزداد - هو الآخر - تباعدا عن الحضارة الهلنستية بعد قيام الممالك الجرمانية ، مما أدى الى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الاسلامية والغربية (٣) . وهكذا غدت الحضارة الاسلامية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 432—435

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 330

(3) Ibid.

مجمع العلوم اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والصينية ، في حين غدت اللغة العربية الواسطة الأساسية للترجمة والربط بين هذه العلوم مما جعل الطابع العربي يبدو مميزا لهذه النهضة الحضارية الشاملة (١) .

وكان أن أفادت أوروبا من وحشة العصور المظلمة في أواخر القرن الحادي عشر لتجد نفسها أمام حضارة اسلامية شامخة البناء ، فأخذت أوروبا تقبل على هذه الحضارة الزاهرة ، وأسرع الأوروبيون الى مراكز الحضارة الاسلامية يرتشقون من معينها الفياض ويرتوون من منهلها العذب . وازداد تدفق طلاب العلم الأوروبيين بوجه خاص على الأندلس وصقلية حيث أخذوا يترجمون الى اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمته في الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها من ألوان النشاط الفكري (٢) . حقيقة أن بعض هذه المعلومات التي ترجمها الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخذها العرب عن التراث اليوناني القديم ، ولكن الفضل يرجع اليهم في المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها ، حتى اذا ما اندثر التراث اليوناني - أو كاد يضيع - في الفترة المظلمة الى أعقبت سقوط الامبراطورية في الغرب ، لم يبق التراث اليوناني الفكري قائما في كثير من الحالات الا في التراجم العربية (٣) . وحسبنا ما أحدثه شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة في أوروبا العصور الوسطى (٤) ، وما سببته معارف العرب في الحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات من انقلاب شامل في تطور التفكير الرياضي الأوروبي ، وما ترتب على انتقال معلومات العرب في انفلك والجغرافيا الى الأوروبيين من تطور شامل ، وما اعترف به الأوروبيون أنفسهم من تقدم العرب في الطبيعة والكيمياء والطب ، حتى استمرت الجامعات الأوروبية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر تعتمد على كتب من مؤلفات المسلمين في هذه العلوم (٥) . هذا كله

(1) Deanesly : op. cit. p. 270 & Pirenne : A. Hist. of Europe, p. 48

(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century. p. 287.

(3) Eyre : op. cit. pp. 273—279

(4) Carr. Med. Hist. Vol. 4 p. 296.

(5) Eyre : op. cit. pp. 793—294

سعيد عبد الفتاح عاشور : المدينة الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية

فضلا عن تفوق المسلمين فى الفنون الكبرى والصغرى ، مما جعل الأوربيين يقبلون فى شغف على محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لا تزال واضحة فيما خلفته العصور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة (١) . وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوروبا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الامبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته (٢) .

ولا حاجة بنا الى القول بأن روح التسامح السامية التى عرف بها العرب ، التى لا يوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصور الوسطى ، كان لها أكبر الأثر فى تفهمهم للحضارات الأخرى السابقة تفهما واضحا صحيحا وفى تفهم الأوربيين لحضارتهم تفهما مفيدا واقميا (٣) . ذلك أن العرب لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين ، وسمحوا للمسيحيين واليهود بالتلمذ عليهم والاستفادة منهم ، فأقبل الأوربيون فى الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها مما ساعد على نهضة أوروبا فى العصور الوسطى (٤) .

(١) Lehaby : The Lagacy of the Middle Ages, p. 61.

(٢) Orton : op. cit. p. 91

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 287

(٤) Thompson : op. Vol. 1 pp. 92—93

الباب الخامس

إيطاليا بين ثلاث قوى

اللمبارديون - البابوية - الحلة البيزنطية

لم تكد تمض سنوات قليلة على استسلام آخر القوات القوطية فى شمال إيطاليا للقائد البيزنطى نارسيس ، أو على وفاة الامبراطور جستينيان العظيم سنة ٥٢٥ بعد أن اطمأن إلى سيطرة قواته على شبه الجزيرة الإيطالية ، حتى تعرضت إيطاليا لغزو اللمبارديين الذين تركوا أثر واضحا فى كيانها السياسى ونظمها الاجتماعية وقوانينها العامة والخاصة (١) .

أما هؤلاء اللمبارديون فكانوا آخر الشعوب الجرمانية التى افتحمت الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها . وقد أقاموا فى القرن الأول عند وادى نهر الأودر والجزء الأدنى من نهر الالب ، حتى تحركوا جنوبا بعد قليل . ثم كان أن ظهوروا فى بانونيا فى أوائل القرن السادس حيث دخلوا فى صراع رهيب مع جيرانهم من الشعوب الجرمانية مثل الجىداى ، وخرجوا منهزمين من هذا الصراع سنة ٥٢٧ بفضل تحالفهم مع عنصر الآفار الذين خلفوا الهون فى الأجزاء الشرقية والوسطى من أوروبا (٢) . على أنه يبدو أن اللمبارديين لم يشكوا فى هذه المرات خطرا على الامبراطورية ، بل عماوا كجند مرتزقة فى جيوش جستينيان حتى أن الجزء الأكبر من الجيش البيزنطى ، الذى عمل تحت قيادة نارسيس فى إيطاليا لطرد القوط الشرقيين كان مؤلفا من اللمبارديين (٣) . ولم تلبث الظروف أن جعلت من اللمبارديين قوة خطيرة تهدد الامبراطورية ، وذلك عندما اتحدت قبائلهم

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 289

(2) Wallace -- Hadrill : The Barbarian West, p. 45

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 289

تحت زعامة ملك واحد • وكان ذلك فى الوقت الذى اضطروا تحت ضغط الآفار الى الجلاء عن بانونيا • وهنا تلفت اللبارديون حولهم فلم يجدوا بلدا أصلح لهم وأقرب اليهم من ايطاليا •

وهكذا أخذت جموع اللبارديين تدفق على ايطاليا فى ربيع سنة ٥٦٨ تحت زعامة ملكهم ألبوين Alboin فى وقت كانت الامبراطورية البيزنطية - تحت حكم جستين الثانى - فى حالة لا تسمح لها بارسال جيوش لصد هذا الخطر الداهم ، لذلك تركز الدفاع عن ايطاليا ضد الخطر اللباردى فى المدن المحصنة ذات الأسوار المنيعة • ولكن حتى هذه المدن لم تستطع الصمود ، فلم يكد يمض عام حتى انتشر اللبارديون فوق سهول نهر البو ، واستولوا على فيرونا وميلان دون أن يصادفوا مقاومة جديدة من الأهالى او من الحامية البيزنطية • ثم استطاع اللبارديون اخضاع باقى بعد حصار دام ثلاث سنوات فاتخذوها عاصمة مملكتهم الجديدة التى أخذت منذ ذلك الوقت فى الاتساع السريع (١) • ذلك أن مقتل ألبوين أثناء حركة توسع اللبارديين لم يؤثر فى موقفهم وقوتهم ، اذ استطاع أشراف اللبارديين وزعماء قبائلهم التفوق على القوات البيزنطية الضعيفة ، بل انزال الهزيمة بها ، حتى استولوا على تسكانيا والأجزاء الوسطى من ايطاليا حتى بنفتوم ، فضلا عن السهول الشمالية التى لصق بها اسم اللبارديين حتى اليوم (٢) •

ولم تكن هذه أول مرة تعرض فيها ايطاليا لمحنة الغزو الجرمانى كما سبق أن رأينا ، ولكن الفارق هو أن الشعوب الجرمانية التى غزت ايطاليا من قبل لم تنتزع كل الأراضى من أصحابها الرومان ، وانما اكتفت باغتصاب مساحة تتراوح بين ثلث الأراضى ونصفها ، وتركت الباقى لأصحاب البلاد الأصليين (٣) • أما اللبارديون ، فقد وضعوا أيديهم على جميع الأراضى المفتوحة وأنزلوا الملاك الأصليين الى مرتبة التبعية ، كما أذاقوا الفلاحين كثيرا من الضغط والجور • وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يدل على استمرار هذا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 196

(2) Oman : The Dark Ages. p. 187

(3) Thompson. op. cit. vol. 1 p. 170

الضخمة ، الا أنه من الثابت أن اللبارديين كانوا أعنف العناصر الجرمانية التي غزت إيطاليا وأشدّها قسوة (١) . هذا الى أن اللبارديين امتازوا عن غيرهم من الشعوب الجرمانية بشدة تعصبهم لنظمهم وتقاليدهم الجرمانية وتمسكهم بها . وربما كان من أسباب هذه الظاهرة أنهم دخلوا إيطاليا فاتحين لا حلفاء معاهدين (foederati) للامبراطورية وأنه لم توجد روابط قوية تربطهم بالحضارة الرومانية مثلما كان الحال مع القوط من قبل . هذا زيادة على اعتناقهم للمذهب الأريوسى من جهة وقلة عددهم بالنسبة لأهالى البلاد من جهة أخرى ، مما جعلهم شديدى التعصب لأصلهم الجرمانى ونظمهم الجرمانية . ومن أمثلة هذا التعصب الواضحة أن الملكية اللباردية ظلت انتخابية فى حين أصبحت وراثية فى جميع ما عداها من الممالك الجرمانية (٢) .

وقد وجد موريس امبراطور الدولة البيزنطية (٥٨٢ - ٦٠٢) أن مقاومة الغزو اللباردى لاطاليا غير مجدية ، فلجأ الى وسيلة أكثر نفعا من الناحية العملية وهى اعادة تنظيم الادارة الامبراطورية فى ايطاليا ، على أساس اقامة نظام الدوقيات فى روما وبيروجيا ونابلى وكالبريا ولبيجوريا ، بحيث تخضع كلها للنائب الامبراطورى فى رافنا . وكان النائب الامبراطورى يجمع فى يده السلطتين الحربية والمدنية وكذلك كان الدوقات كل فى دوقيته ، حتى يتمكن الجميع من مواجهة تهديد اللبارديين (٣) . على أن أهم ما يلاحظ على الأملاك البيزنطية فى ايطاليا عندئذ هو تآثرها وعدم ارتباطها ، مما جعل أباطرة القسطنطينية يشعرون بعجزهم عن مواجهة الموقف ويطلبون مساعدة الفرنجة ضد اللبارديين (٤) . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ أوثارى Authari ملك اللبارديين (٥٨٤ - ٥٩٠) يعمل على توحيد قواهم تحت سباته ، حتى اذا ما تم له ذلك بدأ

(1) Orton : op. cit. p. 103

(2) Wallace — Hadrill : op. cit. p. 45

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 178

(4) Oman : The Dark Ages, pp. 190—191

يوجه كل جهوده نحو حرب الفرنجة وصد خطرهم (١) • وثمة تطور آخر هام حدث فى عهد أوثارى هو زواجه من ابنة دوق بافاريا ، وهى أميرة كاثوليكية ، الأمر الذى نشأ عنه اعتناق زوجها للمذهب الكاثوليكي الذى أخذ ينتشر بين اللبارديين فى القرن السابع (٢) •

وبعد أوثارى جاء أجيلولف Agilulf فى حكم اللبارديين (٥٩٠ - ٦١٦) وقد شاء حسن حظ هذا الملك الجديد أن الفرنجة شغلوا بالنازعات الداخلية فيما بينهم عن اللبارديين ، مما مكن الملك اللباردى من انتزاع أجزاء جديدة من أملاك الدولة البيزنطية فى ايطاليا ، حتى توسط البابا جريجورى العظيم فى عقد اتفاقية بين اللبارديين والامبراطورية البيزنطية سنة ٥٦٨ (٣) • على أن تقض النائب الامبراطورى فى ايطاليا لهذه الاتفاقية جعل اللبارديين ينزلون خسارة جسيمة بالامبراطورية ، اذ انتزعوا بادوا سنة ٦٠٢ ثم ماتوا - آخر المعارك البيزنطية فى حوض البو - فى السنة نفسها • وهنا لجأ الامبراطور فوقاس - ازاء الأخطار الجسيمة التى تهدد دولته عندئذ ، وبخاصة من جانب الفرس - الى شراء مسالة اللبارديين مقابل تعهده بدفع جزية سنوية ضخمة لهم • وقد تعرض اللبارديون فى عهد ملكهم أجيلولف لبعض المتاعب والثورات الداخلية ، فضلاً عن التهديدات الخارجية التى واجهت دولتهم من جانب الآفار والسلاف على الحدود الشمالية الشرقية • ولكن على الرغم من كل ذلك فان هذا العصر يمثل دور النضج بالنسبة للبارديين وحضارتهم فى ايطاليا ، اذ أخذوا بعد استقرارهم فى وطنهم الجديد واعتناقهم المسيحية الغربية يهتمون ببناء الكنائس وينصرفون نحو كثير من المشروعات السلمية (٤) •

على أن أشهر ملوك اللبارديين وأهمهم فى التاريخ كان روثارى Rothari (٦٣٦ - ٦٥٢) الذى شهد عصره اتمام غزو شمال ايطاليا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 190—200

(2) Oman : op. cit. p. 193

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 201

(4) Oman : The Dark Ages, p. 195



وانتزع المنطقتين اللتين كانتا لا تزالان تحت سيطرة البيزنطيين ، وهما منطقة ليجوريا الممتدة من نيس الى لونا - بما فيها مدينة جنوا العظيمة - ، والمنطقة المحيطة بمدينة أودرزو Oderzo على شاطئ البندقية . ولم يحصل روثارى على هذه الجهات الا بعد جهاد عنيف وقتال شاق ضد البيزنطيين ، انتهى بانتصاره عليهم بعد أن حملهم خسارة فادحة (١) . ولا ترجع أهمية روثارى في التاريخ الى انتصاراته السابقة فحسب ، بل يرجع جانب كبير من شهرته الى أنه شكل القانون اللباردى وتظمه ، فأصدر سنة ٦٤٣ مجموعة القوانين العرفية الخاصة بالشعب اللباردى والتي لم يسبق تدوينها أبدا من قبل . حقيقة ان القوانين والتشريعات التي أصدرها روثارى (Edictum Rotharis) لا تعدو أن تكون مجموعة بدائية تصور أحوال شعب جرمانى يعيش على الفطرة وسط الأعراس والغابات ، أكثر من تصويرها لشعب أصبح يحيا فى قلب ايطاليا . ولكنها على الرغم من ذلك وعلى الرغم من أن الشطر الأكبر منها يتناول المسائل المتعلقة بالفدية والتزامات الاتباع نحو ساداتهم وتنظيم حقوق الوراثة ، دون أن تجوى شيئا عن حياة الحضر والكنيسة ، فإن أهمية هذه المجموعة عظيمة من حيث دلالتها التاريخية وقيمتها فى تصوير أوضاع الشعب الجرمانية ، فضلا عن كونها أول قانون مدون للبارديين (٢) .

وبعد أن فرغ البيزنطيون من حروب هرقل ضد الفرس ثم العرب ، حاولوا فى عهد الامبراطور قسطنطين الثانى (٦٤١ - ٦٦٨) أن يقفوا موقفا فويا تجاه اللبارديين فى ايطاليا ، ليستغلوا حالة التفكك والانقسام والفوضى التى أسمى فيها اللبارديون عقب وفاة ملكهم روثارى سنة ٦٥٢ فى احياء النفوس الامبراطورى واسترداد ما فقدته الامبراطورية فى شبه الجزيرة الايطالية (٣) . ولذلك هجم البيزنطيون على بنفثوم (٦٥٠ - ٦٦٣) ولكن اللبارديين اتحدوا واختاروا جريمولد دوق بنفثوم ملكا عليهم (٦٦٢ - ٦٧١) وبذلك تمكنوا من مقاومة البيزنطيين (٤) .

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 203

(٢) Lot : The End of the Ancient World, pp. 289. -290

(٣) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 9 ---293

(٤) Diehl & Marçais : op. cit. p. 239.

وهكذا نجح الغزو اللباردى فى القضاء على الوحدة الإيطالية التى أجهده
الامبراطور جستنيان نفسه فى أحيائها ، فظلت إيطاليا حتى القرن التاسع عشر
مجرد اصطلاح جغرافى دون أن تقوم لها وحدة سياسية تنظم أمورها .
والواقع أن إيطاليا غدت فى القرن السابع مقسمة بين ثلاث قوى : اللبارديون
والدولة البيزنطية والبابوية . وان نظرة عابرة يلقيها الباحث على خريطة
إيطاليا عندئذ لتوضح له ما كانت عليه من انقسام وبثرة سياسية حتى صار
من الصعب فى كثير من الحالات أن تتصل الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا
بعضها ببعض الا عن طريق البحر (١) .

ازدياد نفوذ البابوية :

أما الأهمية القصوى لعصر استقرار اللبارديين فى إيطاليا فترجع قبل كل
شئ الى ما شهدته ذلك العصر من ازدياد نفوذ البابوية وسنطاتها السياسى ،
حتى غدت تمثل احدى القوى الحاكمة فى إيطاليا الى جانب اللبارديين .
والدولة البيزنطية . وخير ما يوضح ازدياد نفوذ البابوية فى هذه الفترة هو
تضاعف ممتلكات الكنيسة فى إيطاليا ، وهى الأملاك التى لم تضمن للبابوية
موردا ماليا ضخما فحسب بل حققت لها نوعا من النفوذ المعنوى والمادى فى
البلاد (٢) . ذلك أن أساقفة إيطاليا استغلوا فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية
التي سادت إيطاليا فى ذلك العصر وأخذوا يمتلكون الأراضى ويتخذون
لأنفسهم صفة الحكام العلمانيين ، فيعينون موظفى البلديات فى المدن ويشرفون
على الأعمال العامة ويجمعون الضرائب ، وغير ذلك من الأعمال التى هى فى
الواقع من صميم اختصاص الحكام العلمانيين (٣) . وقد ساعد رجال الكنيسة
على تحقيق أغراضهم ومطامعهم فى الاستيلاء على الأراضى ، أن
سغار أملاك الأراضى فى إيطاليا بحثوا عن سلطة قوية يدخلون تحت
حمايتها ، فلم يجدوا وسيل الفوضى الناجمة عن النزاع بين اللبارديين

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 172- 173

(2) Moss : op. cit. p. 132

(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 229

والبيزنطيين سوى الكنيسة ، فسلموها أراضيهم مختارين وأصبحوا شسبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان (١) . أما البابا فكان لا يختلف - من الوجهة النظرية - عن غيره من الرعايا البيزنطيين ، وذلك من حيث تبعيته للنائب الامبراطورى . ولكن نفوذ هذا النائب الامبراطورى أخذ يخبو ويتضاءل تدريجيا حتى أصبح غير ملموس ، ولا سيما أن نواب الامبراطور البيزنطى لم يحاولوا أن يتخذوا روما مركزا للدفاع ضد الخطر اللمباردى ، وانما أثروا الإقامة فى رافنا وبذلك تركوا روما وليس فيها الا سيد واحد هو البابا (٢) . وهنا نلاحظ أنه اذا كان البابا قد أصبح أعظم ملاك الأراضي فى ايطاليا فان الممتلكات البابوية لم تقتصر على المنطقة المحيطة بروما ، وانما انتشرت فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة الايطالية ، وازدادت عن طريق الهبات والعطايا حتى امتدت الى صقلية فضلا عن ممتلكات البابا خارج ايطاليا ، بحيث أنه يمكن القول بأن الموارد الاقتصادية الواسعة التى نعمت بها البابوية كنت السر فى القوة الزمنية التى تمتعت بها (٣) . وقد تعرضت البابوية فى عهد البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) لخطر اللمباردين الذين استولوا على الأملاك البابوية فى شمال ايطاليا ، كما أدى توسعهم فى أواسط ايطاليا الى تهديد الأراضي البابوية فى تلك الجهات . وربما كان الخطر اللمباردى هو الذى جعل البابوية تحافظ على علاقتها الودية مع الدولة البيزنطية فى ذلك الدور حتى تشر على نصير آخر يحميها من أخطار الدولة البيزنطية واللمباردين جميعا (٤) .

والواقع أن البابوية اتخذت صبغتها العالمية القوية التى ميزتها طـوال العصور الوسطى فى عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم . وقد ولد هذا الرجل فى روما سنة ٥٤٠ فى أسرة عريقة من النبلاء ، ولكنه أظهر منذ حداثة نزعة دينية قوية فاستغل الثروة الطائلة التى ورثها عن أهله فى تأسيس ستة أديرة فى صقلية ودير سابع فى روما . ولم يلبث أن استقال من المنصب

(1) Moss : op. cit. p. 132

(2) Oman : The Dark Ages, pp. 198—199

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 305

(5) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 174

الكبير الذى عينه فيه الامبراطور جستين الثانى ، ووزع ما تبقى لديه من مال على الفقراء والمحتاجين مفضلا الانقطاع للحياة الديرية (١) . وعندما أجمع رجال الدين على اختياره لمنصب البابوية سنة ٥٩٠ - على الرغم من تمنعه الشديد - أخذت تظهر شخصية هذا البابا الجديد على حقيقتها ، لتعبر عن كثير من الصفات التى امتاز بها أهالى المصور الوسطى ، مثل ولعه باللاهوت واعتقاده فى المعجزات وبفضه للتراث الكلاسيكى وحماسه للديرية (٢) . وإلى جانب كل ذلك اتصف جريجورى العظيم بالتواضع الجرم ، حتى اتخذ لنفسه وهو بابا لقب « خادم خدام الله Servus Servorum Dei » زيادة على بساطته المتناهية . ولكنه فى مباشرته وظيفته البابوية اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفسه وسلطته العليا كما يتضح من رسائله العديدة الى معاصريه من الأساقفة والملوك لينهاهم فيها عن المفاصد ويأمرهم بالخير والاستقامة (٣) . وتبدو عظمة جريجورى الأول أشد ما تكون وضوحا فى النواحي السياسية والادارية والتبشيرية ، فحكومته فى روما كانت أقرب الى الحكومة الدنيوية منها الى الحكومة الدينية . ذلك أنه أخذ ينظم وسائل الدفاع ضد اللمبارديين كاعداد الجند وتحصين الأسوار وشحن القلاع ، بل توجيه الهجمات . وفى حالات أخرى كان هو الذى يفاوض اللمبارديين باسم الشعب الرومانى حتى عقد معهم هدنة سنة ٥٩٢ ، كما عقد صلحا نهائيا مع ملكهم أجبولف سنة ٥٩٨ أنهى به الحروب المتواصلة التى استمرت ثلاثين سنة منذ الغزو المباردى لاطاليا (٤) . وتشهد رسائل جريجورى الأول - التى دونت عند نهاية القرن السادس - على مدى دقة هذا البابا وكفايته الادارية . ذلك أن هذه الرسائل تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية عن كيفية ادارة جريجورى لأملك البابوية الواسعة ، وعن جهوده فى تنمية مواردها والاشراف اشرافا دقيقا على إيراداتها ومصروفاتها (٥) . وقد أراد جريجورى الأول أن يستغل إيراد

(1) Dudden : Gregory the Great; vol. 1 p. 106

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 236—237.

(3) Oman: the Dark Ages, p. 201

(4) Dudden : op. cit. vol. 1, p. 246

(5) Moss : op. cit. p. 132

البابوية الضخم في مختلف الأغراض التي تعود على أبناء العالم المسيحي بالخير ، مثل فدية أسرى المسيحيين ، وتخفيف آلام المجاعات وإنشاء المستشفيات للعناية بالمرضى والجرحى ، وتدعيم الكنائس أو إصلاحها بعد أن تعرض كثير منها لبعث المباردين (١) . وهنا نلاحظ أن أفق جريجورى العظيم لم يقف عند الحدود الإيطالية ، لأن هذا البابا حرص على أن يشعر جميع أبناء العالم المسيحي بأهميته بوصفه أباً روحياً للجميع ، فإذا سمع بحدوث أزمة اقتصادية في القسطنطينية أسرع بإرسال السفن إليها من صقلية محملة بالقمح ، وإذا علم بحاجة قبط مصر إلى الأخشاب أرسل لهم حاجتهم من سردينيا . . وهكذا (٢) .

وعلى الرغم من أن اختيار جريجورى العظيم لمنصب البابوية تطلب موافقة الامبراطور البيزنطى وقبول البابا الجديد لجميع قرارات المجامع الدينية السابقة ، إلا أن جريجورى أظهر دائماً تمسكاً بسيادة كرسي روما على بقية الكراسى الأسقفية في الشرق والغرب (٣) ، حتى أنه حاول -دون جدوى- فرض سيادة البابوية - في الناحية القضائية - على الأساقفة الشرقيين بما فيهم بطريرق القسطنطينية . ويبدو أن ضعف النائب الامبراطورى فى إيطاليا ، وافتقاره فى معظم الحالات الى المال والرجال ، ساعد على ازدياد نفوذ البابوية المدنى فى بقية انحاء إيطاليا ، فضلاً عما فعله جريجورى من مد نفوذ البابوية الفعلى الى أفريقية وغاليا وأسبانيا وانجلترا (٤) . ذلك أنه عمل على نشر المذهب الكاثوليكي بين القوط الغربيين ، وبذلك أدخل أسبانيا فى حظيرة الكنيسة الغربية ، كما أرسل بعثة القديس أوغسطين الصغير الى انجلترا ، الأمر الذى أدى الى انتشار المسيحية فيها من جهة وإلى سيطرة البابا على كنيستها من جهة أخرى . أما فى إيطاليا فقد استطاع جريجورى العظيم أن يدعم

(1) Deanesly: op. cit. p. 180 & Moss : op. cit. p. 132

(2) Thompson : op. cit. vol. 1 p. 178

(3) Cam. Med. Hist. vol. 1 p. 246

(4) Dudden : op. cit. vol. 2 pp. 201—237

الكنيسة الكاثوليكية بين اللبارديين عن طريق تأثيره على زوجة ملكهم أجيلولف (١) • وفى غالبا كانت رغبات جريجورى العظيم تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة ، حتى أصبح لهذا البابا كلمة مسموعة فى جميع أنحاء غالبا • حقيقة أن جريجورى لم يتردد فى طلب معونة الامبراطورية البيزنطية لاختضاع أساقفة اليريا أو تأديب هراطقه الدونانيين فى شمال افريقية (٢) ولكنه بلغ بهذا البابا أنه فى الوقت الذى كان أحوج ما يكون الى مساعدة الامبراطورية البيزنطية ، لم يتراجع عن تهديد الامبراطور موريس عندما لجأ الأخير الى تقييد نفوذ الأديرة وتحريم دخولها على الرجال القادرين على الخدمة العسكرية ، وهكذا استطاع جريجورى - بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهيبتها - أن يضرب مثلا عاليا احتذاه خلفاؤه من البابوات (٣) ويكفى أنه ترك لخلفائه - عندما توفى سنة ٦٠٤ - بناء بابويا شامخا ونفوذا روحيا واسعا وسلطة زمنية قوية ، كما حقق للمنصب البابوى قسما من السمير لم يسبق أن حظت به البابوية من قبل (٤) •

على أن هذه المكانة السامية التى أضحت فيها البابوية منذ عهد جريجورى الأول ، سرعان ما أدت الى نوع من التنافس بينها وبين الامبراطورية نتيجة لاعتزاز كل من الطرفين بسمو مركزه ، وهو تنافس أدى الى الصدام أكثر من مرة فى العصور الوسطى • وقد بدأ الاحتكاك أول مرة بين الامبراطور قسطنطين الثانى (قسطنطينوس) ٦٤١ - ٦٦٨ ، والبابا مارتن الأول (٦٤٩ - ٦٥٥) وكان هذا البابا قد عقد مجمعا فى روما سنة ٦٤٩ أعلن بطلان المرسوم الذى أصدره الامبراطور بخصوص تحريم أى نقاش حول المونوفيزيتية ، فى الوقت الذى كانت البابوية تطمح فى تحريم المونوفيزيتية نفسها واضطهاد أتباعها • ولم يستطع الامبراطور أن يغفر للبابا هذه اللطمة فأمر نائبه فى إيطاليا بانتهاز الفرصة للقبض على البابا ، فتم ذلك وأرسل البابا الى القسطنطينية

(1) Oman : The Dark Ages, p. 202

(2) Moss: op. cit. p. 133

(3) Pudden : op. cit. vol. 2 pp. 238—239

(4) Oman : The Dark Ages. p. 203

حيث حوكم ونفى الى القرم ليموت ٦٥٥ (١) * ويبدو أن حرص الامبراطور قسطنز على تحقيق سيطرته شجعه على الانتقال الى ايطاليا سنة ٦٦٣ حيث اشتبك مع اللبارديين في بعض مواقع في الجنوب ، ثم قصد روما بعد ذلك حيث قدم له البابا فيتاليان Vitalian (٦٥٧ - ٦٧٢) فروض الولاء والتبعية (٢) * على أن هذه الزيارات أضرت في الواقع بالامبراطور وسمعته أكثر مما أفادته ، نظرا لأنه لم يتورع عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة التي وجدها في روما ، هذا في الوقت الذي لم يغفر الايطاليون للامبراطور قسطنز ما فعله بالبابا مارتن الذي اعتبروه شهيدا * ويبدو أن قسطنز أحس عندئذ بخطورة ازدياد نفوذ البابوية ، بدليل انه حاول أن يقلم أظفارها ، فمنح رئيس أساقفة رافنا حق الاستقلال عن البابوية وعدم الخضوع لسلطانها الروحي * وقد استمر هذا الاشفاق بين روما وأسقفية رافنا زهاء عشرين سنة ، حتى انتهى الأمر بعودة الأخيرة الى حظيرة البابوية .

ومن الواضح أنه لو كان هناك رجل قوى على رأس الكنيسة الغربية لاستطاع أن يقف من الامبراطور قسطنز موقفا صلبا عنيدا ، ولتطوّر الأمر عندئذ الى نزاع خطير بين البابوية والامبراطورية * ولكن البابا فيتاليان كان ضعيفا ، فخشي أن يتعرض للمصير الذي تعرض له مارتن من قبل وآثر الاستسلام والخضوع ، الأمر الذي أجّل وقوع الصدام بين روما والقسطنطينية ، ولكن الى حين (٤) * ذلك أن قسطنطين الثالث (٦٦٨ - ٦٨٥) حرص على علاقته الودية مع البابوية ، ولكن هذه العلاقات الطيبة لم تستمر في عهد خليفته جستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥) الذي عاد فحرض نائبه في ايطاليا على القبض على البابا سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١) وارساله الى القسطنطينية * ولكن النائب الامبراطوري تعرض - عند محاولة تنفيذ هذا الأمر - لمعارضة الحامية البيزنطية نفسها ، فضلا عن أهل روما ، حتى انتهى الأمر بانتصار البابا في الوقت الذي أدت سياسة الامبراطور جستنيان الثاني

(١) Diehl & Marçais : op. cit. p. 231

(٢) Idem : p. 239

(٣) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 394

(٤) Oman : The Dark Ages, pp. 277—278

الى عزله (١) . وقد ساعدت الفوضى التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية في الاثنتين والعشرين سنة التالية (٦٩٥ - ٧١٧) على ضعف نفوذها في إيطاليا ، وهو الأمر الذي أعطى البابوية فرصة للظهور والتمتع بسلطات زمنية واسعة ، حتى أن البابا حنا السادس (٧٠١ - ٧٠٥) باشر جمع الضرائب في روما كما عقد المعاهدات مع دوق بنفتو اللباردى .

م كان أن ساءت العلاقات الى حد كبير بين روما والقسطنطينية على عهد البابا جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) عندما أخذ الامبراطور ليو الأيسورى يباشر سياسته اللاأيقونية . ويبدو أن جريجورى الثانى استغل هذه الأزمة من جهة ، كما استغل نفوذ الامبراطورية في إيطاليا - ما عدا الجنوب - من جهة أخرى ، ليتحرر من سلطة الامبراطورية تحررا تاما ، ويجعل سلطة البابا الزمنية في أواسط ايطاليا حقيقة ملموسة . لذلك استحوذ جريجورى الثانى على السلطات الامبراطورية مثل جمع الضرائب في إيطاليا سنة ٧٣٥ ، كما أصدر قرار الحرمان ضد النائب الامبراطورى مما يعتبر خروجا على الامبراطور (٢) . وفى الوقت الذى اشتد الخلاف والقتال بين اتباع الامبراطور واتباع البابا في إيطاليا ، أعاد اللبارديون توحيد جبهتهم تحت زعامة ليتوبراند (٧١٢ - ٧٤٣) الذى يعتبر هو الآخر من أعظم ملوك اللبارديين . وقد عرف عن ليتوبراند تحمسه للكنيسة حتى أنه أسس عددا كبيرا من الأديرة ، فى الوقت الذى اختار ألا يتخذ سياسة معادية للامبراطورية . وكل ما هنالك هو أنه صمم على بسط سيادة الملكية اللباردية على جميع أنحاء إيطاليا ، مما أوقعه فى صراع مع غيره من زعماء اللبارديين فضلا عن الامبراطورية والبابوية جميعا (٣) . وهكذا أخذ اللبارديون يهاجمون الممتلكات الامبراطورية ويستولون على المدن التابعة للامبراطور البيزنطى واحدة بعد أخرى مثل بولونيا وأوزيمو Osimo وريميني Rimini ويبدو أن ليتوبراند لم يشأ أن يلتحم بالبابوية عندئذ ، فنزل عند رغبة البابا

(1) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 408—409

(2) Deanesly : op. Cit. p. 411

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 290

رسله قلعة سوتري Sutri التي انتزعها اللمارديون من البيزنطيين .
قرب روما (١) •

وفي ذلك الوقت استمر جريجورى الثانى يرد على الامبراطور ليو الثالث فى لهجة عنيفة ، مقبحا رأيه فى تحريم عبادة الأيقونات ، مهددا اياه بالاحتفاء بالمباردين اذا جرؤ الامبراطور على ارسال جيش ضد روما (سنة ٧٢٩) (٢) • ومن الواضح أن الاحتفاء بالمباردين كان اخر ما يمكن أن تلجأ اليه البابوية ، لأن وقوع روما فى قبضة ملك قوى مثل لتوبراند معناه القضاء التام على ما تطمح فى تحقيقه البابوية من سلطة زمنية • ثم انه ليس من المعقول أن تعمل البابوية على تخليص نفسها من سيطرة الامبراطور البيزنطى لتلقى بنفسها تحت رحمة الملك اللماردى • وهكذا يبدو أن جريجورى الثانى - عندما هدد الامبراطور البيزنطى بالاحتفاء بالمباردين - لم يكن بجادا فى تهديده ، بدليل أنه قام عندئذ بذكر بدور الفرقة بين لتوبراند فى الشمال ودوقنى بنفتو وسبوليتو فى الجنوب (٣) وسرعان ما أدركت البابوية أنها نجحت فى القضاء على النفوذ البيزنطى فى أواسط إيطاليا ، ولكنها أصبحت وحيدة وجها لوجه أمام خصم آخر أقرب وأشد خطرا وهم اللمارديون •

وقد حدث ذلك فى الوقت أن توفى البابا جريجورى الثانى وخلفه البابا جريجورى الثالث (٧٣١ - ٧٤١) ، الذى كان هو الآخر من كبار المتحسين للأيقونية ، مما أوقعه فى عداوة مرير مع الامبراطور البيزنطى • وكان أن رد الامبراطور ليو الأيسورى على موقف البابا الجديد باصدار مرسوم لتحديد اختصاص البابوية القضائى وفصل أسقفيات اليريا وجنوب إيطاليا عن البابوية وسلطانها (٤) • وفى العام التالى (سنة ٧٣٢) أعد الامبراطور ليو الثالث

(1) Thompson : op. cit. vol. I p. 181.

(2) Oman : The Dark Ages, pp. 282—283

(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 691—695

(4) Diehl & Marçais : op. cit. p. 267

أسطولاً وحملة لاسترداد أملاك الامبراطورية من اللبارديين ، والقبض على جريجورى الثالث . ولكن الطبيعة أبت الا أن تماكس الامبراطور ، فهبت زوبعة فى البحر الأدرياتي حطمت الأسطول الامبراطورى وقضت على المشرع البيزنطى . وتعتبر هذه آخر محاولة جدية بذلتها الامبراطورية البيزنطية لاسترداد نفوذها المفقود فى ايطاليا ، اذ اضطر الأباطرة الشرقيون بعد ذلك الى ترك البابوات وشأنهم فى حين لم يعد للنائب الامبراطورى نفوذ يذكر (١) .

التحالف بين البابوية والفرنجة :

أما عن الموقف فى ايطاليا فقد عمل الملك ليتوبراند على نشر السلام فى أنحاء البلاد طوال ثمانية الأعوام التى أعقبت اتفاقيته مع البابوية سنة ٧٣٠ . وتمثل الشواهد التاريخية على أن ليتوبراند كان رجلاً تقياً ، احترم البابوية وناصر المسيحيين ضد أعدائهم . من ذلك أنه عندما غزا المسلمون اقليم يروفانس (٧٣٦ - ٧٣٧) طلب شارل مارتل مساعدة ليتوبراند ضد مسلمى الأندلس ، فأسهم اللبارديون فى طردهم من غاليا (٢) . على أن جو السلام الذى ساد ايطاليا حتى سنة ٧٣٨ ، لم تلبث أن أفسدته ثورة دوق سبوليتو ضد ليتوبراند (٣) . والمهم من أمر هذه الثورة هو أن فشلها أدى الى فرار الأمير النائر الى روما محتمياً بالبابوية مما أثار ليتوبراند وجعله يزحف الى روما ويحاصرها . وفى هذه الأزمة لم يستطع جريجورى الثالث أن يعتمد على مساعدة امبراطور القسطنطينية ، فلم يجد البابا أمامه سوى شارل مارتل رئيس بلاط الفرنجة وصاحب النفوذ الفعلى فى الدولة ، فأرسل اليه طالباً المساعدة ضد اللبارديين (٧٣٩) (٤) . على أن الظروف تجمعت عندئذ لتجعل مساعدة شارل مارتل للبابا أمراً متعذراً ، اذ كان الأول مازال مشغولاً بأمر المسلمين الذين لم تنقطع اغاراتهم على غاليا ، فضلاً عن أن شارل مارتل

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 284—285 e

(2) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 129

(3) Oman : The Dark Ages, p. 285

(4) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 137

كان لا يزال يذكر فضل ملك اللبارديين في مساعدته منذ عدة سنوات ضد المسلمين . وهكذا لم يصادف طلب البابا جريجورى الثالث قبولا من شارل مارتل ، ولا سيما أن رجال الدين الفرنجة كانوا معادين لشارل مارتل بسبب استيلائه على أراضي الكنيسة . وإذا كان ليتوبراند قد استغل هذه الظروف في الاستيلاء على دوقية سبوليتو ثم مهاجمة المناطق المجاورة لروما (١) ، إلا أن الأوضاع أخذت تتغير عندما توفي البابا جريجورى الثالث وشارل مارتل جميعا سنة ٧٤٩ ، في الوقت الذي عاد النائب الامبراطورى الى رافنا ليجدد جهوده ضد اللبارديين . وهنا أدرك ليتوبراند أن مصالحه تتطلب الاتفاق مع البابا الجديد زكريا (٧٥١ - ٧٥٢) ، فتعهد له بالمحافظة على السلام لمدة عشرين سنة ، ورد كافة المدن والممتلكات التى انتزعها اللبارديون من البابوية . ومع ذلك فإن هذه الحلول لم تنجح فى اطفاء ثورة الغضب والكراهية التى أثارها أعمال اللبارديين فى نفوس البابوات . لذلك من الخطأ الظن بأن البابوية هدأت بالا بعد أن استرضى ليتوبراند البابا زكريا سنة ٧٤٢ ، فكل ما هنالك هو أنها أخذت تتربص الدوائر باللبارديين وتترقب الوقت المناسب للايقاع بهم (٢) .

ثم كان أن مات ليتوبراند سنة ٧٤٣ قبل أن يتمكن من مهاجمة النائب الامبراطورى ، فتعاقب فى حكم اللبارديين الملك هلدبراند (٧٤٣ - ٧٤٤) . ثم راتشيس Ratchis (٧٤٤ - ٧٤٩) ثم استولف (٧٤٩ - ٧٥٦) . وقد أظهر أستولف هذا تمسكا شديدا بسياسة ليتوبراند الخاصة بتوحيد إيطاليا ، مما جعل اللبارديين يعودون من جديد الى تهديد الممتلكات البيزنطية والبابوية جميعا . وكان أن وصلت مملكة اللبارديين فى عهد أستولف هذا الى أقصى درجات الاتساع بعد أن نجح فى الاستيلاء على رافنا سنة ٧٥١ (٣) ، دون أن يلقى مقاومة تذكر ، أو حتى معارضة من الامبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) الذى كان مشغولا فى بلاده

(١) Thompson : op. cit. Vol: 1 pp. 182—183

(٢) Oman : The Dark Ages p: 287

(٣) Ostrogorsky : op. cit. p. 151

بالحركة الأيقونية من جهة وبمحاربة البلغار والفرس والمسلمين من جهة أخرى (١) . وبعد ذلك اتجه أستولف نحو اخضاع الممتلكات البابوية ، بل البابوية نفسها ، فطلب من البابا ستفن الثاني (الثالث) (٧٥٢ - ٧٥٧) أن تعترف روما بالتبعية للملك اللباردين فضلا عن قيام البابوية بدفع جزية سنوية . وقد حاول البابا أن يخيف أستولف بتوقيع عقوبة الحرمان عليه أو أن يهدده بطلب معونة الامبراطور البيزنطى ، ولكن هذه التهديدات وأشباهاها لم تنجح فى تحويل الملك اللباردى عن قصده . وفى هذا الموقف الحرج وجد البابا ستفن نفسه مضطرا الى العمل بسرعة للخروج من ذلك المأزق . وشاعت الظروف أن يكون ذلك فى الوقت الذى أعلن بين القصير - ابن شارل مارتل - نفسه ملكا سنة ٧٥٢ بعد عزل آخر ملوك البيت الميروفنجى . وكان أن تم الاتصال سرا فى أوائل سنة ٧٥٣ بين البابا ستفن الثاني من جهة وبين القصير من جهة أخرى ، وترتب على ذلك فرار البابا فى أكتوبر ٧٥٣ الى غاليا حيث تم الاتفاق بينه وبين بين . وفى يوليو ٧٥٤ أعاد البابا تدريج بين بيده وأضفى عليه لقب البطرىقية من باب التشريف (٢) .

أما أستولف فقد أفرغه نبأ التحالف بين البابوية والملكية الفرنجية ، وحاول اصلاح الأمور ولكن بعد فوات الأوان ، اذ لم تلبث أن عزت جيوش الفرنجة شمال ايطاليا فى ربيع سنة ٧٥٤ . وهنا لم يستطع أستولف المقاومة فحلت به هزيمة جعلته يفر مدحورا الى بافيا ، حتى حضر بين القصير بنفسه وحاصر أستولف فى معقله . وقد عرض أستولف الصلح فى هذه المرحلة على أساس أن يقدم فروض التبعية الشخصية للملك الفرنجة وأن يرد للبابا حقوقه المسلوبة . وبعد توقيع هذه الاتفاقية عاد البابا ظافرا الى روما كما رجع بين الى بلاده . ولكن لم يكد أستولف يعلم بعودة بين حتى أخذ يماطل فى تنفيذ اتفاقية الصلح ، فامتنع عن رد المدن التى سبق أن انتزعها من

(1) Lot : The End of the Ancient World. p. 302

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 584—585

البابوية ٧٥٣ ، بل عاد الى محاصرة روما فى شتاء ٧٥٥ - ٧٥٦ ، مما تطلب عودة بيسن القصير الى ايطاليا للمرة الثانية لينزل هزيمة أخرى بالمبارديين (١) وفى هذه المرة كانت الشروط التى عرضت على أستولف أشد قسوة ، اذ ألزمه بيسن بتقديم ثلث دخله الملكى بمثابة جزية سنوية فضلا عن مدينة رافنه وعدد آخر من المدن التى أخلاها المبارديون ، فى حين توفى أستولف سنة ٧٥٦ . ومن ثم أخذت دولة المبارديين فى الذبول والانحلال ولم تعد تمثل خطرا على البابوية أو تسبب ازعاجا لدولة الفرنجة (٢) .

أما البابوية فقد غدت أملاكها أقوى وحدة مترابطة فى ايطاليا ، اذ امتدت من البحر الأدرياتي ورافنا شرقا حتى روما غربا عبر الأبنين ، فى حين فشلت المملكة اللمباردية فى محاولتها توحيد ايطاليا . وهكذا اكتسبت البابوية سلطانا زهيا الى جانب سلطانها الروحي ، حتى ظلت عقبة كأداء فى سبيل الوحدة الايطالية حتى القرن التاسع عشر . ومع أن حوادث سنة ٧٥٦ لم تؤد الى اتخاذ خطوة نهائية فاصلة لتحرير البابوية من روابطها الرسمية بالامبراطورية البيزنطية ، الا أنه من الواضح أن البابوية تحررت فعلا - وبطريقة عملية - من تبعيتها للقسطنطينية .

(1) Idem, pp. 589- 590

(2) Thompson : op. cit. Vol. I p. 186

الباب السادس

ظهور الديرية

شهد العصر الذى أخذ فيه نفوذ المسيحية يزداد تدريجيا فى الامبراطورية الرومانية ، نشأة حركة دينية كانت فى أول أمرها مستقلة عن الكنيسة ولكنها لم تلبث أن أصبحت جزءا أساسيا من النظام الكنسى • والواقع أنه يمكن القول بأن بذور حياة الزهد والرهابية وُجدت فى أصول المسيحية الأولى ، فالعهد الجديد لم يخل من اشارات عن تحريض الناس على الانصراف للعبادة متى استطاعوا ذلك (١) ، هذا فضلا عما جاء فى أقوال القديس بولس من حث على حياة العزوبة (٢) التى تعتبر ركنا مهما من أركان حياة الزهد والرهابية (٣) • وإذا كنا نسمع عن أمثلة لبعض المخلصين الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية فى أوائل عهد المسيحية (٤) ، الا أن هذا اللون من ألوان الحياة الدينية لم يصبح شيئا مألوفا فى الشرق المسيحى قبل القرن الرابع ، فى حين لم ينتشر فى الغرب قبل القرن الخامس ولم يصبح شائعا قبل القرن السادس • ويفهم من هذا أن الحياة الديرية شرقية الأصل ، بل انها أقوى أثر تركه الشرق فى المسيحية (٥) •

والواقع أن الزهد والعزلة - وهما من الدعائم الأولى للحياة الديرية - مهدا فى أول الأمر لنوع من حياة الرهبانية الانفرادية التى تحولت فيما بعد الى حياة ديرية اجتماعية • وهنا نستطيع تفسير الرغبة فى العزلة والتقشف

(١) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل » • (انجيل متى - الاصحاح التاسع عشر ١٢) •
(٢) « وأما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة » (العهد الجديد - رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثيوس - الاصحاح السابع - ١) •

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 521

(4) Bury : Hist of the Later Roman Empire, Vol. 1 p. 383

(5) Thompson : Vol. 1 p. 219

بأنها كانت ثورة نفسية ضد ما ساد المجتمع الرومانى فى القرن الرابع من فساد . فالفرق الكبير بين تعاليم العهد الجديد وبساطة الكنيسة من جهة ، وبين فساد المجتمع الخارجى من جهة أخرى ، دفع كثيرا من المخلصين الى الفرار نحو الأماكن النائية يشدون راحة الفكر والضمير (١) . هذا فضلا عن أن الاضطهاد الوحشى الذى لقيه المسيحيون ، والذى بلغ أشده فى أواخر عهد دقلديانوس جعل الكثيرين يفكرون فى الفرار بعقيدتهم الى الأماكن البعيدة . وهكذا أصبح نبذ الممتلكات والأهل والموطن نوعا من أنواع الرياضة النفسية التى تستهدف خدمة الدين ، فالفقر والحرمان يؤديان الى طهارة النفس ، والعزلة فى جو تكتنفه المصاعب من شأنها أن تمحو الذنوب وتزيل الآثام .

والمعروف أن حياة الرهبانية ظهرت لأول مرة فى المسيحية فى مصر ، حيث ساعدت طبيعة البلاد وجوها على نشأة هذه الحياة وتطورها (٢) . ويعتبر القديس بولس الطيبى (حوالى ٢٥١ - ٣٥٦) والقديس أنطون - المعاصر له - أول مثلين نعرفهما عن الرهبانية فى المسيحية . ويبدو أننا لا نستطيع الكلام بالتفصيل عن حياة القديس بولس نظرا لأن المتأخرين أضفوا عليه حالة واسعة من النور يصعب فى ضوءها المصطنع تمييز الحقيقة من الخيال ، حتى قيل أنه قضى سبعة وتسعين عاما وحيدا منفردا فى أحد كهوف طيبة بمصر العليا . أما القديس أنطون فقد نظم كثيرا من مستعمرات الرهبان فى مصر العليا ، خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفردا ولا يشترك رهبان المستعمرة الا فى انتاج ما يلزمهم من طعام وملبس ، فالحياة الدينية المثلى فى نظر القديس أنطون قامت على أساس الانفرادية (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فان الرهبانية الانفرادية تعتبر نوعا من التطرف

(1) Ibid.

(2) Workman : The Evolution of the Monastic Ideal
p. 86.

(3) Painter. op. cit. p. 17

البعيد عن الحكمة وطبيعة الانسان الاجتماعية * فليس من الدين فى شىء أن يتعد الفرد عن اخوانه من بنى الانسان ليعيش وحيدا وسط الهوام ، يقضى أيامه فى جوع وحرمان ، أو يأكل ما تيسر له من طعام فاسد دون أن يرتدى شيئا سوى أسمال بالية ، ويحرم نفسه حتى من نظافة الجسد (١) . لذلك كان لابد للعقلاء من الراغبين فى الانقطاع للعبادة من ابتكار نظام آخر . يتفق وطبيعة البشر * ومن هنا نشأ النظام الديرى الذى يجمع بين الرغبة فى الانقطاع للعبادة من جهة وبين طبيعة البشر الاجتماعية من جهة أخرى . وكانت أولى الأديرة التى عرفتها المسيحية هى تلك التى شيدها القديس باخوم قرب دندرة وأخميم بصعيد مصر (٢) * أما القديس باخوم هذا فيبدو أنه كان من أهالى الوجه البحرى ، ولد فى أسرة ثرية من أبوين وثنيين ، ثم اشتغل جنديا فى جيش قنسطنطين ، حتى اهتدى الى المسيحية فانسحب الى الصحراء لياشر حياة الرهبانية الانفرادية متبعا مذهب « العزلة عبادة » . ولم يلبث أن ضاق باخوم ذرعا بهذه الحياة التى لا تتفق وطبيعة البشر بحكم أن الانسان اجتماعى بالطبع ، ولذلك شيد أول دير عرفته المسيحية قرب دندرة حوالى ٣١٥ - ٣٢٠ (٣) * وهنا يلاحظ ان باخوم تأثر عند إقامة ديره الجديد بما شاهده فى الجيش الرومانى من نظم ، فجاء الدير فى تصميمه وخلواته أشبه شىء بما هو معروف عن المخيمات الرومانية ، كما أن القديس باخوم استن لديره بعض التنظيمات شبه العسكرية المسروقة فى الجيش الرومانى ، ففرض على أعضاء الدير الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليومى ، زيادة على مباشرة الطقوس الدينية * وسرعان ما تكشفت للمعاصرين مزايا هذا النوع الجديد من حياة التمدد ، فاقبلوا على الديرية اقبالا شديدا ، حتى أن المؤرخ المعاصر بلاديوس Palladius الذى زار مصر حوالى سنة ٣٩٠ قدر أتباع القديس باخوم بثلاثة آلاف راسب ، فضلا عن سبعة آلاف كانت تضمهم بعض المؤسسات الديرية الأخرى (٤) * على أنه يلاحظ أيضا

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 219—220

(2) Bury : op. cit. p. Vol. 1 p. 338

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 524

بخصوص هذه الأديرة الباخومية ، أنها كانت منفصلة بعضها عن بعض ، ولكل منها إدارته المستقلة (٢) ، كما أن الحياة الاجتماعية فيها كانت محدودة . بل إن الطابع الغالب على الحياة داخل هذه الأديرة كان يميل إلى العزلة والانفرادية لأن كل راهب عاش شبه مستقل في خليته أو قليته مع الزامه بالاجتماع مع اخوانه للقيام بالصلوات المشتركة (٣) .

ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت حياة الرهبانية والديرية خارج حدود مصر في الجزء الشرقي من العالم الروماني ، أي في بلاد الشام وقبرس وما بين النهرين وآسيا الصغرى (٤) . ففي بلاد الشام نسمع عن القديس سيمون العمودي (ت ٤٥٩) الذي اتخذ مقامه فوق عمود لمدة ثلاثين عاما ، مكتفيا بأن يذلى سلة صغيرة بواسطة جبل ليحصل فيها على ما يحتاج إليه من لوازم أساسية (٥) . أما في آسيا الصغرى فقد أسست أخت للقديس باسل ديرا للراهبات سنة ٣٥٨ في إقليم بونطس (Pontus) أما القديس باسل نفسه (٣٢٩ - ٣٧٩) فقد درس الأنظمة الأنطونية والباخومية ولم تعجبه ، فأسس مؤسسة ديرية في قيصرية الجديدة (Neocaesarea) بآسيا الصغرى أيضا حوالي سنة ٣٣٠ . وسرعان ما أصبحت التنظيمات التي وضعها القديس باسل لمؤسساته الديرية بمثابة دستور للأديرة الباسلية التي انتشرت في الشام وفلسطين وبلاد اليونان حتى صارت هذه الأديرة تزعم الحياة الديرية في الامبراطورية البيزنطية بقية العصور الوسطى (٦) .

والواقع أن نظام القديس باسل هذا جاء مزيجا من المثالية والواقع العملي ، إذ قضى على ما كان هناك من أثر للعزلة والحياة الانفرادية داخل الدير ، وجعل

-
- (1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 220.
 - (2) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 37
 - (3) Painter : op. cit. pp. 17—18
 - (4) Workman : op. cit. pp. 111—113
 - (5) Stephenson : op. cit. p. 87
 - (6) Workman : op. cit. pp. 113—115

الرهبان يشتركون اشتراكا فعليا فى الحياة العامة والطعام والعمل والعبادة ، كما نبذ فكرة اقامة الأديرة فى الصحراوات والمناطق المتطرفة وفضل اقامتها على مقربة من المدن ان لم يكن فى المدن نفسها (١) . كذلك حرم القديس باسل تعذيب النفس وإهمال الجسد وحث على العناية بالنظافة والعمل ، فبدلا من أن يترك الرهبان أجسادهم تذبل وتبلى بدعوة التقشف والزهد ، جمعهم القديس باسل يوجهون نشاطهم نحو أعمال نافعة ليس الغرض منها سد حاجة الدير ومطالبه فحسب بل مساعدة الفقراء والمحتاجين من أهل المنطقة التى يقع فيها الدير (٢) . وهكذا لم تهمل الأديرة الباسلية العمل النافع المفيد داخل الدير ، مثل الفلاحة والنسيج وصناعة الجلود والأخشاب والبناء ، مع تحريم الملكية الخاصة على أعضاء الدير ، بحيث لا يمتلك الراهب الا ثوبه ونعليه . وكان يراعى فى ثياب الراهب البساطة والرخص والنظافة ، أما طعامه فكان كافيا مغذيا دون اسراف . ومن هذا كله يمكن القول بأن القديس باسل هو المؤسس الحقيقى للحياة الديرية فى المسيحية (٣) .

ولكن على الرغم من أن الديرية احتلت مكانة ملحوظة فى الحياتين الدينية والاقتصادية منذ القرن الرابع ، الا أنها لم تخل من مساوئ وعيوب . ذلك أن الديرية قامت فى أساسها على شعور الأنانية المستتر خلف حجاب التدين ، فكل راهب يفكر فى انقاذ نفسه وتجنبها الضلال دون أن يفكر فى غيره بالقدر الذى يفكر به فى نفسه ، بل ربما أوقعته عزلته عن المجتمع البشرى الكبير فى كثير من الأخطاء (٤) . واذا كان الراهب يقوم بشئ من أعمال البر والاحسان فانه لا يقوم بها رحمة بأخيه الانسان وانما رحمة بنفسه ووسيلة يتقرب بها الى الله . وهو يعمل داخل الدير لا لأن العمل نشاط نافع لنفسه وللمجتمع أو وسيلة لمساعدة غيره ، وانما يتخذ من العمل منفذا لتصريف طاقة الحماسة المكبوتة فى نفسه . فالراهب يهجر العالم ويلوذ بديره لأنه

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 527—528

(2) Thompson : Vol. 1 p. 221

(3) Painter : op. cit. p. 18

(4) Taylor : The Mediaeval Mind. Vol. 1 pp. 373—374

فى حقيقة الأمر أجبى من أن يواجه مصاعب الحياة ويعمل على تعديل ما بها من انحراف ، وتقويم ما فيها من آثام وشرور (١) . وهكذا يبدو أنه على الرغم من اتجاه بعض كبار رجال الكنيسة - مثل حنا فم الذهب - الى اعلاء شأن الحركة الديرية ، الا أن ذلك لا يخفى الحقيقة الهامة ، وهى أن هذه الحركة أصبحت عاملا من عوامل التفكك والانحلال التى أخذت تنخر فى جسم المجتمع . ويبدو أن هذه الحقيقة اتضحت للمعاصرين منذ وقت مبكر يرجع الى النصف الثانى من القرن الرابع عندما شكوا مجمع جانجرا Gangra سنة ٣١٢ من أن نشاط الحركة الديرية أدى فعلا الى تمزيق كيان الأسرة وشل كثير من مرافق الحياة العامة (٢) . هذا فى الوقت الذى انتاب الفزع الحكومة الرومانية لكثرة الأفراد الذين هجروا متاجرهم وحقولهم لينخرطوا فى سلك الديرية ، فاستت قانونا يقضى بتحريم دخول الأديرة على اللاتين للخدمة العسكرية . وربما كان من العوامل التى دفعت الدولة الى اتخاذ مثل هذا القرار هو أن الديرين أخذوا يشتبكوا أحيانا مع الكنيسة والدولة ويبعثون أتباعهم المسلحين بالعصى الغليظة لفرض آرائهم على المجمع الدينية (٣) . هذا فضلا عن أن الرهبان فاقوا غيرهم من الطوائف المسيحية فى شدة تعصبهم ، الأمر الذى جعلهم يحرضون جموع الناس على التطرف فى العنف ضد الوثنيين والهرطقة . وقد اتضح تعصب الرهبان الشديد ضد كل ما له علاقة بتقاليد الوثنية وحضارتها فى أن مولد الحركة الديرية جاء مصحوبا من الناحية الزمنية بآخر حلقات الصراع بين المسيحية والوثنية المتداعية (٤) . وهنا يجب أن نتذكر أن التراث الكلاسيكى فى النواحي الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية يرتبط ارتباطا شديدا بالوثنية وتقاليدها ، مما جعل الديرين يعملون على هدم هذا التراث والقضاء عليه دون أن يفرقوا بين عقائد الوثنية وحضارتها . وحسبنا أن كثيرا من الأعمال

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 221—222

(2) Workman : op. cit. p. 56

(3) Moss : op. cit. p. 37

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 221—222

الهدامة البشعة التي اقترفت ضد التراث الرومى قام بها الديرىون ، مثل
تحطيم المعابد الوثنية وما بها من مخلفات فنية ، وحرق المكتبات وخاصة
مكتبة الاسكندرية الثانية ، واضطهاد رجال الفكر والفلاسفة والأبرياء بل
تحريرض الفوغاء على سلفك دماثهم ، كما حدث للفلسوفة هيباشيا
• (١) Hypatia

ومهما يكن من أمر فان انتشار الحياة الديرية أدى الى وجود فئتين من
رجال الدين ، الأولى تشمل رجال الدين النظاميين Regula أى رجال
الأديرة من الرهبان الخاضعين لنظم ديرية محدودة ، وهؤلاء اختلفوا فى
وضعهم القانونى والتاريخى والاجتماعى عن الفئة الثانية من رجال الدين
« الدنيويين » أو « العلمانيين » (Saecula) ، أى رجال الكنيسة من أساقفة
وشمامسة وقساوسة الذين سموا بذلك لأنهم على العكس من الديرين
كانوا أكثر تدخلا فى الحياة الدنيوية وأكثر امتزاجا بعمامة الناس (٢) •
ويقدر ما كان الفارق واضحا بين هاتين الفئتين وبقدر ما كان التنافس شديدا
بينهما حول النفوذ والثروة ، بقدر ما تأثرت احدهما بالأخرى وأثرت
فيها • من ذلك أن الهبات والعطايا - من أرض وعقار ورقيق وغيرها -
أخذت تنهل على مقدمى الأديرة فى القرن السابع مثلما انهارت على الأساقفة
فى القرن السادس • ومن جهة أخرى أصرت الكنيسة فى بعض العصور
على تطبيق مبدأ عدم زواج رجالها أسوة بما كان عليه الديرىون (٣) • حقيقة
أن فكرة عدم زواج رجال الدين بوجه عام أكثر قدما من الديرية نفسها ،
ولكن هذه الفكرة لم تقو وتشتد وتصبح مجالا للبحث والنقاش فى المجامع
الدينية الا بعد انتشار الحياة الديرية •

الديرية فى غرب أوروبا :

وصلت الحياة الديرية الى غاليا وايطاليا وشمال افريقية قبل قيام الدولة

(1) Ibid:

(2) Stephenson : op. cit. p. 92.

(3) Eyre : op. cit. p. 215

الميروفنجية(١) ، وكان النظام الديري الذى انتشر فى الغرب الأوروبى قبل نهاية القرن الرابع شديد الشبه بالنظام الباخومى الذى عرفته مصر(٢) . ذلك أن كثيرا من الحجاج الغربيين الوافدين من روما وغاليا وأسبانيا زاروا الأديرة الباخومية فى مصر ونقلوا معهم فكرتها الى الغرب(٣) ، هذا الى أن جيروم ترجم سنة ٤٠٤ نظام باخوم الديري الى اللاتينية ، وبذلك وضع أمام الغربيين صورة منظمة لهذا النوع من الحياة الدينية التى عرفتها مصر(٤) .

على أن تاريخ الديرية فى غرب أوروبا يرتبط بأربعة أسماء لامعة هم القديس كاسيان (حوالى ٣٦٠ - ٤٣٥) والقديس مارتن التورى (حوالى ٣١٦ - ٣٩٧) والقديس قيصر الآرلى (ت ٥٤٢) والقديس بندكت (حوالى ٤٨٠ - ٥٤٣) . ويعتبر أول هؤلاء - وهو القديس كاسيان - المؤسس الحقيقى للديرية الغربية على الرغم من وجود بعض رهبان فى الغرب - وبخاصة فى غاليا - قبل عصر كاسيان . وقد امتاز نظام كاسيان بروح الابتكار لأنه لم تسبق له رؤية الأديرة الباخومية ، ومن ثم جاء نظامه وليد خبرته(٥) . أما القديس مارتن فقد فاق كاسيان فى اتساع نفوذه لأن الأول نجح فى اكتساب تأييد رأى العام الشعبى وعطفه فى حين فشل الثانى فى ذلك . وكان مارتن قد انتخب بالاجماع أسقفا لتور سنة ٣٧٢ ، وعلى مقربة منها أسس دير الشهير (مرموتيه Marmoutier) (٦) . ومع ذلك فإن القديس مارتن لم يترك أثرا واضحا فى تنظيم الحياة الديرية ، إذ قضى معظم حياته فى مجاربة الوثنية فى غاليا ، ولا سيما المناطق الريفية ، مما جعل الوثنية وأنصارها يفرون الى الغابات والمستقعات حيث استمروا عدة سنوات . أما القديس قيصر الآرلى فاختلف عن زميله السابقين فى أنه

-
- (1) Deanesly : op. cit. p. 70
 - (2) Stephenson : op. cit. p. 88
 - (3) Moss : op. cit. pp. 36—37
 - (4) Workman : op. cit. p. 117
 - (5) Idem : p. 231
 - (6) Deanesly : op. cit. p. 71

عاش في الوقت الذي كان الفرنجة قد غزوا غاليا فعلا ، ولذلك نجد اسمه مقحما في كثير من الأحداث السياسية والدينية المعاصرة . وقد وضع نظاما للراهبان والراهبات يتضح فيه تأثيره بآراء كسل من كاسيان والقديس أوغسطين . كذلك وضعت شقيقة قيصر ، وهي القديسة قيصرية Caesaria نظاما لدير الراهبات في آرل Arles بمعاونة أخيها ، وينص هذا النظام على أن تشغل الراهبات وقتن بالغزل والطهي فضلا عن نسخ الكتب (٣) . وهكذا أخذت الأديرة تنتشر في غاليا في عهد خلفاء كلوفس ، ولا سيما أن الملوك والأفراد أسسوا عددا كبيرا منها (٣) .

أما إيطاليا فيلاحظ أن الحركة الديرية لم تتقدم فيها حتى القرن السادس لعدم ظهور أحد أعلام الديرية ومؤسسيها في تلك البلاد ، كما كان الحال بالنسبة لباخوم في مصر وباسل في آسيا الصغرى وكاسيان في غاليا (٣) . وهكذا يمكن القول بأنه حتى بداية القرن السادس كانت غاليا هي البلد الوحيد في غرب أوروبا الذي كانت به مجتمعات ديرية منظمة ، وذلك على الرغم من وجود رهبان متفرقين أو جماعات غير منظمة من عشاق حياة الزهد في كثير من بلاد الغرب . ولكن الوضع أخذ يتغير في القرن السادس نتيجة لجهود ثلاثة رجال نفخوا في الحركة الديرية بإيطاليا روحا جديدة وأعطوها طابعا غربيا ، وهؤلاء الرجال هم بندكت وكاسيدور وجريجوري (٤) . أما القديس بندكت فهو صاحب الفضل في تأسيس النظام الديرى الذي عرف باسمه والذي جعل الديرية الإيطالية تحتل مكان الصدارة في الغرب بعد أن حل النظام البندكتى محل كثير من الأنظمة الديرية السائدة ، كما تمتع - لأول مرة في تاريخ المنظمات الديرية - بتأييد البابوية وعطفها . ولا يمكن أن نصف هذا النظام البندكتى - الذى أحرز النصر النهائى فى

(1) Idem. p. 74

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 147

(3) Dudden : Gregory the Great : Vol. 2, p. 160

(4) Idem p. 161

غرب أوروبا - بأنه باخومي أو باسلي ، لأن له طابعه الخاص الذي لا يوصف إلا بأنه بندكتي (١) .

وقد ولد القديس بندكت هذا حوالي سنة ٤٨٠ في أسرة ايطالية معروفة بالثراء والأرستقراطية ، فأرسل الى روما ليتلقى تعليمه ، ولكنه ضاق ذرعا بما لمسه من مظاهر الفساد الخلقي وآثر الفرار الى مكان جبلي منزل ، حيث عاش في كهف بعيد معتمدا على ما يعمده به المقسربون من مأكول ولوازم ضرورية (٢) . ولم تلبث أن ذاعت شهرة هذا الرجل التقى ، فقصده الناس طلبا للبركة حتى تجمع حوله عدد من المريدين ، وعندئذ فكر بندكت - حوالي سنة ٥٢٠ - في الانتقال الى مكان بعيد عن روما وأرسل بعض أتباعه للبحث من موضع أكثر ملاءمة . وكان أن عاد هؤلاء ليخبروا كبيرهم بأنهم عثروا على مكان مناسب في منتصف الطريق بين روما وناپلي عند مونت كاسينو ، حيث يوجد معبد قديم للاله أبولو ما زال يتردد عليه بعض الفلاحين من المناطق المجاورة (٣) . وهكذا اختار بندكت ذلك الموضع لإقامة دير الأول مستخدما في ذلك أحجار المعبد الوثني القديم . ثم أخذ رهبان الدير الجديد يعملون في تطهير المنطقة المجاورة من الغابات والمستنقعات واستصلاح أراضيها للزراعة ، حتى استطاع دير مونت كاسينو أن يمد أهالي المناطق القريبة بالغلات والمحصولات المختلفة خلال أوقات الشدة (٤) .

على أن المهم في دير مونت كاسينو هو أنه أصبح مركزا وأبا روحيا لشبكة واسعة من الأديرة التي تأسست في غرب أوروبا وفق النظام الأساسي الذي وضعه القديس بندكت لهذه المنظمة (٥) . ذلك أن بندكت كان على علم تام بمساوئ المديرية الشرقية وعبوبها ، كما أنه أحاط بنظام الأديرة الباسلية بعد أن

-
- (1) Stephenson : op. cit. p. 88.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 536
 - (3) Workman : op. cit. p. 142
 - (4) Thompson : op. cit. Vol. 1. pp. 226—227
 - (5) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 551

ترجمت مبادئ هذا النظم من اليونانية الى اللاتينية ، مما دفع القديس بندكت الى تلافي هذه العيوب فى نظامه الجديد الذى أصبح من أعظم التنظيمات الدينية فى العصور الوسطى ، كما صار أساسا لجميع التنظيمات الديرية التالية (١) . وكان النظام البندكتى يقوم على ثلاثة أركان أساسية هى انكار الذات والطاعة والعمل . وهكذا ساد الأديرة البندكتية جو من التعب والهدوء والنظام والعمل اليدوى ، بحيث لم يترك هذا كله مجالا للأناية والكبرياء واللغو والخمول (٢) . وكان ينبغى على من يزيد الانضمام الى الدير البندكتى أن يقضى أولا فترة تحت الاختبار حتى تثبت صلاحيته وإخلاصه ، وبعد ذلك يقسم يمين الولاء لنظام الدير ، وعلى أن يظل عزبا فقيرا مطيعا ، وعندئذ يتخلى عن ارادته ليخضع خضوعا تاما لمقدم الدير - وهو رئيسه المنتخب - فلا يمكنه أن يخرج خارج أسوار الدير الا بتصريح من ذلك المقدم (٣) . ومن هذا يتضح أن مقدم الدير البندكتى كان يتحمل مسؤولية جسيمة لأنه هو المسئول أمام الله لا عن تصرفاته فحسب ، بل عن تصرفات بقية أعضاء الدير . لذلك خول القديس بندكت مقدم الدير سلطة عليا فى كل شئ ، فرأيه هو النهائى فى جميع المسائل ، ولا يجوز الالتجاء الى أية جهة أخرى لنقض قراره ، هذا وإن كان على هذا المقدم أن يستشير بقية رهبان الدير قبل أن يبت فى أمر هام (٤) .

أما عن الحياة داخل الدير البندكتى فامتازت بالمساواة التامة بين أعضائه ، فالحر والعبد والشريف والوضيع كلهم سواء دون أن يكون هناك فضل لعضو على آخر الا بالعمل الطيب . وكانت روح الاعتدال تسيطر على حياة الرهبان ، فيأكلون طعاما كافيا ، وينامون ما يقرب من ثمان ساعات ليلا ، كل منهم فى فراشه الخاص ، مع عدم حرمانهم من قدر معلوم من النبيذ . وإذا كانت العبادة هى الركن الأول من أركان الحياة الديرية ، اذ يجتمع الرهبان

(1) Idem : Vol. 5. p. 658

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 227

(3) Painter : op. cit. pp. 74—75

(4) Workman : op. cit. p. 146

للاشتراك فى الصلاة والترتيل ثمان مرات يوما (١) ، الا أن القديس بندكت فرض أن يكون العمل هو الركن الثانى من أركان هذه الحياة ، فقال بأن العمل عادة *Laborare est orare* وخصص لرهبان الدير ما يقرب من سبع ساعات يوميا يقضونها فى فلاحة الأرض • أما كبار السن من أعضاء الدير الذين لا يحتملون مشقة العمل فى الحقل ، فكانوا يكلفون أعمالا تتفق ومقدرتهم ، كبعض الصناعات الخفيفة أو طهى الطعام واعداده ، أو نسخ الكتب الدينية ، أو تعليم الرهبان الجدد أو الأطفال الذين يبعث بهم آباؤهم ليتعلموا فى مدرسة الدير (٢) •

أما الرجل الثانى الذى ترك أثرا واضحا فى تطور الديرية فى ايطاليا ، بل فى الغرب الأوروبى فهو كاسيدور الذى اعتزل خدمة الملكية القوطية فى ايطاليا بعد حياة سياسية شاقة بالعمل الكثير ، وأثر الانقطاع لحياة الرهبانية ، وذلك قبل وفاة القديس بندكت بأربع سنوات أو خمس • وقد أسس كاسيدور ديرين فى كالبريا موطن آبائه وأجداده (٣) • وهنا نلاحظ أنه آمن بأن الحياة الديرية لا تستلزم كراهية الطبيعة وجمالها أو ضرورة حرمان الفرد من الضروريات التى تحقق له السعادة والراحة ، مما جعله يعمل على ادخال قسط من البهجة والجاذبية على الحياة الديرية • على أن أهم ما عنى به كاسيدور هو أن يجعل من الدير مدرسة للعلم والمعرفة ، لا معرفة اللاهوت والعلوم الدينية فحسب ، بل العلوم الدنيوية أيضا • لأن عقولنا تتدرب على فهم الانجيل والكتابات الدينية وعن طريق دراسة الأدب الدنيوى • لذلك تحمل كاسيدور كثيرا فى سبيل تزويد أديرتة بمكتبات غنية تحوى مجموعة نادرة من المخطوطات التى تناسب كل طبقة من طبقات المتعلمين ، فرجال اللاهوت يجدون فيها نسخا مصححة مقارنة من الانجيل زيادة على كتابات آباء الكنيسة الشرقيين والغربيين • أما طلاب الدراسات غير الدينية فقد جمع لهم كاسيدور مجموعة من انتاج رجال الأدب والبلاغة - شعرا ونثرا -

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538

(2) Stephenson : op. cit. pp. 91—92

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538

فوق ما جمع من كتب التاريخ والجغرافيا والموسيقى والعلوم . وهكذا يرجع الفضل الى كاسيدور في زيادة القيمة العلمية للأديرة ، وهي الناحية التي ظهر أثرها فيما بعد عندما أصبحت الأديرة تمثل المراكز الأساسية للحياة العلمية في غرب أوروبا (١) .

وأخيرا يأتي جريجورى الأول ، وهو الديرى الذى أصبح بابا ليقوم بدور المنظم للحياة الديرية في غرب أوروبا . فالفارق بينه وبين بندكت وكاسيدور هو أنه لم يسهم مثلهما بنواح مبتكرة في نظم الحياة الديرية ومثلها ، ولكن جهوده ظهرت في تقوية هذه الحياة ونشر النظام الذى أنشأه القديس بندكت فضلا عن تحديد العلاقة بين الديرين من جهة والأساقفة ورجال الدين العلمانيين من جهة أخرى . وهكذا نتج عن جهود جريجورى الأول التقريب بين الحياة الديرية من جانب والكنيسة والبابوية من جانب آخر ، وهو أمر لا نجد له شيئا في الشرق البيزنطى حيث ظل التباعد واضحا بين هيئة الكنيسة من رجال الكهنوت المتزوجين وبين الديرين العزاب (٢) .

والواقع ان البابا جريجورى العظيم استغل الديرية كأداة فعالة تساعد في تنفيذ سياسته ونشر المسيحية . ولا عجب في ذلك ، فقد كان هذا البابا راهبا بندكتيا شديد التحمس للديرية ، حتى أنه استغل ثروته الموروثة الطائلة في تأسيس عدد كبير من الأديرة ، منها ستة في صقلية وواحد في روما (٣) . كذلك اختار جريجورى العظيم معظم أعضاء البعثات التبشيرية التي أرسلها الى مختلف الجهات من الرهبان البندكتيين (٤) . ومن هذه الارسلالات بعثة القديس أوغسطين الصغير - مقدم الدير الذى أنشأه جريجورى في روما - وقد أوفده البابا الى انجلترا سنة ٥٩٦ على رأس بعثة من تسعة وثلاثين راهبا ليعيدوها الى حظيرة المسيحية بعد أن ظلت خارجها ما يقرب من قرنين نتيجة لغزوات البجوت والانجلز والسكسون ، وهي الغزوات التي أدت الى تحطيم

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2 pp. 169—173.

(2) Workman : op. cit. p. 152

(3) Dudden : op. cit. Vol. 1 p. 207

(4) Workman : op. cit. p. 169—172

الحضارة الرومانية وذبول المسيحية فى بريطانيا • وفى سنة ٦٠١ طلب أوغسطين من البابا امداده بعدد آخر من الرهبان لمساعدته فى جهوده التبشيرية ، فأمدّه البابا بمجموعة أخرى من المبشرين البندكتيين (١) وقد نجحت بعثة القديس أوغسطين نجاحا كبيرا فى تحقيق أهدافها ، فأسس ديرا فى كانتربورى ، وهو المكان الذى شيدت عليه الكاتدرائية الشهيرة ، فيما بعد ، واتخذ الرهبان هذا الدير مركزا لنشاطهم التبشيرى الذى قام على أساس تحويل المعابد الوثنية القديمة الى كنائس بدلا من هدمها (٢) • ولم يلبث أن تلبّرت - ملك كنت - أن اعتنق المسيحية وتبعمه كثيرون من رعاياه ، كما أنعم الملك على رجال الكنيسة الجديدة بكثير من المنح والأراضي (٣) •

الديرية الأيرلندية :

على أن الارساليات البندكتية التى قصدت انجلترا وغاليا الفرنجية ، صادفت فى طريقها نوعا من الأديرة الكلتية التى انتشرت من أيرلند الى انجلترا وغاليا وألمانيا • وكانت أيرلند هى البلد الوحيد من البلاد المعروفة للقديماء فى غرب أوروبا الذى لم يفتحه الرومان ، مما ترك القراصنة الأيرلنديين - من عنصر الكلت - أحرارا فى مواصلة اغاراتهم العنيفة على بريطانيا ، وبخاصة فى أوائل القرن الخامس ، أى فى أواخر حكم الرومان لبريطانيا •

وفى احدى هذه الغارات - حوالى سنة ٤٠٠ - أسر الأيرلنديون شابا أسمه سوكات Succat ، قدر له أن يصبح فيما بعد القديس باتريك (ت ٤٦١) مؤسس الكنيسة الأيرلندية (٤) • ذلك أن سوكات قضى ست سنوات أسيرا فى أيرلند ، فر بعدها الى غاليا حيث قضى بعض الوقت فى التعلم ، حتى فكر بعد ذلك فى العودة الى أيرلند ليقوم بنشر المسيحية بين

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2, p. 123

(2) Workman : pp. 172—174

(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 117—119

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 533

ربوعها + وعلى الرغم من أن المسيحية كانت معروفة في أيرلند قبل ذلك الوقت ، دليل أن البابا كالمستين الأول أرسل سنة ٤٣١ مبعوثا اسمه بلاديوس الى أيرلند ليكون أول أسقف لها (١) ، الا أن القديس باتريك يعتبر صاحب الفضل الحقيقي في تحويل أيرلند الى المسيحية الغربية ، كما أن الفضل يرجع اليه في تأسيس أسقفية أزماع في الشمال الشرقي من أيرلند سنة ٤٤٥ (٢) .

ويبدو أن تطرف أيرلند وعزلتها ساعدت على احتفاظ الكنيسة الأيرلندية ببعض الأوضاع الكنسية القديمة ، بعد أن درست هذه الأوضاع واختفت من صلب القارة . وكان من المستحيل أن تقبل الكنيسة الرومانية هذه الأوضاع ، لذلك بدأ الخلاف بين الأيرلنديين والبابوية منذ عهد البابا جريجورى العظيم ، ولم ينته هذا الخلاف حتى سنة ٧٣٣ عندما قبل الأيرلنديون مسaire الأوضاع المعمول بها في الكنيسة الرومانية .

وقد اتجه الأيرلنديون في القرن السادس نحو ارسال بعثات تبشيرية من الرهبان الى سكتلند وبريطانيا وغاليا ، مدفوعين في ذلك بحبهم للتجوال والسياحة من جهة وبحماسهم الدينية من جهة أخرى . وكان رائد هذه الحركة القديس كولبا St. Columba الذي اتجه سنة ٥٦٣ على رأس اثني عشر من أتباعه لتأسيس دير في مدينة أيونا Iona غربى البلاد المعروفة الآن باسم سكتلند (٣) . ومن هذا الدير اتجه المبشرون لتحويل البكسين Picts - وهم العناصر القديمة التي سكنت سكتلند الحالية - الى المسيحية (٤) . ولم يلبث المبشرون الأيرلنديون أن مدوا نشاطهم الى انجلترا نفسها ، حيث التقوا بالبعثات التبشيرية التي أرسلتها روما . وهكذا تم

(1) Idem : Vol. 2 pp. 503—505

(2) Deanesly : op. cit. p. 468

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 533

(4) Workman : op. cit. pp. 199—200

القضاء فى القرن السابع على وثنية الأنجلوسكسون بعد أن تعرضت بلادهم لغزو المبشرين الأيرلنديين من الشمال والمبشرين الرومان من الجنوب (١) . وفى ذلك الوقت نفسه ، قام المبشرون الأيرلنديون بغزو القارة . وأول

هؤلاء المبشرين وأعظمهم كان القديس كولمانوس Columbanus (٥٤٣ - ٦١٥) ، الذى نزح مع أربعين من أعوانه - حوالى سنة ٥٨٥ - الى بريطانيا ومنها الى غاليا ، حيث أسس ديرا شهيرا عند أناجريت . Anagrates فى برجنديا سنة ٥٩١ . ولم يلبث هذا الدير أن اجتذب كثيرا من الراغبين فى الحياة الديرية ، مما شجع القديس كولمانوس على تأسيس دير جديد جنوبى الأول بثمانية أميال عند لوكسويل Luxeuil (٢) . ويلاحظ أن القديس كولمانوس أهمل عند تأسيسه هذه الأديرة احدى القواعد المعمول بها فى القارة ، وهى أنه يتعين على مقدم الدير أن يحصل أولا على موافقة الأسقف الذى يقع الدير داخل دائرة أسقفيته ، مما أدى الى اصطدام بين الطرفين . ولم يلبث دير لوكسويل أن نما هو الآخر بسرعة ، مما شجع على إقامة أديرة أخرى لكل منها مقدم ، أهمها دير فونتين Fontaines (٣) . أما القديس كولمانوس فقد ظل يعمل عشرين عاما فى دير لوكسويل حتى استغزت سياسته الصارمة الخاصة بنقد البلاط والكنيسة عداء الطرفين ، مما جعله ينزح الى سويسرا حيث أخذ يواصل جهوده فترة قصيرة حول بحيرة زيورخ وبحيرة كونستانس (٤) . ولم يلبث أن اضطر القديس كولمانوس الى مغادرة سويسرا مع أعوانه ، فمهر جبال الألب الى ايطاليا حيث أحسن ملك اللباردين استقباله وسمح له بتأسيس دير بوبيو Bobbio شمالى جنوا . وفى هذا الدير - الذى أصبح من أعظم أديرة أوربا فى العصور الوسطى وأوفرها ثروة فى المخطوطات - قضى القديس كولمانوس السنوات الثلاث الأخيرة من حياته حتى توفى سنة ٦١٥ (٥) . على أن نظام الأديرة الذى وضعه القديس

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 232

(2) Cam. : Med. Hist. Vol. 1, pp. 533—534

(3) Workman : op. cit. p. 207

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 148

(5) Workman : op. cit. p. 208

كولمانوس ، لم يقدر له البقاء طويلا ، لأنه لم يقرر وسيلة للربط بين هذه الأديرة بعضها وبعض ، كما أنه اصطدم في سرعة بالنظام البندكتي . ولما كانت الأديرة البندكتية ذات صبغة عملية أوضح ، فضلا عن تمتعها بمطف البابوية ورعايتها ، فإن نظام القديس كولمانوس لم يستطع الثبات طويلا أمامها (١) .

ولم يقتصر نفوذ الأديرة الأيرلندية على هذه الجهات السابقة ، وإنما امتد أيضا إلى جهات أخرى في وسط أوروبا لم تكن المسيحية قد وصلت إليها بعد . ففي جنوب ألمانيا قامت عدة أديرة أيرلندية أشهرها ورزبرج ورجنسبرج وسانت جال St. Gall وغيرها من الأديرة التي ظلت تحتفظ بذكرى أصلها الكلتى الأيرلندى على الرغم من تأثيرها فيما بعد بالنظام البندكتي . ذلك أنه لم يكد ينتصف القرن الثامن إلا كانت جميع الأديرة الأيرلندية قد أصبحت من الوجهة العملية خاضعة لإشراف البابوية ، كما انتهى استقلال الكنيسة الأيرلندية . على أن الأديرة الأيرلندية - بوجه خاص - تركت أثرا عميقا في الحياة الدينية وغير الدينية في غرب أوروبا . ويكفى أنها أصبحت مراكز رئيسية للثقافة الكلاسيكية ، كما أن كثيرا منها - مثل بوبو وسانت جال وغيرها من الأديرة الأيرلندية بأيرلند نفسها وإنجلترا - امتازت بغنى مكتباتها بالمخطوطات الكلاسيكية النادرة (٢) . هذا إلى أن حمية البعثات الأيرلندية وحماستها أشعلت حركة التبشير في أوروبا المصور الوسطى . وكان الأيرلنديون هم أول من تمسك بالمبدأ الخاص باستقلال الأديرة عن نفوذ الأساقفة ، وهو المبدأ الذي لم يعترف به غرب أوروبا إلا في القرن الحادى عشر .

المبشرون الانجليز في غاليا وألمانيا :

ازداد عدد البعثات التبشيرية الانجليزية في الخارج زيادة كبيرة منذ أواخر القرن السابع . ففي سنة ٦٧٧ جنحت سفينة ولفسرد أسقف يورك

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 232—233

(2) Eyre : op. cit. pp. 266—267

الأنجلوسكسونى على شاطئى فريزيا وهو فى طريقه الى روما فبقى الشتاء فى هذه البلاد . وفى سنة ٦٩١ عبر وليبرورد Willibrord - وهو أحد رجال الدين الانجليز - البحر الى فريزيا حيث ساعده بيبين هرستال على تأسيس أسقفية أوترخت ، ومن ثم استمر يعمل على نشر المسيحية فى تلك الجهات ما يقرب من خمسين سنة (١) . على أن أعظم رجال الكنيسة ورهبان المسيحية فى القرن الثامن كان بدون شك القديس بونيفيس الذى تلقى تعليمه فى اكستر ثم عبر البحر سنة ٧١٥ الى فريزيا . وعندما وجد الحرب متأججة بين الفريزيين وشارل مارتل ، عاد الى انجلترا ومنها الى روما سنة ٧١٨ حيث زودته البابوية بالنفوذ والسلطة اللازمين للقيام بجهوده التبشيرية فى ألمانيا (٢) . وقد استمر بونيفيس يباشر مهمته خمس سنوات فى هس حتى عينه البابا رئيسا لأساقفة مينز ، الكرسي الأسقفى الرئيسى فى ألمانيا (٣) . وهناك فاقت جهوده ما قام به الرهبان الأيرلنديون من ادخال الحضارة اللاتينية وتنظيمها . واليه كذلك يرجع الفضل فى تأسيس كثير من الأسقفيات والأديرة فى الأراضى الألمانية مثل أسقفيات ورزبرج وماربورج وأرفرت ، وأديرة فولدا وهرسفلد وأورثرف وامونبرخ . هذا الى أن القديس بونيفيس تبعته بعض النساء الانجليزيات الى ألمانيا مثل والبورجيا Walburga وليوبا Lioba وثلثا Thekla وهؤلاء أسهمن فى تأسيس كثير من الأديرة البندكتية الخاصة بالنساء فى ألمانيا (٤) كذلك كان للقديس بونيفيس دور أساسى فى دعوة مجيى لفتناس Liftinas (سنة ٧٤٣) وسواسون (سنة ٧٤٤) وفى القرارات التى أصدرها هذان المجمعان (٥) . أما جهوده السياسية فكانت لا تقل أهميته عن جهوده الدينية ، اذ يرجع اليه الفضل فى التوفيق بين الكنيسة الفرنجية وشارل مارتل ، كما أنه تولى المفاوضات بين بيبين القصير والبابوية ، وهى المفاوضات التى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 541 & Vol. 2 p. 535

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 236

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540

(5) Workman : op. cit. p. 176

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540

انتهت بعزل آخر الملوك الميروفنجيين واعتلاء بيين عرش دولة الفرنجة ،
وما ترتب على ذلك من تحالف بين البابوية والدولة الكارولنجية (١) .

ويبدو أن هذه الأعمال والمشاكل العديدة صرفت بونيفيس فيما بين سنتي
٧١٨ ، ٧٥٢ عن الهدف الذي كرس نفسه له في شبابه ، وهو تحويل
الفريزيين الى المسيحية ، وقد أدرك بعد سنة ٧٥٢ أنه أتم أعماله السياسية
والادارية ، فعزم على العودة الى فريزيا - التي كانت لا تزال على وثنيها -
لباشرة نشاطه التبشيري . ولكن الفريزيين الوثنيين أحاطوا به هذه المرة
وقتلوه سنة ٧٥٥ ، وبذلك انتهت صفحة علم من أعلام المسيحية الغربية في
العصور الوسطى (٢) .

وبعد ، فانه يتضح لنا مما سبق كيف قام الديرين بدور فعال في نشر
المسيحية وحفظ الحضارة في عصر مضطرب امتاز بالفتن والحروب . أما
في الميدان الاقتصادي فان نشاطهم أدى الى اصلاح كثير من الأراضي والنهوض
بالزراعة ، زيادة على جهودهم العملية في النسيج والصباغة ودبغ الجلود
وصناعتها الأمر الذي تبعه نبوغهم في زخرفة المخطوطات وتزيينها . على أنه
يتضح لنا بالموازنة بين الديرية في الشرق والغرب أن القديس بندكت هو
صاحب الفضل في جعل الديرية أداة روحية بحتة بعيدة كل البعد عن الميدان
الحضارى والمجتمع الانسانى . أما في الغرب فان الأديرة البندكتية أصبحت
مراكز الحضارة والتعليم ، فيها تنسخ الكتب وفي مدارسها يتعلم الصغار
والكبار (٣) . هذا الى أن عظمة الديرية البندكتية لا تتمثل في الموازنة بينها
وبين الديرية الشرقية ، بقدر ما تتمثل في الأثر الذي تركه النظام البندكتي
في حياة العصور الوسطى وتفكيرها .

(1) Deanesly : op. cit. pp. 289—290

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 237

(3) Workman : op. cit. pp. 152—254

ففى الوقت الذى كان العالم الرومانى يحقر من شأن العمل اليدوى ،
ويعتبر هذا النوع من الأعمال وقفا على العبيد ، اذا بالنظام البندكتى يضع
العمل اليومى فى منزلة العبادة ، ويجعله جزءا أساسيا من حياة الديرين ،
وبذلك أصبحت الديرية عاملا ايجابيا منتجا فى المجتمع ولم تعد - كما اتهمها
البعض قديما - مأوى للمتعطلين وملأذا للكسالى الهارين من أعباء الحياة
وتبعاتها(١) .

(1) Idem : pp. 153—158

الباب السابع

شارلمان وأمبراطورية الفرنجة

رؤسه البلات :

لم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاما حتى كفت عن التوسع والنمو فجأة ، ودخلت دورا من الفوضى والحروب الأهلية استمر قرابة قرن ونصف . وسرعان ما ظهر في هذا الدور ضعف ملوك البيت الميروفنجي من سلالة كلوفس (١) ، في الوقت الذي انقسمت دولة الفرنجة الى ثلاث ممالك صغرى هي أوستراسيا في وادي الميز والراين الأدنى ، ونستريا في الجزء الغربي بما فيه (نورمنديا) واكوتين ، وأخيرا برجنديا في المنطقة بين الرون وجبال الألب (٢) . ومن مظاهر ضعف ملوك الفرنجة في هذه الأقسام الثلاثة تغلب نفوذ النبلاء ورجال الدين ، فوافق الملوك على أن يتنازلوا عن تعيين الأساقفة ليقوم رجال الأسقفية بانتخابهم ، كما وافقوا على عدم محاكمة رجال الدين أمام محاكم الدولة ، مما جعل الكنيسة الفرنجية شبه مستقلة عن التاج . أما النبلاء العلمانيون فقد حصلوا على ضمان بملكية ما تحت أيديهم من أراض ، كما جعل بين التاج وبين فرض أية ضرائب اضافية (٣) .

ثم كان أن اختار نبلاء أوستراسيا زعيمهم ليتولى وظيفة رئيس البلاط في القصر الملكي ، وذلك ضمانا لامتيازاتهم ومصالحهم . وكانت هذه الوظيفة في أول أمرها متواضعة يقوم صاحبها بالاشراف على خدام القصر وموظفيه ،

(1) Oman : The Dark Ages, p. 158

(2) Davis : Charlemagne, p. 25

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 332

ولكنها أخذت تسمو تدريجيا حتى أصبح صاحبها بمثابة الوزير الأول فى الدولة ، الذى يشرف على جمع إيرادات الأراضى الملكية فضلا عن توزيع الهبات والوظائف (١) . وقد تعاقب فى هذا المنصب منذ سنة ٦١٤ سلسلة من النبلاء بطريق الوراثة ، حتى أصبحت السلطة الفعلية فى أيديهم . وهكذا لم يعد تاريخ الميروفنجيين بعد وفاة الملك داجوبرت سنة ٦٣٩ مرتبطا بالملوك ، وانما برؤساء البلاط فى الأقسام الثلاثة التى انقسمت اليها الدولة الميروفنجية (٢) . وكان النصر فى النزاع بين هذه الأقسام الثلاثة لـ *أوستراسيا* التى برز رئيس بلاطها *بيين الثانى* أو *بيين هرستال* فى أواخر القرن السابع ، ثم خلفه فى منصبه ابنه غير الشرعى *شارل مارتل* سنة ٧١٤ (٣) وقد استطاع *شارل مارتل* أن يدعم نفوذه حتى غدت السلطة الفعلية فى يده سنة ٧١٩ ، وعندئذ وجد دولة الفرنجة فى حالة يرثى لها بسبب التنافس الطويل بين رؤساء البلاط فى *نستريا* و *أوستراسيا* من جهة ، والأخطار الخارجية التى أحاطت بدولة الفرنجة عندئذ من جهة أخرى . وهنا أسرع *شارل مارتل* فى القيام بسلسلة من الحروب لتأمين دولة الفرنجة من ناحية الشرق ، فقام بخمس حملات ضد السكسون بين سنتى ٧١٨ ، ٧٣٨ وبحملتين ضد الفريزيين (سنة ٧١٩ ، ٨٣٨) وحملة ضد الألمانى (سنة ٧٣٠) وحملتين ضد البافاريين (سنة ٧٢٥ ، ٧٢٨) (٤) على أن الخطر الأكبر الذى هدد دولة الفرنجة فى ذلك العصر جاء من ناحية الجنوب ، أى من جانب المسلمين الذين زحفوا من الأندلس حتى استولوا على *ناربون* سنة ٧٢٠ ثم أوغلوا فى *برجنديا* . وقد وجد *شارل مارتل* نفسه أمام خطر جسيم يستلزم تعبئة كل قواه ، فحشد قوى أتباعه من النبلاء وغير النبلاء ، واستعان بالمباردين فى ايطاليا كما استولى على بعض أراضى الكنيسة ، هذا كله فى الوقت الذى كان المسلمون بقيادة *عبد الرحمن الغافقى* قد استولوا على *بورجو* سنة ٧٣٢ وأخذوا بعد ذلك يزحفون شمالا . وأخيرا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p, 136.

(2) Lot: The End of the Ancient World, p. 337.

(3) Idem: op. 341 — 342.

(4) Deanesly: op. cit. p. 285.

دارت الموقعة بين الطرفين بين بواتيه وتور ، واستمرت سبعة أيام قتل فيها عبد الرحمن وارتد أتباعه من المسلمين سنة ٧٣٣ (١) •

أما شارل فقد أضفى عليه هذا النصر قوة ومكانة أكسبته لقب مارتل Martel أى المطرقة ، بعد أن بدا فى نظر العالم الغربى بطل المسيحية الأول الذى حمى غرب أوروبا من الغزو الاسلامى (٢) • وقد اعتاد المؤرخون أن يبالغوا فى قيمة هذا النصر الذى أحرزه شارل مارتل على المسلمين سنة ٧٣٣ ، على أساس أنه حمى غرب أوروبا بأجمعه من غزو المسلمين وسيطرتهم ، ولكن نظرة دقيقة الى الحوادث المعاصرة تثبت لنا أن الواقع يخالف ذلك • فالمسلمون لم يلبثوا أن عادوا فى العام التالى الى تهديد آزل وأفينون وغيرهما من المدن وبخاصة فى اقليم بروفانس (٣) • ثم انه لم يكن هنالك ثمة خطر واضح يهدد غرب أوروبا بأجمعه من جانب المسلمين الذين بوصولهم الى الأندلس كانوا قد قاربوا نهاية الشوط فى حركتهم التوسعية الكبرى • لذلك كان من الصعب ، بل من المتعذر على المسلمين أن يقوموا بجهد حربي ضخم جديد لاختضاع غرب أوروبا لنفوذهم ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعدها كثيرا عن المركز الأول لحركتهم التوسعية • هذا الى أن الدولة الاسلامية كانت قرب منتصف القرن الثامن قد أخذت تتعرض فعلا لنتائج الانقسامات المذهبية والسياسية مما يحول دون تكاتف المسلمين فى المشرق والمغرب للقيام بجهد عظيم مشترك لغزو أوروبا • ولذلك لا نبالغ اذا قلنا أن غزوة عبد الرحمن فى جنوب غاليا لا تعدو أن تكون حملة محلية محدودة الهدف والنتائج • وربما كانت حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية قبل ذلك بخمس عشرة سنة أشد خطرا على مصير أوروبا ومستقبلها ، نظرا لقرب القسطنطينية من مركز الخلافة الاسلامية فى دمشق من جهة ولعظم الجهود والامكانيات التى سخرت فى هذه الحملة من جهة أخرى •

على أن استيلاء شارل مارتل على بعض أراضى الكنيسة فضلا عن رفضه

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 129.

(2) Stephenson, op. cit. p. 171.

(3) Fichenau: The Carolingian Empire, pp. 12—13.



مساعدة البابوية ضد اللبارديين ، أثار وحشة بينه وبين الكنيسة (١) . ومهما يكن من أمر فإن هذه الوحشة لم تستمر طويلا إذ توفي شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بيبين القصير فى رأسه البلاد (٧٤١ - ٧٦٨) . وقد عمل بيبين هذا على اصلاح ذات البين مع الكنيسة ، فعقدت أربعة مجامع دينية تحت اشراف القديس بونيفيس ، وفى هذه المجامع تقرر فرض النظام البندكتى على الأديرة الفرنجية ، وتعين أسقف لكل مدينة ورئيس أساقفة لكل مجموعة من الأساقفة ، على أن يمتد سلطان البابوية على الجميع (٢) .

وسرعان ما أيقن المعاصرون أن الوضع السياسى القائم فى دولة الفرنجة غير صحيح فى ظل حكم رئيس بلاط هو الحاكم الفعلى للبلاد ، وملك شرعى مستضعف لا حول له ولا قوة . لذلك اجتمع المجلس العام لشعب الفرنجة سنة ٧٥١ وقرر عزل شلديريك الثالث (شلدبرت) آخر ملوك أستراسيا ، واحلال بيبين القصير محله فى العرش . وهنا أراد بيبين القصير أن يصنع هذه الخطوة صبغة شرعية فأرسل بعثة الى البابا زكريا فى روما لاستشارته وأخذ رأيه . ولسنا فى حاجة الى القول بأن البابوية كانت لا تزال تطلع عندئذ فى مساعدة دولة الفرنجة ، بوصفها القوة الوحيدة التى يمكنها مساعدة البابوية ضد اللبارديين . لذلك جاء رد البابا زكريا واضحا ، وهو أنه من الأفضل أن يكون الملك لمن بيده السلطة الفعلية فى البلاد . وهكذا تشجع بيبين القصير فأعلن عزل شلديريك الثالث ونفاه الى أحد الأديرة . ليقضى فيه بقية حياته ، فى حين اعتلى هو عرش الفرنجة (٧٥٢ - ٧٦٨) ، وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية من سسلالة كلوفس وبدأت الأسرة الكارولنجية من سسلالة رؤساء بلاط أوستراسيا (٣) .

ولم تلبث ظروف الموقف بين البابوية واللبارديين أن أدت الى سفر البابا ستفن الثانى سنة ٧٥٣ الى غاليا لطلب المساعدة من بيبين القصير . وكان أن

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1 p. 207.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 539-540.

(3) Oman: The Dark Ages, pp. 325-326.

نعهد بيبين بمساعدة البابا وأقسم على أن يحقق للبابا كل ما يريد ، ويعطيه رافنا ، فضلا عن بقية المدن التي يستردها من اللبارديين أو البيزنطيين . وفى مقابل ذلك توج البابا بيبين بيده كما توج زوجته وولديه شـالـر وكارلومان ، وأنزل اللعنة فى على كل من يحاول اغتصاب عرش الفرنجة من بيت بيبين القصير (١) وبذلك دخلت دولة الفرنجة دورا كبيرا من تاريخها لتصبح أعظم قوة سياسية فى غرب أوروبا ، بفضل تحالفها مع البابوية ، وهو التحالف الذى كان له أبعد الأثر بالنسبة لمستقبل غرب أوروبا فى العصور الوسطى (٢) .

حضارة البوالة الميروفنجية :

أخذت نظم الفرنجة تعدل عقب استقرارهم فى غاليا نتيجة لاتصالهم المستمر بالمواطنين الرومان ، وما نجم عن هذا الاتصال من تأثير الفرنجة بالأوضاع الرومانية . ويلاحظ أن الفرنجة احترموا ملكية الأرض فى غاليا ولم يقتصبوها من أصحابها ، كما أنهم لم يحاكوا غيرهم من الجرمان فى استخدام العنف مع أهالى البلاد الأصليين (٣) . ولكن كبرياء الفرنجة أثبت عليهم الاعتراف بالمساواة التامة المطلقة بينهم وبين أهالى غاليا الأصليين من الرومان ، فجعلوا الدية التى تدفع تعويضا عن مقتل رجل من الفرنجة تفوق تلك التى تدفع عن مقتل أحد الرومان ، كما أعفوا أنفسهم من الضرائب الرومانية المباشرة ، وجعلوا هذا النوع من الضرائب وقفا على أهالى غاليا من الرومان وحدهم (٤) وعلى الرغم من ذلك لم يحدث شقاق عنصرى بين الفرنجة والرومان فى غاليا اذ تزوج الطرفان بعضهما من بعض فى حرية وسهولة ، وأصبحت جميع المناصب الكنسية والحكومية مفتوحة أمام الجميع دون تمييز أو تفرقة (٥) . وساعد على هذا التقارب بين الفرنجة والرومان

(1) Moss: op. cit. p. 200.

(2) Eyre: op. cit. p. 89 & Moss: op. cit. p. 200.

(3) Dill: Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 114.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 212.

(5) Lot: The End of the Ancient World, p. 358.

اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكي واستخدامهم اللغة اللاتينية ، مما أدى الى التداخل الحضارى وتأثر كل طرف بالآخر • وهكذا أخذ الملوك الميرفنجيون يحاكون مظاهر البلاط الرومانى الامبراطورى ، فأضافوا على موظفى البلاط ألقابا رومانية وأصدروا مراسيمهم وفق النمط الرومانى •

أما فيما يختص بنظم الحكم عند الفرنجة فى العصر الميروفنجى ، فنلاحظ أن الملكية ظلت وراثية فى سلاله كلافس ، فلم يعرف الفرنجة المبدأ الانتخابى • وكانت السلطة الملكية تعتبر ارثا يقسم بين الأبناء الذكور بالتساوى مع استبعاد الاناث (١) • وقد تمتع ملوك الفرنجة بسلطة مطلقة فى النواحى الادارية والمالية والقضائية والحربية ، وكانت أية مخالفة أو عصيان للملك يعاقب صاحبها بالاعدام (٢) •

وقد اعتبر الفرنجة - شأنهم شأن غيرهم من الجرمان - معظم الجرائم نوعا من المخالفات الشخصية الخاصة لا العامة ، فترك لعائلة المجنى عليه مهمة معاقبة الجانى والاقتصاص منه • وفى بعض الحالات كانت الأسرة صاحبة الحق تكفى بأخذ تمويض من المذنب أو أهله ، وفى حالات أخرى كانت تقتصر لنفسها بطريقة عنيفة تدل على الخشونة والوحشية • على أن قسوة قانون الفرنجة وتطرفه سرعان ما خفت حدتهما نتيجة لجهود رجال الكنيسة وانتشار تعاليم الديانة المسيحية ومبادئها (٣) •

أما عن الناحية المالية والاقتصادية فيلاحظ أن ملوك الفرنجة لم يحاولوا تغيير النظم المالية السائدة فى غالبا ، فتركوا جميع الضرائب القائمة كما هى ، سواء فى ذلك ضريبة الأرض أو الضريبة الشخصية أو ضرائب الأسواق أو الضرائب غير المباشرة (٤) • وكان الدخل الملكى يتألف من ايراد الضياع الملكية فضلا عن الهبات والهدايا والخدمات الخاصة والمحلية التى كان

(١) Dill: Roman Society in the Merovingian Age, p. 113

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 133—134.

(٣) Thomson: op. cit. Vol. 1 p. 213.

(٤) Lot: The End of the Ancient World, p. 351.

على الرعايا أن يقدموها . ثم أخذت تخفى تدريجيا الضرائب الرومانية المباشرة التي كانت معروفة أيام الرومان مثل ضريبة الرأس وضريبة الأرض، وأصبح الكونتات وحكام الأقاليم يدفعون للملك ثلثي الضرائب والأموان التي يجمعونها من الأهالي على أن يحتفظوا لأنفسهم بالثلث (١) . أما الهدايا السنوية التي يقدمها النبلاء للملك كل ربيع فقد أصبحت اجبارية ، ولم تغف منها جهة من الجهات ذات الإراد ، حتى الأديرة والمؤسسات الدينية . وكانت هذه الهدايا تشمل الذهب والفضة والأحجار الثمينة والخيول وما شابهها . ومن هذا يبدو أن جميع الإيرادات السابقة كانت تقدم للملك بصفته الشخصية ليصرف منها على بلاطه دون أن يكون للمنشآت العامة فيها نصيب (٢) . أما هذه المنشآت فكانت تقوم بها الإدارة المحلية ، كما أن المجندين الأحرار كانوا يدخلون الخدمة العسكرية مزودين بأسلحتهم على نفقتهم الخاصة (٣) .

وقد نشطت التجارة في عهد الدولة الميروفنجية حيث وجدت طبقة نشيطة من التجار استخدمت طرق التجارة الرومانية القديمة . ويبدو أن نسبة التجار اليهود واليونانيين كانت كبيرة ، لا سيما في المدن والموانئ ذات الأهمية التجارية مثل مرسيليا وآرل وناربون (٤) . وكانت لغاليا علاقات تجارية مهمة مع موانئ الشرق في البحر المتوسط حتى سنة ٦٠٠ ، أي حتى زمن جريجوري التوري أول مؤرخي الفرنجة . ولكن هذه العلاقات أخذت تذبل تدريجيا نتيجة لنمو قوة المسلمين البحرية في القرن السابع ، مما جعل تجارة الفرنجة تصبح شبه محلية . أما الطابع الغالب على دولة الفرنجة فكان الطابع الزراعي نتيجة لاضمحلال المدن وهجراتها وتلاشى الحياة المدنية من جهة ، ولازدياد عدد الضياع الزراعية الكبيرة التي تكفى نفسها بنفسها

(1) Dill : Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, 126—127.

(2) Thompson: Vol. 1. pp. 215—216.

(3) Lot: The End of the Ancient World, p. 353.

(4) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 355.

وما صاحب ذلك من تناقص عدد الأحرار وصغار الملاك وازدياد عدد الأفنان من جهة أخرى (١) .

الدولة الكارولنجية :

٤

وبتتويج بينين القصير رئيس البلاط ملكا على دولة الفرنجة سنة ٧٥٢ تكون الأسرة الميروفنجية من سلالة بكلوفس قد انتهت وحلت محلها الأسرة الكارولنجية في حكم دولة الفرنجة . وقد استمر بينين القصير في الحكم حتى وفاته سنة ٨٦٨ وعندئذ قسمت مملكته - وفقا لتقاليد الفرنجة - بين ولديه ، فحصل شارل أوستراسيا وجزء من أكوئين ، واختص كارلومان بنستريا وبقية أكوئين (٢) . ولا يهمننا كثيرا أمر النزاع الذي نشب بين الأخوين والذي هدد بالقضاء على وحدة مملكة الفرنجة ، ما دام النزاع قد انتهى بوفاته كارلومان سنة ٧٧١ ، مما أتاح لأخيه شارل فرصة توحيد جميع مملكة الفرنجة تحت سيادته ، من مصب الراين حتى مصب الرون ومن نهر المين حتى خليج بسكاي (٣) . على أن الذي يهمننا هو أن جريجا Gerbrega - أرملة كارلومان - استاءت لاغفال حقوق ولديها القاصرين في ملك أبيهما ، ففرت إلى بلاط دسدريوس ملك اللباردين في بافيا . وكان شارل قد سبق أن تزوج من ابنة دسدريوس ولكنه عاد فطلقها بالسرعة التي تزوجها بها ، الأمر الذي زاد الموقف توترا بين شارل ودسدريوس . ولم يكن منتظرا من الملك اللباردي أن يتأخر في مساعدة أرملة كارلومان (٤) ، فطلب من البابا تتويج ابني كارلومان ، ولما رفض البابا ذلك لجأ دسدريوس إلى مهاجمة الأملاك والأراضي البابوية ، مما دفع البابا ستفن الثالث (الرابع) (٧٦٨ - ٧٧٢) إلى الاستجداء بشارل ملك الفرنجة (٥) . وقد حاول شارل مقاضاة دسدريوس في أول الأمر فأرسل إليه يطلب

(1) Idem: p. 350.

(2) Oman: The Dark Ages, p. 336.

(3) Kleinclausz: Charlemagne: pp. 12—13.

(4) Moss: op. cit. p. 218.

(5) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 421.

[illegible]

تسليم جميع المدن التي استولى عليها من البابوية بدون وجه حق ، ولكن دسدريوس غضب لتدخل شارل بينه وبين البابوية وأصر على موقفه في عدم إعطاء البابوية مدنها . وعندما غزا شارل إيطاليا سنة ٧٧٣ حاول دسدريوس أن يسد منافذ الألب في وجهه ، ولكنه غلب على أمره وفر الى بافيا حيث لحقت به قوات شارل وحاصرته (١) . وفي هذه الأثناء أخذ ابن دسدريوس يجمع قوات اللمباردين قرب فيرونا ، مما جعل شارل يترك جزءا من قواته في حصار بافيا ، ويسرع بالجزء الباقي لمطاردة هذا الابن الذي فر الى القسطنطينية تاركا شارل يستولى على فيرونا وبرجامو وغيرهما من المدن المهمة (٢) . وعندما طال حصار بافيا قرر شارل أن يقضى عيد الفصح (سنة ٧٧٤) في روما حيث جدد للبابا هدریان (أدريان) الأول (٧٧٢ - ٧٩٥) هبة بين القصير للبابوية من قبل . ثم كان أن سقطت بافيا أخيرا بعد حصار عشرة أشهر ، فحمل دسدريوس الى دير كوربي في نسترية حيث قضى بقية حياته بعد أن قسمت ثروته بين جنود الفرنجة ، في حين اتخذ شارل لنفسه لقب « ملك اللمباردين » . ويلاحظ أن شارل لم يشأ في أول الأمر أن يدمج اللمباردين ضمن مملكته ، وآثر أن يتركهم يعيشون في ظل نظمهم الخاصة . ولكن عندما ثار اللمبارديون ضده من جديد ، ودبروا مؤامرة لاستدعاء ابن دسدريوس الهارب في القسطنطينية وإعلانه ملكا ، عاد اليهم ونجح في إخضاعهم سنة ٧٧٦ ، وعندئذ أرغم اللمبارديون على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم .

على أن حروب شارل العظيم ضد اللمباردين لم تكن سوى الحلقة الأولى في سلسلة طويلة من الحروب قام بها شارل ضد السكسون ومسلمي أسبانيا والعناصر السلافية الراضة على نهري اللب والدراڤ (٤) . وقد حققت

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 220.

(٢) Cman: The Dark Ages, p. 347.

(٣) Pirenne: Mohammed and Charlemagne, p. 228.

(٤) Eginhard: The Life of Charlemagne pp. 15—26

The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne; p. 105.

هذه الحروب الواسعة التي قام بها شارل قسما كبيرا من النجاح ، وأدت الى حماية غلب أوروبا من العناصر الوثنية المجاورة فضلا عن نشر المسيحية بين هذه العناصر . وفى سنة ٧٧٨ قام شارل العظيم بأولى حملاته الكبيرة ضد المسلمين فى أسبانيا فاجتمعت جيوشه أمام سرقسطة واعترف له بحكم برشلونة وجيرونا بالولاء . على أن جيوش شارل عجزت عن الاستيلاء على سرقسطة فعادت أدراجها دوز أن تحقق نتائج ظاهرة (١) . وفى أثناء عودة شارل هاجمت عناصر الباسك (البسقاوية) فى شمال أسبانيا مؤخرة جيشه ، فقتل رولان وأصبح هذا الحادث محورا لأشعيرة مشهورة ظهرت بعد ذلك بعدة قرون وصورت شارل العظيم فى صورة الصليبي الأول (٢) . وبعد أن قام شارل بعدة هجمات ضد السكسون ، أخضع البافاريين سنة ٧٨٨ وعزل ملكهم وجعل بلاده دوقية تدير وفق نظم الإدارة الفرنجية (٣) . وفى ذلك الحين كان الآفار قد قدموا المساعدة للملك البافاريين ، الأمر الذى أثار شارل ضدهم ، فغزوا أراضيهم فى حوض الطونة الأوسط ست مرات بين سنتي ٧٨٨ ، ٨٠٥ حتى حطم قوتهم نهائيا وأخضعهم تماما . وعندئذ اختار شارل أحدهم ليتولى حكمهم ، على أن يدفع جزية سنوية للفرنجة (٤) . كذلك قام شارل العظيم بحروب متفرقة أخضع فيها عناصر السلاف الشماليين بين نهري الالب والأودر سنة ٧٨٨ ، والسلاف الجنوبيين فى بوهيميا سنة ٨٠٥ .

• ٨٠٦

على أن أعنف حروب شارل وأطولها كانت ضد السكسون ، الذين سبق أن قاتلهم شارل مارتل وبيبين القصير . وقد قام شارل العظيم بثمان عشرة حملة ضدهم ، كان غرضه الأول منها حماية حدود بلاده من خطرهم ، ثم لم يلبث أن أصبح هذا الغرض تحويلهم الى المسيحية وإخضاعهم بالقوة (٥) . وكان مصدر المتاعب الكبرى التى واجهت شارل فى حروبه ضد السكسون

(1) Lavissee: Hist. de France, Tome 2, Première Partie pp. 293—294.

(2) Davis: op. cit. pp. 110—114.

(3) Deanesly: op. cit. pp. 368—369.

(4) Oman: The Dark Ages, p. 362.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 609—611.

نابعا من صعوبة بلادهم ذات الغابات والأحراش ، وعدم وجود مدن أو معاقل محصنة للسكسون يمكنه أن يحاصرها ويقضي على قوة أعدائه بالاستيلاء عليها ، فضلا عن عدم وجود طرق ومساالك يمكن أن تسلكها الجيوش الغازية . وهكذا ساعدت هذه الظروف السكسون فأظهروا عنادا شديدا وتمسكا قويا بعقائدهم وتقاليدهم ونظمهم ، بحيث أنه كان يخضعهم في كل مرة ويأخذ منهم عددا ضخما من الأسرى والرهائن زيادة على غرامة مالية فادحة ، وعندئذ يتظاهرون بالخضوع ويعتقون المسيحية بالجملة ، ولكنهم لا يلبثوا أن يرددوا إلى أسلوبيهم وعقائدهم بعد أن ينصرف عنهم شارل (١) . وعندما تجددت ثورة السكسون سنة ٧٨٢ أعدم شارل العظيم منهم أربعة آلاف وخمسمائة أسير جملة واحدة في مذبحة فردن Verden (٢) . وهكذا ظل شارل يكافح السكسون ويحاول كسر شوكتهم والقضاء على عصبيتهم حتى خربت بلادهم فهذأت العلاقات بينه وبينهم قليلا ، وإن استمرت ثورات السكسون حتى سنة ٨٠٤ (٣) . وفي هذه الأثناء أسس شارل ثمان أسقفيات في سكسونيا وأرسل كثيرا من البعثات التبشيرية إليها ، حتى آمن السكسون أخيرا بالمسيحية ، وعندئذ حرص شارل على تعليم بعضهم ليصبحوا قساوسة في بلادهم (٤) .

على أن حروب شارل الطويلة ضد السكسون بوجه خاص ، لم تصرفه عن العمل على تأمين شواطئ أوروبا الجنوبية وجزرها من خطر قراصنة المسلمين ، بعد أن اشتدت اغاراتهم عليها . لذلك بدأ شارل العظيم بتأمين حدوده الجنوبية من ناحيتهم ، فأنشأ وحدة إدارية على الحدود الأسبانية سميت ماركية أسبانيا (March of Spain) سنة ٧٩٥ حول مدن جيرونا وجاردونا وأورجل وأوزونة ثم ضم إليها برشلونة سنة ٧٩٧ ، وهي أعظم مدن إقليم قطلونيا بعد أن سلمها له حاكمها الخائن نكاية في سيده خليفة

(1) Halphen: Etudes Critiques sur L'Hist. de Charlemagne, p. 146.

(2) Kleinclausz: Charlemagne, p. 134.

(3) Deanesly: op. cit. 358—365.

(4) Kleinclausz: op. cit. pp. 138. 139.

قرطبة (١) • أما فى الجانب البحرى فقد استولى الفرنجة على كورسيكا وسردينيا ، كما استولوا على جزر البليار سنة ٧٩٩ لحرمان مسلمى الأندلس من اتخاذها قواعد للأغارة على شواطئ إيطاليا وغاليا الجنوبية (٢) • على أن الصراع البحرى لم يلبث أن اشتد فى الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط عندما ظهرت قوة الأغالبة البحرية ، الأمر الذى أزعج الباباليو الثالث وشارل العظيم فضلا عن الدولة البيزنطية • وهنا لم يتأخر شارل فى ارسال التجديدات الى البابا للدفاع عن شواطئ إيطاليا وصقلية ، وان كانت هذه الجهود لم تفلح فى وقف ذلك الخطر الذى تعرضت له شواطئ أوروبا الجنوبية بشكل واضح فى أوائل القرن التاسع (٣) •

وهكذا قضى شارل العظيم معظم حكمه فى حروب مستمرة ، حتى قدر عدد حملاته بأربع وخمسين حملة مكنته من فرض سيطرته على ما كان للإمبراطورية الرومانية القديمة من أملاك فى الغرب ، اذا استثنينا ولاية أفريقية وبريطانيا وجنوب إيطاليا ومعظم أسبانيا ، هذا فضلا عما نتج عن هذه الحروب من نشر المسيحية فى بلاد وبين شعوب لم يسبق أن وصل إليها الرومان من قبل (٤) •

نتائج شارل العظيم امبراطورا :

يتضح مما سبق أنه لم يكدرته القرن الثامن الا كان شارل العظيم قد قام بأعمال لم يستطع القيام بها أحد غيره من المعاصرين • ذلك أنه لم ينجح فى تكوين دولة ضخمة فى غرب أوروبا فحسب ، بل نجح أيضا فى حماية البابوية ونشر المسيحية ، واهياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية فى الغرب (٥) • وقد أثارت هذه الأعمال فى عقول المعاصرين ذكرى روما

(1) Oman: The Dark Ages, p. 365.

(2) Eginhard: Life of Charlemagne, p. 31.

(3) Deanesly: op. cit, pp. 375—376.

(4) Thompson: op. cit. Vol. I p. 259.

(5) Kleinclausz: op. cit. p. 287.

ومجدها القديم ، فأخذوا يتغنون بهذه الذكرى ويشعرون بالرغبة فى احياء هذا المجد . على أن المعاصرين لم يقصدوا احياء مجد الامبراطورية الرومانية فى حضارتها وقوتها فقط ، بل أيضا فى شخص الامبراطور بعد أن ظل الغرب يشعر بفراغ سياسى كبير منذ سقوط الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس . حقيقة كانت هناك امبراطورية رومانية وامبراطور قائم فى القسطنطينية ، ولكن أهالى غرب أوروبا بوجه عام وايطاليا بوجه خاص نظروا الى هذا الامبراطور البيزنطى نظرة ملؤها الاستياء والكراهية بسبب موقف الأباطرة البيزنطيين من عبادة الأيقونات من جهة وسياستهم المعادية للبابوية من جهة أخرى ، حتى أصبح هؤلاء الأباطرة - فى نظر الايطاليين - مجرد جبة أموال مبغوضين (١) .

كان هذا هو شعور المعاصرين اذا نحو الماضى والحاضر فى الوقت الذى قضى شارل العظيم على قوة اللباردين السياسية ، وحسمى البابوية من خطرهم ، وحارب السكسون وغيرهم من العناصر الوثنية لينشر المسيحية بينهم ، كما حارب المسلمين فى أسبانيا والبحر المتوسط لدفع خطرهم ، هذا كله مع شدة رعايته للعلوم وجهوده فى انعاش الحضارة فى الغرب . ولا شك فى أن هذه الأعمال أوضحت للمعاصرين أن شارل العظيم كان أكبر قوة فى عصره تحمى البابوية والكنيسة بل الحضارة الغربية ، وأنه جدير بلقب الامبراطور بعد أن قام بأعمال لا تقل عن تلك التى قام بها أعظم الأباطرة الرومان .

ومن الواضح أنه كان فى استطاعة شارل أن يضيف على شخصه هذا اللقب أو أن يوحى الى الكنيسة الفرنجية بفعل ذلك ، ولكنه كان يطمع فيما هو أكثر ، أى فى أن تخلع عليه البابوية نفسها لقب الامبراطورية حتى يكون أوقع أثرا فى العالم المسيحى أجمع (٢) . وكان أن أتاحت الفرصة لتحقيق هذا الحلم الجميل سنة ٧٩٩ عندما تأمر خصوم البابا ليو الثالث ضده ووضعوا

(1) Moss : op. cit. p. 219.

(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 232.

خطة ترمى الى سمل عينيه وقطع لسانه لابعاده عن منصبه (١) * ولم يلبث أن سمع شارل بأمر هذه الأحداث التي جرت في روما وبأن البابا لم ينج من المؤامرة الا بصعوبة ، فأرسل الى البابا الهارب يستدعيه اليه واستقبله في ترحاب خفف عنه ما يعانيه من آلام (٢) * وبعد ذلك قام شارل بإرسال البابا مخفورا الى روما حيث لحق به بعد قليل * وفي روما عقد مجمع برأ ليو الثالث من جميع التهم التي ألصقها به خصومه ، وبذلك عاد البابا الى مباشرة مهام منصبه في حين أمر شارل بمعاينة المتأمرين (٣) * وهنا أخذ البابا يفكر في وسيلة يرد بها الجميل للملك الفرنجي الذي أنقذ البابوية وأثبت في كل مناسبة أنه أخلص حليف لها وأقوى دعامة للكنيسة الغربية * حقيقة أن منح لقب الامبراطور لملك من ملوك البرابرة أمر ليست له سابقة ، وربما بدا غريبا في نظر المعاصرين ، ولكن حياة شارل العظيم أثبتت أنه لم يكن كغيره من ملوك البرابرة * واذا قورن بمعاصرتة الامبراطورة ايرين - وهي المرأة الشريرة التي أخذت تعبت بمصير الامبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت - فانه لا يوجد أى وجه للمقارنة أو الموازنة (٤) * وهكذا يبدو أن شبح هذه المرأة العابثة التي تحكمت في مصائر الامبراطورية البيزنطية (٧٩٧ - ٨٠٢) كان من العوامل التي شجعت البابوية والغرب على قطع آخر الخيوط التي ربطتهم بالامبراطورية الشرقية (٥) *

وكان أن نفذ البابا فكرته في الاحتفال الكبير الذي أقامه بكنيسة القديس بطرس تمجيدا لعيد رأس السنة (٨٠٠) * فعندما انتهت الصلاة ، تقدم البابا ليو الثالث بخطى وثيدة ممسكا تاجا ذهبيا في يده ووضع على رأس شارل - الذي كان لا يزال راکما أمام المذبح وقال - « اللهم امنح الحياة والنصر لشارل

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 619.

(2) Deanesly, op. cit. p. 381.

(3) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne. p. 92.

(4) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. p. 457.

(5) Oman : The Dark Ages, p. 372.

العظيم الذى توج بفضل الله امبراطورا عظيما على الرومان » (١) • ولم يلبث أن علا صياح الحاضرين من محاربى الفرنجة ورجال الدين الايطاليين ، وأخذ الجميع يحيون شارلمان بالطريقة التى كانت متبعة مع الأباطرة الرومان (٢) •

ولا شك فى أن هذا الحدث لم يكن خطيرا بالنسبة لشارلمان فحسب ، بل أيضا بالنسبة للبابوية والغرب الأوروبى فضلا عن الشرق البيزنطى (٣) • أما عن شارلمان فيقال أنه فوجئ بهذا الاجراء الذى اتخذه البابا ليو الثالث ، ولم يكن يعلم به أو يتوقعه وإن كان يرجوه ويحلم به • وقد ذكر اينهات - المؤرخ المعاصر الذائع الصيت الذى ترجم لشارلمان - أن سيده لو عرف بما أعده البابا فى يوم رأس السنة لما دخل كنيسة القديس بطرس فى ذلك اليوم (٤) • ومهما يكن من أمر فقد قدر لشارلمان أن يحيى الامبراطورية الرومانية فى الغرب بعد أن ظل العالم الغربى بلا امبراطور منذ أواخر القرن الخامس ، وأن يكون مؤسس الامبراطورية الرومانية المقدسة التى لعبت دورا عظيما فى أحداث العصور الوسطى • وأما البابوية فقد قطعت - بتتويج شارلمان امبراطورا - الرباط الواهى الذى كان يربطها بالامبراطورية البيزنطية ، وفى الوقت نفسه قوت الرباط الذى كان يربطها بمملكة الفرنجة وأكسبت هذا الرباط طابعا دينيا مقدسا • هذا فضلا عن أن الطريقة التى تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الامبراطورى يبدو فى صورة منحة من البابا ، وهى العقيدة التى أصبح لها شأن كبير فى النزاع بين الامبراطورية والبابوية فيما بعد (٥) •

أما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية فإن اعلان شارلمان امبراطورا فى الغرب جاء صدمة عنيفة لها (٦) • فعمد سقوط الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس ، والعالم الرومانى لا يعرف الا امبراطورا واحدا هو الامبراطور البيزنطى الذى

(1) Bryce ; The Holy Roman Empire, p. 49.

(2) Kleinclausz : op. cit. p. 304.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome I p. 351.

(4) Eginhard : The Life of Charlemagne ; p. 44.

(5) Moss : op. cit. pp. 222—223.

(6) Eyre : op. cit. p. 173.

تمتع بسيادة - ولو اسمية - على الغرب بوصفه وريث الأباطرة الرومان . ولكن قيام شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ أوجد منافسا خطيرا للامبراطور البيزنطى ، وحرّم الامبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية و لعالم الغربى . هذا الى أن تنويج شارلمان لم يجعل منه « الامبراطور » الأساسى فى الدولة الرومانية ، لأن الامبراطورية - من وجهة النظر السياسية فى العصور الوسطى - لا تحتل رأسين ، مثلها مثل البابوية ، وفى هذه الحالة يصبح شارلمان صاحب الكفة الراجحة لأنه امبراطور الكنيسة الرومانية ، وهى الكنيسة العالمية التى تتخذ روما مركزها (١) . ولعل هذه الصدمة التى أصابت الامبراطورية الشرقية ، هى التى جعلتها لا تعترف بامبراطورية شارلمان الا عندما أفاقت ، بعد مرور اثنى عشرة سنة على تنويجه (فى يناير سنة ٨١٢) (٢) .

اصلاحات شارلمان :

على أن أهمية شارلمان فى التاريخ لا تبدو فى حروبه الطويلة أو تنويجه . امبراطورا لأول مرة بين ملوك الجرمان فحسب ، بل تبدو هذه الأهمية أيضا فى اصلاحاته الواسعة التى تناولت مختلف المرافق والاتجاهات حتى أدت الى ما يعرف فى التاريخ باسم النهضة الكارولنجية .

ففى ميدان الثقافة أظهر شارلمان اهتماما كبيرا بالدراسات العلمية ، فشجع الأدباء والعلماء الذين وفدوا على بلاطه من مختلف أنحاء أوروبا ، ولاسيما أيرلند وانجلترا وإيطاليا (٣) . واشتهر من هؤلاء العلماء مجموعة ضخمة من أعلام النهضة الكارولنجية مثل بطرس البيزى وبولينوس وبولس الشماس وغيرهم . وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى ألكوين ، وهو رجل انجليزى الأصل احتضنه شارلمان ، فتعهد النهضة الفكرية فى الامبراطورية الكارولنجية فى أواخر القرن

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 620—621.

(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 233.

(3) Föligno : Latin Thought, p. 68 & Taylor : Med. Mind Vol. 1 n. 214.

الثامن ، وبذل جهودا جبارة فى خدمة العلم والتعليم (١) . من ذلك أنه قام على تصحيح المخطوطات القديمة واهتم بإصلاح نظم المدارس الدينية ونشر التعليم ورفع مستوى رجال الدين الثقافى . كذلك تولى ألكوين رئاسة مدرسة القصر التى كان شارلمان نفسه أحد تلاميذها (٢) . وهكذا أضحت بلاط شارلمان مركزا ثقافيا علميا كبيرا ذاخرا بالمعلمين - مثل ألكوين - والمؤرخين مثل اينهارت الذى وضع ترجمة معروفة لشارلمان ، والشعراء مثل ثيودلف (٣) . لذلك لا عجب اذا انتشر التعليم وارتفع مستواه بفضل جهود شارلمان ومساعديه ، فضلا عن العناية بالكتبات ونسخ الكتب وتصحيحها ورعاية اللغة اللاتينية وأسلوبها ، مما أدى الى نهضة علمية شاملة تناولت كثيرا من ضروب العلم والمعرفة (٤) .

أما اصلاحات شارلمان فى ميادين التشريع والقضاء والادارة ، فكانت هى الأخرى على جانب كبير من الأهمية . من ذلك أن شارلمان استحدث كثيرا من التشريعات لاقرار النظام الادارى وتنظيم العدالة والمحاكم عن طريق تقبسية العنصر الشعبى فى دور القضاء . كذلك أمر شارلمان سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعى القومى لمختلف العناصر التى تألفت منها امبراطوريته (٥) . وقد قسم شارلمان امبراطوريته الواسعة الى أقسام ادارية يشرف على كل منها كونت يعتبر نائبا عن شارلمان نفسه فى منطقته ، ويتمتع بها لذلك باحتصاصات وسلطات واسعة سواء فى النواحي المالية أو القضائية أو الادارية . فالكونت مسئول عن تسليم ما يجمعه من أموال الضرائب والمخالفات ، كذلك عن اعلان المراسيم والأوامر الملكية على الناس ، فضلا عن الاشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين اللازمين للسلطة المركزية . وكان للكونت أن يختار مساعدين ونوابا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 574.

(2) Syre, op. cit. p. 268.

(3) Kleinclausz : op. cit. pp. 197—202.

(٤) يمكن الوقوف على مظاهر النهضة الكارولنجية فى شىء من التفضيل بالرجوع الى كتاب « النهضة الأوروبية » للمؤلف .

(5) Egnihard : The Life of Charlemagne, p. 45.

(م ١٤ - أوروبا فى العصور الوسطى)

يساعدونه فى مهام منصبه بشرط موافقة شارلمان على هؤلاء المساعدين • وفى نهاية العام يذهب الكونتات من مختلف أنحاء الامبراطورية الى القصر الملكى فى العاصمة (اكس لاشابل) حيث يقضون بضعة أسابيع فى تسليم مافى عهدتهم من أموال فضلا عن حضور المجلس العام لدولة الفرنجة (١) • أما هذا المجلس L'assemblée générale فكان بمثابة مجلس استشارى يتعقد وفق ارادة شارلمان ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الامبراطورية وشعوبها - لا الفرنجة فحسب - فضلا عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات (٢) • ولما كان لابد لحكام الأقسام الادارية الواقعة على الحدود من سلطات استثنائية لمواجهة الأخطار الخارجية الطارئة ، فان هذه الأقسام - التى أطلق عليها ماركيات - عين على كل منها حاكم يسمى ماركيز ويتمتع فى وحدته بسلطة تفوق سلطة الكونت فى كونتية (٣) • على أن أهم اصلاح ادارى أدخله شارلمان كان زيادة نفوذ المبعوثين الملكيين Missi • وكان هؤلاء المبعوثين يوفدون من القصر ليحملوا تعليمات الملك وأوامره الى حكام الأقاليم ويفتشون على هؤلاء الحكام لضمان حسن سير الادارة (٤) • واعتاد شارلمان أن يرسل الى كل جهة اثنين من هؤلاء المبعوثين أحدهما من رجال الادارة والثانى من رجال الدين ليضمن انتظام الجهازين الادارى والكنسى فى الدولة (٥) • كذلك حرص شارلمان على عدم تشييت هؤلاء المبعوثين فى دوائرهم وانما ينقلهم بين حين وآخر قبل أن يوطدوا علاقات مصلحية أو شخصية مع أهالى الأقاليم (٦) •

ولم يغفل شارلمان الناحية الاقتصادية فى امبراطوريته فاهتم بالزراعة ونهض بها حتى أصبحت ضياعه بمثابة مزارع نموذجية تفيض بالخيرات ، كما شجع كبار الملاك فى الامبراطورية على العناية بزراعة أراضيهم ومعاونة الحكومة

(1) Deanesly : op. cit. p. 403.

(2) Kleinclausz : op. cit. pp. 82—88.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 680.

(4) Lavissee : op. cit. Tome 2, Première partie, p. 319.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 682—683.

(6) Davis ; op. cit. pp. 155—157.

فى تقوية جسور الأنهار (١) • أما الصناعة فكانت مراكزها الأساسية فى الأديرة • التى اشتهرت بإنتاج خير المصنوعات المعدنية والجلدية والخشبية وغيرها • على أن الصناعة لم تقتصر فى العصر الكارولنجى على الأديرة وإنما انتشرت فى الضياع والقرى حيث بدأت تظهر بذور النقابات لتنظيم مصالح أفراد الحرفة الواحدة وحمايتهم من المنافسة الخارجية (٢) • كذلك بدت جهود شارلمان واضحة فى ميدان التجارة حيث اهتم بتنظيم التجارة الداخلية والخارجية وتشجيعها • من ذلك أنه نظم الموازين والمقاييس والمكايل والعملة المتداولة ، هذا فضلا عن عنايته بالطرق التجارية والمحافظة عليها وتأمينها ومنع المستغلين من فرض رسوم باهظة على سالكيها أو عابرى الجسور • وقد أقيمت الفنادق والوكالات على امتداد الطرق الرئيسية لايواء التجار ودوابهم وحفظ بضائعهم (٣) • على أن التجار فى ذلك العصر فضلوا دائما استخدام الطرق النهرية والبحرية لسهولة وقلة تكاليفها ، فكانت التجارة الداخلية فى الامبراطورية تعتمد على أنهار الراين والدانوب والسين والرون وفروعها ، فى حين اعتمدت التجارة الخارجية على البحر المتوسط وبحر الشمال • وساعد هذا النشاط التجارى الواسع على ظهور أهمية بعض المدن بحكم موقعها مثل مينر التى كانت مركزا رئيسيا للتجارة بين ألمانيا وغاليا ، ومثل نيم Nimes وماجلون وآرل وناربون التى كانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق (٤) •

شارلمان والكنيسة :

يبدو لنا من دراسة تاريخ الامبراطورية الكارولنجية أن الطابع الدينى كان غالبا عليها • فالعامل الأساسى فى نجاح دولة الفرنجة دون غيرها من الدول الجرمانية التى قامت فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى كان العامل الدينى ،

(1) Boissonnade; Life and Work in Med. Europe, p. 71.

(2) Lavissee: op. cit. Tome 2, Première Partie, p. 336.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 657.

(4) Lavissee: op. cit. Tome 2, Première Partie, pp. 338—340.

وهو العامل نفسه الذى أدى الى نجاح شارلمان فى اقامة امبراطوريته ، وفى المزج بين شعوب هذه الامبراطورية على أساس أنهم خاضعون جميعا لحاكم يتمتع برضاء الكنيسة ، بل يسيطر عليها وعلى رجالها .

ذلك أننا رأينا كيف كانت البابوية متلهفة دائما على مخالفة الملوك الكارولنجهين لحمايتهم من نفوذ الامبراطورية البيزنطية من جهة ومن خطر اللمباردين من جهة أخرى . واذا كان ملوك البيت الكارولنجهي لم يتقاعسوا عن مساندة البابوية ، فإن الأخيرة ردت اليهم الجميل بتتويج بيين القصير ملكا سنة ٧٥٣ ثم بتتويج شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ . وهكذا قامت الامبراطورية الكارولنجية على أساس دينى سياسى ، فأخذ شارلمان يستغل مكانته بوصفه حامى البابوية فى فرض سيطرته على الكنيسة داخل امبراطوريته ، فهو الذى يعين الأساقفة ويدعو الى عقد المجامع الدينية بل يتولى رئاسة هذه المجامع لبحث المشاكل المتعلقة بالعقيدة (١) ، كما أنه يشرع القوانين اللازمة للكنيسة ويحدد حقوق رجال الدين من كنسيين وديرين وواجباتهم (٢) . وبذلك أصبح شارلمان رأس الكنيسة والدولة جميعا ، ورئيسا للأساقفة والكوتات دون تمييز لأنه لم يفرق بين الكنيسة والدولة (٣) . حتى الموسيقى الدينية ، والمواظع التى يلقيها رجال الكنيسة فى مختلف المناسبات والأعياد لم تسلم من تدخل شارلمان وتعديله (٤) . وهكذا وجدت الكنيسة نفسها خاضعة خضوعا تاما لحكومة شارلمان كما صار رجالها بمثابة أتباع مخلصين له ، يخضعون لأوامره ونواهيهم خضوعا تاما (٥) . وقد حدث عندما حاولت البابوية أن تتحرر من قبضة شارلمان القوية أن أرسل شارلمان رسالة الى البابا ليو الثالث سنة ٧٩٦ ، يفهمه أن:

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 616.

(2) Kleinclausz: op. cit. p. 225.

(3) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 316.

(4) The Monk of St. Gall; The Life of Charlemagne. p. 72.

(5) Fichtenna: The Carolingian Empire, pp. 132—133.

اختصاص البابوية لا ينبغي أن يتعدى الجانب الدينى بأى حال « وأن واجبك أيها الأب المقدس هو أن تساعدنا برفع يديك الى السماء والدعاء لنا مثلما فعل موسى (١) » .

وهكذا ظلت الأمور على وفاق بين الكنيسة والدولة طالما كان شارلمان يجمع فى قبضته القوية بين زمام السلطتين الدينية والزمنية ، ولكن الموقف أخذ يتغير بعد شارلمان ، عندما عجز خلفاؤه عن فرض سيطرتهم على الكنيسة ورجالها مما آذن باصطدام السلطتين كما سنرى فيما بعد (٢) .

تقسيم الامبراطورية الكارولنجية :

أشرنا فيما سبق الى تمسك الفرنجة بنظرتهم القديمة الى الملك على أنه ارث يقسم بين أبناء الملك + وطبيعى أن يؤدى استمرار تطبيق هذا المبدأ الى تفتت الدولة ثم الى زوالها نتيجة لتقسيمها بين الأبناء ثم تقسيم كل قسم بين أبناء الأبناء وهكذا + ومن الغريب أن شارلمان - وهو السياسى البعيد النظر - لم يحاول الخروج على هذه القاعدة أو تعديلها ، فقسم امبراطوريته الواسعة فى حياته بين أبنائه الثلاثة (٣) + على أن وفاة اثنين من هؤلاء الأبناء وبقاء واحد - هو لويس التقي - أخر الى حد ما تقسيم الامبراطورية (٤) . وقد احتفل شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ بتتويج ابنه لويس التقي الذى خلفه فى حكم الامبراطورية ، والذى لم يلبث أن أعيد تتويجه بواسطة البابا ستفن الرابع (الخامس) سنة ٨١٦ (٥) .

والواقع أن لويس التقي لم يكن بالشخص الذى يستطيع حكم امبراطورية

(1) Oliver Thatcher : A Source Book p. 107. &

سفر الخروج - اصحاح ١٧ - ١١

(2) Davis: op. cit. pp. 276—277.

(3) Deanesly, op. cit. p. 392.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 624.

(5) Oman: The Dark Ages, p. 387.

شارلمان • ذلك أنه لم يمتلك من صفات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية أو الكفاية الإدارية ، أو حتى قوة الشخصية ما يضمن له سيطرة كافية على الجيش والادارة والكنيسة • هذا فى الوقت الذى تزايد الخطر الخارجى بعد وفاة شارلمان سواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الامبراطورية الشرقية ، أو من ناحية المسلمين على الحدود الجنوبية ، أو من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية والغربية (١) • وزاد الطين بلة تمسك لويس التقي - وخلفائه من بعده - بسياسة تقسيم الملك بين الأبناء ، حتى أن لويس وضع مشروعا سنة ٨١٧ لتقسيم امبراطوريته الواسعة بين أبنائه الثلاثة لوثر وبيين ولويس ، ليضمن عدم قيام خلاف بينهم بعد وفاته (٢) • على أن لويس التقي تزوج بعد ذلك وأنجب ابنا جديدا اسمه شارل ، ومن ثم أراد إعادة توزيع المملكة توزيعا جديدا يضمن لهذا الابن الرابع حقوقه أسوة باخوته • ويبدو أن هذا التصرف لم يرض الاخوة الثلاثة الأوائل فقامت حرب أهلية عنيفة بين الاخوة بعضهم وبعض من جهة ، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى (٣) • وكان أن نوفى بيين ، ثم لحق به أبوه سنة ٨٤٠ فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين حتى تم الاتفاق فيما بينهم فى اتفاقية فردون الشهيرة سنة ٨٤٣ على تقسيم الامبراطورية تقسيما يرضيهم جميعا (٤) • ذلك أن شارل الأصغر أخذ نستريا واكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية ، وأخذ لويس الألماني الجزء الواقع شرقى الراين من أوستراسيا فضلا عن بافاريا وسوابيا وسكسونيا ، فى حين أخذ لوثر الجزء الأوسط بين المملكتين السابقتين ، أى فريزلاند (الأراضي المنخفضة) والجزء الباقى من أوستراسيا غربى الراين زيادة على برجنديا وبروفانس وإيطاليا • على أن أهمية اتفاقية فردون لا تقتصر على أنها وضعت نهاية لامبراطورية الفرنجة الموحدة فحسب ، بل لأنها توضح أيضا بداية مولد بعض الدول

(1) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 130.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 pp. 10—11.

(3) Lavissee : op. cit. Tome. 2 Première Partie, pp. 362—363.

(4) Oman; The Dark Ages; p. 409.

العظمى الحديثة(١) . ذلك أن التقسيم السابق قام - الى حد ما - على أساس لغوى ، فكان شارل الأصغر يحكم الجزء الغربى الذى تسوده اللغة الرومانية - المحرفة عن اللاتينية - ومن ثم سنستخدم من الآن لفظ فرنسا للإشارة الى هذا الجزء الغربى من الامبراطورية الفرنجية . وحكم لويس الألمانية الجزء الشرقى الذى تسوده اللغة الألمانية ، ومن ثم سنشير الى هذا الجزء بألمانيا . أما لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية ، وقد سميت بلاده لوثرنجيا - أى مملكة لوثر - ثم حرف الاسم الى اللوردين ، وهى المنطقة التى ما زالت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية(٢) .

ولم يلبث لوثر - صاحب المملكة الوسطى - أن توفى سنة ٨٥٥ ، وبذلك قسمت مملكته الى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه(٣) . وهكذا أخذت تتكاثر الأجزاء التى انقسمت اليها الامبراطورية الكارولنجية ، كما كثرت الحروب بين أبناء البيت الكارولنجى ، بحيث أنه لم يوجد من الأبناء الشرعيين لهذا البيت سنة ٨٨٤ سوى شارل البسيط فى فرنسا وشارل السمين فى ألمانيا . وعلى الرغم من أن الأخير استطاع أن يوحد بين ألمانيا وإيطاليا وفرنسا توحيدا اسميا لمدة ثلاث سنوات ، إلا أنه عزل سنة ٨٨٧ ثم توفى فى العام التالى(٤) . أما فى فرنسا فإن شارل البسيط كان طفلا فى الثامنة من عمره ، مما سهل انتقال السلطة الفعلية الى أيدي أودو كونت باريس ، الذى استطاع أن ينتزع الملك ويؤسس أسرة جديدة هى أسرة كايية سنة ٨٨٨(٥) .

وعلى هذا الوجه انهضت الامبراطورية الكارولنجية ، وإن ظلت ذكرى شارلمان - مؤسس هذه الامبراطورية - باقية فى التاريخ لتخلد اسمه الى جانب

(1) Eyre: op. cit. p. 99.

(2) Orton: op. cit. pp. 149—150.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 34.

(4) Deanesly, op. cit. p. 560.

(5) Idem, p. 561.

فيصر والاسكندر وغيرهما من الشخصيات العظيمة التي استطاعت أن تكيف التاريخ الأوربي . وإذا كان المعاصرون في القرن التاسع قد رفضوا أن يشبهوا شارلمان بالاسكندر ورومولوس وهانيبال وغيرهم من أعلام العصر الوثني ، فإن البابوات وصفوه بأنه قنسطنطين الجديد ، كما رسمت صورته في قصر انجلهايم الى جوار قنسطنطين وثيودوسيوس (١) .

(1) Kleinclausz, op. cit. pp. 355 — 556 & Fichtenau, op. cit. p. 83.

الباب الثامن

الفيكينج

نقصد بالفيكينج العناصر الشمالية التى سكنت شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك ، والتى اتخذت اغاراتها على أوربا شكلا خطيرا فى القرن التاسع . وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها - وأطلق عليها المعاصرون - اسم الفيكينج Vikings - بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان ، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوربا (١) .

وإذا كان الفيكينج يرجعون فى الناحية الجنسية الى الأصل التيتونى أو الجرمانى ، الا أننا نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التى أغارت على أوربا فى أواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى . ذلك أن الفيكينج ظلوا برايرة خالصين محافظين على أوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعى والديانة ، واستمروا حتى القرن التاسع يعيشون فى هذه العزلة بعيدين عن العالم الرومانى والبحر المتوسط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السابقة التى اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حدود الامبراطورية بعدة قرون . ولم تحاول الامبراطورية الرومانية أو امبراطورية الفرنجة مد سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع ، وعندئذ بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوروبى الجنوبى مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفيكينج هم الذين استكشفوا أوربا وليست أوربا هى التى كشفت عن الفيكينج (٢) .

ولم يختلف الفيكينج عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية فى نظمهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم ، اللهم الا أن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات

(1) Mawer: The Vikings, p. 1.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 306.

والأحراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشون فيه سوى السهول الساحلية ، وهى لا تعدو فى معظم الأحيان أشرطة ضيقة من الأرض الصعبة . وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحو البحر ، فبرعوا فى بناء السفن الصغيرة المكشوفة التى اتصفت بطولها وقلة عرضها وسارت بالمجداف أو الشراع ، وجابوا بها شواطئ أوروبا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط ، بل قاموا برحلات بعيدة فى المحيط الأطلسى حتى أصبحوا أعظم الشعوب البحرية التى عرفت أوروبا بالعصور الوسطى (١) . لذلك اتخذت اغارات الفيكنج شكلا بحريا أقرب الى القرصنة منه الى الزحف البرى الذى اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيونية قبل ذلك بأربعة قرون أو خمسة . كذلك عرف عن الفيكنج مهارتهم فى القتال وقوة تسليحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحرية طويلة ، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد .

أما الأسباب التى دفعت الفيكنج الى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسيرها على أسس نفسية واقتصادية واجتماعية وسياسية . فمن الناحية النفسية أثبت التاريخ دائما أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع فى البلاد المتحضرة القريبة منها ، والرغبة فى الاغارة عليها لنهب ثروتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها . وهذا الشعور كان أحد العوامل التى حركت الجرمان نحو أراضى الامبراطورية الرومانية من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الكامنة خلف حركة الفيكنج فى القرن التاسع (٢) . ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفيكنج كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا (٣) . لذلك اهرس الفيكنج عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لما ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجارى ، وبالتالي مضايقتهم اقتصاديا ومن الناحية الاجتماعية

(1) Stephenson, op. cit. p. 201.

(2) Eyre: op. cit. p. 106.

(3) Le Pfister, Giesebert op. cit. p. 465.

يقال ان أعداد الفينكج تزايدت فى القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطئ سكندناوة ودانمرك ، مما دفعهم الى الهجرة الى أرض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة بغية الحصول على ما يمسك رمقهم ويسد حاجتهم (١) . هذا وان كانت لا توجد فى الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا أساسيا لهجرة الفينكج فى القرن التاسع (٢) . وأخيرا يأتى العامل السياسى ممثلا فى نشأة الملكية بين الفينكج وبخاصة فى النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع فى يدى هارولد الأشقر (Harold Fairhair) ، الأمر الذى جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى أوطان جديدة عن الخضوع فى ظل نظام لم يألفوه . وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك شهدتا أيضا تطورات سياسية داخلية أدت بكثير من جموع الفينكج الى الهجرة (٣) . وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية فى شمال غرب أوروبا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة فى سبيل توسع الفينكج جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على أيدى شارل مارتل سنة ٧٣٤ ثم شارلمان سنة ٧٨٥ ، أن زالت هذه العقبة من طريق الفينكج وأصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم (٤) .

وإذا كنا فى حديثنا عن الفينكج نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانين فالتا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعنى وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وانما كل ما يقصد به هو الإشارة الى جماعات الفينكج التى سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندناوة أو شبه جزيرة الدانمرك ،

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 311.

(2) Eyre: op. cit. p. 106.

(3) Mawer, op. cit. pp. 7—8.

(4) Eyre: op. cit. p. 106.

وبعبارة أخرى فإن العصر الكارولنجي لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك (١) .

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافي في توزيع غزوات الفايكنج ، فالسويديون الذين يواجهون شرق أوروبا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التي هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرق أوروبا والبحر الأسود . أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا إنجلترا وأيرلند والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر الشمالية في المحيط الأطلسي . هذا في حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب فهددوا شواطئ الامبراطورية الكارولنجية في ألمانيا وفرنسا ، فضلا عن إنجلترا وأيرلند والجزر القريبة .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنج بغرب أوروبا الى ثلاثة أدوار ، الأول دور الهجوم والثاني دور الاستقرار والثالث دور الدفاع . أما دور الهجوم فقد بدأ في أواخر القرن الثامن - أي منذ سنة ٧٨٩ - عندما أخذ الفايكنج يهددون شواطئ إنجلترا واسكتلندا وأيرلند . وفي ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفايكنج ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص بعد وفاة لويس النقي (٢) . وقد اتخذ نشاط الفايكنج في ذلك الدور شكل

(1) Stephenson, op. cit. p. 200.

وقد جاء في موسوعة تاريخ كامبردج أن المقصود بالفايكنج « مجموع الشماليين والدانيين والسويديين » ومن هذا التعريف نفهم أن الشماليين هم النرويجيون وحدهم ، في حين أن لفظ الفايكنج أكثر شمولاً لأنه يعنى جميع سكان سكندناوة والدانمرك في القرن التاسع . والواقع ان معظم حوليات العصور الوسطى لم تحاول التفرقة بين الدانيين - سكان دانمرك - والنرويجيين ، وعبرت عنهم جميعا باسم الشماليين Nordmanni ، على أننا نجد هذه التفرقة واضحة بين الفئتين في كتابات الأيرلنديين المعاصرة . أما الكتاب الذي دونوا حولية أنجلو سكسون فقد حرصوا على استخدام لفظ الشماليين Noromenn للدلالة على النرويجيين فقط ، وكذلك فعل الفرد في ترجمته لكتاب المؤرخ أوروذويوس .

(أنظر (Mawer, op. cit. pp. 9—10.

(2) Oman: The Dark Ages, p. 415.

غزوات صيفية فيخرجون من بلادهم صيفا عندما يعتدل الجو يعودون اليها في الخريف وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والأسلاب * على أن حركة توسع الفيكينج لم تلبث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع ، عندما أخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات حصينة أو في الجزر المنبعة الواقعة قرب شواطئ البلاد التي يغيرون عليها أو عند مصبات أنهارها * وبعد أن كانوا في الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا في هذا الدور الثاني يغيرون على بلاد غرب أوروبا في هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بنية الاستقرار في البلاد التي يغزونها * وهكذا أقام الفيكينج مستعمرة قصيرة العمر في أيرلند سنة ٨٤٣ كما قضوا الشتاء لأول مرة في إنجلترا سنة ٨٥١ (١) ، وكذلك أخذوا يستقرون حوالى ذلك الوقت في الجزء الغربى من فرنسا الذى عرف فيما بعد باسم نورمانديا (٢) * ولكنهم أخذوا يوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وكلما هجر الأهالى الأجزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفيكينج * وأخيرا يأتى الدور الثالث فى أواخر القرن التاسع ، وهو الدور الذى امتاز بمقاومة أهالى البلاد وحكامها للفيكينج فى حين التزم هؤلاء الآخرون جانب الدفاع * وقد بدأت هذه المقاومة من جانب الكونت أودو حاكم باريس مما أدى الى فشل حصار الفيكينج لباريس (٨٨٥ - ٨٨٧) ، وقبل ذلك قليل كان ألفرد ملك وسكس بإنجلترا قد أنزل بالدانين هزيمة كبرى فى أدنجتون سنة ٨٧٨ (٣) * وفى سنة ٨٩١ استطاع أرنولف - أحد ملوك البيت الكارلونجى فى المملكة الوسطى - أن ينزل هزيمة بالفيكينج فى موقعة ديل Dyle فى برابانز Brabant (٤) *

(1) Hodgkin: The Hist. of England, p. 267.

(2) Evre, op. cit. p. 107.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 315.

(4) Evre: op. cit. pp. 109---110.

اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية :

بدأت اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية فى حياة شارلمان الذى أدى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانين . ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العلاقات بين الطرفين عندما دخل بعض السكسون الهاريين من وجه شارلمان تحت حماية الدانين(١) ، هذا فى الوقت الذى أخذت بعض سفنهم تغير على اقليم أكوئين(٢) . ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفيكنج على شواطئ الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يدهموا احدى القرى أو المراكز الساحلية . ويبدو أن هذه الاغارات أزعزت شارلمان قاعد أسطولاً قويا فى موانئ نستريا لحماية شواطئ امبراطوريته من هجمات الفيكنج ، ومع ذلك فقد استمر جودفريد ملك الدانين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان فى جنوب البحر البلطى وشواطئ فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم سنتى ٨٠٤ ، ٨٠٩ كوسيلة لدفع شهرهم(٣) . ثم حدث فى عهد لويس التقي - خليفة شارلمان - أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التى قامت حول تقسيم الامبراطورية ، وأنزلوا قوات ضخمة على شاطئ فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبوا أوترخت مركز رئيس أساقفة فريزيا ، ودورشتد Duurstede أكبر موانئ الاقليم . وفى العام التالى أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة ألتورب ثم عادوا سنة ٨٣٧ الى مهاجمة والشرن عند مصب الراين وأوغلوا حتى وصلوا الى نموجن Nimuegen ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندما حضر اليهم لويس التقي على رأس جيوشه(٤) . ويبدو أن لويس التقي حاول شراء مسالة الدانين بالهدايا والمال ، كما منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩ ليقموا فيها ويحولوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب الفيكنج ، وان كانت هذه الاجراءات وأشباهها لم تؤد فى

(1) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. pp. 465—466.

(2) Mawer: op. cit. p. 17.

(3) Davis: op. cit. pp. 296—297.

(4) Oman: The Dark Ages, p. 400.

الواقع الا الى زيادة مطامعهم فى اراضى الامبراطورية (١) .

ويلاحظ أن أنهار فرنسا الغربية مثل السين واللوار والجارون كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفيكنج السيل الى جوف البلاد ، فأوغلوا فى نهر اللوار حتى تور حيث نهبوا كندرائتها ، ودخلوا فى الجارون حتى تولوز ، فى حين أوصلهم السوم الى اميان ، والسين الى باريس . وقد ساعد الفيكنج على التوغل فى الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التى أمست فيها هذه الامبراطورية فى القرن التاسع من نزاع وحروب أهلية بين الأمراء والحكام (٢) . ومهما يكن من أمر فإن اغارات الفيكنج أخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقي سنة ٨٤٠ ، اذ أوغلوا فى نهر السين لأول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان . وربما شجع الفيكنج فى سياستهم الهجومية عندئذ ما لجأ اليه لوثر بالذات من تحريض لهم على مهاجمة اراضى منافسيه ، وذلك أثناء النزاع الذى قام حول تقسيم الامبراطورية عقب وفاة لويس التقي (٣) . وهكذا أوغل الفيكنج فى اللوار قيل عقد اتفاقية فردون مباشرة وأحرقوا ميناء نانت (٤) . ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفيكنج حدة وعنفا عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ ، حتى أصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للأخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية . وكان لويس الألماني أوفر اخوته حظا لأن قائل السكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمى هذه الدولة من خطر الفيكنج . ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الألماني حرق مدينة هامبرج سنة ٨٤٥ ففر أسقفها الى برمن (٥) ، كما أن قوة كبيرة من الفيكنج أوغلت فى نهر الالب سنة ٨٥١ وهزمت أمراء السكسون ، ثم عادت ظافرة الى الدانمرك بعد أن نهبت جزءا كبيرا من سكسونيا .

-
- (1) Mawer: op. cit. pp. 18—19.
 - (2) Thompson: op. cit. vol I p. 312.
 - (3) Cam. Med. Hist. vol. 3 p. 315.
 - (4) Oman: The Dark Ages, p. 418.
 - (5) Mawer: op. cit. p. 20.

أما الأخ الثاني لوثر فكانت خسارته فادحة ، إذ أخذ الفيكنج يغيرون على شواطئ فريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنع جزيرة والشرن عند مصب الراين لزعم الدانين المسمى روريك Ronik ليسترضيه ويتفادى شره . ولكن هذا الحل لم يجد إذ سرعان ما أصبحت شواطئ فريزيا (الأراضي المنخفضة) قلاعاً للفيكنج ، استغلوها في التوغل داخل البلاد حتى غدا لوثر في قصره بمدينة آخن (اكس لا شابل) لا يأمن على نفسه من خطرهم .

وأما الأخ الثالث - وهو شارل الأصغر - فكان أسوأ الثلاثة حظاً ، لأن مملكته امتازت بشاطئ طويل مكشوف ، وعدد كبير من الأنهار التي ساعدت الفيكنج على التوغل داخل البلاد . وقد استغل الفيكنج فرصة انشغال شارل في حرب أهلية مع ابن أخيه بين أمير أكوئين ، وجددوا هجماتهم على الأجزاء الشمالية من مملكته . وكان أن تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لأول مرة في نسترية ، بعد أن استولوا على دير نوار موتيه ، واتخذوه قاعدة لمهاجمة الأجزاء الجنوبية من فرنسا (١) . ولم يلبث أن ساعد النزاع بين بين وعمه شارل على ازدياد نفوذ الفيكنج ، إذ استعان بهم الأول وساعدهم على التوغل في حوض الجارون حتى وصلوا إلى مدينة تولوز . وفي ذلك الوقت كان الفيكنج قد عادوا إلى تهديد حوض السين من جديد ، فأغاروا على مدينة روان ونهبوها للمرة الثانية سنة ٨٤٥ ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا في وجههم فحصن نفبه في مرتفعات مونتمارتر Montemartre ، وفي دير سانت دنيس ، وترك باريس ليدخلها الفيكنج وينهبوها .

ولم تقف اغارات الفيكنج على فرنسا عند هذا الحد ، بل انهم أغاروا على بورجو - كبرى مدن الجنوب - ونهبوها سنة ٨٤٧ ، ثم استولوا عليها تماماً بعد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 316.

(2) Mawer: op. cit. pp. 20—21.

(م ١٥ - أوروبا في العصور الوسطى)

قليل فظلت بأيديهم عدة سنوات • ومن الواضح أن استيلاء الفيكنج على مثل هذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بأرباح طائلة وغنائم وفيرة ، أغرتهم على مواصلة نشاطهم التدميري بأعداد أكبر حتى وصلت مملكة شارل الأصلع الى درجة يرمى لها من الخراب والانهلال • وقد حدث عندما تجددت هجمات الفيكنج على حوض السين سنة ٨٥٢ ، أن أتى لوثر على رأس جنده لمساعدة أخيه شارل الأصلع ، ولكن الأخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، وأجاز له الاستقرار في منطقة قرب مصب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى بلاده (١) • ولم تلبث أن تجددت الحروب الأهلية بين لويس الألماني وأخيه شارل الأصلع سنة ٨٥٤ فأناحت فرصة طيبة للدانين الذين أوغلوا في مملكة شارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بأنجرز وبلوا ، وبذلك لم تقاومهم سوى مدينة أورليان (٨٥٣ - ٨٥٤) (٢) •

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجي عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفيكنج أنهم لجئوا الى شراء مسالتهم بالمال • من ذلك ما فعله شارل الأصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند أحد زعماء الفيكنج تعهد فيها الملك بدفع مبالغ ضخمة من المال ليقوم الأخير باخلاء نستريا من الغزاة • ولكي يحصل الملك الكارولنجي على هذا المبلغ الذي تعهد بدفعه للفيكنج فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تفر منها الكنائس والأديرة والنبلاء والتجار بل فقراء الفلاحين (٣) • وهكذا جاءت هذه الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الأثقال التي كان يتحملها أهالى دولة الفرنجة ، في الوقت الذي اتضح عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم (٤)

(1) Lavissee: op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 379.

(2) Oman: The Dark Ages p. 422.

(3) Mawer: op. cit. p. 45.

(4) Thompson: op. cit. vol. I p. 313.

والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٥ ، ٨٨٧ تعتبر أحلك عصور التاريخ الغربى . ففي سنة ٨٥٥ توفى لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب أهلية جديدة بين أبنائه وأخوته حول اقتسام مملكته . وفي هذه الظروف لم يتوقف خطر الفيكنج ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الأصغر الى إصدار مرسوم بـ *Pistres* سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ، ولعمل جسور وعقبات فى مجارى الأنهار لتعوق تقدم سفن الفيكنج من جهة أخرى .

على أن وفاة لويس الألماني سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الأصغر سنة ٨٧٧ زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، بل من ضعفها وعجزها عن مقاومة أخطار الفيكنج (١) . ففي سنة ٨٧٨ دخلت جموعهم نهر الشلند وأقاموا معسكراتهم عند غنت ليجتاحوا وادى السوم بأكمله بما فيه من مدن وأديرة مهمة مثل كوربى وسانت روكوير وغيرهما . كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز لنفس المصير ، اذ هيات أنهار الراين والميز والشلند وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفيكنج حتى وصلوا آخن وهددوا كولونيا . حقيقة ان لويس الثالث ملك فرنسا استطاع أن يحرز نصرا على الفيكنج فى موقعة سوكورت *Saucourt* سنة ٨٨١ ، حتى أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج حدود مملكته ، ولكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم (٢) .

وفى سنة ٨٨٢ لجأ شارل السمين الى مصالحة جودفريد أحد زعماء الفيكنج فعقد معه معاهدة السلو *Elsloo* التى وافق فيها شارل على منح الفيكنج مبلغا ضخما من العملة الفضية ، فضلا عن اقليم فريزيا ليكون دوقية لجودفريد الذى تزوج جزلا ابنة الملك شارل . وفى مقابل كل ذلك ينسحب جودفريد من مملكة شارل السمين ويتمهد باعتناق المسيحية وبأن يظل تابعا للملك شارل

ولكن هؤلاء الفيكنج الذين غادروا ألمانيا وفقا لمعاهدة السلو اتجهوا نحو

(1) Lavissee: op. cit. Tome. 2, Première Partie., pp: 389—390.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 321.

نستريا ، وهو أمر لم يهتم له شارل السمين فى قليل أو كثير ما داموا سيجلون عن مملكته . لذلك كان شتاء سنة ٨٨٢ - ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا ، اذ دهمت المنطقة من ريمس حتى أميان جموع ضخمة من الفيكنج . وهنا لم يحاول الملك كارلومان (٨٧٩ - ٨٨٤) أن يخذل حذو سلفة لويس الثالث ، وانما فضل ان يقتفى سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة لكي يتركوا بلاده وينقلوا ميدان نشاطهم الى أوستراسيا وانجلترا وأيرلند . وقد اتحت لشارل السمين - بعد مسوت كارلومان ملك فرنسا - فرصة توحيد معظم أجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظيما بين شخصيتي شارل السمين وشارل العظيم (١) . ولذلك امتازت السنوات الثلاث التى وحد فيها شارل السمين الامبراطورية (٨٨٤ - ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من آخر الروابط التى كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية .

وسرعان ما أثبتت الحوادث أن الاتفاقات التى عقدها ملوك الغرب مع الفيكنج لا قيمة لها ما دام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التى يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم . لذلك لم يلبث أن عاد الفيكنج ، الى تهديد ألمانيا وفرنسا ، حتى اشتدت اغاراتهم بصفة خاصة فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع ، فدمروا فلاندرز ، كما تعرض وادى الحارون. الجنوبى الغربى من فرنسا لغارات أخرى خطيرة . ذلك أن الفيكنج استولوا على بورددو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان أساطيلهم دارت حول شبه جزيرة أيبيريا وأغارت على الموانئ المسيحية والاسلامية فى أسبانيا ، كما حددت الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط وتسلمت فى الرون حتى نهبت نيم وأفينون (٢) . واذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفيكنج ، فان الأديرة والكنايس لم يكن لها درع يحميها سوى حرمتها الدينية ، وهذا سلاح لم يعترف به أولئك المغيرون الوثنيون . لذلك شدد الفيكنج هجماتهم على الأديرة

(1) Lavissee: op. cit. Tome Z, première partie, p. 393.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 316.

والكنائس بعد أن خبروها فوجدوها مخبأ الثروات والكنوز ، الأمر الذى نشأ عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية فى ذلك العصر . ولما كانت الأديرة حينذاك هى المراكز الأساسية للنشاط التعليمى والحضارى فى أوروبا العصور الوسطى فإن الخسارة التى لحقت الحضارة الأوربية بتدمير الأديرة وفرار أهلها أو قتلهم كانت أعظم من أن تقدر (١) .

على أن حوض السين ظل الهدف الأساسى لهجوم الفيكنج فى أواخر القرن التاسع . وقد تعرضت باريس فى أواخر سنة ٨٨٥ لهجوم كبير قام به أربعون ألفا منهم جاءوا فى سبعمائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدرين على شئون الغزو (٢) . وكان أن استطاعت باريس الصمود عدة أشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كونت أدو حاكمها ، حتى وصل أخيرا (سبتمبر ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة أخرى ويعقد صلحا مئينا مع الفيكنج تعد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس ، كما سمح لهم بالإقامة فى برجنديا (٣) . على أن الأهمية التاريخية لهذا الحصار لا ترجع الى ظهور شخصية كونت أودو على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع أيضا الى ظهور أهمية باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد .

وكان أن تم اختيار أودو ملكا على فرنسا فى فبراير سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين فى العام السابق (٤) . ولم يلبث أن أحرز أودو انتصارا جديدا على الفيكنج بعد تتويجه بعدة أشهر ليثبت مرة أخرى صلاحيته للحكم (٥) . ولكن الفيكنج لم يتركوه يهنأ بالاستقرار ، اذ عادوا بعد قليل الى محاصرة باريس للمرة الرابعة . وعلى الرغم من أن المدينة استطاعت الصمود مرة أخرى ومقاومة الحصار لعدة أشهر ، الا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من أودو الكونت ، اذ اقتفى هو

-
- (1) Haskins; The Normans in European History, p. 35.
 - (2) Mawer: op. cit. p. 49.
 - (3) Lavissee: op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 394.
 - (4) Idem: p. 399.
 - (5) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 62.

الآخر سنة شارل السمين واشترى مسالة الفيكنج بالمال ، وعندئذ انسحبوا الى
بريتاني . ولم يلبث أن عاد الفيكنج - كما هي عاداتهم - الى تهديد أواسط
فرنسا ، وعندئذ أنزل أودو بهم هزيمة ساحقة عند موتينسيه Montpensier
وأسر زعيمهم وأعدمه سنة ٨٩٢ .

وهكذا أخذ نبلاء فرنسا يشعرون بتناقص خطر الفيكنج ، الأمر الذى
دفعهم الى التآمر ضد ملكهم أودو ، فنظروا اليه على أنه أحدهم وأرسلوا
يستدعون شارل البسيط - وريث البيت الكارولنجي - من انجلترا ، ومن ثم
بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات بين أودو وشارل
البسيط ، ولم تنته الا سنة ٨٩٨ بوفاة أودو (١) . وقد استمر شارل البسيط
يحكم الجزء الغربى من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ ،
وأظهر فى هذه المدة همة كبيرة فى محاربة الفيكنج على الرغم من صغر
سنه . ولم تكن اغارات الفيكنج قد انقطعت حيثئذ ، بل على العكس انتهزوا
فرصة الحروب الأهلية بين أودو وشارل البسيط وعادوا الى نستريا ليجتاحوها
من جديد . وهنا نلاحظ أن اغارات الفيكنج امتازت - فى هذه المرحلة -
بمقاومة الأهالى لها من جهة ، وبقلة الغنائم التى أصبح الفيكنج يحصلون عليها
من جهة أخرى ، بعد أن أحاطت المدن والأديرة أنفسهم بأسوار منيعة .

وعندما فشل الفيكنج فى تثبيت أقدامهم فى برجنديا نتيجة لمقاومة البرجنديين
أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذى نسب اليهم فيما بعد - نورمنديا .
وتشير الوثائق المعاصرة الى أن رولو Rollo الذى أصبح فيما بعد دوق
نورمنديا أخذ يهاجم بايو فيما بين عامي ٨٩٠ ، ٨٩٢ . ويبدو أن الفيكنج
اتخذوا روان عند مصب السين مركزا لهم ، ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد
شاطئ هذا الجزء الغربى من فرنسا بين السوم وبريتاني . وعلى الرغم من
أنهم قتلوا فى الاستيلاء على شارتر سنة ٩١٢ (٢) ، الا أن شارل البسيط

(1) Idem: pp. 65—68.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 318.

اختار أن يسلك معهم نفس الأسلوب الذى اتبعه ألفرد ملك وسكسن قبل ذلك بثلاثين سنة ، فعرض على زعيمهم رولو اقليما واسما يستقر فيه مع أتباعه (١) . وكان أن تمت المقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفيكنج الاقليم الساحلى الممتد من السوم حتى بريتانى ، وهى المنطقة التى نسبت الى الشماليين (أو النورمان) فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نورمنديا (٢) .

والواقع ان اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع ، لأن هذه المنطقة صار معظمها بأيدي الفيكنج فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ ، والذين لم تقطع اغارتهم عنها الا حوالى سنة ٩٦٦ أى بعد اتفاقية سانت كلير بأكثر من نصف قرن (٣) . ومهما يكن الأمر فان الفيكنج أصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نورمنديا حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية للملك فرنسا . ومن الواضح أن الدافع الأساسى الذى شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقاء نورمنديا للفيكنج لقمة سائفة هو رغبته فى ايجاد خصم قوى يقف فى وجه كونت باريس . وزاد من أهمية الأمر أن رولو دوق نورمنديا سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، كما أثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التى أجراها شارل البسيط ، اذ نزحت معظم جماعات الفيكنج المتناثرة فى فرنسا ليعيشوا تحت حكم رولو فى نورمنديا ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد (٤) . والمعروف عن الفيكنج أنهم كانوا - أينما حلوا - يظهرن مرونة سريعة فى تقبل حضارة وعادات وأوضاع أهالى البلاد الأصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمان على غزو الفيكنج لاقليم نورمنديا حتى تأقلم النورمان وأصبحوا فرنسيين فى لغتهم ونظمهم وثقافتهم ، وان ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسة

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 322.

(2) Mawer; op. cit. p. 52.

(3) Haskins: The Normans in European Hist. p. 27.

(4) Fliche; L'Europe Occidentale, pp. 72—77.

والعنف التى اتصف بها أسلافهم الأوائل ، مما جعلهم يقومون بدور هام فى حكومات فرنسا وانجلترا وإيطاليا وصقلية ، وهى الجهات التى غزاها النورمان فيما بعد (١) .

اغارات الفيكينج على انجلترا :

كانت انجلترا من أولى بلاد غرب أوروبا التى تعرضت لآغارات الفيكينج ، إذ شهدت هذه البلاد غارة قامت بها بعض سفنهم التى رست قرب دورشستر Dorchester سنة ٧٨٧ على عهد الملك بيوهترىك Beorhtric ملك وسكس (٧٨٦ - ٨٠٢) كما نهبت أسقفية لندسفرين Lindisfrane قرب الشاطئ الشمالى الشرقى لانجلترا سنة ٧٩٣ (٢) . وبعد أن آغار الفيكينج على دير القديس بولس فى جارو Jarrow على الساحل الشرقى سنة ٧٩٤ لم نسمع عن آغارات أخرى قاموا بها على انجلترا حتى سنة ٨٣٥ . ويبدو أنهم فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٩٤ ، ٨٣٥ وجهوا الجزء الأكبر من نشاطهم نحو أيرلند كما سيلي بعد قليل .

وقد أطلق أهل انجلترا من السكسون اسم « الدانين » Danes على جماعات الفيكينج التى أخذت تهاجم بلادهم منذ أواخر القرن الثامن (٣) ، وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون نفس الجرعة التى سبق أن سقوها لأهالى بريطانيا - من البراطنة والرومان - فى القرنين الخامس والسادس . ومهما يكن من أمر فانه على الرغم من قسوة آغارات الفيكينج على انجلترا ، وما لقيته البلاد على أيديهم من تخريب وفوضى ، الا أنه من الثابت أن الفائدة التى حصلت عليها انجلترا من وراء هذه الآغارات فاقت الخسارة التى لحقت

(1) Lavissee: op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 402.

(2) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 257—258.

(٣) هذا على الرغم من أن آغارات الفيكينج فى هذا الدور الأول على انجلترا قام بها فعلا النرويجيون أو الشماليون من سكان النرويج لا الدانمون من سكان الدانمرك ، وهم الذين لم تبدأ هجماتهم بصفة جدية على انجلترا وأيرلند الا قرب منتصف القرن التاسع . انظر .

Mawer; op. cit. p. 14.

بها ، ويكفى أنها أدت الى تكتل انجلترا الأنجلوسكسونية في هيئة مملكة واحدة (١) .

أما أغارات الفيكينج على انجلترا منذ سنة ٨٣٥ فقد بدأت في الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن أخذت تمتد شرقا (٢) . ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الأكبر من ضربات الفيكينج في هذا الدور ، اذ أغاروا على سوثامبتون Southampton سنة ٨٤٠ وبورتلاند في نفس الوقت ، وشارموث Sharmouth سنة ٨٤٣ ، ومصب نهر باريت Parict سنة ٨٤٨ ، ثم ومبورى Wembury سنة ٨٥٤ . وليس معنى ذلك أن بقية أجزاء البلاد نجت من خطر الفيكينج ، فقد اجتاحتهم لندسى Lindsey وانجليا الشرقية وكنت سنة ٨٤١ . وفي سنة ٨٤٤ لقي ردوولف Redwulf ملك نورثمبريا مصرعه على أيديهم (٣) .

ولم تلبث أن دخلت نهر التيمز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانين الذي استولوا على كانتربورى ولندن ، ثم عبروا التيمز حيث أنزل بهم اثلوولف Ethelwulf ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند أوكلى Ockley وذبج منهم عددا كبيرا . ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من أثره أن الدانين قضوا الشتاء الأول مرة سنة ٨٥١ في انجلترا عند ثانت Thanet ، وبذلك أخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة الى دور الاستقرار (٤) .

ثم كان أن لجأ شارل الأصلع الى تخليص أراضي نهر السين من جموع الدانين عن طريق شراء جلائهم بالمال سنة ٨٦٦ ، وعندئذ لجأت هذه الجموع الى انجلترا حيث أغارت في العام التالي (٨٦٦) على يورك ، ولستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حصول نورثمبريا (٥) . على أن انتهاء أمر هذا النزاع لم يؤد الى إضعاف الدانين

(1) Hodgkin: The History of England, p. 262.

(2) Mawer: op. cit. p. 14.

(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 266—267.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 312.

(5) Mawer: op. cit. p. 24.

أو طردهم ، بل ان مرسيا Mercia دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩ (١) .
كما عبروا مرسيا الى انجلترا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث أنزلوا هزيمة بملكها
ادموند وقتلوه ، ومن ثم اعتبر هذا الملك قديسا وشهيدا في نظر المصور
التالية (٢) .

والواقع أنه لم ينفذ بقية انجلترا من خطر الدانين وتوسعهم سوى جهود
الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ - ٨٩٩) ، حتى أن سنة ارتقائه العرش
صارت ذات أهمية بالغة في تاريخ انجلترا (٣) . ذلك أن ألفرد العظيم
أبلى بلاءا حسنا في الدفاع عن بلاده ضد الدانين حتى أنه اشتبك معهم في
تسعة مواقع حربية أثناء السنة الأولى من حكمه ، الأمر الذي جعل الدانين
يقنعون بعقد الهدنة ويولون أبصارهم شطر مرسيا . على أن الصراع سرعان
ما تجدد بين ألفرد والدانين سنة ٨٧٥ ، وعندئذ واجه ألفرد كثيرا من
الصعاب في هذا الدور ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها جميعا وأنزل بالدانين
هزيمة ساحقة عند ادنجتون Eddington سنة ٨٧٨ . وكان أن طلب
الدانئون الصلح ، فتم عقد صلح ودمور Wedmore سنة ٨٧٨
على أساس جلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعد
به ملكهم من اعتناق المسيحية (٤) . ولكن ملك الدانين في انجلترا لم يلبث
أن خرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ، الأمر الذي جعل ألفرد يحاربهم مرة
أخرى حتى انتهى الأمر بعقد صلح جديد سنة ٨٨٥ حددت بمقتضاه الحدود
الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتد من مصب التيمز حتى شستر ، بمعنى أن
لندن والجزء الأكبر من مرسيا كانت من نصيب ألفرد ، في حين التزم
الدانئون الأراضي الواقعة شمالي هذا الخط وهي التي سميت مسموح الدانين
(Danelaw) (٥) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3 p. 318.

(2) Mawer: op. cit. p. 25.

(3) Hodgkin: The Hist. of England; p. 278.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 319.

(5) Hodgkin: The Hist. of England, p. 287.

وقد تمتعت انجلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاهما ألفرد فى إعادة تنظيم جيشه وتقوية مملكته بوجه عام ، فى حين وجه الفيكنج جهودهم الى القارة . وفى ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقى الراين من مسلك شارل السمين تجاه الفيكنج ، وهو المسلك المتصف بالضعف وشراء مسالتهم بالمال ، فاختاروا أرنولف ملكا عليهم سنة ٨٨٧ . ولم يلبث أرنولف هذا أن أحرز نصرا على الفيكنج قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الأمر الذى جعلهم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى الى انجلترا (١) . وهكذا تعرضت انجلترا فى خريف سنة ٨٩٢ لهجوم أسطولين من أساطيل الدانين أحدهما أرسى عند Limen (فى الجنوب الشرقى جنوبى دوفر) فى حين أرسى الأسطول الثانى عند ملتون Milton فى الجزء الشمالى من كنت . وسرعان ما أبدى الدانيون نشاطا كبيرا فى مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن ألفرد واجههم فى قوة وعزيمة وأجبرهم على الانسحاب . وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات أخرى خارجية قام بها الدانيون على انجلترا بقية عهد ألفرد ، وإن ظل الدانيون المقيمون فى أنجليا الشرقية ونود ثمبريا يقومون بكثير من أعمال القرصنة ، الأمر الذى دفع ألفرد الى توجيه نشاطه نحو بقاء أسطول قوى استغله فى دفع خطر الدانين وانزال عدة ضربات بهم (٢) . وعندما توفى ألفرد سنة ٨٩٩ أخذ خلفاؤه يغزون أراضي الدانين تدريجيا حتى انتهى الأمر سنة ٩٥٤ بتوحيد انجلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذى أصبح يستحق لقب ملك انجلترا فى التاريخ . على أن ملوك انجلترا فى الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شئ من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة أخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفيكنج . وفى هذه المرة لم يأت الدانيون الى انجلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وإنما جاءوا فى صورة أمة مترابطة ، حتى أصبح كانوت Canute بن ملك الدانمرك والنرويج ملكا على انجلترا (١٠١٦ - ١٠٣٥) . ولم يستطع أصحاب الحق الشرعى فى عرش انجلترا من البيت السكسونى استرداد عرشهم الا سنة

(1) Idem: pp. 306—307.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 3 p. 325.

١٠٤٢ ، عندما تولى ادوارد الثالث (١٠٤٢ - ١٠٦٦) الذى عرف بنزعه الدينية القوية حتى اكتسب لقب « المعترف » فى التاريخ . وقد فضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا فى بلاط قريبه دوق نورمنديا مما جعله يتأثر الى حد كبير بالآراء والاتجاهات النورمندية (١) . ومهما يكن من أمر فان وليم دوق نورمنديا ادعى أنه صاحب الحق الشرعى فى بلاط انجلترا عند وفاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ ، بحكم القرابة بين الطرفين من جهة ، وبسبب أن ادوارد نفسه وعد وليم بأن يرثه فى حكم انجلترا من جهة أخرى . وهنا نلاحظ أن البابوية ساندت وليم النورمندى فى أطماعه بسبب غضب البابا من السكسون ، الذين طردوا رئيس أساقفة كانتربورى النورمندى على الرغم من أنه كان يحمل تفويضا من البابوية (٢) .

وهكذا استطاع وليم النورمندى أن ينزل قواته على الشاطئ الجنوبى الشرقى لانجلترا ، متغلبا على الصعوبات التى اعترضته ، فأوقع الهزيمة بهارولد ملك انجلترا السكسونى الجديد - فى موقعة هاستنجس ١٠٦٦ (٣) وبذلك نجح وليم فى فتح انجلترا مما أكسبه لقب الفاتح فى التاريخ ، كما استطاع توحيد نورمنديا وانجلترا تحت حكمه .

غزوات الفيكنج لأيرلندا :

أما أيرلندا فقد قاست أكثر من غيرها فى المرحلة الأولى من مراحل اغارات الفيكنج ، اذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهم ، فى الوقت الذى كانت مدن الجزيرة وأديرتها مكشوفة دون أسوار حجرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين . وهكذا أخذ النرويجيون يواصلون اغاراتهم على أيرلندا فى أواخر القرن الثامن ، حتى تحولت هذه الاغارات الى نوع من الاستقرار فى الجزيرة فى أوائل القرن التاسع (٤) .

(1) Ibid.

(2) Idem, Vol. 5 p. 497.

(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 488—491.

(4) Oman: The Dark Ages, p. 417.

وإذا كانت أيرلند قد تعرضت لاغارات الفيكينج فى الوقت نفسه الذى واجهت انجلترا - هى الأخرى - غزواتهم ، إلا أن مصير كل من البلدين اختلف عن الآخر . ذلك أن الفيكينج داروا حول الشاطئ الغربى لاسكتلند وغزوا جزيرة سكاي Skye قرب الشاطئ سنة ٧٩٥ ، كما هاجموا جزيرة مان Man - بين أيرلند وانجلترا - سنة ٧٩٨ . أما جزيرة أيونا قرب شاطئ سكتلند الغربى فقد نهبوا سنة ٨٠٣ ثم سنة ٨٠٦ (١) وفى سنة ٨٠٧ ظهر الفيكينج قرب شواطئ أيرلند الشمالية الغربية عند سليجو Sligo ثم شقوا طريقهم داخل البلاد حتى وصلوا روسكومون Roscommon فى أواسط البلاد . وفى سنة ٨١١ هاجموا منستر Munster فى جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شبه جزيرة هوث Howth - بجوار دبلن - وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١ (٢) .

وهكذا يبدو لنا من هذا العرض السريع أن أساطيل الفيكينج أحاطت بأيرلند اساطلة تامة فى الربع الأول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ إلا وكان الفيكينج قد أوغلوا داخل الجزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم . وعندئذ لم يعد الفيكينج يكتفون بالنارات الفردية ، وإنما أخذوا يهاجمون الجزيرة بأساطيل كبرى ، متخذين من خليجائها وموانئها العديدة مراكز ينفذون منها الى الداخل (٣) .

ويبدو أن المقاومة العنيفة التى أبدتها القبائل الأيرلندية حالت دون استيلاء الفيكينج على الجزيرة كلها ، فقتلوا بإقامة مراكز لهم حول خليجان الجزيرة ومصببات أنهارها . وقد حصن الفيكينج هذه المراكز وأقاموا فيها القلاع ، ومن هذا الطريق ظهرت أهمية دبلن وليميرك Limerick وكورك ووتر فورد Waterford ووكسفورد (٤) . أما المناطق الداخلية فقد اكتفى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 311.

(2) Mawer; op. cit. p. 12.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317

(4) Mawer; op. cit. p. 13.

الفيكنج بنهبها ولا سيما الأديرة التي تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرين من رهبانها يؤثرون الفرار الى أديرة فرنسا وفلاندرز وألمانيا .

ومن زعماء الفيكنج فى هذا العصر تورجس Turges الذى ظهر اسمه لأول مرة عند هجومهم على أرماغ سنة ٧٣٢ . وقد بلغت قوة تورجس هذا ذروتها سنة ٨٤١ عندما نفى مقدم دير أرماغ وأصبحت له السيطرة الثامنة على الجزء الشمالى من أيرلند ، حتى وقع فى قبضة الأيرلنديين بعد ذلك بثلاث سنوات . ومهما يكن من أمر فإن تورجس هذا لم يكن الا واحدا من عدد كبير من زعماء الفيكنج الذين غزوا أيرلند فى هذه الحقبة والذين تردد أسمائهم بكثرة فى الحوليات المعاصرة (١) .

وهنا نكرر القول بأن الاغارات الأولى التى تعرضت لها انجلترا وأيرلند جميعا من جانب الفيكنج فى هذا الدور الأول - أى حتى قرب منتصف القرن التاسع - قامت بها عناصر من الشماليين أى النرويجيين ، لا من الدانين (٢) . وتحدد الحوليات المعاصرة أول اغارة للدانين على ايرلند بسنة ٨٤٩ ، ومنذ ذلك الوقت أخذت اغاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا فى صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة . من ذلك أن الدانين اشتبكوا مع النرويجيين فى معركة كبيرة وقتلوا منهم كثيرين ، كما نهبوا قواعد النرويجيين فى دبلن ودوندالك Dundalk سنة ٨٥١ . وهكذا اشتد النزاع فى أيرلند بين الدانين والنرويجيين الشماليين فى الوقت الذى تدخل الأيرلنديون ليحموا أنفسهم من خطر الفريقين ، مما أوقع الجزيرة فى حالة شاملة من الفوضى . وزاد من حدة هذه الفوضى وسول أولافه Olaf - ابن ملك النرويج - الى ايرلند سنة ٨٥٣ لخضوع الدانين فى الجزيرة (٣) .

وقد أصبحت دبلن تحت حكم أولاف مركزا قويا لحكم النرويجيين

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.

(2) Mawer: op. cit. p. 14.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.

الشماليين فى أيرلند ، كما أخذ الرزاق سوء العلاقات بين النرويجيين والدانين فى الجزيرة • أما الأيرلنديون أنفسهم فقد لاقوا كثيرا من المتاعب ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا ، وظهر بينهم زعماء تولوا قيادتهم ضد أعدائهم • ولم يقتصر نشاط أولاف فى هذه الفترة على أيرلند ، وإنما امتد خارجها فذهب الى سكتلند سنة ٨٦٦ ، كما أسهم بنفسه فى حصار ديمبارتون Dumbarton على شاطئ سكتلندا الغربى سنة ٨٧٠ • وعندما عاد أولاف الى النرويج حوالى سنة ٨٧٣ بدأ الدانويون ينتهزون الفرصة للقضاء على سيطرة النرويجيين فى أيرلند ، مما فتح باب النزاع والحرب بين الطرفين من جديد (١) • على أننا نستطيع القول بأن الغلبة فى أيرلند ظلت بوجه عام للنرويجيين الشماليين ، وأن الدانين لم ينجحوا فى بسط سيطرتهم على الجزيرة (٢) •

ثم كان أن ساد السلام فى أيرلند لفترة امتدت نحو أربعين سنة بدأت سنة ٨٧٧ • ويبدو أن الفيكنج شغلوا فى هذه الفترة بميادين أخرى استأثرت بالجزء الأكبر من نشاطهم ، وبخاصة انجلترا وإمبراطورية الفرنجة • ولم تلبث أن سقطت دبلن نفسها فى أيدي الأيرلنديين سنة ٩٠٢ • على أن النرويجيين سرعان ما استعادوها سنة ٩١٦ ، وعينا حاول الأيرلنديون استعادة مركزهم حتى حلت بهم الهزيمة سنة ٩١٩ ، وهكذا أضحت أيرلند طحال الخمسين سنة التالية فريسة سهلة لاغارات الشماليين والدانين على السواء • وإذا كان الشماليون اتخذوا دبلن مركزا أساسيا لهم ، فإن الدانين اتخذوا كورك Cork فى جنوب الجزيرة قاعدة لهم وأغاروا منها على الجهات المجاورة حتى اجتاحتها إقليم منستر بأجمعه (٣) •

وفى تلك الأثناء استمر الأيرلنديون يقاومون أعدائهم فى عزيمة لا تعرف الملل حتى أغاروا على دبلن ودمروها أكثر من مرة • وفى سنة ٩٨٠ نزلت أولى الضربات الكبرى بالشماليين عندما حلت بهم الهزيمة فى تارا Tara واضطروا الى إطلاق سراح جميع ما لديهم من رهائن ، فضلا عن دفع

(1) Mawer: op. cit. p. 58.

(2) Idem, p. 11.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317—334.

غرامة حرية باهظة • ثم كانت المعركة التالية بين الأيرلنديين وأعدائهم عند كلونتارف Clontarf سنة ١٠١٤ وانتهت هي الأخرى بهزيمة الشماليين هزيمة ساحقة ومقتل زعمائهم • ومع أن الفيكينج ظلوا بعد ذلك محتفظين بمدنهم الكبيرة في أيرلند إلا أنهم أخذوا يذوبون تدريجيا في الشعب الأيرلندى على مر السنوات (١) •

الفيكينج في الجزر الشمالية :

على أن توسع الفيكينج في الاتجاه الغربى لم يقتصر على انجلترا وأيرلند وشواطئ سكتلند وامبراطورية الفرنجة ، وإنما شمل أيضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد مثل مان وأوركنى وشتلندوفاروى Faroes (٢) • هذا فضلا عن أن النرويجيين اتجهوا - محكم موقعهم الجغرافى - اتجاها شماليا غربيا ، أى نحو أيسلاند وجرينلاند • ويرجح أن النرويجيين عرفوا من أقاتهم فى أيرلند بوجود جزيرة أخرى كبيرة تقع بعيدا فى شمال المحيط الأطلسى ، لأنه من الثابت أن الرهبان الأيرلنديين سبق أن وصلوا أيسلاند وإن لم يستقروا فيها • هناك رواية وردت فى إحدى السجلات تشير الى أن سفينة نرويجية قذفتها العواصف بعيدا عن طريقها حتى رست على شواطئ أيسلاند سنة ٨٦١ (٣) • ومهما يكن من أمر فإن استقرار الفيكينج فى أيسلاند لم يبدأ إلا حوالى سنة ٨٧٠ عندما هاجر إليها كثير من النبلاء النرويجيين ومعهم أتباعهم ليعيشوا فيها أحرارا بعيدين عن سيطرة هارولد الأشقر صاحب السلطة العليا فى النرويج عندئذ (٤) •

ولم يلبث أن اتجه الشماليون غربا من أيسلاند حتى وصلوا جرينلاند والشواطئ الشمالية الغربية لأمريكا حوالى سنة ١٠٠٠ • وهكذا أصبحت جرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشمالين الذين نزحوا إليها من النرويج وأيسلاند ، فعمروها وشيدوا بها الكنائس حتى أسست أسقفية جاردار Gardar سنة ١١٢٦ (٥) •

(١) Mawer: op. cit. p. 46.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 325.

(٣) Thompson: Vol. 1, p. 332.

(٤) Mawer: op. cit. p. 142.

(٥) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 324.

توسع السويديين شرقا :

إذا كان هناك جدل طويل في التاريخ حول نصيب كل من النرويجيين والدانين في حركة الفيكينج ، فانا لا نصادف خلافا في الرأي عند دراسة حركة توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا . حقيقة انه يفهم من بعض المصادر المعاصرة أن السويديين ترددوا - هم الآخرون - على انجلترا وغيرها من بلاد الغرب ، ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردي ، ولا تعبر بأي حال عن النشاط الاجماعي للسويديين . وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على أساس التغلغل السلمى الذى اعتمد على النشاط التجارى ، لا على أساس الغزو الحربي والنهب والتدمير ، وهى الصفات التى امتازت بها غزوات النرويجيين والدانين في الغرب (١) .

والواقع أن البحر البلطى كان ميدانا أساسيا لنشاط عناصر الفيكينج ، وان كان السويديون والدانيون هم الذين قاموا بالجزء الأكبر من النشاط في هذا الميدان ، بعكس النرويجيين الذين اتجهوا غربا بحكم توجيههم الجغرافى .

وإذا كان نشاط الدانين في حوض البحر البلطى قد اقتصر على شبهاطى بومرانيا Pomerania - غربى دانزج - فان نشاط السويديين اتجه الى الجزء الشرقى من حوض ذلك البحر حتى وصلوا الى كورلاند Kurland على خليج رييجا ، ومنها الى أوغلو شرقا على امتداد نهر دونا Duna داخل البلاد (٢) . ومهما يكن من أمر ، فان الميدان الرئيسى لتوسع السويديين ونشاطهم لم يكن في حوض البحر البلطى وشمال أوروبا بقدر ما كان في سهولها الجنوبية الشرقية . وفي هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » Rus ، وهو لفظ فنى بمعنى « الثوب أو البحارة » ، أطلقه الفينيون والسلاف على هذه العناصر الشمالية التى تغلغت في بلادهم .

(1) Mawer: op. cit. n. 9.

(2) Idem, pp. 72-73.

(١ - ١٦ أوروبا في العصور الوسطى)

وكان الآفار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية فى شرق أوربا لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين فى القوقاز أو التجار المسيحيين فى القسطنطينية . ولكن قوة الآفار كانت قد انهارت فى القرن التاسع ، الأمر الذى مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من السويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا أقدامهم فى حوض نهر الدنيير حتى وصلوا الى البحر الأسود . وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطى والأسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم فى هذا الجزء الشرقى من أوربا (١) . ذلك أن الروس أسسوا عدة مدن ، تتحكم كل مدينة منها فى المنطقة القريبة التى تحيط بها والتى تسكنها قبائل مختلفة من السلاف ، ولكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها . وقد فكرت هذه المدن فى حماية أنفسها وحماية تجارتها ، فلبأت الى تأليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم أيضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية (٢) . وكان أن حدث حوالى سنة ٨٨٢ أن استولى أحد الزعماء الروس - ويدعى روريك Rurik - على مدينة كييف ، وبذلك نشأت دوقية كييف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفكنج فى شرق أوربا ، كما كانت نورمنديا مركزا لهم فى غربها . على أنه اذا كانت دوقية نورمنديا قد صادفت مقاومة عنيفة حثالت دون توسعها فى فرنسا (٣) ، فان دوقية كييف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وأن تفرض سيطرتها المباشرة - وغير المباشرة - على كثير من القبائل والشعوب الضاربة فى سهول شرق أوربا . ويقال أنه بلغ من سرعة اتساع كييف أن أصبح بها فى فى الربع الأول من القرن الحادى عشر - أى على عهد فلاديمير الأول أو العظيم (ت ١٠١٥) - ثمان أسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والألمان ، فضلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد (٤) . ومازالت لدينا بعض معاهدات تجارية

(1) Stephonson: op. cit. Ps, 201, 211.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 325.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3. n. 327.

(4) Thompson; op. cit. Vol. I. p. 325.

ترجع الى النصف الأول من القرن العاشر بين الروس من جهة والدولة البيزنطية من جهة أخرى ، ثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والدييد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصوغات وغيرها من لوازم الترف • وربما كان أوضح ما فى هذه المعاهدات أن الموقعين عليها من الروس يحملون أسماء سويدية (١) •

على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل تجارية سلمية على طول الخط ، فقد كانت تغلب عليهم بين حين وآخر نزعتهم نحو الحرب والقتال ، مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها • من ذلك أنه حدث سنة ٨٦٥ أن أبحروا فى الدنيبر حتى البحر الأسود واجتازوه الى بحر مرمرة حيث تعرضت سفنهم لعاصفة حطمت معظمها • ثم حدث سنة ٩٠٧ أن أغار أحد زعماء الروس واسمه أولج Oleg على أطراف القسطنطينية ومعه أتباعه تحملهم ألف سفينة ، ولم ينسحب الا بعد أن دفعت له الامبراطورية مبلغا كبيرا من المال (٢) •

ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى هجم زعيم روسى آخر اسمه ايجور Igor على عاصمة الدولة البيزنطية سنة ٩٤١ ثم ٩٤٤ ، مما دفع الامبراطورية الى السعى للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين على أسس سلمية (٣) • وكان أن تم التفاهم فعلا حوالى منتصف القرن العاشر ، ومن ثم أخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السويديين فى البحرية الامبراطورية ، حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم (٤) • وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة أربح لهم من الحرب (٥) ، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقار والعنبر والرقيق ، على أن تعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل

(١) Mawer: op. cit. p. 75.

(٢) Ostrogorsky: op. cit. p. 229.

(٣) Vasiliv: op. cit. Tome I. p. 426.

(٤) Diehl & Marcais: op. cit. pp. 470—471.

(٥) Cam, Med. Hist. Vol. 3, p. 327.

والمجوهرات • أما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على شواطئها كثرة المسكوكات العربية التي عثروا عليها في السويد وفي روسيا والتي يرجع معظم تواريخها الى الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٠ ، ١٠٠٠ (١) • ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابوا وسط المحيط السلافي الكبير الذي عاشوا وسطه ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الحادى عشر ، الا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافي العام (٢) •

نشاط الفيكنج فى حوض البحر المتوسط :

لم يقتصر نشاط الفيكنج على دائرة البلاد السابق ذكرها ، انما امتد هذا النشاط الى كثير من البلاد المجاورة ، ففي سنة ٨٤٤ أغار الفيكنج على شواطئ أسبانيا الاسلامية وتعرضت لشبونة وقادس وأشبيلية بوجه خاص لعشهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية (٣) • وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التى أظهرها الأهالى فى صد أولئك الغزاة - الذين أسماهم المسلمون باسم المجوس (٤) • - الا أنه يبدو أن أغارتهم استمرت بشكل خطير مما دفع عبد الرحمن الثانى الى ارسال سفارة الى ملك الفيكنج (٥) •

ثم حدث سنة ٨٥٩ أن أبجر الفيكنج من حوض السين وعبروا مضيق جبل طارق وأغاروا على بعض بلاد المغرب وقراها ، كما أغاروا على شواطئ الأندلس الشرقية حتى وصلوا جزر البليار • وبعد أن أمضوا فصل الشتاء فى إحدى الجزر الواقعة عند منصب نهر الرون ، حيث أغاروا على مدن إقليم

(١) Mawer: op. cit. p. 79.

(٢) Idem: p. 80.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 316.

(٤) ويبدو أن اطلاق مسلمى الأندلس اسم المجوس على الفيكنج جاء نتيجة للحرائق التى كانوا يشعلونها فى البلاد التى يسنولون عليها ، أو لما اعتاده الفيكنج من اشعال النار ليلا للاستئناس والتدفئة ، الأمر الذى حمل المسلمين يستمدون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أو المجوس •

(٥) Mawer; op. cit. pp. 19—20.

بروفانس ، أبحروا فى الربع التالى الى ايطاليا حيث استولوا على بنزاولونا Luna ويبدو أن الهدف الأساسى من ذهاب الفيكنج الى ايطاليا كان الاستيلاء على روما ، ولكننا لا ندرى السبب فى عدم تقديمهم جنوبا لتحقيق هذا الهدف وان كانت بعض الأساطير المعاصرة تعال ذلك بأن الأمر اختلط عليهم فظنوا أن لونا هي روما . ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الفيكنج عادوا سنة ٨٦٢ من حيث أتوا فمبروا مضيق جبل طارق الى برينانى .

وهكذا استطاع الفيكنج فى النصف الثانى من القرن التاسع الاحاطة بأوربا احاطة شبه تامة بعد أن وصل السويديون الروس الى القسطنطينية شرقا ووصل الفيكنج الغربيون الى شواطئ ايطاليا من الجهة المقابلة (١) .

حضارة الفيكنج :

لم يكن الفيكنج برابرة بكل معانى الكلمة ، لأنهم أظهروا مزيجا عجيبا من البدائية والنزعة الحضارية (٢) ، اذ ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية الأولى من جهة ، فى حين فاقوا كثيرا من شعوب أوربا المجاورة فى بعض نواحي النشاط البشرى ، وبخاصة الحرب والتجارة والتنظيم الاجتماعى من جهة أخرى (٣) . على أن الخشونة والبدائية التى عرف بها الفيكنج فى أول الأمر لم تلبث أن أخذت تتعدل نتيجة لانتشار المسيحية تدريجيا بينهم ، وما ترتب على ذلك من تهذيب طباعهم .

ويرجح أن أول معرفة الفيكنج بالمسيحية جاءت عن طريق علاقاتهم التجارية مع الفريزيين ، حتى أخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندناوة والدانمرك منذ أوائل القرن الثامن . ومن هذه البعثات بعثة القديس وليبرورد Willibrord وبعثة ابو Ebbo رئيس أساقفة ريمس سنة ٨٢٣ (٤) . وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقي على نشر المسيحية بين

(1) Idem: pp. 46—47.

(2) Haskins: The Normans in European History, p. 36.

(3) Mawer: op. cit. p. 83.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 314.

الفكنج بالطرق السلمية ، فأغرى هارولد ملك الفكنج على اعتناق المسيحية حتى تم تعميده مع عدد كبير من أتباعه سنة ٨٢٦ • وعند عودة هارولد بعد ذلك الى بلاده صحبه القديس انسكار St. Ansker أحد رهبان دير كوربي المعروفين بجماستهم الدينية ، قضى انسكار عامين في نشر المسيحية في الدانمرك ، ثم أبحر الى السويد حيث استقبل استقبالا طيبا ونجح في تحويل عدد كبير من السويديين الى المسيحية ، حتى عاد الى بلاده سنة ٨٣١ ، فعين رئيسا لاسقفية هامبورج التي أصبحت قاعدة لنشر المسيحية في البلاد الشماليه (١) • وهكذا أخذت المسيحية تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية ، ليس بين الدانين فحسب ، بل بين النرويجيين والسويديين كذلك ، وليس في بلادهم الأصلية فحسب في المواطن الجديدة التي هاجروا اليها واستقروا فيها سواء في غرب أوروبا أو شرقها • وليس هناك من شك في أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك أثرا واضحا في مستقبل أوروبا وتاريخها ، إذ يمكن الوقوف على أهمية هذا الأثر لو تصورنا أن السويديين الروس الذين استقروا في شرق أوروبا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين في القوقاز على ديانة جيرانهم المسيحيين في الدولة البيزنطية (٢) •

وقد امتازت حضارة الفكنج في الجانب المادى بالثروة والفخامة ، فجمعوا الحلى وأدوات الزينة والسيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرها من الأشياء التي فاقت بها مقابرهم • وليس هناك من شك في أن مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب في اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجارى من جهة أخرى (٣) • ومن الواضح أن الفكنج تركوا أثرا حضاريا واضحا في كل بلد استقروا فيه وبخاصة أيرلند وانجلترا وملحقاتهما الطبيعية (٤) • وإذا كانت العناصر الأولية لحضارة الفكنج قد أخذت تتلاشى تدريجيا من البلاد التي نزحوا اليها واستقروا فيها ، فإن هذه العناصر قدر لها البقاء في أقصى

(1) Mawer: op. cit. p. 86.

(2) Dawson: The Making of Europe. p. 244.

(3) Haskins: The Normans in European History, p. 36.

(4) Mawer: op. cit. p. 86.

الغرب - أى فى ايسلاند وجرينلاند - حيث ازدهرت حضارة الفيكنج وأصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن أى تطور حضارى آخر فى القارة الأوروبية (١) . حقيقة ان حضارة الفيكنج فى تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة أيرلند الكتلية نتيجة لهجرة كثير من الكلت الأيرلنديين اليها ، ولكننا مع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة . وقد بلغ التقدم الحضارى فى جرينلاند - بعد استقرار الشماليين فيها - أن أديرتها فى القرن الثانى عشر كانت تستخدم أنابيب المياه الدافئة فى تدفئة داخل الأديرة ، فى حين استمدت هذه الأنابيب مياهها من ينوع دافئ طبيعى . هذا فضلا عن النشاط التجارى الواسع الذى قام به أهالى جرينلاند وأيسلاند فى الميدان الاقتصادى ، اذ أخذوا يصدرون الأسماك والفراء والزيت الى البلاد القريبة (٢) .

أما فى ميدان الأدب فإن المجموعة الضخمة من أساطير الساجا Saga وأشعار الادا تعتبر خير ما يدل على التقدم الأدبى وبخاصة فى ايسلاند . أما الساجات فهى أساطير ثرية تمتاز بطابعها الواقعى واتزانها واستقامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية . وأما الادات Eddas فهى مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ولكنها تمتاز أيضا ببروز الجانب الخلقى والنظرة الواقعة الى الحياة . واذا كانت هذه الأشعار تنطوى على شئ من المخشونة والبربرية ، الا أنها تعبر تعبيراً سامياً عن روح البطولة ، كما تحرص على إبراز الغرض الأسمى الذى يسمى اليه البطل . وهكذا يرجع الفضل الى الفيكنج عندما انتجت جزر أوروبا الشمالية المقفرة حضارة طيبة وأدبا رفيعا من أعظم ما أنتجته أوروبا العصور الوسطى (٣) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 339.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 324.

(3) Dawson: op. cit. p. 252.

الباب التاسع

أسرة كاييه فى فرنسا

من الواضح أن الغزوات التى تعرضت لها أوربا فى القرنين التاسع والعاشر وما ترتب عليها من انهيار السلطة الملكية ، وما جرى من منازعات بين الأمراء والحكام ، تمخضت كلها فى النهاية عن حال شديدة من الفوضى عمت بلاد غرب أوربا . وقد دفعت هذه الفوضى صفار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم وتنوّد عنهم ، فلم يجدوا أثرا لقوة الملك أو لنفوذه السلطة المركزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت أو الأمير المحلى لحمايتهم . وهكذا أخذ عامة الناس وصفار الملاك يرتبطون بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار الملاك فى ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة ، كوسيلة وحيدة لحماية أرواحهم من الأخطار والقلال التى هددت المجتمع الغربى (١) . وبعبارة أخرى فإن هؤلاء الضعفاء أو المستضعفون قبلوا أن يعيشوا فى حال من الهوان والمغارم مقابل قيام كبار الأمراء الاقطاعيين بحمايتهم والدود عنهم ، فى حين لم تعد سلطة الملوك الفعالية دائرة أملاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن أى أمير آخر من الأمراء الاقطاعيين .

وسوف نتكلم - فيما بعد - بشئ من التفصيل عن النظام الاقطاعى وخصائصه (٢) ولكن يكفى أن نشير الآن الى أن هذا الوضع من التنظيم السياسى والاجتماعى هو الذى ظلت عليه فرنسا فى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر . ففرنسا ذاتها هى الدولة التى بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى أصبح من الضرورى الاستعانة بنظام جديد بضمن للناس أرواحهم . وهكذا لم يكد ينتهى القرن العاشر ، الا كان النظام الاقطاعى

(١) Painter: op. cit. pp. 105—106.

(٢) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب الخاص بنظم أوربا وحضاراتها فى المصوّر الوسطى .

قد وُلد أقدامه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا (١) .
ومن الثابت أن فرنسا - وهى الجزء الغربى من الامبراطورية الكارولنجية -
اختلفت عن ألمانيا - الجزء الشرقى من هذه الامبراطورية - لأن الأولى كانت
فى سالف الزمن جزءا من العالم الرومانى حتى دخلت تحت حكم الجرمان .
وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى أقسام ادارية - أو كونتيات - تتبع
حدود الأسقفيات ، ويحكم كلا منها كونت نائبا عن الملك الميروفنجى أو
الكارولنجى . وهكذا ظل الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية فى فرنسا
وعندئذ لم تبق قوة تحول محلها سوى قوة الحكام المحليين من الكونتات وكبار
الملاك (٢) .

ولا شك فى أن الحقيقة التاريخية الكبرى التى امتاز بها تاريخ فرنسا
فى القرن العاشر هى سقوط البيت الكارولنجى وقيام أسرة كاييه فى الحكم .
ذلك أنه حدث عندما عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ أن اختير أودو كونت
باريس ملكا فى العام التالى ، بعد ما أبداه من شجاعة فى الدفاع عن باريس
أثناء حصار الفيكنج لها (٣) . على أنه يبدو أن ذكرى شارلمان وعظمته ظلت
تدفع المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجى والتمسك بهذا البيت (٤) ،
الأمر الذى أثار نزاعا طويلا - استمر قرنا من الزمان - بين البيت الكارولنجى
والبيت الهاديسى حول الاستئثار بحكم فرنسا . وهنا نشير الى عدم صحة ما
يردده كثير من المؤرخين من أن الكارولنجيين الأواخر امتازوا بالضعف وعدم
الكفاية ، الأمر الذى أدى الى ضياع الملك من أيديهم . فالواقع أنهم كانوا على
قدر كاف من المقدرة ، وبدلوا قصارى جهدهم لئلا ينفذوا بملكهم ، ولكن كان
ينقصهم المال اللازم . ذلك أن منبع قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد
حوض الراين ، ولم تكن له ضياع فى الجزء الغربى من امبراطوريته سوى
القليل ، وهو الذى أصبح من نصيب سلالة ملوك فرنسا . وهذا هو السبب

(1) Orton: op. cit. p. 174.

(2) Painter: op. cit. p. 152.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 62—63.

(4) Fliche; L'Europe Occidentale, p. 60.

فى أن ملوك الجزء الغربى من الامبراطورية - فرنسا - ظلوا دائما فى فقر وحاجه الى المال حتى زوال البيت الكارولنجى (١) .

وقد حدث اثناء حوادث التنافس والنزاع بين البيت الكارولنجى والبيت البارسى ان اختير احد أبناء البيت الكارولنجى ملكا - وهو شارل البسيط (٨٩٣ - ٩٢٣) . ولم يعجب ذلك روبرت أخو أودو وورينه ، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح بفضل مساعدة لوثرنجيا للاخير . هذا الى أن شارل البسيط اكسب حليفا قويا عندما منح رولو وابناؤه من الفيكنج اقليم نورمانديا . ومع ذلك ، فان السنوات الأخيرة من حكم شارل كانت سيئة بالمتاعب الجسماء التى سببها له روبرت كونت باريس (٢) . وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ ، ولكنه قتل فى العام التالى تاركا ابنه الصغير هيو العظيم ليحل محله (٣) . أما شارل البسيط فقد خلفه ابنه لويس الرابع (٩٣٦ - ٩٥٤) ، الذى كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتزوج من أخت أوتو العظيم ليضمن مساعدة ألمانيا . ولكن لويس الرابع سرعان ما استكشفت أنه أضعف من أن يقف أمام هيو العظيم (٤) ، فاضطر الى مسالته مكتفيا بالاقامة فى مدينة لا يون Laon . وهكذا نجح هيو العظيم - ومن بعده هيو الملقب كاييه فى السيطرة على معظم أنحاء فرنسا قبل أن تحل سنة ٩٨٦ ، وهى السنة التى توفى فيها لوثر بن لويس الرابع . ولم تلبث أن جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ - ٩٨٧) ابن لوثر - دون أن يترك ابنا يخلفه - بمثابة فصل الحثام بالنسبة للبيت الكارولنجى ، فتم تتويج هيو كاييه ملكا على فرنسا (٩٨٧ - ٩٩٦) فى نفس العام الذى شهد وفاة لويس الخامس ، وبذلك بدأ تاريخ أسرة كاييه فى حكم فرنسا .

ومن الواضح أن قيام أسرة كاييه فى حكم فرنسا سنة ٩٨٧ لا يعنى أكثر من قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى ، اذا لم يلبث آل كاييه أن ورثوا حقوق

(1) Painter; op. cit. p. 153.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 66.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 74—75.

(4) Orton: op. cit. p. 180.

الكارولنجيين وامنياراتهم من جهة ، كما أصبحوا السادة الأعلى لجميع
الاقطاعيين في المملكة من جهة الأخرى (١) . ولكي ندرك مركز هيو كابيه
يجب أن ننظر إليه من ثلاث زوايا مختلفة : أولا انه توج ملكا على دولة
الفرنجة الغربية (فرنسا) ليث الملوك الكارولنجيين ويحل محلهم ، وثانيها
انه جاء ممثلا لكبار الاقطاعيين ، واخيرا أنه هو نفسه لا يبدو أن يكون
أميرا اقطاعيا في اقطاعه أو في دوقيته (٢) . وإذا كان من أسباب سقوط الملكية
الكارولنجية هو أنها لم تستطع أن تمثل التطور الاقطاعي وتسايه في وقت
أصبح لا يوجد محل لسلطة لا تعتمد على دعم وأسس اقطاعية ، فانه يمكن
القول بأن أسرة كابيه الجديدة أنقذت نظام الملكية في فرنسا بتزويدها بروح
وفوائد اقطاعية مكنتها من مسايرة العصر والظروف (٣) .

وفد يبدو من أول نظرة أن انتصار آل كابيه في الوصول الى حكم فرنسا
يعتبر انتصارا للأمراء الاقطاعيين على الملكية الكارولنجية ، ولكن اذا دققنا
النظر وجدنا أن آل كابيه كانوا أنفسهم في مركز لا يحسدون عليه من جراء
منافسة كبار الأمراء الاقطاعيين وخطرهم (٤) . ذلك أن فرنسا كانت عند قيام
أسرة كابيه في الحكم سنة ٩٨٧ عبارة عن حشد ضخم من الاقطاعيات المتباينة
التي ارتبط كل منها بأسره معينة في ظل قوانين ونظم خاصة ، حتى أن سنة
 وخمسين من كبار الأمراء الاقطاعيين كانوا يسكنون النقود الخاصة بهم ،
فضلا عن وجود عشر لهجات رئيسية كبرى في فرنسا . ولا أقل من استعراض
أهم الامارات أو الأقسام التي انقسمت إليها فرنسا عندئذ ، حتى يمكننا متابعة
تاريخها منذ القرن العاشر .

ففي الشمال كانت دوقية برجندبا التي حكمها فرع من أسرة كابيه الحاكمة (٥)
في حين تحولت فلاندرز - بين نهر الشاد و بحر الشمال - الى اماره قوية ،

(1) Lavisce: op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, p. 147.

(2) Painter: op. cit. p. 155.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.

(4) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 341.

(5) Tout: The Empire and the Papacy p. 88.

بفضل سياسة أمرائها فى ضم الضياع المجاورة على الحدود الفرنسية من جهة ، وبفضل نشاطها التجارى وما ترتب عليه من ازدياد الثروة واتساع المدن وكثرة السكان من جهة أخرى • أما فى الغرب فإن بريتانى لم يعد لها شأن كبير بسبب اهمالها وتأخرها وجديها وكثرة الحروب فيها ، فضلا عن اغارات النورمان عليها (١) • وعلى حدود بريتانى - على بحر المانش - قامت اماره نورمنديا التى أصبح صاحبها - بمقتضى معاهدة سانت كلير سنة ٩١١ - فصلا للتاج الفرنسى • وسرعان ما عدا أهلها من النورمان جزءا من الوطن الفرنسى بعد أن تأقلموا بظروف البيئة الجديدة واعتنقوا الديانة المسيحية (٢) •

أما جنوب فرنسا فكانت تفصله عن شمالها اختلافات كبيرة ، لأن الأجزاء الجنوبية امتازت بلمتتها الخاصة البروفنسالة فضلا عن عاداتها وتقاليدها التى ظلت ترتبط بالتراث الرومانى أكثر من ارتباطها بالتراث الجسرمانى • وإذا كان بارونات الشمال قد اعتادوا التردد على البلاط الملكى وتقديم ما عليهم من واجبات وفروض إقطاعية للملك ، فإن أمراء الجنوب لم تربطهم صلة بآل كاييه سوى اتخاذ السنة التى تولى فيها الملك الحكم علامة فاصلة فى تاريخ حوادثهم • وأهم هذه الامارات الجنوبية كانت دوقية اكويتين وعلى رأسها أمراء بواتيه منذ القرن العاشر • وقد امتدت هذه الدوقية من اللوار حتى الجارون ومن خليج بسكاي حتى الرون ، الأمر الذى جعل من المتعذر على فرد واحد أن يحكمها (٣) • أما الاقليم الواقع بين الجارون والبرانس فكان به الجاسكونيون *Gascons* يحكمهم أمير منهم حتى انضموا الى كوتين فى أواخر القرن الحادى عشر • وأخيرا وجدت امارتان على البحر المتوسط ، الأولى اماره تولوز محل سيمانيا القديمة ، والثانية اماره برشلونة محل المارك الأسبانى الذى أقامه شارلمان على الحدود (٤) •

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 128.

(2) Lavissee: op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, pp. 41—44.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 3, pp. 128—130.

(4) Stephenson: op. cit. pp. 231—232.

آل كاييه الأوائل :

وعلى الرغم من كثرة مادون عن الملوك الأربعة الأوائل من أسرة كاييه ،
الا أن معلوماتنا الحقيقية عنهم لا تعدو أن تكون سطحية ، والظاهرة العامة
التي تميز عصر هؤلاء الملوك الأربعة (٩٨٧ - ١١٠٨) هو أن الظسروف
أظهرتهم فى مظهر الضعف أمام كبراء الأمراء الاقطاعيين . وان كان الواقع
هو أن فرنسا دخلت فى ذلك العصر دورا جديدا من تاريخها ، بمعنى أنه
إذا كان الكارولنجيون الأواخر يمثلون عصر اضمحلال وتدهور ، فان آل
كاييه الأوائل يمثلون عصر تقدم وبناء (١) .

وقد أكسب هيو كاييه - أول هؤلاء الملوك (٩٨٧ - ٩٩٦) الأسرة
الحاكمة لقبها الذى عرفت به فى التاريخ ، وان كان كل ما فعله هو أنه توج
ابنه فى حياته ، وبذلك وضع أساس سابقة اتبعها خلفاؤه فى القرنين التاليين ،
الأمر الذى جعل العرش ينتقل فى سهولة الى ابنه روبرت الثانى (٩٩٦ -
١٠٣١) ، ثم حفيده هنرى الأول (١٠٣١ - ١٠٦٥) ثم ابن حفيده فيليب
الأول (١٠٦٥ - ١١٠٨) ، دون أن يكون لأحد هؤلاء الملوك نشاط خاص
يستمرعى انتباهنا .

ويبدو أن الظروف كانت لا يمكن أن تساعد أحد هؤلاء الملوك الذين تولوا
حكم فرنسا فى القرن الحادى عشر فى فرض سيطرته الفعلية على أنحاء مملكته
الاسمية الواسعة . لذلك وجه هؤلاء الملوك الأوائل كل جهودهم نحو انقاذ
ما تبقى لهم من نفوذ موروث فى اماراتهم الاقطاعية حول باريس ، وهى المنطقة
المعروفة باسم جزيرة فرنسا *île de France* حيث وجد بعض صغار
الأمراء الاقطاعيين الذين لم يعترفوا بالسلطة الملكية وأخذوا يشيدون القلاع
والحصون - وبخاصة فى عهد فيليب الأول - تحديا له (٢) .

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.

(2) Lavissee; op, cit, Tome 2, Deuxième Partie, p. 176.

وإذا كان عهد فيليب الأول بالذات قد امتاز بأنه العهد الذى وصلت فيه سلطة الملكية الى الحضيض ، الا أن هذا العهد يمثل أيضا نقطة تحول فى تاريخ الأسرة الجديدة الحاكمة نظرا لاتساع أملاك آل كابيه تدريجيا (١) . ذلك أن فيليب الأول استغل حاجة أمير بورج Bourges للمال للمشاركة فى الحملة الصليبية الأولى واشترى منه أقطاعه ، كما استولى على بعض أراضى كونت انجو عن طريق المساومة السياسية . ومن ناحية أخرى أسهم فيليب الأول فى تقوية أسرته بطريقة سلبية عن طريق مقاومة البابا جريجورى السابع عندما أراد منع التقليد العلمانى وحسبمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم (٢) .

والواقع أن ملوك فرنسا فى تلك الحقبة كانوا لا يستطيعون التخلّى عن سيطرتهم على رجال الدين لأنهم اعتمدوا الى حد كبير على المساعدات التى قدمها لهم كبار الأساقفة ومقدمى الأديرة . وفى داخل جزيرة فرنسا - وأعلى مقربة منها - وجدت أسقفيات وأديرة كبيرة تمتعت بثروة طائلة ودانت بالولاء للملكية . وقد قدم رؤساء هذه الأسقفيات ومقدمى الأديرة مبالغ طائلة للملوك استغلوها فى تنظيم قواهم وتدعيمها . ولكن على الرغم من هذه المساعدات فإن آل كابيه الأوائل لم يصبحوا أندادا لكبار الأمراء الاقطاعيين مثل كونت فلاندرز أو دوق برجنديا (٣) . حقيقة ان اسهام كثير من فرسان فرنسا وأمرائها الاقطاعيين فى النشاط الصليبي كان من العوامل التى ساعدت آل كابيه الأوائل ، اذ أدى ذلك الى اتجاه هؤلاء الأمراء الى هذه الحروب الدينية فى الشرق بدلا من النزاع مع الملكية أو مع بعضهم البعض (٤) ، ولكن ذلك لسبب معناه أن الفوضى الاقطاعية التى عمت البلاد قل خطرها . وربما كان العزاء الوحيد فى هذه الفوضى أنها ناشئة عن صراع بين الاقطاعيين بعضهم وبعض ، أو

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, n. 110.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 161.

(3) Stephenson: Med. Hist, pp. 244—245.

(4) Orton: op. cit. p. 185.

بعبارة أخرى بين الفرنسيين بعضهم وبعض ، لا عن هجمات أجنبية قام بها مغبرون من الخارج كما كان الحال في غزوات الفينكيج من قبل (١) .

لويس السادس :

ولكن اذا كان فيليب الأول قد ظهر عجزه عن مقاومة البارونات الاقطاعيين فان خليفته لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧) كان مثلاً طيباً للحاكم القوى (٢) والواقع أن بيت كابيه كان قد انحدر الى درجة سيئة من الضعف والانحلال عندما اعتلى لويس السادس العرش . وقد رأى لويس السادس أنه يتعين عليه اخضاع أتباعه وأفصاله من الأمراء الاقطاعيين داخل جزيرة فرنسا ذاتها قبل أن يحاول تأكيد سلطان الملكية ونشر هذا السلطان في بقية أنحاء فرنسا (٣) . وهكذا لم تكد تحل سنة ١١٢٠ الا كان الملك يستطيع أن ينتقل في أنحاء أراضيه الاقطاعية دون حاجة الى حراسة أو جبوش ، كما أن أفصاله أخذوا يدفعون الأموال المستحقة عليهم بانتظام . ولم يلبث أن أدى استقرار الأوضاع داخل جزيرة فرنسا الى نشاط الحياة الاقتصادية ، بعد أن أمن التجار على أنفسهم وأموالهم ، مما عاد على الجميع بالخير والرفاهية (٤) .

ولكن اذا كان لويس السادس قد استطاع تقوية نفوذه داخل أراضيه الاقطاعية ، الا أنه ظل عاجزاً أمام كبار الأمراء الاقطاعيين في بقية أنحاء فرنسا . ذلك أن هؤلاء الأمراء الأقوياء استمروا يتصرفون كما يحلو لهم دون أن يقيموا وزناً للملك أو يعترفوا له الا بتبعية اسمية ، فلم يدفعوا له ما يستحق عليهم من ضرائب اقطاعية أو يقدموا له ما يجب عليهم من ضرائب عسكرية وغير عسكرية يفرضها العرف الاقطاعي (٥) . وهنا شاعت الظروف أن تمد

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 77.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 594—597.

(3) Idem, p. 596.

(4) Stephenson: Med. Hist. p. 398.

(5) Tout: The Empire and Papacy, p. 278.

ملك فرنسا بقوة تساعد في فرض سيطرته على بقية الأمراء الاقطاعيين في بلاده . ذلك أن وليم العاشر دوق اكويتين أوصى وهو على فراش الموت (سنة ١١٣٧) بأن تتزوج ابنته وورثته اليانور من ابن لويس السادس ، الأمر هيا للملك فرنسا فرصة ضم دوقية قوية غنية زادت من سطوته ونفوذه . هذا في الوقت الذي استغل لويس السادس فرصة النزاع بين أبناء وليم الفاتح ليؤكد تبعية هنري الأول ملك انجلترا له بوصفه دوق نورمنديا (١) .

والواقع أن أعظم خطر هدد الملكية الفرنسية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر جاء من ناحية ملوك انجلترا ، الذين جمعوا بين العرش الانجليزي ودوقية نورمنديا . ذلك أن حرب الحدود استمرت بين ملوك فرنسا من جهة والتورمان من جهة أخرى حتى جرح وليم الفاتح سنة ١٠٨٧ جرحا خطيرا أثناء مهاجمته ضواحي باريس . ثم لجأ هنري الأول ملك انجلترا (١١٠٠ - ١١٣٥) الى تأليف حلف قوى ضد لويس السادس ملك فرنسا ، وضم الى هذا الحلف أفصالة في بريتاني وأمرأ جزيرة فرنسا الحانقين على ازدياد نفوذ الملكية وأهالى المدن الفلمنكية الذين لم يكونوا على وفاق مع أمرائهم ، فضلا عن كونت بلوا Blois . وعلى الرغم من أن الهزيمة حلت أكثر من مرة بلويس السادس الا أنه ظل محتفظا بشانه ومركزه (٢) .

وثمة تطور هام يستحق الإشارة في تلك الفترة ، هو نشاط الحركة القومونية في شمال فرنسا . ومع أنه لا يوجد ما يثبت أن لويس السادس أيذ المدن وشجعها ، الى أنه لا يوجد دليل في الوقت نفسه على أنه عاكس حركة تحرر المدن وقاومها . وربما كان الأقرب الى الصواب أنه منح كثيرا من المدن الناشئة براءات ساعدت على تحريرها (٣) .

(1) Stephenson; Med. Hist. pp. 400—401.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 280.

(3) Fliche; L'Europe Occidentale, p. 515.

وخلاصة القول ان دعائم بيت كايبة تم تثبيتها عند وفاة لويس السادس سنة ١١٣٧ ، الأمر الذى مكن خلفاءه من اقامة دولة قوية على هذه الدعائم (١) .

لويس السابع :

أما لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠) فقد كان مركزه قويا بعد أن ضم اليه اكونين عن طريق الزواج من وريثتها كما سبق * وقد استغل لويس السابع هذه القوة فى القضاء على ثورة ثيوبولد كونت شامبني التأثير (سنة ١١٤٧) ، وهى الثورة التى جاءت نتيجة نزاعه مع البابا أنوسنت الثانى (٢) . ويقال ان لويس السابع لجأ فى أثناء القضاء على هذه الثورة الى احراق كنيسة فترى Vitry التى كانت مشحونة باللاجئين ، فاحترق فى هذا الحادث ما يقرب من ألف بين رجال ونساء وأطفال * ويبدو أن هذه الجريمة ظلت تستثير ضمير لويس السابع - وهو الرجل التقى - حتى فكر فى القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه * وكان أن أسهم فى الحملة الصليبية الثانية مصطحبا معه زوجته اليانور سنة ١١٤٧ مما تطلب منه بذل كثير من الأدواح والأموال دون ثمرة *

ويدل تاريخ لويس السابع على أنه لم يتمتع بنصيب من المهارة السياسية التى كانت لأبيه بحيث لم ينقذ الأداة الحكومية فى فرنسا من الانهيار فى ذلك العهد سوى مهارة وزيره شوجر (ت ١١٥٢) Suger الذى كان مقدم دبر سانت دنيس ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا من الانهيار ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا ووزيرا خاصا للملك (٣) * ولم يلبث أن تحقيق عدم الانسجام بين لويس السابع - الملك التقى الهادى - وزوجته المرحه الطروب ، وهى اليانور حفيدة وليم التاسع أحد مشاهير شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر * وفى ذلك الوقت كان هنرى الأول ملك انجلترا قد زوج ابنته من كونت انجو ، وأنجبت

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 163—164.

(2) . Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 607.

(3) Lavissee : op. cit Tome III, Première Partie, pp. 20-23.

هذه الزيجة هنرى الأنجوى • وصادف أن طلق لويس السابع زوجته
اليانور صاحبة أكويتين لعدم الانسجام بينهما فى الطباع من جهة ، ولأنها لم
تنجب له ولذا ذكرا يحفظ الحكم فى بيت كايه من جهة أخرى (١) ، فتزوجت
اليانور من هنرى الأنجوى السابق الذى اعتلى عرش انجلترا سنة ١١٥٤ تحت
اسم هنرى الثانى (٢) • وهكذا أصبحت ستملكات ملك انجلترا فى صلب
القارة تمتد من المانش حتى البرانس مما جعل الصدام بين ملكى فرنسا
وانجلترا أمرا لا مفر منه (٣) • وكان المحك بين لويس السابع وهنرى الثانى
هى مدينة تولوز ، اذ منع الأول ملك انجلترا من الاستيلاء عليها مما أثار
الحرب بين الطرفين • وقد شاعت الظروف أن يرتكب هنرى الثانى فى ذلك
الوقت فعلته الشنيعة الخاصة بقتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربرى ،
مما أثار الشعور العام ضد ملك انجلترا وجعل الكثيرين من نبلاء بريطانيا
وبواتو وجوين يساندون لويس السابع (٤) • هذا فى الوقت الذى اتبع لويس
السابع نفسه سياسة حكيمة فى الداخل والخارج • ففى الداخل
لجأ الى ربط الملكية فى فرنسا بالطبقة البرجوازية التى أقام لها
المدن لتتخذها مسرحا لنشاطها وتكون عوناً له على كبار الأمراء الاقطاعيين (٥) •
أما فى الخارج فقد نجح لويس السابع فى تحقيق التفاهم مع الهوهنشتاوفن
فى ألمانيا ، وهو تفاهم أو تحالف ظل قائما مدى ثلاثة أجيال • هذا فى
الوقت الذى أثار المتاعب فى وجه هنرى الثانى ملك انجلترا عن طريق إثارة
أبنائه ضده • وفعلا ثار أبناء هنرى الثانى الثلاثة الذين كانوا يشرفون على
أملاك التاج الانجليزى فى صلب القارة ضد أبيهم مما أنقذ لويس السابع
من خطر الملكية الانجليزية (٦) •

(1) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 250.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5 p. 609

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 268

(4) Lavisce : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 55

(5) Orton : op. cit. pp. 251—252.

(6) Adams : The History of England, p. 304

فيليب أوغسطس

ثم كان أن اعتلى عرش فرنسا فيليب أوغسطس « الثاني » (١١٨٠ - ١٢٢٣) الذى تنبأ له المعاصرون منذ طفولته بالقوة والعظمة . ولم يلبث أن استطاع فيليب أوغسطس التخلص من الأخطاء التى وقع فيها والده ، ومن ثم بدأ يستأنف سياسة جده فى التمكين للملكية الفرنسية وبسط نفوذها (١) . لذلك امتاز عهده بازدياد قوة الملكية فى الداخل والتوسع فى الخارج ، وهى نتائج التى توصل اليها بعد سلسلة من الإصلاحات الداخلية الواسعة التى منحتها قـوـة جعلته خطرا على خصومه فى إنجلترا ونورمانديا وفلاندرز وألمانيا وجنوب فرنسا (٢) . هذا الى أن فيليب أوغسطس حكم مدة قاربت أربعاً وأربعين سنة ، وهى مدة طويلة تبدل خلالها معظم كبار الأمراء الاقطاعيين فى فرنسا ، مما أتاح للملك فرصة تأكيد حقوقه الاقطاعية قبل الأمراء الجدد . وأخيراً ينبغي أن نذكر ما كان لفيليب من أخلاق ساعدته على النجاح ، فقد عرف عنه قوة العزيمة والثبات والصبر ، زيادة على ما هو عليه من الذكاء وحسن التقدير ، مما مكنه من مواجهة الصعاب التى اعترضته والتغلب عليها واحدة بعد أخرى (٣) .

وقد بدأ فيليب أوغسطس عهده باسترضاء هنرى الثانى ملك إنجلترا ، ليضمن عدم تدخله فى الحركة التى أزمع القيام بها لانخضاع أمراء فلاندرز وشامبني وبرجنديا (٤) . وكان أن دخل فيليب فعلا فى حرب طويلة مع هؤلاء الأمراء (١١٨١ - ١١٨٥) حتى أخضعهم لسلطان الملك الذى أصبح يسيطر على المنطقة الفنية المتمتدة من فرماندوا Vermandois حتى أرتوا Artois (٥) على أن فيليب أوغسطس كان يدرك تماما من أول الأمر أنه من المتعذر عليه تحقيق سيطرته على الاقطاعات الكبرى فى فرنسا ما دامت

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 424

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 284—285

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 520

(4) Adams : The Hist. of England, p. 338

(5) Lavissee : op. cit Tome 3. Première Partie, p. 87

ممتلكات التاج الانجليزى فى شمالها وغربها تحد من نفوذ الملكية الفرنسية وتمثل خطرا جاثما عليها(١) . لذلك لجأ فيلب الى كل وسيلة ممكنة - سياسية أو حرية - لاضعاف قوة انجلترا فى القارة . من ذلك أنه عقد تحالفا سنة ١١٨٧ مع فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا (١١٥٢ - ١١٩٠) للوقوف فى وجه خصومها من كبار الاقطاعيين ، وبخاصة الانجويين فى فرنسا والجلفين فى ألمانيا (٢) . وقد استمر هذا التحالف الذى جعل ملوك أسرة كابيه وآل هو هنشتاوفن فى جانب ، وملوك انجلترا والجلفين فى الجانب الآخر المضاد . يلعب دورا عظيما فى السياسة الأوروبية حتى موقعة بوفان Bouvines سنة ١٢١٤ . على أن جهود فيلب الثانى ضد الملكية الانجليزية لم تقف عند محالفة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، وانما ، استغل ملك فرنسا عقوق هنرى وريتشارد وجيوفرى وحناء - أبناء هنرى الثانى ملك انجلترا ، وأخذ يساعدهم ضد أيهم ليضعف نفوذ الملكية . الانجليزية عن طريق بث الشقاق بين ملك انجلترا وأبنائه (٣) .

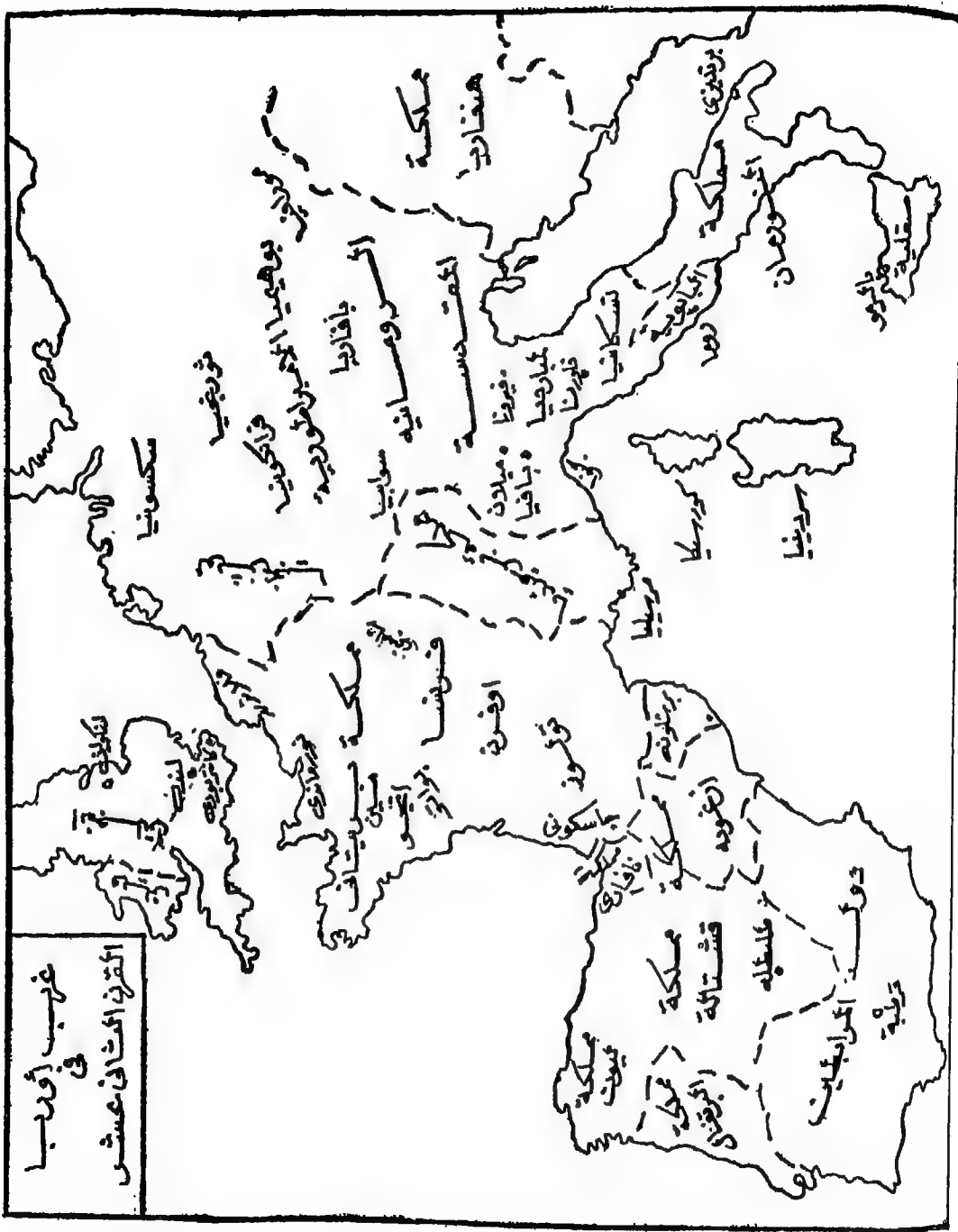
وعندما خلف ريتشارد الأول أباه فى حكم انجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩) خرج ليسهم مع فردريك بربروسا وفيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية . الثالثة سنة ١١٩٠ . ولم تطل إقامة فيلب بالأراضى المقدسة إذ اعتذر بسوء حالته الصحية وعاد الى بلاده سنة ١١٩١ . ومن الواضح أن الحجبة التى احتج بها فيلب أوغسطس كانت شكلية واهية ، وأنه عاد بقصد الحصول على نصيب زوجته فى اقليم فلاندرز بعد أن توفى كونت فلاندرز (٤) . هذا الى أنه انتهر فرصة غياب ريتشارد فى الأراضى المقدسة وحاول الهجوم على نورمنديا ، ولكن أمراءه رفضوا الاشتراك معه لأنه لا يجوز الاعتداء على أراضى صليبي يحارب فى الأراضى المقدسة ، فضلا عن أن هذه الأراضى تعتبر طيلة غياب صاحبها تحت وصاية البابا وحمايته . وعندئذ أخذ

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 291—302

(2) Adams : op. cit. p. 347

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 293

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 304



غرب أوروبا
في
القرن الحادي عشر

فيليب أوغسطس يحرض حنا ضد أخيه ريتشارد ويعدّه بمساعدته على تويجه ملكا على إنجلترا (١) . ويبدو أن أخيار هذه المؤامرات بلغت مسامع ريتشارد فعاد من الشرق بعد أن عقد صلح الرملة مع صلاح الدين ، ولكنه سلك الطريق البرى من إيطاليا الى بلاده ، فوقع فى يد دوق أوستريا الذى باعه لهنرى السادس امبراطور ألمانيا . وقد عرض فيلب أوغسطس مبلغا كبيرا على الامبراطور ليحتفظ بملك إنجلترا أسيرا ، ولكن الامبراطور أفرج عنه سنة ١١٩٤ (٢) . وهكذا استطاع ريتشارد العودة الى بلاده ليستعد للذهاب الى نورمنديا حيث تعرضت مصالحه لخطر كبير أمام تهديد فيلب أوغسطس .

وقد مضى ريتشارد السنوات الخمس الباقية من حكمه على شاطئ فرنسا ولم يعد الى إنجلترا حتى مقتله سنة ١١٩٩ . أما الأعمال التى قام بها فى نورمنديا فى تلك الفترة ، فانه بدأ بهجوم مباغت على فيلب أوغسطس قرب فريفتال Fréteval . وعندئذ لم يستطع فيلب النجاة الا بصعوبة بعد أن فقد خاتم الملك وبعض الوثائق والأمتعة المهمة (٣) . ويبدو أن الهزيمة كانت أقسى ضربة تعرض لها فيلب أوغسطس فى حياته ، مما جعله ينسحب من نورمنديا ومين وتورين ، ويطلب عقد الهدنة مع ملك إنجلترا سنة ١١٩٤ . على أن الحرب لم تلبث أن تحولت الى فلاندرز لحدوث تطور فى السياسة الامبراطورية (٤) .

ذلك أنه حدث عند وفاة الامبراطور هنرى السادس امبراطور ألمانيا سنة ١١٩٧ أن رشع كل من الجلفيين والجيليين فردا يتولى عرش الامبراطورية ، فاختار الفريق الأول أوتو الرابع دوق برنويك ابن هنرى الأسد وابن أخت ريتشارد ملك إنجلترا ، فى حين اختار الفريق الثانى فيلب دوق سوابيا وهو الأخ الأصغر للامبراطور هنرى السادس خصم ريتشارد . وكان من

(1) Painter : A Hist. of the Midlde Ages, p. 252

(2) Lavissee : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 112

(3) Adams : op. cit. p. 378

(4) Cam. Med. Hist, Vol, p. 305

الطبيعى أن تؤيد انجلترا أوتو الرابع مرشح الجلفين نظرا للظروف السابقة من جهة ولمصالحها التجارية فى شمال غرب ألمانيا من جهة أخرى (١) . وقد اتفقت مع انجلترا فى موقفها كل من فلاندرز وبولونيا Boulogne (٢) أما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد ساند المرشح الآخر وهو فيليب دوق سوابيا ، ولهذا الغرض زحف الى فلاندرز حيث لم يصادفه التوفيق (٣) . ثم أعقبت ذلك هدنة بين الطرفين لمدة سنة استغلها ريتشارد فى بناء حصن جيلارد Gaillard فوق ربوة تطل على نهر السين شمالى روان ، وذلك لحراسة عاصمة نورمانديا من أى اعتداء فرنسى . ولم يلبث بناء ذلك الحصن أن أثار العداوة بين الطرفين من جديد ، فهجم فيليب أوغسطس على نورمانديا سنة ١١٩٨ ونجا من الأسر للمرة الثانية بصعوبة (٤) . وأخيرا تدخل البابا ونجح سنة ١١٩٩ فى عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس سنوات (٥) . على أن ريتشارد لم يلبث أن لقي مصرعه فى تلك السنة السابقة نفسها ، وبذلك تخلص فيلب أوغسطس من ألد خصومه وأقدرهم .

وقد خلف ريتشارد فى حكم انجلترا أخوه حنا (١١٩٩ - ١٢١٦) الذى كانت تنقصه الكفاية والقدرة الشخصية اللتين امتاز بهما أخوه ، مما أتاح فرصة لفيليب الثانى ملك فرنسا حتى يستمر فى سياسة تفتت أملاك التاج الانجليزى بالقارة . ولتحقيق هذا الغرض أخذ فيليب يستعد بتدبير المال اللازم للحرب من جهة وبثأليب آرثر دوق بريتانى ضد عمه حنا ملك انجلترا من جهة أخرى ، وذلك كما سبق أن ألب أبناء هنرى الثانى ضد أبيهم وألب حنا ضد أخيه ريتشارد . وقد تظاهر فيليب باعترافه بسلطة آرثر فى نورمانديا وبريتانى ، وخذ يحشد قلاع هذين الاقليمين بالجند الفرنسيين

(١) Barraclough : The Origins of Modern Germany, pp. 210—213.

(٢) على بحر المانش جنوبى كاليه .

(٣) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 522

(٤) Tout : The Empire and The Papacy, pp. 394—395

(٥) Adams : op. cit. p. 385

تحت ستار مساعدته ضد عمه (١) . وبعد ذلك تخلى فيليب عن مساعدة آرثر مقابل ثمن مرتفع اضطر حنا الى دفعه ، وهو التخلي عن أفرى **Evreux** لفرنسا ، وعن المحالفات التي عقدها ريتشارد في ألمانيا وفلاندرز ، فضلا عن دفع مبلغ كبير من المال . وفي الوقت الذي كان حنا ملك انجلترا مقترا الى المال وولاء الرجال ، كان فيليب متمتا بكل ما يعوز خصمه ، فأخذ يستولى على مدن نورمنديا واحدة بعد أخرى عن طريق رشوة حامياتها ، فان لم تنفع الرشوة لجأ الى القوة والقتال . وهكذا لم تكد تنته سنة ١٢٠٥ الا كان فيليب أوغسطس قد اغتصب نورمنديا وانجو ومين وتورين ، في حين دان له بالطاعة معظم أمراء بواتو ، بذلك تضاعفت أملاك التاج الفرنسى وأمدت الأملاك الجديدة ملك فرنسا بقوة عظيمة وثروة طائلة (٢) .

والواقع أن استيلاء آل كابيه على نورمنديا يعتبر نقطة تحول بالغة الأثر في تاريخ الملكيات الغربية . فعلى الرغم من حسارة انجلترا الفادحة بضياح نورمنديا الا أنها استفادت بعد أن أصبحت مملكة جزرية قائمة بذاتها ، لا مجرد امتداد لممتلكات ملوكها النورمان في القارة . أما الأمراء النورمان فقد أصبح عليهم أن يختاروا بين ممتلكاتهم واقطاعاتهم في أحد جانبي الماش ، ليكونوا أفضلا اما لملك انجلترا أو لملك فرنسا ، بعد أن كانت تبعيتهم موزعة بين الجانبين . وهكذا يمكن القول بأن استيلاء الفرنسيين على نورمنديا يعتبر الخطوة الأولى نحو تبلور القومية الانجليزية (٣) . أما من ناحية فرنسا فقد غدا فيليب أوغسطس بعد استيلائه على نورمنديا يفوق في قوته أى أمير اقطاعى آخر في البلاد ، اذ صارت أملاكه تشمل بيكاردى ونورمنديا وأنجو وبواتو وأوفرن ، فضلا عن جزيرة فرنسا . بل ان ملك فرنسا أصبح الرجل الثانى فى أوربا بعد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وذلك بعد أن تضاعفت أملاكه وموارده فى الرجال والأموال (٤) .

(1) Lasvisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 260e

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 253

(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 472—473

(4) Orton : op. cit. p. 253

وقد حرص فيليب في السنوات العشر التالية على تدعيم سلطانه في هذه الممتلكات الجديدة التي اغتصبها من التاج الانجليزى ، والاستعداد فيها لمواجهة أى هجوم محتمل من جانب انجلترا . ولم تلبث أن لاحت الأخطار التي توقعها فيليب أوغسطس ، عندما عاد حنا ملك انجلترا الى بلاده ، ليجمع الأموال اللازمة لاسترداد أراضيه المفقودة في فرنسا ، وليقيم حلفا ضد ملك فرنسا يضم الأمراء الحاققين عليه مثل كونت فلاندرز ، فضلا عن زعيم الولقيين أوتو الرابع امبراطور ألمانيا . وأخيرا تم الاتفاق على أن يفهم الحلفاء بغزو فرنسا من الشمال في حين يهاجم حنا ملك انجلترا أنجو من الجزء الذى تبقى له في أكويتين (١) . وهكذا أصبح الموقف خطيرا بالنسبة لفيليب أوغسطس ، ولا سيما أن أوتو الرابع حشد سنة ١٢١٤ قوة ضخمة في فلاندرز تبلغ ثمانين ألف مقاتل في حين أخذ حنا يستميل أمراء أكويتين . أما فيليب أوغسطس فلم يكن أمامه سوى أن يعتمد على الشعور الوطنى الذى أخذ يستيقظ في شمال فرنسا من جهة ، وعلى ما عساه أن يقسوم به الهوهنشتاوفن - أعداء أوتو في ألمانيا - من جهة أخرى . وكان أن تغلب فيليب أوغسطس على أوتو الرابع وبقية الحلفاء الذين هاجموا فرنسا من جهة الشرق في موقعة بوفان Bouvines (يولية سنة ١٢١٤) ، في الوقت الذى فشل الهجوم الذى قام به حنا ملك انجلترا على اللوار (٢) . وهكذا جاء هذا الانتصار الجديد ليحمى ملوك فرنسا من أى خطر أو تهديد من جانب انجلترا لاسترداد أملاكها المفقودة في نورمانديا ومين وانجو . أما بواتو Poitou فقد ظلت منطقة انتقال بين الطرفين (٣) .

امتداد النفوذ الفرنسى جنوبا - الحملة الأليجنسية :

وبينما فيليب أوغسطس يعمل على نشر نفوذه في الشمال والغرب عن طريق الغزو والسياسة ، اذ بحملة صليبية تتجمع في شمال فرنسا لغزو جنوبها ،

(1) Lavissee : op. cit. Tome 3; Première Partie pp. 166 — 173.

(2) Adams : op. cit. p. 431

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 395—396.

وتبعاً لذلك تمتد نفوذ أسرة كاييه على الجنوب أيضاً . ذلك أنه وجدت في جنوب فرنسا ثلاثة مراكز سياسية وحضارية كبرى ، هي دوقية أكويتين وكوتيه تولوز وكوتيه بروفانس . وكانت الاثنان الاولتان ضمن نطاق الملكية الفرنسية ، في حين ظلت كوتيه بروفانس وراء الرون لا ترتبط بملك فرنسا .

وهكذا استمر جنوب فرنسا في شبه عزلة عن شمالها ، وهي عزلة زاد من وقعها الاختلاف الحضارى بين الجنوب والشمال ، اذ بقى الجنوب محتفظاً بطابعه الرومانى وتراثه اللاتينى القديم أكثر من أى جزء آخر من أجزاء أوروبا ، دون أن يحدث ما يغير الوضع الحضارى لهذا الاقليم سوى سيطرة العرب على مصب الرون بين سنتى ٨٨٨ ، ٩٧٢ . على أن تخلص جنوب فرنسا من سيطرة المسلمين ساعد هذا الاقليم الفنى بثروته الطبيعية ونشاطه التجارى ومناخه المعتدل على تشييد بناء حضارى امتاز بالتجديد والعظمة . ويكفى أن جنوب فرنسا شهد مولد الأدب البروفنسى الذى تجلى بوضوح فى شعر التروبادور فضلاً عن ظهور جو من التسامح الدينى وحرية الفكر (١) .

وقد أدت هذه الحرية وذلك التسامح من جهة ، وروح الاستياء العامة من الأوضاع التى تردت فيها الكنيسة ورجالها من جهة أخرى ، الى انتشار بعض المذاهب الهرطقية فى جنوب فرنسا . ذلك أن تولوز والمنطقة المحيطة بها اكتظت عند نهاية القرن الثانى عشر بأعداء سافرين للكنيسة ورجالها ، فى حين كان الأمراء أنفسهم من الهرطقة أو من مشجعى الهرطقة (٢) . وكان أن ظهر عندئذ مذهبان من المذاهب الهرطقة الخارجة عن نعاليم العقيدة الكاثوليكية وأصولها ، أولها مذهب الوالدنسيين (Waldensian) وثانيهما مذهب الكاتاريين Catharist . أما المذهب الأول فنسب الى بطرس والدو (Peter Waldo) وهو أحد تجار لبون فى القرن الثانى عشر ، وهب

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 528.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 397.

جميع ثروته لأوجه البر والاحسان وأخذ - حوالى سنة ١١٧٧ - يتجول ، واعظا الناس بالعودة الى سنن القديسين والرسل الأوائل ، مهاجما رجال الدين وما أصبحوا فيه من ثروة وترف مما يتعارض مع تعاليم المسيحية وروحها (١) . ولم يلبث أن التفت حوله عدد كبير من الفقراء وبخاصة فى جنوب فرنسا وإقليم بروفانس حيث أخذ الولدانسيون يهاجمون رجال الكنيسة حتى اتهمته الكنيسة بالخروج عليها وبأنه يفسر الانجيل تفسيرات غير صحيحة ، ولا سيما أن القانون الكنسى يحرم على أى فرد مباشرة الوعظ والارشاد الا باذن من الكنيسة (٢) . وعندما لجأ بطرس والدو الى البابا لشكو اليه موقف الكنيسة منه ، رأى البابا حسن نيته ، فأقر الودانسيين على مذهبهم فى التقشف والحياة البسيطة ، ولكنه حرم عليهم الوعظ الا باذن من الأساقفة التابعين لهم . على أن بطرس والدو وأتباعه استكشفوا فى المعهد الجديد ما ينص على أن الوعظ ركن أساسى من أركان المسيحية (٣) ، فرفضوا الامتثال لرغبة البابا سنة ١١٧٩ ، وقالوا أنهم لا يمثلون لبشر لأن الطاعة تجب عليهم للرب وحده . وهكذا صدر قرار الحرمان ضد الودانسيين ١١٨١ - ١١٨٤ وطردها من منطقة ليون ، فتحولوا الى فرقة هرطقية ، وأخذوا يباشرون طقوسهم الدينية دون وساطة رجال الدين كما تطرفوا فى اعتناق الآراء الغريبة عن الكنيسة (٤) . وقد مات بطرس والدو نفسه سنة ١١٩٧ ، ولكنه ترك أتباعا كثيرين فى بوهيميا واللورين وجنوب فرنسا وأرغونة وشمال ايطاليا . ولم يلبث أن انقسم هؤلاء الأتباع على أنفسهم وتحولوا الى فرق هرطقية عديدة ، مما أثار فى وجه البابوية مشاكل كثيرة لا حصر لها .

أما أتباع المذهب الثانى فقد أطلقوا على أنفسهم اسم الكاثارين Cathari أى الأطهار ، وكانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة بتعاليم المانويين .

(2) Lavissee : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 262

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 707.

(٣) « وأوصانا أن نركز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا

للأحياء والأموات » (سفر أعمال الرسل - الاصحاح العاشر - ٤٢)

(4) Stephenson : Med Hist, p. 445.

وبينما اخلف الوالدنسيون مع الكنيسة حول أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية. دون أن يعترضوا على تعاليمها الدينية ، اذا بالكاتاريين ينادون بتعاليم تتعارض تعارضا كبيرا مع تعاليم الكنيسة مما جعل الموقف بينهم وبينها مسألة حياة أو موت (١) . ذلك أن مذهبهم لم يقم على أساس التوحيد ، وانما كان مذهبا ثنائيا يقول بوجود الهين أحدهما للخير والآخر للشر ، الأول يحكم العالم الروحي والثاني يحكم العالم المادي (٢) . وبعبارة أخرى فان هذا المذهب قام على أساس الثنائية المطلقة ، فهناك روح ومادة وهناك نور وظلام ، وخير وشر . . . (٣) . كذلك نادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس ، الى غير ذلك من الآراء الهدامة . ويبدو أن هذه الآراء انتشرت من شرق أوروبا الى غربها - عن طريق التجار، حتى صلت في القرن الحادى عشر الى لمبارديا وشرقى فرنسا ووسطها وحوض الراين وفلاندرز ، مما هدد الكنيسة وأفزعها فزعا شديدا (٤) . ومن الواضح أن آراء الكاتاريين انتشرت فى الجهات التى تنكر فيها رجال الدين لواجباتهم ووظائفهم . وحيث اشتدت الفوارق بين كبار رجال الكنيسة وصغارهم ، الأمر الذى دفع كثيرا من الطبقات الفقيرة الى الانضمام الى هذه الفرقة حتى ازداد عددهم زيادة كبيرة (٥) . ويبدو أنهم بلغوا درجة كبيرة من الكثرة حول مدينة ألبى Albi . فى كونتيه تولوز - مما جعلهم ينسبون اليها ويعرفون باسم الألبيجنسيين Albigenians

ومهما يكن من أمر ، فقد حاول البابا أنوسنت الثالث اقناع الهرطقة فى أول الأمر بالعودة الى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة ، فأرسل بعض الوعاظ - وعلى رأسهم مقدم ديرسيو ، ومندوب من قبل البابا نفسه - الى الجهات الجنوبية من فرنسا . ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا فى مهمتهم ، ولم يلقوا

(1) Eyre ; op. cit. p. 355

(2) Lavisce : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 262

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 701—702

(4) Ibid.

(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 306

تشجيعا ومساعدة للقيام برسالتهم ، حتى من جانب الأمراء ، وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز ، الذى امتاز بحبه للطرب والمرح فلم يهتم بشئون الدين والكنيسة (١) . وأخيرا يئس أنوسنت الثالث (سنة ١٢٠٤) من القضاء سلميا على هذا الخطر الذى أخذ يستفحل ويهدد الكنيسة تهديدا خطيرا ، فبدأ يفكر فى الالتجاء الى القوة للقضاء على هؤلاء الهرطقة . على أن ريموند السادس رفض أن يمد يد البابوية بالقوة اللازمة لتنفيذ عزمها ، فلجأ البابا الى فيليب أوغسطس ، وطلب منه أن يقود جيشا ضد الهرطقة ، ولكن ملك فرنسا كان هو الآخر مشغولا عندئذ بالحرب ضد حنا ملك انجلترا فلم يلبدنداء البابوية الذى تكرر سنة ١٢٠٥ ، ١٢٠٧ . ويبدو أن فيليب أوغسطس لم يرض عن تدخل البابوية فى شئون فرنسا ، وادعاء البابا حق اخضاع بعض المقاطعات الفرنسية ، بحجة أن هذه المقاطعات خارجة عن تعاليم الكنيسة ، فضلا عن أنه وجد نفسه لا يستطيع مهاجمة بعض أفضاله فى الجنوب والاستيلاء على أراضيهم ، مما يعتبر خروجا على أوضاع العرف الاقطاعى (٢) . وأخيرا لجأ المندوب البابوى الى اصدار قرار الحرمان ضد ريموند السادس ١٢٠٧ ، الأمر الذى ترتب عليه مقتل هذا المندوب فى العام التالى بوساطة أحد رجال كونت تولوز . وعلى الرغم من عدد وجود ما يثبت تحريض ريموند السادس على مقتل المندوب البابوى ، الا أن البابا اعتبره مسئولاً عن هذه الجريمة ، فاقترت البابوية قرار الحرمان ضد ريموند السادس ، كما أعلنت أنه من حق أى مسيحي أن يستولى على أراضي وأموال هؤلاء الهرطقة الخارجين عن أصول الدين (٣) .

وقد تحمس كثير من مرء شمال فرنسا لتلبية دعوة البابا ، وان ظل فيليب أوغسطس نفسه على موقفه . وهكذا نجحت هذه الحملة الصليبية التى دعت لها البابوية ضد الهرطقة (سنة ١٢٠٩) ، وان كانت قد تحولت الى القضاء على

(١) Idem : pp. 310—311

(٢) Cam. Med.é Hist. Vol. 6 p. 314

(٣) Stephenson : op. cit. pp. 446—447

الأمراء الاقطاعيين فى الجنوب وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز الذى حلت به الهزيمة فى سبتمبر سنة ١٢١٣ * ولم تستول هذه الحملة الصليبية على تولوز فحسب بل أنزلت الهزيمة أيضا بملك أرغونة بطرس الثانى (١١٩٦ - ١٢١٣) فى موريه Moret سنة ١٢١٣ * وبعد ذلك عقد البابا أنوسنت الثالث مجمعا دينيا بابويا سنة ١٢١٥ قرر اعطاء دوقية تولوز ودوقية ناربون وغيرهما من الامارات الاقطاعية المجاورة ، لسيمون دى مونتفورت أحد أمراء جزيرة فرنسا الذى تولى زعامة هذه الحملة .

أما فيليب أوغسطس الذى ظل بعيدا - فى أول الأمر - عن حوادث تلك الحرب الصليبية ، فانه لم يستطع أن يقاوم نفوذ البابا وفرار المجمع البابوى . ولم يلبث فيليب أن خرج عن عزلته تدريجيا ، فسمح لابنه لويس سنة ١٢١٣ بالمشاركة فى حرب الهرافطة الجنوبيين ، كما ساعد سيمون دى مونتفورت فى تدمير الحصون والمعاقل الاقطاعية فى الجنوب (١) * وعلى الرغم من أن سيمون اعترف لفيليب أوغسطس بالتبعية ، الا أن الأخير لم يلبث أن استاء من مسلك الأول المشوب بالكبرياء والعنف * لذلك ساعدت قوات ملك فرنسا المحاولة التى قام بها ريموند السادس لاسترداد أملاكه ، مما أدى الى مقتل سيمون سنة ١٢١٨ ، ثم لم يلبث أن لحق به فيليب أوغسطس سنة ١٢٢٣ .

اصلاحات فيليب أوغسطس :

ولم تكن انتصارات فيليب أوغسطس المصدر الوحيد لشهرته وأهميته فى التاريخ ، لأن اصلاحاته لا تقل أهمية عن تلك الانتصارات * وهنا نلاحظ أنه لم يكن عنيفا مع أقصاله وأتباعه الاقطاعيين ، لأن مشاغله فى الجروب والفتوح حالت دون أن يسلك مسلكا عدائيا تجاه هؤلاء الأقصال ، ومع ذلك فانه لم يترك فرصة تمر دون أن يؤكد نفوذه وسلطانه على الأمرء الاقطاعيين * أما موقفه من الكنيسة فيلاحظ أن صداقة فيليب أوغسطس مع البابويه لم تمنعه من تشديد قبضته على الكنيسة فى بلاده ، فأخذ يعمل جاهدا للحد

(١) Lavisce: op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 277

من تدخل البابا فى شئون الكنيسة ، كما ألزم رجالها بدفع ما عليهم من ضرائب والتزامات (١) .

أما فى الناحية الادارية فأول ما يبدو لنا هو أن فيلب أوغسطس كان محاربا وسياسيا أكثر منه اداريا ومشرجا . وهكذا أصبح دوره الرئيسى فى تاريخ فرنسا تقوية الملكية ومضاعفة سلطاتها ، لا تنظيم المملكة وشئون الحكم . ومع ذلك فإن الظروف تطلبت منه أن يسهم بحجر جديد فى البناء الادارى لفرنسا ، وهو البناء الذى اكتمل فى عهد حفيده لويس التاسع (٢) . ذلك أنه قاوم الاتجاه الذى كان يرمى الى جعل الوظائف الكبرى فى الدولة وراثية ، لما فى ذلك من خطر يهدد كيان الملكية ، كما قلل من نفوذ كبار الموظفين . وقد أوجد فيلب أوغسطس طبقتين من الموظفين الاداريين ، تتألف الأولى من الوكلاء الملكيين (ballis) ومهمتهم الاشراف على العدالة وجميع الايرادات الملكية . وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أبناء الطبقة الوسطى لضمان اخلاصهم للملك وارتباطهم به ، فضلا عن مراعاة نقلهم من منطقة الى أخرى قبل أن ينشئوا علاقات مع أهالى المناطق العاملين فيها (٣) . أما الطبقة الثانية فكانت من المديرين الذين عهد اليهم الاشراف على المناطق الواقعة على الحدود قرب الأعداء ، ومن ثم اختير هؤلاء المديرون من الفرسان والبارونات ذوى الخبرة بشئون القتال . وفيما عدا مهامهم الحربية ، قام المديرون بوظائف الوكلاء الملكيين فى مناطقهم وساعدهم فى ذلك عدد كبير من الموظفين والمندوبين (٤) . وقد ساعد فيلب أوغسطس فى الناحية الادارية وزيره والتر الاستبارى Walter the Hospitaler الذى امتد نشاطه الى جميع فرع الادارة الحكومية فضلا عن شئون الجيش والقضاء . وإلى جانب هذه الفئة من كبار الموظفين ، وجدت مجموعة من المستشارين - العلمانيين والدينيين - روعى فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين حتى يظلوا بمثابة مجلس استشارى . وكان الملك يضيف الى هؤلاء مجموعة

(1) Idem : pp. 211—218

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 404

(3) Lavissee : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 235

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 254

أخرى من النبلاء والأساقفة فى حالة الضرورة (١) . وعند دعوة هذا المجلس ، روعى فى الدعوة تحديد مكان الاجتماع وزمانه والغرض منه . ويبدو أن هذا المجلس كان يناقش المسائل المعروضة عليه ، كما كان بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا بحيث لا يتعرض للمسائل التى تدخل فى الروتين الحكومى العادى . وبمباراة أخرى فإنه كان يمثل هيئة استشارية بحتة لا يوجد ما يلزم الملك بقبول قراراتها أو تنفيذها ، لأن الملك كان مصدر جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية . على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أنه كان حاكما مطلقا بكل معانى الكلمة ، لأن طبيعة النظام الإقطاعى وما ارتبط به هذا النظام من حقوق وواجبات كانت تحد من سلطة الملك المطلقة (٢) .

أما المدن فكان فيلب أوغسطس أعظم نصير لها ، فحالف أهلها وأظهر عطفًا كبيرًا على آمالهم ، حتى دخل كثير من المدن الفرنسية الخارجة عن أملاكه تحت حمايته . ولم يكتف فيلب أوغسطس بإعطاء تلك المدن براءات تضمن حريتها ، وإنما ساعدها فى تقوية أسوارها واستحكاماتها وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها . كذلك شجع التجار الأجانب على التردد على الأسواق الفرنسية وشراء حاجاتهم من إنتاجها (٣) . أما باريس فقد أضحت على أيام فيلب أوغسطس أول عاصمة حديثة لدولة مركزية فى أوروبا . ذلك أنه شيد لها سورًا قويا يضم بين جوانبه القصر الملكى والمدارس والكتدرائية والأحياء التجارية والصناعية ، كما عنى برصف شوارع المدينة وطرقاتها (٤) . وفى عهد فيلب أوغسطس حصلت جامعة باريس على أول براءة ملكية ضمنمت لها امتيازاتها ، بل حققت لها اعترافا رسميا من السلطة الحاكمة . وهكذا لم تلبث أن ظهرت باريس كمركز لأعظم جامعة شمالى الألب فى العصور الوسطى ، وكقاعدة للملكية المركزية الوحيدة فى القارة ، فضلا عن كونها

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 326

(٢) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 526

(٣) Laviss : op. cit. Tome 3. Première partie, pp. 222—232

(٤) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 327—330

ضمت بعض المباني القوطية الجميلة التي أخذت تنتشر في بقية أنحاء فرنسا عندئذ (١) .

وخلاصه القول أن فيلب أوغسطس استطاع - عن طريق القوة والسياسة أن يجعل من فرنسا دولة عظمى، وأن يجعل الملك على جانب من النفوذ والسلطان دونهما نفوذ أى أمير أقطاعى آخر فى فرنسا . ويكفى أنه أول ملك من أسرة كاييه شعر بأن قوته وسطوته بلغت درجة من الثبات بحيث لم يعد فى حاجة الى تزويج ابنه فى حياته ليضمن له العرش من بعده (٢) .

لويس الثامن :

وقد خلف فيلب أوغسطس ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦) الذى لم يكن على شئ من المقدرة التى امتاز بها أبوه ، وان ظل حريصا على سياسة والده الخاصة بتكثيف فرنسا وبسط نفوذ الملكية على مختلف أنحاءها . ولتحقيق هذه الأهداف فرض لويس الثامن سياسته على أكويتين وان بقيت بوردو خارج قبضته ، كما أظهر رغبة صادقة فى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . وفى تلك الأثناء كان قائد الحملة الصليبية الأليجنسية - سيمون دى مونتفورت - قد قتل سنة ١٢١٨ فتنازل ابنه عمورى للويس الثامن ملك فرنسا عن كل الحقوق التى حصل عليها سيمون من البابوية ، مما دفع لويس الثامن الى القيام بحملة صليبية سنة ١٢٢٦ ضد الهراقة وان كان هدفها الحقيقى ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . وقد نجح لويس الثامن فعلا فى تحقيق جزء كبير من هدفه قبل وفاته المفاجئة سنة ١٢٢٦ (٣) .

لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) :

وعلى الرغم من أن لويس التاسع كان طفلا فى الثانية عشر من عمره عند وفاة أبيه الا أن ذلك لم يعوق تقدم الملكية الفرنسية بفضل وصاية أمه بلانش

(1) Tout: The Empire and the Papacy. p. 403

(2) Idem : Ps. 402—405

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6 pp 322—324

القشتالية (Blanche of Castile) • ولم يلبث أن فاق لويس التاسع أمه
فى الصلاح والتقوى حتى سمي القديس لويس (١) •
على أن الأمراء والبارونات الاقطاعيين استغلوا فرصة صغر سن الملك
ووصاية أمه للحد من تفوذ الملكية المتزايد • ولتحقيق ذلك دبر البارونات أكثر
من مؤامرة ضد الملك الصغير وأمّه ، ولعل أهمها تلك المؤامرة التى حيكّت
سنة ١٢٢٩ التى تزعمها دوق برجنديا وكونتات بريتانى وشامبنى ولامارش ،
يؤيدهم هنرى الثالث ملك إنجلترا • ولكنها باءت بالفشل بفضل حزم بلاش
- الملكة الوالدة - من جهة • ومساعدة البابوية - الحليفة الطبيعية لأعداء
الهرطقة الأليجنسيه - من جهة أخرى (٣) • وهكذا استمرت الأوضاع حتى
انتهت فترة الوصاية سنة ١٢٣٥ •

ولم يحاول لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التى تلقاها أسلافه ؛
قدفته حماسه الدينية الى القيام بالحملة الصليبية الشهيرة المعروفة بالسابعة ؛
على الرغم من معارضة أمه ونصح وزرائه • وقد قضى لويس التاسع عدة
سنوات فى الاستعداد لهذه الحملة حتى أبحر سنة ١٢٤٨ قاصدا مصر ، بعد
أن أصبحت العقيدة السائدة عند الصليبيين عندئذ أن مصر هى المفتاح الموصل
للسيطرة على بيت المقدس (٣) • وبعد أن استولى لويس التاسع على دمياط سنة
١٢٤٩ ، تقدم نحو القاهرة حيث حلت الهزيمة بجيشه قرب المنصورة نتيجة
لجهل الصليبيين بأحوال البلاد وطبيعتها فى حين وقع لويس التاسع نفسه أسيرا
فى أيدي المسلمين ولم يطلق سراحه الا بعد أن دفع فدية ضخمة •

واذا كان لويس التاسع ملكا متدينا حى الضمير ، فان ذلك دفعه الى التسليم
بحقوق غيره مثلما تمسك هو بحقوقه • وفى ضوء هذا الاعتبار اختار لويس

(1) Idem, p: 331

(2) Orton : op. cit. p. 332

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 357

(م ١٨ - أوروبا فى العصور الوسطى)

التاسع أن يسالم هنرى الثالث ملك انجلترا بدلا من محاولة طرد الانجليز من جاسكونى(١) .

ويبدو أن هذه السياسة لم تؤد فقط الى اقرار صلح باريس بين فرنسا وانجلترا سنة ١٢٥٩ بعد فترة طويلة من الحروب المتقطعة بين الدولتين ، بل دفعت هنرى الثالث أيضا الى التنازل عن كل حقوقه الاسمية فى نورمنديا وأنجو ، مين وتورين وبواتو ، وان أصر على الاحتفاظ بملكية جسون وجاسكونى وليموسان وكويرسى وبريجورد ، على أن تؤدى جميعها فروض التبعية لملك فرنسا وتتعهد بعدم المشاركة فى أية ثورة ضده(٢) . وهكذا يمكن القول بأنه - بصرف النظر عن حساسة لويس التاسع الصليبية - فان سياسته الخارجية اتسمت بطابع المسالمة ، فلم يحاول أن يستغل الظروف السيئة التى أحاطت ببيت هوهنشتاوفن ليحقق لنفسه مكاسب خاصة ، ورفض أن يقحم نفسه فى النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فلم يستجب الى تحريض البابا فى مهاجمة فردريك الثانى ولم يخضع لرأى الأخير ويسلمه البابا انوسنت الرابع(٣) ، وهذا فضلا عن أنه لم يفكر فى استقلال سوء أحوال انجلترا ليعتدى على أملاكها فى فرنسا(٤) . واذا كان لويس التاسع قد استطاع أن يجعل من فرنسا فى أواخر عهده أقوى دولة فى أوروبا ، فاننا يجب أن نقدر الظروف الخارجية التى ساعدت على ابراز هذه الحقيقة ، وأهمها حرج مركز الامبراطورية الألمانية من جهة وسوء أحوال الملكية الانجليزية من جهة أخرى(٥) .

أما فى الداخل ، فان لويس التاسع حرص كل الحرص على احترام حقوق أقصاله من كبار الأمراء الاقطاعيين ، فى الوقت الذى احتفظ بسلطانه الملكى وحقوقه العليا فى السيادة على الدولة . وفى ذلك الوقت كان كبار الأمراء الذين أتمبوا أسلافه فى القرن الثانى عشر قد ماتوا ، وخلفهم خلف ضعيف من

(1) Painter : A History of the Middle Ages, p. 257

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 358

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 420—421

(4) Stephenson : Med. Hist. p. 476

(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 241

الأمراء الذين لم يحاولوا أن يسيبوا مناعب كثيرة للملكية (١) . لذلك لا عجب إذا رأينا عهد لويس التاسع وقد امتاز بإصلاحات متعددة في النواحي الإدارية والقضائية والمالية ، وإن كان من الملاحظ أن ذلك العهد لم يشهد مولد نظم جديدة بقدر ما شهد تطور النظم القديمة السائدة . وكان محور السلطة المركزية في ذلك العصر - سواء في فرنسا أم إنجلترا - هو المجلس الاقطاعي للملك Curia Regis الذي تألف في جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين ، ينضم اليهم أفضال الملك في حالة الشروع في اعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل المهمة (٢) . وعندما ازداد عدد أعضاء هذا المجلس في القرن الثالث عشر أخذ ينقسم الى عدة لجان لكل منها مهمته ، مثل الهيئة التي اختصت بالإيرادات الملكية Chambre des Comptes والهيئة الخاصة بالقضاء أو المحكمة الملكية في باريس Parlement وغيرهما . أما ممتلكات الخاصة الملكية والأراضي الاقطاعية الخاصة بالملك ، فقد عهد بالإشراف عليها الى وكلاء ملكيين Bailis ولكي يتأكد لويس التاسع من حسن سير الجهاز الحكومي ، دأب على إرسال مندوبين ملكيين (enquêteurs) لسماع شكاوى الأهالي والتحقيق فيها فضلا عن التفتيش على الحكام المحليين ، مما جعلهم شديدي الشبه بالمبعوثين Miissi على أيام شارلمان (٣) . وقد تمسك لويس التاسع بحقه في أن تستأنف أمامه كافة القضايا على أن يكون رأيه نهائيا وملزما حتى لكبار الأمراء الاقطاعيين ، كما حدد عددا معينا من الجرائم يجب أن يكون الفصل فيها من اختصاص القضاء الملكيين وحدهم . أما في الناحية المالية فقد جعل العملة الملكية صالحة للتداول في جميع أنحاء فرنسا ، في حين لا تسرى العملات الخاصة التي أصدرها كبار الأمراء الاقطاعيين الا في اقطاعاتهم وحدها ، الأمر الذي ضمن البقاء والفوز النهائي للعملة الملكية (٤) . كذلك اهتم لويس التاسع برعاية

(١) Orton : op. cit. pp. 333—334

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p, 335

(٣) Tout : The Empire and the Papacy, p. 424

(٤) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 336—338 & 351

التجارة وحماية القومونات ونشر الأمن والسلام ، مما مكن التجار من البيع والشراء فى يسر وطمأنينة ، هذا فضلا عن عدة مدن أقامها لويس التاسع فى الجنوب (١) .

أما سياسة لويس التاسع تجاه الكنيسة فقد قامت على أساس حمايتها من جشع الأمراء الموظفين الملكيين ، واعطائها كل مالها ، وفى الوقت نفسه تمسك بحقوق الملكية تجاه الكنيسة وحرص على استخلاص هذه الحقوق كاملة غير منقوصة ، فلم يسمح لها بالتدخل فى الشئون العلمانية وفرض عليها دفع الأموال المطلوبة منها بانتظام (٢) . وقد حظى رهبان منظمتى الفرنسيسكان والدومينيكان بمكانة خاصة عند لويس التاسع على حساب غيرهم من أفراد المنظمات القديمة ، فضلا عن رجال الكنيسة العلمانيين (٣) .

وهكذا أخذ لويس التاسع يعمل على تنظيم الادارة وقرار العدالة والمساواة فى جمع الضرائب ، مما جعل لفترة الأخيرة من حكمه - بعد عودته من الأراضى المقدسة سنة ١٢٥٤ - تمتاز بالسلام الشامل . ولم يحدث فى تلك الفترة ما يعكر صفو السلام والأمن الداخلى ، وإنما أخذ الملك ينتقل من اقليم الى آخر ومن مدينة الى أخرى فى ظل ادارته الصالحة ، وما عرف عنه من عطف وبر بالضعفاء والمحتاجين . لذلك لا عجب اذا امتاز ذلك العهد بالتقدم الحضارى الكبير فى ميادين العلوم والفنون ، فأخذت جامعة باريس الناشئة تخطو بالدراسات المتنوعة الى الأمام ، فى حين بلغ الفن القوطى عصره الذهبى ، كما يبدو فى كندرايئات ذلك العصر وعلى رأسها كندرايئات أميان وبورج وبوفيه (٤) .

على أن افراط لويس التاسع فى التقوى والتدين كانت له نتائج هدامة من بعض الوجوه ، اذ دفعه ذلك الى التطرف فى اضطهاد اليهود والهراطقة ، والى

(1) Lavissee : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 76

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 350

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 422—423

(4) Thompson : op. cit. Vol. I, pp. 539—540

السماح باتخاذ أعنف الاجراءات ضد الأليجنسين فى الجنوب ، مما أثر نى الحضارة البروفنسالية تأثيرا سيئا للغاية (١) . وعلى الرغم من أن حملة لويس التاسع الصليبية على مصر سنة ١٢٤٩ لم تأت بشمرة سوى الخسارة الفادحة فى الأرواح والأموال (٢) ، فإن لـويس التاسع سرعان ما نسى الدرس القاسى الذى أخذه قرب المنصورة سنة ١٢٤٩ وأخذ يفكر فى أواخر أيامه فى القيام بحملة صليبية جديدة . وكانت وجهة هذه الحملة تونس فى شمال افريقية ، حيث أرسى أسطول لويس التاسع سنة ١٢٧٠ فى وقت من أسوأ فصول السنة . ومن الواضح أن لويس لم يكن عندئذ فى سن تمكنه حتى من ركوب فرسه ، الأمر الذى عجل بوفاته فى السنة السابقة نفسها ، وبذلك فقدت فرنسا أبرز من جمع بين المواهب الخلقية والسياسية فى سلسلة ملوكها العظام (٣) .

فيلب الثالث :

وبعد لويس التاسع حكم ابنه فيليب الجرى . أو الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥) الذى يعتبر عهده عديم الأهمية ، اللهم الا من ناحية أنه يمثل مرحلة انتقال بين الملكية الإقطاعية التى ميزت عهد سلفه لويس التاسع ، والملكية القومية التى ميزت عهد خلفه فيليب الرابع . وهنا نشير الى أن القومية بمعناها الحديث الذى نعرفه ، لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى (٤) ، وكل ما هنالك هو أن انهيار النظام الإقطاعى ونشأة المدن وظهور الآداب واللغات الجديدة ، كل ذلك جعل ملوك أوروبا فى أواخر العصور الوسطى يرفضون فكرة خضوع العالم لسلطة امبراطورية عليا ، وهى الفكرة التى طالما هيمنت على العصور الوسطى . وهكذا أخذ كل ملك يباشر سلطانه ويثبت نفوذه على أنه يستمد ذلك السلطان والنفوذ من الله مباشرة مما جعل الملوك يتجهون فى بلادهم اتجاها محليا ، لا عالميا .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 347

(2) Orton : op. cit. p. 337

(3) Lodge : The Close of the Middle Ages, p. 46

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 306

وعلى الرغم من عدم كفاية فيلب الثالث ، الا أن الملكية الفرنسية استمرت في تقدمها بفضل الطاقة التي زودها بها ملوك فرنسا السابقين ، مما جعل عهد فيلب الثالث لا يبدو مظلما على طول الخط . ولعل أبرز ما فى هذا العهد أن الملكية الفرنسية نجحت فى ضم ثلاثة أقاليم مهمة ظل اثنان منها فى حوزة التاج الفرنسى . ذلك أنه كان من جملة الذين هلكوا فى حملة لويس التاسع الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ ألفونس أمير بواتيه وزوجته دون أن يتركا وريثا ، فاستولى التاج الفرنسى على أملاكهما الواسعة فى تولوز وبواتو Boitou وأوفرن Auvergne وبروفانس (١) . ثم حدث سنة ١٢٧٤ أن توفى هنرى ملك نافارى وكونت شامبني وبري Brie تاركا طفلة صغيرة فى الثالثة من عمرها ، أخذتها أمها الى البلاط الفرنسى طالبة حماية فيلب الثالث . وسرعان ما انتهز ملك فرنسا الفرصة فأسرع باحتلال شامبني وبري وضمهما الى التاج الفرنسى ، فى الوقت الذى وافق البابا على زواج أرملة هنرى من فيلب ابن ملك فرنسا الذى اعتلى العرش تحت اسم فيلب الرابع (٢) .

فيلب الرابع :

أما فيلب الرابع أو الوسيم (١٢٨٥ - ١٣١٤) فقد امتاز ببعد النظر وقوة العزيمة والمهارة السياسية . وقد اتجهت سياسته نحو توحيد فرنسا تحت سيادة الملك ومد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوروبا (٣) . لذلك أعلن منذ اعتلائه العرش أن الحدود الطبيعية لبلاده هى الراين والألب والبرانس ، وبناء على ذلك أخذ يعمل على ضم الجهات التى ظلت خارج نفوذه . وقد رأينا أن التاج الفرنسى ضم شامبني عن طريق زواج فيلب الرابع من صاحبته . ولما كانت بريتانى فى شبه عزلة ، فان فيلب أخذ يتطلع الى جوين وجاسكونى ، اللتين كانتا لا تزالان مملوكتين للملك انجلترا ، مع اعترافه بالتبعية فيهما لملك فرنسا . ثم كان أن تصادمت المصالح الانجليزية والفرنسية أيضا فى اقليم

(1) Lavissee : op. cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 111

(2) Lodge : The Close of the Middle Ages. pp. 47—48

(3) Orton : op. cit. pp. 358—359

فلاندرز ، الذى كان من أهم المراكز الصناعية والتجارية فى غرب أوروبا (١) . فانجلترا التى لم يكن قد تم تصنيعها بعد ، اعتادت أن تصدر الصوف الخام من يوركشير الى فلاندرز حيث يتم صنعه وتسويقه ، فى حين تجبى الملكية الانجليزية ايرادها الأساسى من الضريبة المفروضة على الصوف المصدر الى فلاندرز (٢) . وكان دوق فلاندرز تابعا للتاج الفرنسى فى حين كانت مدن ذلك الاقليم حرة من الناحية العملية ، ويميل أهلها الى انجلترا بحكم ارتباطهم بها اقتصاديا . هذا كله فضلا عما كان هناك من تنافس بين الانجليز والفرنسيين حول مصادد الأسماك فى بحر الشمال مما أثار كثيرا من الاشتباكات بين الصيادين الفرنسيين والانجليز فى بحر الشمال وحرك شكوك الملكية فى كل من البلدين (٣) .

وأخيرا حدث سنة ١٢٩٣ أن أعتدى بعض صيادى جاسكونى على الصيادين النورمان ، ورفض الفريق الأول الامتثال لأحكام المحاكم الفرنسية ، مما جعل فيليب الرابع ملك فرنسا ينتهز فرصة التاعب الداخلية التى تعرض لها ادوارد الأول ملك انجلترا (١٢٧٢ - ١٣٠٧) ويستدعيه للحضور أمامه لاستجوابه بشأن اخلاله بتعهداته الاقطاعية (٤) . على أن ادوارد كان مشغولا عندئذ بحرب الاسكتلنديين ، فوعد بالحضور فى وقت آخر قريب ، وأرسل أخاه ادوين بدله ، كما سلم لفيليب بعض القلاع الواقعة على الحدود فى جوين ضمنا لحضوره (٥) . ويبدو أن ادوارد لم يستطع الحضور الى باريس فى الوقت المحدد ، مما أساء الى العلاقة بين الطرفين فلجأ فيليب الرابع الى التمسك بالقلاع التى أخذها ، فى حين رد عليه ادوارد باعلان تحلله من ولائه لملك فرنسا ، كما عمل تحالفا مع بعض الأمراء الألمان والفلمنكيين ضده . أما فيليب الرابع فرد على ذلك بالتحالف مع سكتلند ضد ملك انجلترا ، ثم احتل جوين

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 320.

(2) Perroy: La Guerre de Cent Ans, pp. 16—18.

(3) Lavis: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 296.

(4) Lodge: op. cit. p. 51.

(5) Perroy: op. cit. p. 45.

وهاجم كونت فلاندرز حليف ادوارد سنة ١٢٩٧ ، حتى انتهى الموقف بصلح مؤقت بين الطرفين سنة ١٢٩٨ بفضل وساطة البابا بونيفيس الثامن ، فتخلى ملك انجلترا عن مساعدة كونت فلاندرز وتخلي ملك فرنسا عن مساعدة سكتلند . ولم يلبث أن ثار أهالي فلاندرز من الفلمنك ضد الحكم الفرنسى فذبحوا كثيرا من الفرنسيين ، كما هزموا القوات الفرنسية سنة ١٣٠٣ عند كورتراى Courtrai وأخيرا اضطر فاب الرابع الى عقد صلح نهائى مع ادوارد الأول سنة ١٣٠٣ على أساس أن يعود كونت فلاندرز الى حكم بلاده وأن تسترد انجلترا جاسكونى وجوين (١) .

ولكن يبدو أن أطماع فيلب الرابع فى فلاندرز كانت لا يمكن أن تنتهى بهذه السرعة ، فلم يلبث بعد أن اطمأن الى وفاة بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٣ أن عاد الى محاولة اخضاع الفلمنكيين ، ونجح فعلا فى الانتصار عليهم ، ولكنه لم يحرز نصرا حاسما . وسرعان ما استطاع أهالي فلاندرز تعبئة قواهم مما جعل ملك فرنسا يعجل بالصلح سنة ١٣٠٥ .

أما عن العلاقة بين فيلب الرابع والبابوية فكان محورها الأساسى البابا بونيفيس الثامن الذى كان أهم شخصية فى عصره ، حتى لقب بأنه آخر بوبوات العصور الوسطى العظام (٢) . كان هذا البابا (١٢٩٤ - ١٣٠٣) قد شب فى أيام سطوة البابوية وقوتها ، ومن ثم لم يستطع أن يتفهم الأوضاع الجديد التى أخذت تلم بالعالم الأوروبى ، وأنشأ يباشر سلطانه البابوية على أوسع مدى ، مما جره الى التدخل فى شئون السلا والمملوك المعاصرين (٣) . وعندما أشرك فيلب الرابع - ملك فرنسا - رجال الكنيسة فى دفع الضرائب التى قررها لمواصلة الحرب ضد انجلترا سنة ١٢٩٤ ، احتج رجال الكنيسة على هذا العمل وشكوا الى البابوية . والواقع أن أهم مشكلة واجهت الملكيات

(1) Lavissee: op cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 300.

(2) Lodge: op. cit. p. 28.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 44-45.

الأوربية عند نهاية القرن الثالث عشر كانت الحاجة الى المال لمواجهة نفقة الدولة المتزايدة من جهة ونفقات الادارة وكثرة الموظفين من جهة أخرى . وفى حالة فرنسا بالذات جاء عامل جديد هو حرب فلاندرز الطويلة التى تطلبت من فيلب الرابع الالتجاء الى طرق جديدة - لا تخلو من عنف - فى جميع الأموال ، حتى من الكنيسة (١) .

لذلك أصدر البابا بونيفيس الثامن قرارا سنة ١٢٩٦ ببطلان حق الملوك فى فرض ضرائب على الممتلكات الكنسية دون اذن البابوية ، وهدد بتوقيع قرار الحرمان على كل من يخالف هذا القرار (١) . وقد استاء ملكا فرنسا وانجلترا من هذا القرار الذى يعتبر محاولة من البابوية للعودة الى أوضاع القرن الثانى عشر . وسرعان ما اتخذ استياء ادوارد الأول ملك انجلترا صورة نزاع مع رئيس أساقفة كاتربورى ، فى حين أدى استياء فيلب الرابع الى صدام مباشر بينه وبين البابا بونيفيس الثامن نفسه (٣) . ذلك أن فيلب الرابع حرم على جميع الأجانب دخول فرنسا ، وبذلك حال دون وصول المندوبين البابويين ، كما حرم تصدير الذهب والفضة والنقود خارج فرنسا مما أدى الى قطع الموارد المالية التى تصل الى البابوية من فرنسا (٤) .

وكان من الطبيعى أن يحتج بونيفيس الثامن على اجراءات فيلب الرابع فدعا الى عقد مجمع من رجال الدين لاتخاذ قرار ضد الملكية الفرنسية (٥) . ولكن فيلب الرابع حال دون خروج أى واحد من رجال الدين الفرنسيين الى روما ، كما دعا مجلس الطبقات *States General* لأول مرة فى التاريخ الفرنسى (أبريل سنة ١٣٠٢) . وقد أقر النبلاء فى ذلك المجلس السلطة الزمنية للتاج ، فى حين كتب رجال الدين الى البابا بونيفيس الثانى

(1) Orton: op. cit. pp. 360—361.

(2) Pirenne: *La Fin du Moyen Age*, p. 45.

(3) Tout: *The Hist. of England*. pp. 200-201.

(4) Lavisce: op. cit. Tome 3, *Deuxième Partie*, p. 132.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 313.

ينصحونه بعدم عقد المجمع الذى نادى به (١) . ولكن المجمع البابوى لم يلبث أن عقد سنة ١٣٠٢ ، وحضره بعض رجال الدين الفرنسيين على الرغم من الاجراءات المشددة التى اتخذها فيلب الرابع ، مما عرضهم لمصادرة أملاكهم . وقد أقر ذلك المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة الأمر الذى أثار فيلب الرابع وجعله يوجه الى البابا بونيفيس الثامن كثيرا من الاتهامات كما دعا الى عقد مجمع لمحاكمته (٢) . ثم حدث فى الوقت الذى كان بونيفيس يتأهب لاصدار قرار الحرمان ضد فيلب أن تمكن أتباع الأخير من القبض على البابا واهاتته ، بحيث لم يستطع البابا الخلاص الا بصعوبة ، ثم مات فى روما سنة ١٣٠٣ . وبوفاة بونيفيس الثامن أنطوت آخر صفحة فى تاريخ البابوية بمعناها العظيم الذى عرفته العصور الوسطى ، لأنه على الرغم من اتهامه بالمحسوبية والمحابة وعلى الرغم من أن داتى جعله من أهل الجحيم ، الا أنه كان مشرعا عظيما واداريا كبيرا ، بحيث أن فشله لا يرجع الى نقص فى مواهبه بقدر ما يرجع الى عدم استطاعته تفهم الروح الجديدة التى سادت المجتمع الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى (٣) . وقد جاء بعد بونيفيس الثامن البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) الذى كان رجلا معتدلا فسحب القرارات التى سبق أن صدرت ضد ملك فرنسا (٤) . ثم جاء البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) فسمح لفيلب الرابع بفرض ضريبة عشرية لمدة خمس سنوات على ممتلكات الكنيسة الفرنسية . وفى سنة ١٣٠٩ اختار كلمنت الخامس أفينون مقرا له يباشر منه مهام منصبه البابوى ، وبذلك بدأت فترة الأسر البابلى التى ستكلم عنها فيما بعد .

ويتضح مما سبق أن فيلب الرابع لم يحقق نتائج ناجحة تستحق الذكر فى نشاطه الخارجى ، اذ انتهت محاولاته فى ضم اكوتين وفلاندرز بالفشل ،

-
- (1) Lavissee: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 149—150.
 - (2) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 49 — 50.
 - (3) Eyre; op. cit, pp. 465—466.
 - (4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 316.

ولم ينجح الا فى ضم ليون سنة ١٣١٢ • وإذا كان قد حقق انتصارا على البابوية فان هذا الانتصار تم عن طريق وسائل غير مشرفة ، هذا فضلا عن أن إقامة البابوية فى أفينون لم تحقق فوائد ثابتة لفرنسا • وهكذا يبدو أنه إذا كانت ثمة أهمية لعهد فيلب الرابع فى التاريخ ، فان هذه الأهمية تنبع من ادارته الداخلية وجهوده فى تحسين هذه الادارة والتخلص من جميع العقبات التى حالت دون سيطرة الملك على دولته سيطرة تامة (١) • وهنا نلاحظ أن الفارق الأساسى بين الدولتين الانجليزية والفرنسية فى هذه الحقبة هو أن الأولى دانت كلها للملوكها الذين غزوها وفرضوا عليها نظاما حرية وتضائى ومالبة • واحدة ، فى حين تم بناء فرنسا لبنة بعد أخرى ، إذ لم يكن للملوكها فى أول الأمر سوى الجهات المحدودة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ، ومن ثم أخذوا يسيطرون سيطرتهم تدريجيا على كبار الأمراء فى الجهات المجاورة • ولهذا السبب ظلت فرنسا لا تخضع لقانون عام موحد حتى ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩ (٢) •

ويبدو أن فيلب الرابع اضطر بحكم حاجته المستمرة الى المال اللازم لمواصلة حروبه الى اتخاذ بعض الاجرامات التصفية • ومن ذلك أنه طرد جميع رجال المال والصارفة للمباردين من فرنسا سنة ١٢٩١ ، كما صادر ممتلكاتهم • أما اليهود فقد قام فيلب الرابع فى أول الأمر بحمايتهم مقابل مقاسمتهم أربابهم • وكان اليهود فى تلك الحقبة من العصور الوسطى يمثلون طبقة رجال المال فى أوروبا والشرق • حقيقة أنهم انتشروا فى بلاد واسعة متعددة ، ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط هى الدين والدم والمال • وهكذا جمعوا ثروات طائلة عن طريق الاشتغال بالأعمال المالية وإقراض الهيئات الكنسية لاتمام منشأتها الضخمة ، أو إقراض الفرسان والأمراء لتنفيذ مشروعاتهم الصليبية ، وذلك بفوائد مالية باهظة ، متهزين فرصة تجريم الكنيسة على أتباعها أكل الربا (٣) • وأخيرا استغل فيلب الرابع الكرم

(1) Lodge: The Close of the Middle Ages, pp. 49—50.

(2) Stephenson: Med. Hist. p. 495.

(3) Orton: op. cit. pp. 631—632.

الاجماعى لليهود وصادر أملاكهم وطردهم من بلاده سنة ١٣٠٦ (١) • ولكن فيلب الرابع لم يلبث أن أدرك ما ترتب على طرد اليهود من اضطراب أصاب التجارة الفرنسية ، مما جعله يسمح لبعضهم بالعودة ، وإن كان قد عاد الى طردهم ثم ارجاعهم أكثر من مرة (٢) • ويبدو من استعراض تاريخ مختلف البلدان الأوربية فى تلك الفترة أن هذه المعاملة السيئة التى لقيها اليهود من فيلب الرابع لم تكن أمرا شاذا فريدا من نوعه • ذلك أن جشعهم وحبهم للمال وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية دفعت ادوارد الأول ملك إنجلترا الى طردهم أيضا من بلاده ومصادرة أملاكهم سنة ١٢٩٠ (٣) ، كما لجأ أمراء ألمانيا وملوك أسبانيا والسلطات الحاكمة فى المدن الإيطالية الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات ضد اليهود (٤) •

ولم ينجح الداوية - وهم أفراد احدى المنظمات التى أسهمت بنصب واضح فى الحروب الصليبية - من أطماع فيلب الرابع • وكانت منظمة الداوية قد فقدت أهميتها العسكرية منذ سقوط عكا فى أيدي المماليك سنة ١٢٩١ ، ولكنها ظلت بعد ذلك تقوم بنشاط مصرفى ومالى واسع در عليها ثروة طائلة • والواقع أنها أضحت أشبه شىء بتنظيم سرى يحوطه الغموض ، ويعيش أفرادها فى رفاهية ونعيم بعد أن انصرف معظمهم الى المصالح الدنيوية (٥) • وقد اقترح بعض البابوات ضم هذه المنظمة الى هيئة أخرى حصلت على صيت ذائع فى عصر الحروب الصليبية ، وهى الاستارية التى ظل أفرادها يقومون بكثير من أعمال البر والاحسان (٦) • ولكن فرسان الداوية عارضوا فكرة ادماج الهيئتين بعضهنما فى بعض ، بعد أن ألفوا حياة الدعة والراحة حتى أنخسهم الثروة واتصفوا بالكبرياء والنظرسة • ثم كان أقدم البابا كلمنت الخامس

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 74—75.

(2) Lavissee: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 222—226.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 655.

(4) Tout: The Hist. of England, pp. 175—176.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 316—317.

(6) Stephenson : Med. Hist. pp. 501—502.

على التحقيق فى مسلك الداوية لمحاكمتهم ، وعندئذ انتهر فيلب الرابع ملك فرنسا الفرصة سنة ١٣١٠ فأحرق أربعة وخمسين من فرسانهم فى باريس ، ثم أصدر أمرا سنة ١٣١٢ بحل هيئة الداوية ومصادرة أملاكها . وفى سنة ١٣١٤ أحرق مقدمهم جاك دى مولاي Jacques De Molai (١) ، وبذلك انحلت هيئتهم وتفرقوا فى البلاد . ويبدو أن الاضطهاد الذى حل بالداوية جعلهم يعتقدون بعض المذاهب الهرطقية التى أدانهم بها البابا كلمنت الخامس (٢) .

ثم ان حاجة فيلب الرابع الى الأموال لم تدفعه الى التعسف فى جمعها فحسب ، بل أيضا الى تغيير العملة والتلاعب فى قيمتها (٣) . كذلك فرض ضرائب على المبيعات مما أدى الى تدهور أهمية أسواق شامبني العظيمة . هذا فضلا عن الضرائب غير المباشرة التى فرضها على الواردات والصادرات بعد أن توصل الى حقيقة مهمة ، هى استغلال الضرائب فى تنظيم عملية التجارة . وهكذا لجأ الى فرض ضريبة على الأصواف الانجليزية والفلمنكية لحماية الانتاج المحلى والمساعدة على ترفيته . كذلك فرض فيلب الرابع ضرائب على الهيئات الخاصة مثل النقابات والأديرة والجامعات وأراضى البارونات والطبقة البورجوازية . أما المدن فقد فرض على كل منها مبلغا معينا كبيرا من المال ، ومنع البلديات حرية فى جمع الضرائب من الأهالى (٤) .

أما فى الناحية الادارية والتشريعية فان فيلب الرابع فصل من الهيئة القضائية المعروفة باسم برلمان باريس بقية الاقطاعيين ، وأحل محلهم مجموعة من القانونيين الذين درسوا القانون الرومانى وتشبعوا بما فيه من حب للملكية واعتراف بسيادتها (٥) . كذلك أنشأ محكمة أو غرفة مالية الغرض منها

(1) Lodge: op. cit. p. 56.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 318—319.

(3) Lavissee: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 233.

(4) Cam. Méd. Hist. Vol. 7, pp. 324—325.

(5) Lavissee: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

الفصل فى المنازعات التى تقوم حول الضرائب وغيرها من الاشكالات المالية .
على أن أهم من هذا كله كانت دعوة فيلب الرابع لمجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢ ، وهو المجلس الذى كان له أثر خطير فيما بعد فى تاريخ فرنسا (١) . ذلك أن فيلب الرابع دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث - رجال الدين والنبلاء والبرجوازيين - وتكررت هذه الدعوة أكثر من مرة ، مثلما حدث سنة (١٣٠٢ - ١٣٠٣) أثناء نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن ، وسنة ١٣٠٨ عند حل منظمة الداوية ، وسنة ١٣١٤ عندما احتاج الى أموال للحرب فى فلاندرز (٢) . ويبدو من التجاء فيلب الرابع الى دعوة هذا المجلس أنه كان يقدر ما للرأى العام من أهمية وقوة . وعلى الرغم من أنه لم يسمح لأعضاء مجلس طبقات الأمة بمناقشة القوانين ، الا أنه سمح لهم برفع آرائهم الى الملك (٣) . وقد حدث أثناء انعقاد المجلس سنة ١٣١٤ أن اعترض الأعضاء على احدى الضرائب ، فاضطر فيلب الرابع الى العائها والى عدم التلاعب فى العملة بعد ذلك .

نهاية اسرة كاييه :

وعند وفاة فيلب الرابع سنة ١٣١٤ خلفه أكبر أبنائه لويس العاشر لمدة عامين (١٣١٤ - ١٣١٦) وبعد ذلك اعتلى عرش فرنسا ابن آخر لفيلب الرابع هو فيلب الخامس (١٣١٦ - ١٣٢٢) الذى دعا مجلس طبقات الأمة الى الانعقاد لاقرار أحقيته فى العرش واحباط المحاولة التى قام بها منافسوه لتولية ابنة لويس العاشر . وكان فيلب الخامس حاكما نشيطا ذكيا (٤) ، عمل على تركيز الادارة الملكية فى باريس وتحصيل كثير من الضرائب الاقطاعية لصالح الملكية ، ومنع الأمراء الاقطاعيين من الاحتفاظ بحاميات فى

(1) Cam. Méd. Hist. Vol. 7, p. 684.

(2) Lodge: op. cit. pp. 59—60.

(3) Cam. Méd. Hist. Vol. 7, pp. 326—327.

(4) Lavissee: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

قلاعهم ما لم تكن هذه القلاع على الحدود • كذلك امتاز عهد فيلب الخامس بكثرة التشريعات التي بلغت بالنظم التي وضعها آل كاييه درجة الكمال • أما مجلس طبقات الأمة فقد بلغ عندئذ درجة كافيته من النضج وتعددت اجتماعاته حيناً بعد آخر •

وبعد فيلب الخامس تولى الحكم أخوه شارل الرابع (١٣٢٢ - ١٣٢٨) وهو الابن الأصغر لفيليب الرابع ، فشابهه أباه في حب فرض الضرائب والتلاعب في قيمة النفوذ • أما في الخارج فقد شغل شارل الرابع بحرب فلاندرز ، وهي الحرب التي ظلت منذ أيام فيلب الرابع لا تتخذ نازها الا لتشتمل بعد قليل (٣) • كذلك فتح شارل الرابع باب النزاع مع إنجلترا من جديد نتيجة لاستيلائه على معظم جاسكوني • ومهما يكن من أمر ، فإن شارل الرابع هذا لم يترك وريثا يرثه في حكم المملكة ، مما أدى الى انتهاء عهد أسرة كاييه (٤) •

وكان أن اجتمع مجلس طبقات الأمة بعد وفاة شارل الرابع سنة ١٣٢٨ ، فاختار فيلب قالوا الذي أصبح فيلب السادس ملكا على فرنسا • وليس لهذا الاختيار من أهمية خاصة سوى أن النزاع حول وراثة العرش بعد وفاة شارل الرابع كان من اسباب قيام حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، وهي الحرب التي سنعالجها في باب خاص فيما بعد •

(1) Orton: op. cit. p, 364.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 338.

(3) Lodge: op. cit. p. 65.

الباب العاشر

ألمانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة

اختلف الجزء الشرقى من الإمبراطورية الكارولنجية (ألمانيا) عن جزئها الغربى (فرنسا) فى بنائه السياسى وتراثه الحضارى . فالجزء الشرقى لم يكن معظمه فى يوم من الأيام داخل حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة . وإذا كان الملوك الميروفنجيون ثم الكارولنجيون قد أجهدوا أنفسهم فى إخضاع بافاريا وسكسونيا ، إلا أن هذه المناطق ظلت مدة طويلة أصعب من أن يتم هضمها وتمثيلها داخل جهاز الحضارة الغربية . وهكذا استمرت ذكرى الماضى القريب ماثلة فى أذهان شعوب الجانب الشرقى من إمبراطورية الفرنجة عندما أخذت هذه الإمبراطورية تتعرض للتفكك والانهار قرب منتصف القرن التاسع (١) .

وتتضح هذه الفكرة فى شعوب ألمانيا التى أخذت تتركب بترائىها القديم . وتبحث عن زعامة محلية عندما بدا لها عجز الملكية الكارولنجية عن دفع خطر الفيكينج والمجريين ، فظهر زعماء مجليون من كبار الأمراء فى كل سكسونيا وفراנקونيا وسوابيا وبافاريا ، وهى الأجزاء الرئيسية التى تألفت منها مملكة الفرنجة الشرقية أو ألمانيا (٢) . على أنه يلاحظ أن ألمانيا امتازت عن بقية الممالك التى تفرعت عن الإمبراطورية الكارولنجية بأن قوة الدولة لم تنقص فيها بشكل خطير نتيجة لازدياد نفوذ الأمراء الإقطاعيين (٣) . حقيقة أن هناك تشابه واضح فى التطور السياسى بين المملكتين الفرنسية والألمانية فى أن التيار العام فى كل منهما اتجه نحو انتقال السلطة الفعلية الى أيدي الأمراء

(1) Barraclough: The Origins of Modern Germany, pp. 6—11.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 164.

(3) Orton: op. cit. p. 160.

المحليين ، وفى أن زمام الحكم انتقل فى كل من البلدين من أيدي سلاطة البيت الكارولنجى الى بيوت أخرى اقطاعية (١) • ولكن ألمانيا اختلفت عن فرنسا فى أن أراضي الملوك وممتلكاتهم ظلت واسعة فى الأولى ، كما أن نفوذ الأمراء - على الرغم من ازدياده - لم يصل الى درجة تفويض نظم الادارة القديمة كما صار الحال فى فرنسا (٢) •

الواقع أن الخطر الذى هدد الملكية الألمانية لم يأت من ناحية الأمراء الاقطاعيين بقدر ما أتى من ناحية طبيعة البلاد نفسها • فبينما جغرافية فرنسا الطبيعية ساعدت على توحيد سكانها - مع اختلاف أصولهم - اذا بألمانيا تظل منقسمة الى أقاليم كبرى تختلف اختلافا بينا من الناحية الطبيعية ، حتى أصبح لكل اقليم منها اتجاهه السياسى وعصبيته العنصرية • فاذا كان الجزء الشمالى من ألمانيا سهلى منبسطة فإن الجزء الجنوبى جبلى وعرة ، واذا كانت أنهار الشمال ، تتجه لتصب فى بحر الشمال أو البحر البلطى وبذلك توجه الأهالى نحو الشمال ، فإن أنهار الجنوب تجرى شرقا وغربا لتوجيه الأهالى فى هذين الاتجاهين • وهكذا ساعدت هذه العوامل على بقاء الفوارق بين الشعوب والقبائل التى تألفت منها ألمانيا فى نهاية القرن التاسع ، وهم السوابيون والبافارون والسكسون والثورنجيون والفريزيون (٣) •

أرنولف :

وكان أهم حكام ألمانيا من البيت الكارولنجى فى أواخر القرن التاسع هو الملك أرنولف (٨٨٧ - ٨٩٩) • وقد امتاز حكم أرنولف هذا - البالغ اثنى عشرة سنة - بالحيوية والقوة ، حتى استطاعت ألمانيا فى تلك الفترة التغلب على أعدائها فى الشمال والشرق ، فضلا عن حصولها على نوع من الزعامة بين بقية الدول المسيحية فى غرب أوروبا • وحسب أرنولف أن الملوك الذين

(1) Stephenson: Med. Hist. pp. 279—280.

(2) Orton: op. cit. pp. 160—161.

(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 3f 63.

(م ١٩ - أوروبا فى العصور الوسطى)

حكموا مختلف أجزاء دولة الفرنجة قصدوا ألمانيا للحصول على موافقته ورضائه مما حقق له زعامة فعلية عليهم ، على الرغم من عدم تمتعه بلقب الامبراطورية (١) .

ولعل خير دليل على قوة أرنولف هو مجاحه فى دفع خطر الفيكنج عن بلاده بطريقة جعلت منهم فيما بعد اقل أعداء الدولة الألمانية خطرا عليها . ذلك أنه حدث سنة ٨٩١ أن أخذ الدانيون يتدفقون على أوستراسيا فى قوة وغنف حتى اجتاحتها جميع أراضي الميز والموزل ، وأنزلوا الهزيمة بالقوات المحلية التى واجهتهم فى لوترنجيا . وعندما سمع أرنوف بذلك أتى مسرعا من بافريا وأخذ يطارد الدانيين حتى معسكرهم عند لوفان *Louvain* حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة (٢) . وكانت هذه الهزيمة درسا قاسيا تلقاه الدانيون فى الجزء الشرقى من الامبراطورية الكارولنجية ، بحيث لم يحاولوا بعد ذلك التوغل داخل حدود ألمانيا أو إقامة امارة مستقلة فى أراضيها ، وإن استمرت اغاراتهم السريعة على شوابىء فيريزيا والراين الأدنى (٣) .

وبعد أن أخضع أرنولف بعض الثورات التى قامت بها العناصر السلافية التابعة له فى الشرق - مثل التشك والمورافين - دفعه طموحه ورغبته فى أن يصبح امبراطورا الى أن يزج بنفسه فى السياسة الإيطالية ، مما ترك أسوأ الأثر بالنسبة لتاريخ ألمانيا فى العصور الوسطى . ذلك أن إيطاليا كانت عندئذ ميدانا للتنافس بين بعض الأمراء ، مما أتاح فرصة لتدخل أرنولف فى شئونها ، وبخاصة عندما اشتد النزاع بين جاي *Guy* (ويدو *Wido*) وبرنجار *berenga* حول حكم إيطاليا ، مما أثارا حربا عنيفة بين الطرفين وقفت فيها لمبارديا فى صف برنجار ، فى حين ظهرت تسكانيا

(1) Oman: The Dark Ages, pp. 468—469.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 322.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 10.

يوالباوية جاي (١) • وكان أن توج البابا بستفن الخامس جاي امبراطورا
وملكا على ايطاليا سنة ٨٩١ ، الأمر الذي حقق له النصر النهائي وجعل خصمه
يريجار يستعبد بأرنولف ملك ألمانيا (٢) • وهنا رحب أرنولف بهذه الفرصة
التي أتاحت له التدخل في شئون ايطاليا فعبّر الألب سنة ٨٩٤ حيث أخضع
حوض نهر البو ، في حين فرجاي نحو الجنوب حيث توفي • وفي العام
التالي أغار أرنولف مرة أخرى على ايطاليا ودخل روما حيث رحب به البابا
الجديد فورموزس Formosus (٨٩١ - ٨٩٦) وتوجه
امبراطورا (٣) •

وهكذا وضع أرنولف أساس سابقة خطيرة أمام حكام ألمانيا الذين وزعوا
جهودهم بين ألمانيا وايطاليا دون أن يحصلوا على أية فائدة من وراء التدخل
في شئون ايطاليا سوى اضعاف نفوذهم في ألمانيا وبعثرة قواهم • فعلى الرغم
من الجهود الضخمة التي بذلها ملوك ألمانيا للسيطرة على ايطاليا ، إلا أن
نفوذهم فيها لم يكن فعليا الا في حالة وصول الملك الألماني على رأس جيشه
الى ايطاليا ، وفيما عدا ذلك سرعان ما يتقلص ذلك النفوذ ويتلاشى بعودة
الألمان الى بلادهم (٤) • ذلك أن البابوية والنبلاء والمدن عارضت جميعا قيام
أية سلطة سياسية قوية في ايطاليا ، ومن ثم فشل الأباطرة الألمان في الربط
بين ألمانيا وايطاليا سياسيا في ظل تاجهم ، في الوقت الذي صرفتهم شئون
ايطاليا عن تدعيم نفوذهم في ألمانيا ذاتها • ومهما يكن من أمر فإن الانقسامات
والأفكار التي تعرضت لها ألمانيا على عهد أرنولف وخلفائه المباشرين أدت الى
ترك ايطاليا وشأنها دون تدخل من جانب ألمانيا لمدة ستين سنة (٥) •

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 64—65.

(2) Oman: The Dark Ages, pp. 463—464.

(3) Deanesly: op. cit. p. 565.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 364—365.

(5) Bryce: The Holy Roman Empire, p. 78.

أما أرنولف فقد عاد من إيطاليا متوجاً بالتاج الإمبراطورى الذى أضفى عليه نوعاً من المهابة أكدت أولويته بين ملوك غسرب أوروبا المعاصرين وزعامته عليهم . على أن المشاكل التى واجهت أرنولف بعد عودته من إيطاليا كانت كثيرة وشاقة ، ومن هذه المشاكل ما هو داخلى مرتبط بمسألة الوراثة ، ومنها ما هو خارجى يتمثل فى اغارة المجرىين على ألمانيا (١) . أما هؤلاء الهنغاريون أو المجرىون فكانوا قبائل رعوية من أصل أسوى مثل الهون والآفار ، اعتمدوا على الخيل فى حلهم وترحالهم وبرعوا فى الخروب والمخاطفة التى شنوها على خصومهم . وقد ترك هؤلاء الهنغاريون مقرهم فى شرق أوروبا - على البحر الأسود - وزحفوا سنة ٨٩٦ نحو السهول الواقعة بين الكربات والدانوب ، وهى المنطقة التى نسبت اليهم وعرفت باسم هنغاريا أو المجر . ومن هذا الموطن الجديد أغار الهنغاريون فى ربيع سنة ٨٩٩ على إيطاليا عن طريق اكويليا وفيرونا حتى وصلوا بافيا . وبعد أن نهبوا سهول إيطاليا الشمالية اضطروا الى العودة عن طريق بانونيا (٢) . على أن أرنولف يعتبر المسئول الأول عن تجرؤ الهنغاريين على أراضي الإمبراطورية بعد أن استعان بهم فى حربه ضد مورافيا ، وبذلك دلهم على طريق مورافيا وألمانيا جميعاً . ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن خطر الهنغاريين على ألمانيا لم يكن حسيماً فى حياة أرنولف نفسه ، لانشغالهم بتطهير سهول الدانوب من السلاف ، ولذلك لم يشتد خطرهم على بافاريا وثورنجا الا عقب وفاة أرنولف فى نهاية سنة ٨٩٩ (٣) .

لويس الطفل (٨٩٩ - ٩١١) :

أجمع أمراء ألمانيا وأساقتها على اختيار لويس الطفل (Lewis the Child) ملكاً عقب وفاة أبيه أرنولف سنة ٨٩٩ . وكان لويس هذا فى السادسة من عمره عندئذ ، الأمر الذى جعل الاحدى عشرة سنة التى حكم فيها البلاد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 67.

(2) Flich: L'Europe Occidentale, pp. 43-44.

(3) Oman: The Dark Ages, p. 471.

حكما اسما من أحلك عصور التاريخ الألماني . ففى تلك الحقبة قريت النزعة
الاقطاعية عند الأمراء الألمان ، وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية
قوية وعصبية قبلية واضحة ، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات
فيما بينهم . وربما أدى الى حدة هذه المنازعات أن مناصب الدوقات والكونتات
أصبحت وراثية ، مما جعل لكل قسم من الأقسام الأربعة الرئيسية التى تألفت
منها ألمانيا - وهى فرانكونيا وسوابيا وبافاريا وسكسونيا - دوقا يرثه انه فى
منصبه (١) . ولم تكن النزعة الانفصالية أقل وضوحا عند الأساقفة الألمان ،
الذين بلغوا هم الآخرون درجة كبيرة من الثروة واتساع الأملاك والنفوذ
حتى أصبحت لهم سيطرة على التاج ، كما ناضلوا مع الأمراء لتحقيق أطماع
سياسية بحتة (٢) . على أنه يبدو أن هؤلاء الزعماء المحليين - من دينين
وعلمانيين - ظلوا لا يجرؤون على الحركة ما دام هناك ملك قوى على رأس
الدولة ، فلما توفى أرنولف وخلفه ابنه لويس الطفل أخذوا يتحسرون
ويشتبكون بعضهم مع بعض فى منازعات طويلة وحروب أهلية دامية أضرت
بالبلاد ضررا جسيما .

وزاد الطين بلة اشتداد اغارات الهنغارين التى لم تنقطع عن ألمانيا منذ وفاة
أرنولف سنة ٨٩٦ . وقد بدأ الهنغاريون بالاغارة على بافاريا وكارنثيا ، ثم
اتهمزوا فرصة الحرب الأهلية فى فرانكونيا وتطرقوا الى سوابيا حتى وصلوا
سكسونيا . وكان أن أنزل الهنغاريون هزيمة كبرى بالقوات البافارية سنة
٩٠٧ . كما قتلوا ليتوبولد Luitpold دوق بافاريا وذبحوا رئيس
أساقفة سالزبرج واسقفى فريزنج وسبن Seben (٣) . وهكذا تمكن
الهنغاريون من اجتياح بافاريا كما دخلوا نورنجا فى العام التالى وقتلوا
دوقها وأسقف ورزبرج ، الأمر الذى دفع لويس الطفل - وكان قد بلغ
السادسة عشر من عمره - الى النزول الى الميدان بنفسه لصد خطر الهنغارىون ،
وفعلوا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونيون تحت قيادة الملك الصغير

(1) Orton: op. cit. p. 161.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 370.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 69.

لجرب المجريين. ولكن الهزيمة حلت بهم جميعا . ولم يلبث أن توفي لويس الطفل عقب هذه الكارثة ، في سبتمبر سنة ٩١١ (١) .

كونراد الأول (٩١١ - ٩١٨) :

وبوفاة لويس الطفل انتهت سلالة الست الكارولنجي من الذكور في ألمانيا ولم يعد هذا البيت ممثلا الا في شخص شارل البسيط في فرنسا (٢) . ولم يكن هناك سوى أحد طريقين أمام النبلاء الألمان للتغلب على مشيكة ملء العرش ، فاما اختيار ملك من سلالة الفرع الفرنسي للبيت الكارولنجي ، واما أن ينتخب النبلاء الألمان أحدهم لشغل هذا المنصب . وبعد كثير من الجدل والتردد تغلب الرأي الأخير ، فاجتمع زعماء فرانكونيا وسكسونيا وسوابيا وبافاريا واختاروا سنة ٩١١ كونراد الأول دوق فرانكونيا ملكا عليهم . وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية ، فيشارك في انتخاب الملك كبار الأمراء فضلا عن رؤساء أساقفة مينزوكولونيا ، مما جعل عملية الانتخاب هذه مصدر خلافات وحزازات لا تنقطع (٣) .

وكانت السنوات السبع التي قضاها كونراد الأول في الحكم مليئة بالمنازعات الداخلية والخارجية . إذ لم يكن له محد موروث - كما كان للكارولنجيين - يعتمد عليه في توطيد سلطانه وفرض كلمته على كبار الأمراء الذين نظروا اليه على أنه واحد منهم ، وازدادوا تناعدا عن السلطة المركزية . وهكذا قويت النزعة الانفصالية في أقسام ألمانيا المختلفة ، وكثرت الحروب الأهلية والثورات الداخلية في ذلك العهد (٤) . وقد جاول كونراد الأول - يسانده الأساقفة - القبض على زمام الأمراء ، ولكنه دفع الثمن غاليا ، إذ أثار كره الأمراء للملكية حتى أصبح كبار الأمراء في أواخر عهده أكثر شعورا بقوتهم

(1) Oman: The Dark Ages, pp. 472—473.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 21.

(3) Barraclough: op. cit. p. 18.

(4) Oman: The Dark Ages, pp. 475—476.

وأشد تعصبا ضد الملكية ونفوذها (١) • وهكذا يبدو أنه إذا كان كونراد الأول قد فكر فى بسط سيطرته على جميع أنحاء المملكة ، فإنه سرعان ما اضطر الى التخلي عن هذه الفكرة والاعتراف بأمراء سكسونيا وسوابيا وبافاريا على أنهم أنداد مساوون له • والواقع أنه لم يكن فى وسع كونراد أن يفعل غير ذلك أمام ازدياد شعور العصبية المحلية فى الأقاليم السابقة من جهة ، وتجدد خطر الهنغارين على ألمانيا من جهة أخرى (٢) •

ذلك أنه فى الوقت الذى أخذ السوابيون والبافاريون يقاومون جهود كونراد الأول فى توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، اذا بالهنغارين يوعلون فى ألمانيا حتى بلغوا الراين سنة ٩١٣ ، فأغاروا على مدينة كوبلنز Coblenz بل دهموا بازل وأحرقوها سنة ٩١٧ ، وهى أهم مدن الركن الجنوبى الغربى من المملكة الألمانية • وهكذا مات كونراد الأول دون أن ينجح فى دقش الأخطار الداخلية أو الخارجية التى أحاطت بدولته (٣) •

هنرى الأول (الصياد) ٩١٩ - ٩٣٦ :

وكان آخر ما فعله كونراد الأول وهو على فراش الموت أن نصح من حوله بضرورة اختيار ملك قوى يخلفه اذا أرادوا انقاذ ألمانيا • ويبدو أن التفكير فى الصالح العام تغلب حيثذ على كونراد لأنه اعترف بضعفه وحذرهم من اختيار أحد أفراد أسرته ، بل رشح لمنصب الملكية خصمه العنيد هنرى السكسونى ، لأنه اعتقد أنه أصلح فرد يستطيع انتشال البلاد من الهوة التى ترددت فيها (٤) •

ثم سارت الأمور فى الاتجاه الذى أراده كونراد الأول ، فاجتمع كبار الأمراء والأساقفة عقب وفاته وقر رأيهم على اختيار هنرى دوق سكسونيا

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 371—372.

(2) Stephenson : Med. Hist. p. 229.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 33—34.

(4) Oman: The Dark Ages. p. 477.

ملكاً على ألمانيا سنة ٩١٩ ، ويقال ان اختيار هنرى لمنصب الملكية تم أثناء انشغاله بريضة الصيد ، ومن ثم لقب فى التاريخ بالصيد (Fowler) (١) . والواقع أن انتقال الملكية الى البيت السكسونى أمر له دلالة بالغة ، حتى أنه يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الأمة الألمانية . حقيقة ان قيام دولة ألمانية مستقلة أصبح حقيقة تاريخية واقعة منذ عهد لويس الألمانى وأرنولف ، ولكن السيادة ظلت لعنصر الفرنجة فى ألمانيا حتى وفاة كونراد الأول ، مما جعل ألمانيا تبدو فى صورة الجزء الشرقى من دولة الفرنجة أكثر منها دولة ألمانية مستقلة . ولكن بانتقال الحكم الى دوق سكسونيا أخذت الملكية تبدو فى طابع ألمانى بحت ، لا سيما وأن السكسون كانوا أقل العناصر التى تألفت منها ألمانيا تأثراً بتقاليد الكارولنجيين وأكثرها تمسكاً بترائنها الجرمانى القديم (٢) .

والمعروف أن الفضل يرجع الى هنرى الأول فى وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتاً ظهر أثره واضحاً بعد ذلك فى عهد والده وخليفته أوتو (٣) . على أنه يبدو لنا فى أول الأمر أن سلطة هنرى الصيد وهو ملك - عندما تولى الحكم - لم تتجاوز سلطته وهو دوق سكسونيا (٤) ، فألمانيا كانت وقفاً أقرب الى اتحاد بين الدوقات الكبرى ، مع احتفاظ الزعيم أو الدوق الذى يحكم أقوى هذه الدوقات بلقب الملكية . ومن هنا كانت مهمة هنرى الصيد هى أن يحول هذه السيادة الاسمية الى سلطة فعلية ، ولذلك رفض - من أول الأمر - أن يتوج بيد رئيس أساقفة مينز حتى لا يظهر بمظهر التبعية للكنيسة ، كما عمل على تقوية الروابط بين الدوقات الألمانية (٥) . أما موقف هنرى الأول من كبار الدوقات ، فقد طلب اليهم اعلان ولائهم له

(١) ومن الثابت أن هذا اللقب لم يطلق عليه لأول مرة فى التاريخ الا قرب منتصف القرن الثانى عشر ، أنظر
(Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179)

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 13—14.

(3) Bryce: op. cit. p. 117.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179.

(5) Thompson op. cit. Vol. 1, pp. 373—374.

وتقديم فروض التبعية بوصفهم أفضاله الاقطاعيين • كذلك أصر هنرى على الحد من نفوذ هؤلاء الدوقات عن طريق حرمانهم من كل سيطرة على الكونتات أو الحكام المحليين ، وجعل هؤلاء الموظفين مسئولين أمام الملك مباشرة • أما الأساقفة ومقدمو الأديرة فقد أعاد اليهم أراضيهم التى اغتصبت منهم خلال حكم لويس الطفل ، وجعلهم يتمتعون فى هذه الأراضي بالسلطة التى تمتع بها الكونتات وبذلك أصبحوا .. جون التاج تبعية مباشرة (١) •

ومن الواضح أن هنرى الأول اعتمد فى تنفيذ سياسته الداخلية والخارجية على قوته الحرية التى استمدتها من سكسونيا ، كبرى الدوقيات الألمانية التى عرف أهلها بالشجاعة وقوة الشكمية • على أنه كان من العسير أن يتمكن هنرى من تنفيذ جميع أركان هذه السياسة قبل أن يؤمن بلاده ضد الأخطار الخارجية التى سببت له ولأسلافه كثيرا من الكوارث فى السنوات الأخيرة • ذلك أن سكسونيا قاست كثيرا من غزوات الدانيين والونديين (٢) ، فضلا عن المجريين الذين أخذوا يوجهون حراهم سنة ٩٢٤ نحو سكسونيا ، بعد أن لمسوا قوة معارضة البافاريين • وهكذا تلقت سكسونيا الضربة وحدها فى تلك المرة ، دون أن يلقي هنرى الصياد أية مساعدة من سوابيا أو بافاريا ، الأمر الذى جعله يقبل الصلح مع الهنغارين على أساس أن يدفع لهم جزية سنوية • وبذلك استطاع هنرى أن يجنب بلاده خطرهم لمدة تسع سنوات استغلها فى القيام بعد اصلاحات حربية • وكان أهم هذه الاصلاحات انشاء مراكز محصنة Burgwarde فى نورنبرجيا وشرق سكسونيا ، وهو المراكز التى تحولت بسرعة الى مجمعات تجارية نشيطة تعيش داخل أسوار محصنة وتقسم بحمايتها حاميات من السكسون (٣) •

ولم يلبث أن انتهى أجل الهدنة مع الهنغارين سنة ٩٣٣ ، وعندئذ فضل هنرى التمثال على الاستمرار فى دفع الجزية ، فأنزل هنرى الأول بالمجريين

(1) Painter: A History of the Middle Ages, p. 165.

(١) قبائل سلافية انتشرت بين البحر البلطى والكربات •

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 375.

هزيمة قرب مرسبرج (مارس ٩٣٣) وبعد ذلك حارب هنرى الأول الدانين سنة ٩٣٤ وانتزع منهم منطقة قرب نهر الأيدر جعلها مستعمرة للمستوطنين الألمان ، وبذلك ضمن لألمانيا السيطرة على مصب نهر الألب (١) . وهكذا بدأ هنرى الأول حركة توسع الألمان شرقا ، كما حال دون تصدع المملكة وانفصال أجزائها الكبرى الأمر الذى ثبت أقدام الأسرة السكسونية فى الحكم وحقق للملكية الألمانية ما كان ينقصها من مجد وهيبة (٢) .

أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣) :

أوصى هنرى الأول قبل وفاته فى يولية سنة ٩٣٦ باختيار ابنه أوتو ملكا من بعده . وكان أن اختير أوتو ملكا بعد أبيه هو فى العشرين من عمره ، وتم تنويجه فى آخن .

ويعتبر أوتو الأول أو العظيم مؤسس الامبراطورية المقدسة بالمعنى الذى يعبر عنه اسم هذه الامبراطورية والذى يشير الى ارتباط إيطاليا وألمانيا تحت سيادة حاكم واحد يسيطر على شئونهما جميعا (٣) . حقيقة ان تلك الامبراطورية الألمانية تعتبر من الناحية العملية امتدادا لامبراطورية شارلمان ، كما أنها اعتمدت على الآراء التى قامت عليها امبراطورية شارلمان سنة ٨٠٠ ، ولكن

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 185.

(٢) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 38—39.

(٣) المعروف أن اللقب الأساسى لهذه الامبراطورية هو « الرومانية » فقط ، أما صفة « المقدسة » فقد ظهرت لأول مرة على عهد الامبراطور فردريك الأول حوالى سنة ١١٥٧ عندما استعمله الامبراطور نداء وجهه الى زعماء الامبراطورية طالبا مساعدته ضد المدن اللمباردية ، وبعد ذلك أكثر هنرى الرابع ثم فردريك الثانى من استعمال لقب « المقدسة » فى وصف الامبراطورية حتى غدا شائعا . على أن استعمال هذا اللقب فى وصف الامبراطورية لا يعنى أى تغيير فى وضعها السياسى ، لأن هذه الامبراطورية بمعناها العالمى الواسع وضع أساسها شارلمان ، وبمعناها الضيق - أى فى حدود ألمانيا وإيطاليا - يرجع تأسيسها الى أوتو العظيم .

(انظر) Bryce: op. cit. pp. 196—197

القرن ونصف القرن الذى انقضى منذ تتويج شارلمان ، صحبه تغيير كثير من الأوضاع فى غرب أوروبا ، وبخاصة بالنسبة لمركز الامبراطورية وسلطانها وعلاقتها بالكنيسة ، وهو الأمر الذى يجعلنا ننظر الى أوتو فى التاريخ لا على أنه خليفة شارلمان بعد فترة طويلة من الشغور ، وانما على أنه المؤسس الثانى للامبراطورية فى الغرب (١) .

وكان أوتو الأول يعتقد فى سمو مركزه ، فأراد أن يجعل من وظيفته الملكية سلطة فعلية ، ولذلك أخذ ينشر نفوذه على مختلف أنحاء ألمانيا ، كما حرص على تعيين أقاربه فى مناصب الدوقيات الشاغرة . وقد أدت سياسة أوتو الى كثير من الثورات والحروب الأهلية ، الأمر الذى جعله ينتجه نحو الكنيسة ليتخذ رجالها سلاحا يشهره فى وجه الدوقات وكبار الأمراء . ذلك أن أوتو الأول أدرك أنه فى حاجة الى أنصار لا يعتمدون على العصبية العنصرية ولا يحرصون على مصالحهم الوراثية ، ولم يجد ضالته الا فى رجال الكنيسة ، فرأى فى قوة الأساقفة اضعافا للنبلاء وللعصبية العنصرية التى هددت الوحدة الألمانية (٢) . وهكذا صار لزاما على الأساقفة ومقدمى الأديرة أن يرسلوا الفصائل اللازمة للجيش الملكى كلما طلب اليهم ذلك ، كما ضاعف أوتو من نفوذهم فى مناطقهم - وفى المناطق القريبة - على حساب الدوقات . وبذلك ضمن أوتو الأول فى حالة ثورة أحد الدوقات ضده - وجود أنصار أقوياء للملكية من رجال الكنيسة داخل أراضى الدوق (٣) .

وقد لجأ أوتو الأول بحكم اتجاهه نحو الاعتماد على الكنيسة ورجالها الى التوسع فى منح الأساقفة ومقدمى الأديرة الاقطاعات الكبيرة ، كما نصب نفسه حاميا للكنيسة وأملاكها . وسرعان ما أصبح كبار رجال الدين فى ألمانيا على درجة واسعة من النفوذ والسلطان ، كما أخذوا يباشرون سلطات واسعة فى النواحي القضائية والمالية والادارية . على أنه يلاحظ أن الكنيسة دفعت الثمن

(1) Bryce: op. cit. p. 79—80.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 18—21.

(3) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 166.

غالباً لأن تحول الأساقفة الى أمراء اقطاعيين يتمتعون بسلطات علمانية واسعة ، جعلهم خاضعين للملك خضوعاً مباشراً كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده . وهكذا أخذ أوتو الأول يتحرك فى تسين الأساقفة وعزلهم ، مما أضر ببناء الكنيسة ونظامها أبلغ الضرر (١) .

ويبدو أن تدخل أوتو الأول فى شئون الكنيسة الألمانية ومحاولته العمل دائماً على اخضاعها لسيطرته المطلقة ، لم يتم دون معارضة ، اذ لجأ بعض كبار الأساقفة وعلى رأسهم وليم بن أوتو نفسه - الى عرض الأمر على البابا . وعلى الرغم من أن البابوية كانت فى شغل عندئذ عن ألمانيا وكنيستها ، الا أن هذا الحدث جعل أوتو يشعر بأن الكنيسة الألمانية ليست وحدة قائمة بنفسها وانما ترتبط بالبابوية فى روما وتخضع لهيمنتها . ويتبع ذلك أنه اذا أراد أوتو أن يسيطر على الكنيسة الألمانية كوسيلة للسيطرة على ألمانيا ، فانه يجب أن يبدأ باخضاع البابا أو على الأقل اكتسابه الى جانبه . وطالما كان البابا خارجاً عن قبضة أوتو الاول ، فان أحلام الأخير فى السيطرة على ألمانيا عن طريق وساطة رجال الدين لن تتحقق بشكل مضمون . وهكذا تحددت الخطوة التالية أمام أوتو ، وهى التدخل فى شئون ايطاليا للسيطرة على البابوية (٢) .

ولم تلبث الظروف نفسها أن هيأت لأوتو الأول فرصة مواتية لتحقيق هذا الغرض ، وذلك عندما توفى لوثر ملك ايطاليا وفرت أرملته الى ملك ألمانيا طالبة مساعدته ضد برنجار الثانى ملك ايطاليا الجديد . لذلك أسرع أوتو الأول الى غزو لمبارديا سنة ٩٥١ حيث تزوج من الأرملة الحسنة ، وأجبر برنجار على الاعتراف بالتبعية له (٣) . وجاء هذا التوفيق الذى صادفه أوتو فى ايطاليا بمثابة نصر ثالث له بعد أن أجبر ملك آرل Arles على الاعتراف له بالتبعية سنة ٩٤٦ ، وبعد أن هزم التشك فى بوهيميا سنة ٩٥٠ وأجبر ملكهم على الاعتراف بسيادة ملك ألمانيا ، وبذلك مد أوتو الأول نفوذه حتى الرون

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 139—142.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 26—27.

(3) Bryce: op. cit. p. 83.

عربا وإيطاليا جنوبا(١) • على أن الثورة لم تلبث أن تجددت في إيطاليا سنة ٩٥٣ بسبب كره الإيطاليين لسيطرة حكام ألمانيا ، وعندئذ لم يستطع أوتسو الذهاب لآخمادها بسبب كثرة مشاكله الداخلية والخارجية •

ذلك أن ابنه ليولف ثار ضده في سوابيا ، وثار كونراد في اللورين الأعلى كما ثار فردريك رئيس أساقفة مينز • ومهما يكن من أمر ، فإن أوتو لم يتعب كثيرا في القضاء على هؤلاء اللاتين بسبب كثرة منافسيهم(٢) • وعندما توفي رئيس أساقفة مينز ، عين أوتو ابنه وليم بدله في كرسيه ، كذلك قسم أوتو اللورين الى قسمين ، فجعل الجزء الأعلى من اللورين لأخيه برونو رئيس أساقفة كولونبا في حين نشأت تدريجيا في الجزء الأدنى كوتيه هينسو Hainaut وبرابات Brabant • وهكذا غلب الطابع الاقطاعي على الكنيسة حتى أصبح من غير المستغرب أن يصبح أحد الأساقفة دوقا(٣) •

وفي خلال هذه الاضطرابات غزا الهنغاريون ألمانيا وأوغلوا بعيدا في بافاريا حتى أوجسبرج • ولكن أوتو العظيم أنزل بهم هزيمة ساحقة في معركة ليخفيلد Lechfeld قرب أوجسبرج سنة ٩٥٥ ، مما جعلهم لا يجربون على غزو ألمانيا مرة أخرى • وقد ترتب على هذه الهزيمة أن أوتو مد نفوذه شرقا على حساب الهنغاريين وأقام في تلك الأراضي الجديدة ماركية أوستريا (النمسا)(٤) • ولكن يضمن أوتو العرش من بعده لابنه الصغير البالغ من العمر سبع سنوات فانه توجه معه شريكا في الحكم سنة ٩٦١ ، وجعله تحت رعاية أخوته أسقفى كولونيا ومينز •

ولكن يلاحظ أنه على الرغم من جهود أوتو الأول في تدعيم نفوذه الملكي والربط بين أجزاء ألمانيا تحت سلطانه ، الا أنه ارتكب خطأ كبيرا في حق

(١) Stephenson: Med. Hist. p. 280.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 196—197.

(٣) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 381.

(٤) Orton: op. cit. p. 162.

وحدة الدولة الألمانية عندما قسم سكسونيا ، فجعل وستفاليا وحدها للتاج وأعطى بقية سكسونيا (استقاليا) ، لـ *Hermann Billung* بيلونج . وسرعان ما أصبح رقات سكسونيا من سلالة بيلونج خطرا عظيما هدد وحده ألمانيا في القرن التالي (٢) .

وهكذا لم تكد تنته سنة ٩٦١ الا كان أوتو الأول قد فرغ من معظم المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته ، وعاد من جديد يفكر في مشروعه الامبراطورى الضخم . ويقال ان الرغبة في احياء الامبراطورية عندئذ لم تكن وليدة تفكير أوتو وحده ، بل شاركه في هذه الرغبة كثير من المعاصرين الذين رأوا في هذا الاحياء منفذا للخلاص من الفوضى والأخطار التي تعرضت لها أوروبا حينئذ ، لا سيما وأن لفظ الامبراطورية ارتبط دائما في أوروبا بالصورة الوسطى بالاستقرار والأمن والنظام (٣) .

وكانت هذه الفوضى التي شكت منها أوروبا في القرن العاشر أظهر ما تكون في ايطاليا ، حيث تعاقب على كرسى البابوية سلسلة من البابوات الضعاف غير الكفاة ، الذين تولوا مناصبهم عن طريق مؤامرات مشبته دبرها نبلاء روما العائثين ، حتى تولى أحد هؤلاء النبلاء منصب البابوية سنة ٩٥٥ تحت اسم البابا حنا الثانى عشر (٤) . على أن هذا البابا الجديد الذى جمع فى شخصه بين السيادة الدينية والدينية فى روما ، سرعان ما وجد فى الملك برنجار الثانى عقبة كؤودا اعترضت سبيل البابوية وحالت دون اتساع نفوذها ، ومن ثم استنجد حنا الثانى عشر بأوتو الأول عدة مرات بين سنتى ٩٥٧ ، ٩٦١ (٥) . وقد سبق أن أشرنا الى المشاكل العديدة التى أحاطت بأوتو الأول فى تلك الفترة والتي حالت دون تلبية نداء البابوية على وجه السرعة . وأخيرا عر

(1) Barraclough: op. cit. p. 29.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 378—379.

(3) Bryce: op. cit. pp. 83—84.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 161.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 31.

أوتو جبال الألب الى إيطاليا ودخل روما فى سنة ٩٦٢ حيث توجه البابا حنا الثانى عشر امبراطورا فى فبراير من العام نفسه ، وفى ذات المكان الذى توج فيه شارلمان امبراطورا من قبل .

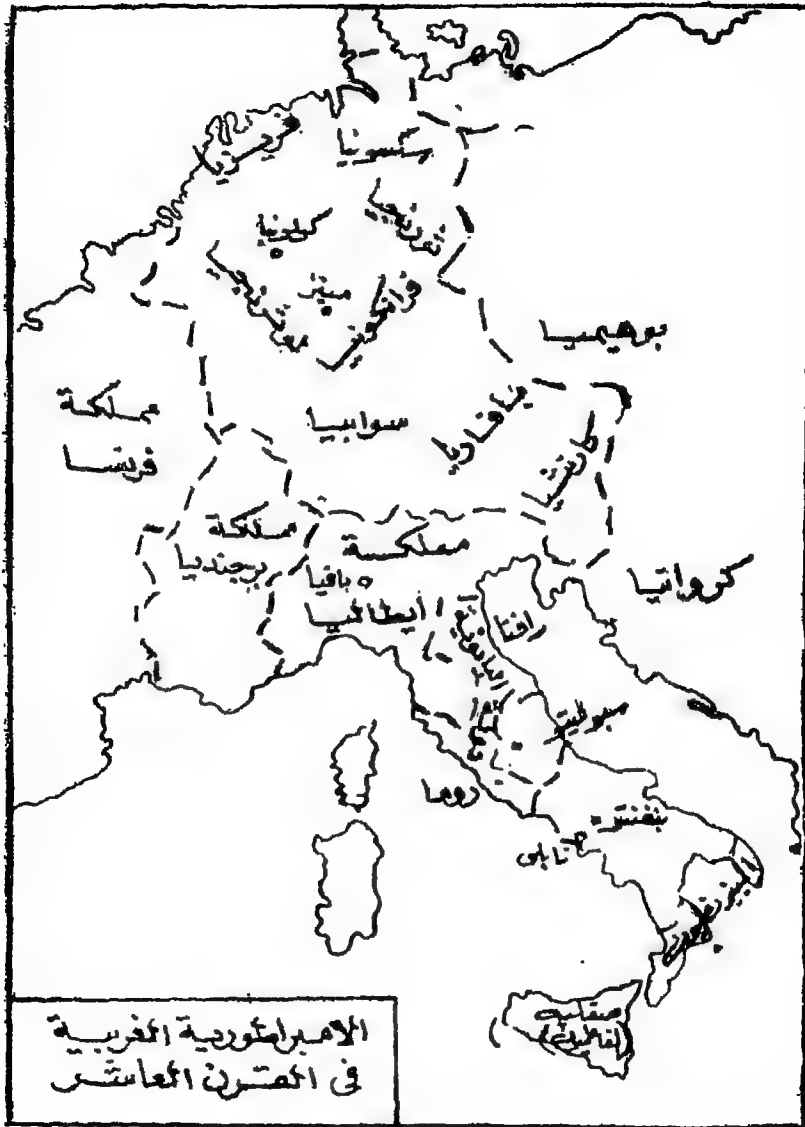
ومن الواضح أن تنويع أوتو الأول امبراطورا بيد البابا ، واستمرار تدخل الملوك الألمان فى شئون إيطاليا ، إنما يعنى مواصلة هؤلاء الملوك جهودهم فى سبيل بسط سيطرتهم على جانبى الألب . ويبدو أن أوتو نفسه كان مصمما على فرض ارادته على البابوية كما فعل شارلمان من قبل ، كما أن البابا نفسه لم يمانع فى هذا الاتجاه ما دام أوتو يقوم بحمايته ضد خصومه (١) . على أن الشرط الذى ضايق البابوية وأفزعها هو أن أوتو أصر على أن يقسم البابا قبل ترسيمه يمين الولاء للامبراطور مما جعل حنا الثانى عشر يدس لأوتو عند الامبراطور البيزنطى بل عند الهنغارين والمسلمين فضلا عن برنجرار نفسه (٢) . لذلك أسرع أوتو بالعودة الى روما ففر البابا منها ، وعندئذ دعا الامبراطور مجمعا كبيرا من الأساقفة والكرادلة ونبلاء روما ودوقات ألمانيا ، وقرر هذا المجمع سنة ٩٦٣ عزل البابا حنا الثانى عشر من منصب البابوية وحرمان أهل روما من المشاركة فى انتخاب البابا فى المستقبل وتعيين موظف امبراطورى فى حكم المدينة . أما المنصب البابوى فد عين فيه أحد القساوسة تحت اسم البابا ليو الثامن (٣) . وقد أثار أهل روما مرتين (٩٦٤ ، ٩٦٥) ضد هذا الوضع الشائن الذى اتحدروا اليه ، حتى طُردوا ليو الثامن من روما ، ولكن أوتو العظيم عاد اليهم وأخضعهم مرة بعد أخرى . وهنا يصح أن نكرر أن تدخل أوتو العظيم فى شئون الكنيسة البابوية جاء وليد الموقف السياسى ورغبته فى السيطرة على شئون ألمانيا بوجه خاص ، لا وليد الرغبة فى اكساب دولته طابعا ثيوقراطيا (٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن أوتو الأول

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 382.

(2) Ullmann: The Growth of the Papal Government, p. 230.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 282.

(4) Barraclough: op. cit. p. 55.



قضى عدة سنوات بعد ذلك فى جنوب إيطاليا محاولا بسط سيطرته على هذا الجزء ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب معارضة الدولة البيزنطية وعدم اعتراف امبراطورها نقفور فوقاس به (١) .

واذا كان أوتو العظيم قد نجح فى احياء الامبراطورية فى الغرب ، فان امبراطوريته اختلفت اختلافا واضحا عن امبراطورية شارلمان . فالامبراطورية التى اقامها أوتو جاءت وليدة رغبته فى استغلال التقاليد الامبراطورية لتنفيذ سياسته الداخلية والخارجية . هذا الى أن الامبراطورية كانت فى نظر أوتو مسألة ألمانيه بحتة ، فلم يكن يعنيه من أمر إيطاليا الا تنفيذ سياسته الداخلية فى ألمانيا نفسها . وهكذا استغل أوتو الأول الكنيسة والبابوية واللقب الامبراطورى الى أبعد مدى ، فى تنفيذ مشروعاته الألمانية لأنه أدرك جيدا أن ألمانيا هى منبع قوته الحقيقية . لذلك نستطيع أن نقرر ان امبراطورية أوتو لم تحظ مطلقا بذلك الطابع العالمى الذى امتازت به امبراطورية شارلمان ، فضلا عن أن هذه الامبراطورية المقدسة التى اقامها أوتو كانت لا يمكن أن تمثل تراث الماضى ، كما كان الحال مع امبراطورية شارلمان (٢) .

واذا كان المؤرخون المحدثون - وبخاصة الألمان - قد وجهوا اللوم الى أوتو العظيم لأنه جرى وراء الخيال ، وبذل من الجهد فى سبيل الحصول على الامبراطورية وعلى إيطاليا ما كانت ألمانيا نفسها أحق به ، الا أنه من الواضح أن هذا النقد غير عادل لأن أوتو لم يجبر وراء إيطاليا والبابوية والامبراطورية الا لتحقيق أهداف بعيدة ترمى الى السيطرة على ألمانيا ذاتها (٣) . فأوتو الأول نظر الى تنويعه فى روما بعين الاهتمام لا لشيء سوى أن هذا التنويع سيمكنه من اتمام سيطرته على الكنيسة الألمانية بمساعدة البابا . ثم من اتمام سيطرة الملكية على مختلف أنحاء ألمانيا (٤) .

(1) Diehl, Marçais: Le Monde Oriental, p. 469.

(2) Eyre: op. cit. p. 117.

(3) Barraclough: op. cit. p. 54.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 32.

ولعل خير شاهد على صحة هذه النظرة أعمال أوتو الأول بعهد تنويعه
امبراطورا ، اذ عكف فى همة ونشاط على اصلاح الكنيسة الألمانية واخضاعها
لاشرافه ، كما أنشأ فى مجد برج Magdeburg . أسقفية كبرى تشرف
على المناطق السلافية شرقى الامبراطورية(١) .

وبعد ، فإننا فى ختام كلامنا عن الامبراطور أوتو العظيم ينبغى أن نشير الى
أن عهده شهد نهضة فكرية كبرى ، وأن الاحياء الدينى فى ذلك العصر جاء
مصحوبا باحياء ثقافى ، حتى غدا القصر الملكى فى ألمانيا - كما كان أيام
الكارولنجين - مركزا للنشاط الفكرى . وقد تزعم تلك النهضة - التى
تعرف فى التاريخ باسم النهضة الأوتية أو السكسونية - برونو Bruno
الأخ الأصغر للامبراطور أوتو ، كما ظهر من الأدباء كثيرون كتبوا فى
مختلف ألوان الشعر والنثر باللاتينية . أما الامبراطور أوتو نفسه فقد
أسهم فى تلك النهضة على الرغم من مشاغله الكثيرة ، كما تعلم قراءة اللاتينية
وتفهمها وان صعب عليه الحديث بها(٢) .

وأخيرا توفى أوتو الأول فجأة فى ربيع سنة ٩٧٣ بعد أن وضع أساس
تطور جديد فى تاريخ الغرب استمر ما يقرب من ثلاثة قرون ، كما جعل من
ألمانيا دولة قوية مستقرة وسط مظاهر الفوضى التى سادت غرب أوروبا فى
ذلك العصر ، بل انه حقق له مكانة الزعامة فى أوروبا المعاصرة .

أوتو الثانى (٩٧٣ - ٩٨٣) :

عندما اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور حنا الأول (٩٦٩ -
٩٧٦) عرض على معاصره الامبراطور أوتو الأول تصفية الموقف بين
الامبراطوريتين الشرقية والغربية - وبخاصة فى ايطاليا - عن طريق زواج
أوتو الصغير ابن أوتو الأول وولى عهده من الأميرة ثيوفانو Theophano

(1) Stephenson: Med. Hist. p. 281..

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 24—25.

ابنة رومانوس الثانى امبراطور الدولة البيزنطية الأسبق ، على أن يكون
الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا (١) .
وكان أن رحب أوتو الأول بهذه الفرصة فتم زواج ولى عهده أوتو من
عروسه البيزنطية سنة ٩٧٢ ، وبذلك ظهر عامل جديد للربط بين إيطاليا
وألمانيا فى ظل الامبراطورية المقدسة ، وإن لم يتضح أثر هذا العامل الا فى
عهد أوتو الثانى (٢) .

وقد اختلف أوتو الثانى الذى اعتلى عرش الامبراطورية سنة ٩٧٣ اختلافا
كبيرا فى اتجاهه وآرائه عن أبيه أوتو الأول . فبينما التزم الأب سياسة
ألمانية حتى أنه فى احياء الامبراطورية كان يرمى الى خدمة المصلحة الألمانية ،
إذا بالابن يتنهج سياسة أوسع أفقا امتدت الى خارج حدود ألمانيا بكثير .
فلتوتو الثانى نظر الى إيطاليا والامبراطورية نظرة اختلفت الى حد كبير عن
أبيه ، لأن إيطاليا كانت لا تقل أهمية فى نظره عن ألمانيا . ولذلك أخذ يعمل
على الربط بين البلدين برباط الامبراطورية القوي ، وفى الوقت نفسه آمن
ايمانا قويا بفكرة الامبراطورية العالمية وبأن سيطرة الامبراطور على العالم
بجب أن تصبح حقيقة ملموسة فى كل مكان . وهنا كانت الخطوة الكامنة
على ألمانيا والأسرة السكسونية . لأن سياسة أوتو الثانى - ومن بعده أوتو
الثالث - التى اتجهت نحو إيطاليا أكثر من اتجاهها نحو ألمانيا ، لم ينتج عنها
الا بعثرة الجهود واضمحلال الأسرة السكسونية بل الامبراطورية الرومانية
يوجه عام (٣) .

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت أوتو الثانى هى ازدياد نفوذ بعض
الدوقيات ، الأمر الذى جاء مصحوبا بنزعة انفصالية ، على الرغم من جهود
أوتو الأول فى سبيل القضاء على هذه النزعة ، وربط البلاد الألمانية برباط
الامبراطورية الوثيق . وقد ظهرت تلك النزعة أقوى ما تكون فى بافاريا
تحت حكم الأميرة جوديث Judith أرملة هنرى الأولى دوق بافاريا ،

(1) Vasiliev: op. cit. Tome 1, pp. 433—434.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 201—202.

(3) Eyre, op. cit. p. 118.

بصفتها وصية على ابنها الصغير هنرى الثانى (١) . وزاد الأمر خطورة عندما امتد نفوذ جوديت الى سوايا عن طريق ابنتها هيدويج Hedwig زوجة دوق سوايا الطاعن فى السن الذى لم يلبث أن توفى بعد قليل . وهكذا رأى أوتو الثانى خطرا جسيما فى ارتباط بافاريا وسوايا مما أُنذر بانفصال الجزء الجنوبى من ألمانيا ، حتى دفعه الخوف الى تعيين ابن أخيه دوقا على سوايا عند وفاة دوقها المعجوز . وكان أن ثارت بافاريا (٩٧٦ - ٩٧٨) واستجذبت أميرتها بأهالى بوهيميا وبولندا ، ولكن أوتو الثانى نجح فى اخماد هذه الثورة ، كما استغل الفرصة لاضاعاف بافاريا عن طريق سلب بعض أجزائها الشرقية والشمالية عنها (٢) . وهكذا انتصر أوتو الثانى ولم يصادف بعد ذلك متاعب شديدة فى ألمانيا ولكن بعد أن اتبع سياسة أبيه فى الاستعانة بالأساقفة ورجال الكنيسة من جهة ، والعمل على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء من جهة أخرى (٣) .

أما فى الناحية الخارجية فقد قام لوثر ملك فرنسا بغزو اللورين سنة ٩٧٨ حتى اضطر أوتو الثانى الى الهرب من آخن ، وعندما رُد أوتو الثانى على ملك فرنسا بهجوم مضاد لم يحالفه التوفيق مما غجل باقرار الصلح بين العاهلين سنة ٩٨٠ (٤) على أن المسرح الرئيسى لنشاط أوتو الثانى كانت ايطاليا التى ظلت عندئذ ميدانا للفوضى نتيجة لأطماع الأمراء من جهة واغارات المسلمين من جهة أخرى . وقد حدث أن استنجدت البابوية - كماداتها - بأوتو الثانى ضد كرسكنتيوس - أقوى أمراء روما ، فعبر أوتو جبال الألب سنة ٩٨٠ وأعاد البابا بندكت السابع (٩٧٤ - ٩٨٣) الى روما . وكان أوتو الثانى يطمح دائما فى أن يجعل سلطة الامراتورية العالية ملموسة فعلا ، وأن يثبت نفوذه فى ايطاليا بوجه خاص ، ولذلك استغل فرصة وجوده فى ايطاليا وقام بحملة على الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة لتحقيق غرضين : الأول طرد المسلمين

-
- (1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 204—205.
 - (2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 37.
 - (3) Barraclough: op. cit. p. 33
 - (4) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 385.

الذى عبروا من صقلية وهددوا بنفتو ، والثانى تأكيد حقوقه وحقوق زوجته
ثيوفانو بعد أن عادت الدولة البيزنطية الى المطاطلة فى هذه الحقوق (١) • وقد
ضادف أوتو الثانى توفيقا فى حربه بجنوب ايطاليا (٩٨١ - ٩٨٢) فاستولى
على كثير من المدن البيزنطية مثل سالرنو وبارى وتارنتو ، كما أنزل هزيمة
بالمسلمين عند قطرون *Coltrone* وقتل فى المعركة أبو القاسم أمير
صقلية • على أن المسلمين لم يلبثوا أن صبوا بكيا للقوات الامبراطورية
ومزقوها شر ممزق عند خليج كولون *Colonne* سنة ٩٨٢ ، ولم يستطع
الامبراطور نفسه النجاة الا بصعوبة (٢) •

ولا شك فى أن هذه الهزيمة كانت الكارثة الأولى من نوعها فى تاريخ
الامبراطورية الأوتية ، اذ يتضح أثرها البعيد فى أنها قضت لمدة قرنين على
سيادة الامبراطورية الغربية فى وسط ايطاليا وجنوبها ، وزاد من وقع الكارثة
أن الأخبار جاءت الى الامبراطورية بتحريك السلاف على نهر الألب وأنهم
أعلنوا ارتدادهم الى الوثنية وذبحوا كثيرا من رجال الكنيسة • لذلك عقد
أوتو الثانى مجمعا فى فيرونا سنة ٩٨٣ لبحث الموقف من جميع الأوجه ،
وهو المجمع الذى اكتسب أهمية خاصة لجلوس مندوبى ألمانيا وايطاليا فيه
جنباً الى جنب ، اشارة الى وحدة البلدين داخل اطار الامبراطورية • على أن
لهذا المجمع دلالة أخرى خاصة فى التاريخ لأن الروح الصليبية ظهرت فيه
واضحة ، فقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الامبراطور لشن حرب دينية
مقدسة ضد المسلمين ، وفعلا بدأت الاستعدادات لتنفيذ هذه الفكرة التى
يمكن أن تعتبر أساسا للحروب الصليبية فى نهاية القرن التالى • ومهما يكن
من أمر فان أوتو الثانى لم يقدر له أن يعيش ليقوم بحربه ضد المسلمين أو
السلاف ، فمات فى نهاية سنة ٩٨٣ ودفن جثمانه فى كنيسة القديس بطرس
بروما (٣) •

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 38.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 169—170.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 211—213.

أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) :

عندما توفي أوتو الثاني كان ابنه الصغير أوتو الثالث فى الرابعة من عمره ولذلك استغلت جميع القوى المعارضة للامبراطورية هذا الوضع لتحقيق أغراضها الثورية ، فعاد هنرى دوق بافاريا الى التمرد ، بل انه نازع الامبراطورة الوالدة ثيوفانو حق الوصاية على ولدها الصغير ، حتى بلغ الأمر أن طالب بالتاج لنفسه (١) . وهنا نجد زمام الموقف ينتقل الى أيدي رجال الدين والأساقفة ، الذين أصبح فى استطاعتهم ترجيح كفة على أخرى ، بعد أن جعل منهم أوتو الأول قوة سياسية لها حسابها فى الدولة . وبفضل تأييد رجال الدين انتصرت ثيوفانو وولدها أوتو الثالث ، واضطر هنرى الى التزام سياسة المسالمة فى دوقيته بافاريا . وعندما توفيت ثيوفانو سنة ٩٩١ تألف مجلس وصاية على أوتو الثالث ، تزعمه بعض كبار الأساقفة الذين تعهدوا الملك الصغير بالرعاية الكافية والتعليم الراقى كما بثوا فيه روح الحماسة للكنيسة (٢) . وهكذا نشأ أوتو الثالث نشأة قوية تغلب عليها التقوى والايمان حتى جلوز الخامسة عشرة من عمره فذهب الى ايطاليا سنة ٩٩٥ . وهناك فى ايطاليا وجد أوتو الثالث منصب البابوية شاغرا فعين برونو فى منصب البابوية تحت اسم جريجورى الخامس ، وهو أول ألماني يتولى هذا المنصب (٣) . ولم يلبث ذلك البابا الجديد أن توج أوتو الثالث امبراطورا فى روما (مايو سنة ٩٩٦) وأخذ يعمل مع الامبراطور على تنفيذ آرائهما الخاصة بمدينة الأرض. ممثلة فى الامبراطورية يتزعمها الامبراطور والبابا ، لنشر السلام واطمئنان المدالة . ثم عاد الامبراطور بعد تنويجه الى ألمانيا ، فحارب السلاف الذين قاروا أثناء غيبته وطردهوا أدالبرت من أسقفية فى براغ وأعلنوا ارتدادهم الى الوثنية (٤) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 209—210.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 41.

(3) Barraclough: op. cit, p. 59.

(4) Fliche: L'Europe Occidentale. pp. 223—224.

وفى ذلك الوقت نار حنا كرسكنتيوس فى روما ، فعاد الامبراطور الى ايطاليا ليخضع حركته ويعدمه سنة ٩٩٨ ، كذلك توفى البابا جريجورى الخامس فعين الامبراطور بدلا منه معلمه جربرت الذى تسمى باسم البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣) فاستأنف سياسة التحالف مع الامبراطورية لتحقيق أغراضهما المشتركة . ويبدو من آراء أوتو الثالث فى تلك الفترة أنه أراد أن يجعل من نفسه ملكا مقدسا (*rex-sacerdos*) بمعنى السيطرة على الشؤون الدينية والسياسية جميعا ، كما أراد أن يجعل من روما قاعدة الحكم وحاضرة العالم وعاصمة المملكة (*urbs regia*) بعد أن أصبحت كنيسها أم الكنائس الغربية جميعا (١) . وهكذا انصرف أوتو الثالث عن شئون ألمانيا وحاول أن يجعل من نفسه قسطنطين آخر ، مما عاد بأوخم العواقب على سلطة الامبراطورية (٢) . ذلك أن البابوية أخذت تنهض بفضل تأييد الأباطرة ومساندتهم لتشمل نفسها من حائلة الضعف والفوضى التى غرقت فيها فى الرن العاشر وتصل الى المستوى الذى أصبحت فيه على عهد جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) وبعبارة أخرى فإن الأباطرة أخذوا يدعمون البابوية ، غير دارين أنهم ينون لحدهم بأيديهم (٣) . هذا الى أن ما حاوله البابا سلفستر الثانى من بث نفوذه فى بولنيسدا وهنغاريا أغضب الشعور القومى فى هذين البلدين ، فضلا عن استياء أساقفة ألمانيا نفسها من سياسة هذا البابا وسيطرته عليهم . أما ايطاليا - وبخاصة روما نفسها - فقد ظلت تسبب المضايقات للبابا سلفستر حتى انتهى الأمر بقيام الثورة فيها ضد الامبراطور والبابا جميعا ، فى وقت لم يجد الامبراطور حوله نصيرا يسانده - حتى فى ألمانيا نفسها . وفى ذلك الموقف توفى الامبراطور أوتو الثالث قرب روما سنة ١٠٠٢ ، ثم لحق به البابا سلفستر الثانى فى العام التالى (٤) .

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 240--241.

(2) Eyre, op. cit. p. 118.

(3) Bryce: op. cit. p. 143.

(4) Fliche: L'Europe Occidentale, 231.

وصفوة القول أن أوتو الثالث كان رجلا نظريا ياقضى حكمه غارقا فى أحلام الماضى ، بعيدا عن الوقائع والحقائق التى أحاطت به ، فأقام معظم أيامه فى إيطاليا الأمر الذى أضر بهيته فى ألمانيا أبلغ الضرر ، حتى فقد مكانته فيها عند وفاته (١) .

هنرى الثانى (١٠٠٢ - ١٠٢٤) :

توفى أوتو الثالث دون أن يترك ولدا يرثه فى العرش فانتقل الحكم من السلالة المباشرة لأوتو العظيم الى فرع آخر من نفس البيت السكسونى ، وذلك عندما تولى العرش هنرى الثانى دوق بارفارى . واذ كان حسن الظروف شاء أن يتم هذا التحول فى وراثة العرش بطريقة سلمية الا أن أول ما يلاحظ على الملك الجديد أنه لم يحظ بنصيب من قوة أسلافه الأوتيين أو نشاطهم . ذلك أنه أحس عدم توليه الملك عن طريق الوراثة عن آباءه - وان كان هو أقرب الأفراد الى أوتو الثالث الراحل بحكم كونه حفيد ابنة أوتو الأول (٢) - كما أحس أن الفضل فى اختياره يرجع الى أقطاب الدولة الألمانية من كسنيين وعلمانيين ، ومن ثم لم يحاول أن يتبع سياسة استبدادية مثل أسلافه الملوك السكسون الأوائل ، واختار أن يحكم عن طريق المجالس والمجالس الاستشارية .

وقد تمتع هنرى الثانى بسلطان واسع فوق الكنيسة ، فأجبه رجال الدين لتقواه وتدينه وجبه للخير ، وفى الوقت نفسه استغل الأساقفة ومقدمى الأديرة كأداة له فى تنفيذ سياسته الدنيوية حتى أصبحوا ممثلين للسلطة الامبراطورية فى مناطق نفوذهم . أما رهبان الأديرة الكلونية فقد حظوا بقدر كبير من عطفه وتشجيعه حتى أن الفضل يرجع اليه فيما أحرزه هؤلاء المصلحون من مركز قوى فى ألمانيا (٣) .

(1) Eyre: op. cit. p. 118.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 234—239.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 48.

وقد أتى الخطر الأكبر الذي هدد الدولة الألمانية - عندما اعتلى هنري الثاني العرش - من ناحية السلاف ، وخاصة بولندا التي أخذ حاكمها بولسلاف Boleslav يعمل على توحيد الشعوب السلافية تحت سيطرته ليجعل منها قوة عظمى تطرد الألمان إلى ما وراء نهر الالب (١) . وكان أن بدأ بولسلاف في تنفيذ مشروعه فغزا بوهيميا سنة ١٠٠٣ ، وعندئذ حاول هنري الثاني بصفية الموقف سلميا مع السلاف ، ولكن دون جدوى ، فقام بحرب طويلة منتظمة ضدهم بدأت بمهاجمة بوهيميا سنة ١٠٠٤ ، وانتهت بالصالح الأخير معهم سنة ١٠١٨ (٢) . وهكذا استنفدت حروب هنري الثاني ضد السلاف بوجه عام والبولنديين بوجه خاص قدرا كبيرا من حكمه وجهده دون أن تؤدي في النهاية إلى نتيجة مشرفة بالنسبة له ، حتى اضطر أخيرا إلى التسليم بمطالب البولنديين الإقليمية وأعطاهم أركعة لوزاس (Lusace) (٣) .

على أن خطر البولنديين لم يصرف هنري الثاني عن شئون إيطاليا ، وإن كان من الواضح أن النار الذي سار فيه أوتو الثالث لم يجرى هنري الثاني بالقوة ذاتها في طريقه ، وأن الأخير تخلى عن كثير من مطالبه الأولى الواسعة واتجه اتجاهها ألمانيا قويا إلى حد كبير . ويبدو أن أحداث إيطاليا نفسها واضطراب أحوالها هي التي جذبت ملوك ألمانيا إلى التدخل في شئونها . عادت البابوية بعد وفاة سلفستر الثاني لتقع تحت رحمة أمراء روما من آل كرسنتي Crescentii في الوقت الذي نصب أردوين Arloin نفسه ملكا على إيطاليا (٤) . لذلك ذهب هنري الثاني إلى إيطاليا سنة ١٠٠٤ ثم سنة ١٠١٣ . وفي المرة الأخيرة توجه البابا بندكت الثامن إلى روما في

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 222.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 234-239.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 49.

(٤) وجدت عائلتان كبيرتان متنازعتان السلطة والنفوذ في روما عند مستهل القرن الحادي عشر ، الأولى آل كرسنتي والسانية كرسنتي توسكولم Tusculum . يبدو أن البابوات الثلاثة الذين خلفوا سلفستر الثاني تولوا منصب البابوية بفضل تأييد الأسرة الأولى .

(Hayward: A History of the Popes, p. 142.) انظر

روما (فبراير سنة ١٠١٤) (١) • ثم كان أن زار البابا نفسه ألمانيا سنة ١٠٢٠ لتدشين كندراثة بامبرج Bamberg وفى تلك الزيارة تم الاتفاق بين البابا والامبراطور على أن يقوم الأخير بحملة شاملة على إيطاليا لاقرار الأوضاع فيها • وفملا قام الامبراطور بحملته سنة ١٠٢١ حتى استطاع اخضاع شمال إيطاليا ووسطها ، ولكن مرضا تفشى بين رجاله فى أبوليا فاضطر الى العودة الى ألمانيا فى العام التالى قبل أن يستقر الموقف تماما فى إيطاليا • وهكذا ظل الحال مضطربا فى إيطاليا بسبب العداء بين الأساقفة والنبلاء من جهة ، وبين كبار النبلاء Capitani وصغارهم Vavassors من جهة أخرى ، وبين المدن بعضها وبعض ، أو بينها وبين السلطات الاقطاعية من جهة ثالثة (٢) •

أما هنرى الثانى فقد شغل سنواته الأخيرة بمؤازرة أنصار حركة الإصلاح الكلوئية • والحق أن هنرى الثانى يعتبر من كبار المصلحين الديريين ، وبفضل جهوده تم ادخال اصلاحات كثيرة على أديرة بروم Prum وهرسفلد Hersfeld وريخنو Reichenau وفولدا وكوربي وغيرها • كذلك عقد كثيرا من المجمع الكنسية تحت رآسته وتولى هو توجيهها ، هذا فضلا عن أنه منح رجال الدين - وبخاصة الديريين - كثيرا من الامتيازات والحقوق (٣) • على أنه يلاحظ أن عطف هنرى الثانى على رجال الدين الأجانب - غير الألمان - أثار ضغينة الأساقفة الألمان وحقدهم • وقد تزعم حركة المعارضة ضد الامبراطور والبابا بندكت الثامن جميعا أريبو Aripo رئيس أساقفة مينز ، ولكن شاءت الظروف أن يموت البابا بندكت الثامن سنة ١٠٢٤ ثم يلحق به هنرى الثانى فى العام نفسه ، وذلك قبل أن تتأجج نار الفتنة ضد الامبراطور (٤) •

(1) Bryce: op. cit. p. 146.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 392.

(3) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 247—248.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 50.

وبوفاة هنرى الثانى انتهى البيت السكسونى الذى حكم ألمانيا مدة تزيد على قرن من الزمان استطاع فيها أن يجنبها القوضى الشاملة التى تردت فيها فرنسا فى القرن العاشر (١) . على أنه يتضح لنا من عرضنا السابق للملوك البيت السكسونى أنهم بدءوا بتشجيع الأساقفة وتزويدهم بالنفوذ القوى كوسيلة للضغط على كبار الأمراء . ولم يكن للديرين فى أول الأمر نصيب من هذا العطف ، لأنهم بحكم عزلتهم وانقطاعهم للمباداة كانوا لا يصدقون أداة فى أيدي الملوك يستعينون بها على خصومهم السياسيين ، الأمر الذى جعل الديرين يحققون على الأساقفة ويحسدونهم على ما هم فيه من قوة ونفوذ (٢) . ثم كان أن اعتلى عرش الامبراطورية هنرى الثانى فأخذ يعطف على الديرين ويشجع حركة الإصلاح الكلونية ، مما أغضب كبار الأساقفة وأخافهم . ذلك أنه كان ممن مبادئ هذه الحركة الإصلاحية تحقيق استقلال الكنيسة عن السلطة الزمنية ، وفى الوقت نفسه تركيز نفوذ البابوية ونشر سلطانها الفعلى على الكنيسة الغربية فى مختلف الدول . ومع أن الأساقفة الألمان اعترفوا برأسة روما وزعاماتها الروحية ، الا أنهم رأوا فى تحقيق هذه الآراء اضمافا لنفوذهم الديوى من ناحية وحرمانهم من بعض نفوذهم الدينى من ناحية أخرى ، لا سيما فيما يتعلق باستئناف الاحكام التى يصدرونها أمام البابا . لذلك وجد الأساقفة الألمان فى الآراء الكلونية التى شجّعها الديرين خطرا هددهم ، ومن ثم أخذوا - عقب وفاة هنرى الثانى - يذلون قصارى جهدهم حتى لا يلى عرش الامبراطورية رجل يشايخ الديرية وآراءها الإصلاحية (٣) . وهكذا اتخذت مسألة اختيار خليفة لهنرى الثانى شكل نضال بين الأساقفة من جهة والديرين من جهة أخرى ، حتى انتصر الفريق الأول واختير كونراد دوق سوابيا .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 258.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 393.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 51.

كونراد الثانى (١٠٢٤ - ١٠٣٩) :

انتخب كونراد الثانى دوق سوابيا ملكا على الرغم من معارضة أهالى اللورين حيث كانت الآراء الكلونية قد أحرزت تقدما كبيرا ، وبانتخابه بدأت سلسلة الأباطرة السالين . وكان الفارق عظيما بين هنرى الثانى وخليفته كونراد الثانى ، اذ كان الأخير جنديا ومحاربا قبل أى اعتبار آخر ، فرأى لذته الكبرى فى حياة المعسكرات لا فى المناقشات حول المسائل الدينية ، لأن الحرب كانت فى نظره الوسيلة الوحيدة التى تضمن نفوذه الامبراطورى (١) .

والواقع أن كونراد الثانى توج ملكا فى مينز سنة ١٠٢٤ ليجد كل شىء مختلا فى الدولة ، ولكن لم يمض على قيامه فى الحكم امان حتى بث فى دولته روحا جديدة وأصلح كثيرا من مواطن الضعف والخلل فيها . وأنت أول صعوبة واجهت كونراد الثانى من اللورين ، التى لم يكف أمراؤها بمعارضة اختيار كونراد فحسب بل رفضوا الاعتراف به بعد تنويجه ملكا . ولكن كونراد الثانى قضى على هذه الفتنة وغيرها من القلاقل الداخلية وأعاد الاستقرار الى ألمانيا تحت سيادته (٢) . أما ايطاليا التى بلغت السلطة الامبراطورية فيها درجة متناهية من الضعف فى أواخر عهد هنرى الثانى ، فقد بقيت خارج نفوذ كونراد من الوجهة العلمية ، ولم ينقذ ما تبقى له من نفوذ سوى موقف الأساقفة اللبارديين الذين رأوا فى الامبراطور خير درع يقيهم سيطرة الأمراء المحليين . لذلك عبر كونراد الثانى جبال الألب سنة ١٠٢٦ حيث قضى فى شمال ايطاليا عاما كاملا ثبت فيه نفوذه وأخضع خصومه ، ثم قصد روما بعد ذلك فى ربيع سنة ١٠٢٧ حيث توج امبراطورا بيد البابا حنا التاسع عشر . وهكذا يبدو أن الطابع الألماني الضيق الذى امتازت به سياسة كونراد لم يحل دون قيامه بالزيارة التقليدية التى اعتاد الأباطرة أن يقوموا بها لاطاليا ، حتى قيل ان كونراد الثانى لم يصبح

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 246—247.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 254.

امبراطورا « رومانيا » الا بعد أن توجه البابا في روما (١) * وبعد أن قام كونراد الثاني بزيارة جنوب إيطاليا لتقوية وسائل الدفاع عنها ضد البيزنطيين في كالبريا ، عاد الى ألمانيا مسرعا ليتفرغ لشؤونها * وهنا نكرر القول بأن سياسة كونراد الثاني اختلفت عن سياسة سلفه هنرى الثاني فى أن الأول اتجه اتجاهها ألمانيا عمليا وتخلّى عن الاتجاه العالمى النظرى الذى أدى الى اضعاف نفوذ هنرى الثاني فى ألمانيا (٢) *

ويبدو أن نفوذ كونراد الثاني فى ألمانيا بلغ درجة من القوة عقب عودته من إيطاليا جعلته يعمل على جعل الحكم وراثيا فى أسرته فتزوج ابنه هنرى فى حياته سنة ١٠٢٨ * وقد أثار هذا العمل حقد كبار الأمراء ، وعلى رأسهم أرنست دوق سوابيا ، ولكن كونراد الثاني لم ينبك كثيرا فى القضاء على هذه الفتنة فأخضع الثورة وحرم أرنست من دوقيته ، بحيث عاد كونراد يسيطر على ألمانيا سيطرة تامة قوية (٣) *

على أنه اذا كانت الأوضاع قد استقرت لكونراد فى الداخل ، فإن أعداء الدولة فى الخارج لم يتركوا له فرصة للتمتع بهذا الاستقرار * من ذلك أن كونراد الثاني دخل فى صراع طويل مع البولنديين (١٠٢٨ - ١٠٣١) سبب اغارتهم على سكسونيا الشرقية سنة ١٠٢٨ وتدميرهم كثير من القرى واحراق كنائسها * وكان السبب الأساسى لهذه الهجمات التى قام بها البولنديون على ألمانيا هو عدم اعتراف كونراد الثاني بملكهم مسكو الثانى Mesko II ولكن كونراد كان فى موقف لا يساعده على انزال ضربة قاصمة بالبولنديين بسبب انشغاله بغبرهم من أعداء الدولة ، ولذلك انتهى الموقف بين الطرفين بالصلح سنة ١٠٣١ (٤) * وفى تلك الأثناء شغل

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 250

(2) Eyre: op. cit. pp. 130—131.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 54.

(4) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 251—252.

كونراد الثانى بأمر بوهيميا التى كانت تربطها علاقة التبعية بالدولة الألمانية .
وقد ساءت العلاقات بين كونراد الثانى وأودلرخ Udalrik
دوق بوهيميا سنة ١٠٣٢ ، الأمر الذى حدا بالأول الى ارسال حملة الى
بوهيميا أخضعت أودلرخ وأرسلته أسيرا الى بافاريا ، وان ظلت الفوضى ضاربة
أطباها فى بوهيميا حتى سنة ١٠٣٥ (١) . أما الهنغاريون فقد تجمعت عدة
عوامل أساءت الى العلاقات بينهم وبين كونراد الثانى أيضا ، مما اضطره الى
الهجوم على هنغاريا سنة ١٠٣٠ ، ولكنه لم يصادف توفيقا فى تلك الحرب
وذلك بسبب العقبات الطبيعية التى اعترضت سبيله ، كالعابات والأنهار
والأحراش ، زيادة على مقاومة الهنغاريين وتفشى المرض بين جنوده ، مما
جعله يعود متقهقرا الى ألمانيا ومعه البقية الضئيلة من جنوده (٢) .

على أن أهم نصر أحرزه كونراد الثانى فى سياسته الخارجية كان نجاحه
فى ضم مملكة آرل Arles أو برجنديا Burgundy الى مملكاته .
وكانت هذه المملكة قد وقعت منذ منتصف القرن العاشر فى فوضى شديدة ،
حتى توفي ملكها رودلف الثالث سنة ١٠٣٢ دون أن يترك ولدا يرثه فى
الملك (٣) . وهنا استغل كونراد الثانى صلة القرى التى تربطه بالملك الراحل
وتوج نفسه ملكا على آرل ، مما جعل تلك المملكة جزءا من الامبراطورية ،
حتى استمر أمراؤها مدة طويلة يتخذون لأنفسهم لقب « أمراء الامبراطورية
المقدسة » (٤) . أما أهمية هذه الخطوة فلا ترجع الى أن ضم مملكة آرل
أتاح نفوذا جديدا للباطرة الألمان بقدر ما ترجع الى بضع حقائق أخرى
هامة ، أولها أن هذه المملكة الجديدة كانت رومانية الطابع فأدى ضمها الى
الامبراطورية الى تخفيف الطابع الألماني الذى اتصفت به الامبراطورية
المقدسة . وثانيها أن هذا الضم حال دون ارتباط آرل بفرنسا سياسيا فى ذلك

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 262.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 254.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8. p. 309.

(4) Bryce: op. cit. p. 148.

العصر ، كما أدى الى تثبيت مبدأ الوراثة فى ألمانيا (١) . فإذا أضفنا الى ذلك أن برجنديا أو آرل كانت مركزا رئيسيا لحركة الإصلاح الكلونية مما ترتب على ضمها للامبراطورية سرعة انتشار تلك الحركة فى ألمانيا ، وأن ضم مملكة آرل الى الامبراطورية حال دون تدخل فرنسا فى شئون ايطاليا ، اذا ذكرنا كل هذا ، أدركنا فى النهاية مدى خطورة هذه العملية فى التاريخ وهكذا صارت الامبراطورية تضم جميع الأراضي التى تناولتها اتفاقية فردون سنة ٨٤٣ باستثناء الجزء الغربى ، أو فرنسا بمعناها الضيق .

على أن كونراد الثانى اعتقد أن هناك أمرا واحدا ينتقص سلطانه الفعلى ويحول دون سيطرته التامة على داخلية البلاد ، وهذا الأمر هو قوة نفوذ كبار الأمراء ، وارتباط الأفعال بسادتهم الاقطاعيين ، وضعف الروابط التى تربط هؤلاء الأفعال وغيرهم من عامة الناس بالامبراطور . لذلك حاول كونراد أن يستميل الى جانبه صفار الأفعال ضد كبار الأمراء ، فناصر مبدأ توريث ما بأيديهم من اقطاعات ليهبى لهم نوعا من الاستقرار والثبات فى وجه سادتهم الاقطاعيين (٣) . هذا الى أن تطبيق مبدأ الوراثة فى الاقطاعات الصغيرة من شأنه أن يدعم مبدأ توريث التاج الامبراطورى ، وهو أمر سعى كونراد لتحقيقه . كذلك لجأ كونراد الثانى الى القضاء على كبار الدوقات وسلبهم مناصبهم الوراثة ، فضلا عن تدعيم نفوذ الأساقفة والتمسك بتقليدهم تقليدا علمانيا واستخدامهم كأداة للحد من بطش كبار الأمراء (٤) .

ويبدو أن النجاح العظيم الذى صادفه كونراد الثانى فى تطبيق هذه السياسة فى ألمانيا وبرجنديا دفعه الى تطبيقها فى ايطاليا . على أن روح الاستقلال والانفصال عن الامبراطورية كانت قد أخذت تشتد فى شمال ايطاليا ، حتى بين كبار الأساقفة الذين سبق أن استنجدوا بكونراد ضد كبار

(1) Tout: The Empire and the Papacy. pp. 55—56.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 259.

(3) Orton: op. cit. p. 170.

(4) Eyre: op. cit. p. 222.

الأمراء العلمانيين • ومن هؤلاء الأساقفة أربرت Aribert رئيس أساقفة ميلان الذى تباع بمركز مستقل فى أسقفية ، وأخذ يبنى نفسه بنفسه سياسى الى جانب نفوذه الدينى (١) • ولكن اذا كان أربرت يستطيع الاعتماد على ولاء أهالى ميلان الذين عرفوا بطاعتهم لأساقفتهم ، فان الأمراء المحليين رأوا فى تحقيق أطماعه قضاء على سلطانهم ، فناروا ضده مما أدى الى حرب أهلية استدعت سفر كونراد الثانى الى ايطاليا لتهديئة الموقف فى شمالها سنة ١٠٣٦ • وهنا وقف أربرت من الامبراطور موقفا عنيدا ، لم يلبث أن تحول الى حرب سافرة بين الطرفين • ولم يتردد كونراد عندئذ فى استمالة صغار النبلاء والاقطاعيين الى جانبه ، فأصدر مرسوما سنة ١٠٣٧ يجعل اقطاعهم وراثية فى ايطاليا ، كما وعدهم بعدم ارهاقهم بالضرائب والالتزامات المالية • على أن هذه الاجراءات وأشباهاها لم تكن كافية لاختضاع أربرت الذى قوى مركزه فى ميلان فى الوقت الذى تطلبت شئون الامبراطورية من كونراد الثانى العودة الى بلاده سنة ١٠٣٨ حيث توفى فجأة فى أوترخت فى العام التالى (٢) •

ومهما يكن من أمر ، فالو وفاة الامبراطور كونراد الثانى قبل أن يتمكن من التغلب على مشكلة أربرت فى ايطاليا لا تقلل من نجاحه العام فى القيام بأعباء الوظيفة الامبراطورية • ويكفى أنه ثبت نفوذه الامبراطورى تثبيتا قويا جعل ابنه يتولى عرش الامبراطورية من بعده دون أن تعترضه ثورة أو فتنة ، وذلك لأول مرة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة •

هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦) :

بلغت الامبراطورية المقدسة ذروة قوتها على عهد هنرى الثالث (٣) الذى أظهر كفاية فى عهد أبيه عندما عهد اليه بحرب البولنديين والهنغارين ، فضلا

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 258.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 59.
(3) Bryce: op. it. p. 148.

عن الخبرة السياسية التي اكتسبها بعد أن توجه أبوه وأشركه معه في الحكم بصورة غير رسمية . وهكذا استطاع هنري الثالث عندما تولى الحكم أن يتم رسالة أبيه ، وأن يسير وفق الخطوط العريضة التي اتبعها كونراد الثاني في سياسته ، بل إنه نفخ في هذه لسياسة روحا جديدة جعلت الامبراطورية المقدسة تبدو في عهده في صورة القوة الكبرى الفعالة في توجيه مضائر غرب أوروبا (١) .

وكانت المشكلة الأولى التي واجهت هنري الثالث هي مشكلة أديرت رئيس أساقفة ميلان ، بعد أن مات كونراد الثاني قبل أن يحلها حلا يرضى كرامة الامبراطورية وهيبتها . على أن هذه المشكلة حلت حلا سلميا ، اذا تغلب العقل على أديرت عندما علم بوفاة الامبراطور كونراد الثاني ، واتجه الى ألمانيا سنة ١٠٤٠ حيث أعلن ولاءه لهنري الثالث وطلب عفوه ، وبذلك عاد السلام الى إيطاليا وأصبح في وسع الملك الجديد أن يتفرغ للمشاكل الأخرى ، وأهمها مشكلة الحدود مع بولندا وبوهيميا وهنغاريا (٢) .

والواقع أن بولندا لم تكن مصدر خطر واضح على عصر هنري الثالث بعد أن مزقتها الحروب الأهلية وعرضت لهجوم من جانب بوهيميا التي أضحت عندئذ أقوى الدول السلافية ، ولذلك لم يصادف هنري الثالث صعوبة كبيرة في إعادة بولندا الى تبعيتها للامبراطورية . ولكن الموقف اختلف بالنسبة لبوهيميا التي أراد دوقها برتسلاف (Bretislav) أن يجعل من نفسه ملكا وأن يرفع أسقف بوهيميا في براغ الى مرتبة رئيس أساقفة حتى يحقق لبوهيميا الاستقلال السياسي والكنسي (٣) . ولذلك قاوم برتسلاف جهود الامبراطورية في السيطرة على بوهيميا مقاومة عنيفة ، ولكنها لم تجد أمام قوة هنري الثالث الذي أوغل في بوهيميا حتى هدد براغ نفسها سنة ١٠٤١ وأخيرا أدرك برتسلاف صعوبة المقاومة فرضى بالخضوع لهنري الثالث بشروط قاسية أهمها دفع غرامة حربية باهظة ، واطلاق سراح ما لديه من

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 272—306.

(٢) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 262.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 300—301.

(م ٢١ - أوروبا في العصور الوسطى)

أسرى ، وهدم جميع التحصينات القائمة فى غابات بوهيميا • وبعد ذلك مثل برتسلاف بين يدى هنرى الثالث (١٠ أكتوبر سنة ١٠٤١) حيث أعلن تبعيته وخضوعه ، وعندئذ أقطعه هنرى دوقية بوهيميا التى كان الأمير السلافى يحلم بتحويلها الى مملكة مستقلة (١) •

على أن الصعوبة التى صادفها هنرى الثالث فى هنغاريا كانت أشد وأعظم؛ اذ قامت فيها حركة ونية أتت بملك جديد اسمه آبا Aba على العرش • وقد أصدر البابا قرار الحرمان ضد ذلك الملك الوثنى ، فحاول آبا أن يفوز باعتراف هنرى الثالث به ملكا ، ولما رفض هنرى أغار آبا على ألمانيا عن طريق وادى الدانوب ثم عاد الى بلاده فى أوائل سنة ١٠٤٢ محملا بالأسلاب • لذلك هجم هنرى الثالث على هنغاريا عدة مرات (١٠٤٢ - ١٠٤٥) حتى انتهى الأمر بفرار آبا واعتراف خليفته بطرس بالتبعية للامبراطورية (٢) •

أما فى الجبهة الشمالية فقد أنزل هنرى الثالث هزيمة بالعناصر السلافية التى أغارت على سكسونيا سنة ١٠٤٥ ، كما عقد الملك اجتماعا فى العام التالى مع الحكام السلاف ، اعترفوا فيه بسيادة الامبراطورية • وهكذا استطاع هنرى الثالث أن يكمل رسالة أبيه فى تحقيق عظمة ألمانيا وجعل الامبراطورية المقدسة صاحبة الكلمة العليا فى غرب أوروبا (٣) • وربما ساعد على اعلاء كلمة الامبراطورية عندئذ ضعف الملوك الأوائل من أسرة كابيه فى فرنسا ، وانشغالهم بالحروب المستمرة مع الزعماء الاقطاعيين ، مما جعل الامبراطورية المقدسة لا تجد أمامها منافسا قويا من غرب أوروبا ينازعها السيادة العالمية • ولم يحاول هنرى الثالث أن يستغل ضعف فرنسا فى ذلك العصر فى تحقيق مطامع سياسية عبر الراين ، بل على العكس حرص على استتمرار العلاقات الودية مع فرنسا • وأراد أن يؤكد حسن العلاقات بزواجه سنة ١٠٤٣ من أميرة فرنسية هى أجى Agnes

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 262—263.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 61.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 264.

بصغرى بنات وليم كونت يوتو . وربما كانت أهم النتائج التى ترتبت على هذا الزواج ، هو الأثر القوى الذى تركته الأميرة الفرنسية فى السياسة الدينية التى اتبعها زوجها هنرى الثالث (١) .

وبعد أن خلع هنرى الثالث من مشاكله الخارجية ، أخذ يوجه عنايته نحو مشاكل الامبراطورية فى الداخل ، أى فى ألمانيا وإيطاليا . والواقع أن هذين البلدين كانا لا يزالان يشكوان الفوضى وعدم الاستقرار على الرغم من الجهود التى بذلها الأباطرة السابقون . وقد أدت سياسة كونراد الثانى - الخاصة بتشجيع صفار النبلاء الاقطاعيين - الى كثرة الحروب المحلية مما تطلب من هنرى الثالث جهدا كبيرا لحسم ذلك الوضع واطرار الأمن والنظام . وفى سبيل الوصول الى هذا الغرض تخلى هنرى الثالث عن سياسة أسلافه فى الحرص على تركيز السلطة فى يدى الملك ، واكتفى بتعيين جماعة من أقاربه وأنصاره فى الدوقيات الكبيرة ، ثم ترك لهم بعد ذلك شيئا من التصرف والنفوذ فى دوقيتهم ، بعد أن أدرك أن ألمانيا أصعب من أن تحكم حكما أوتوقراطيا مركزيا (٢) .

على أن الدور الذى قام به هنرى الثالث فى إيطاليا - وبخاصة تعجها البابوية - يسترعى منا انتباها خاصا . ذلك أن مركز البابوية انحط فى ذلك العصر الى الدرجة التى جعلت هنرى الثالث يتخذ تدعيم البابوية مفتاحا لسياسته الامبراطورية (٣) . وحسبنا أن البابا أصبح العوبة فى أيدي أمراء روما ، بل أصبح المنصب البابوى يباع ويشترى بالمال ، مما جرح شعور كل مسيحى غيور . من ذلك أن أحد هؤلاء الأمراء تولى منصب البابوية تحت اسم بندكت التاسع سنة ١٠٣٣ على الرغم من حداثة سنة . ثم لم يلبث أن باع منصبه لقاء حفنة من المال الى بابا آخر هو جريجورى السادس فى العام التالى . وازاء هذه الفوضى والفضائح ، عقد دعاة الإصلاح مجيما فى روما واستنجدوا بالملك هنرى الثالث لمساعدتهم فى وضع حد لهذه الفوضى .

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 62.

(2) Bryce: op. cit. p. 148.

(3) Barraclough: op. cit. p. 56.

والواقع هنرى اهتم بحركة الاصلاح الكلوونية وأخذ يتحمس لانقاذ الكنيسة والبابوية من الهوة التى سقطتا فيها ، حتى ازدادت هذه السياسة قوة بعد زواجه من آجنى (١) .

وكان أن عبر هنرى الثالث جبال الألب الى ايطاليا سنة ١٠٤٦ حيث عقد مجمعا فى سوترى Sutri قرب روما فى ديسمبر من العام نفسه ، ثم مجمعا آخر فى روما فى الشهر عينه ، عزل فيها جميع البابوات المتنازعين ، وانتهى الأمر بتعيين سويدجار Suidgar أسقف بامبرج تحت اسم البابا كلمنت الثانى . وفى اليوم الذى احتفل فيه بتعيين البابا الجديد قام البابا بتتويج هنرى الثالث وزوجته بالتاج الامبراطورى (٢) . وبعد ذلك قام الامبراطور وبصحبة البابا - بجولة فى جنوب ايطاليا لاختضاعها وقرار الأمور فيها . واذا كان الامبراطور قد اضطر الى العودة بعد ذلك الى ألمانيا ، الا أن سياسته استمرت نافذة فى ايطاليا حيث تمتع بنفوذ لم يحظ به غيره من أباطرة الدولة المقدسة (٣) . من ذلك أنه حدث بعد وفاة البابا كلمنت الثانى سنة ١٠٤٨ أن ظل رأى الامبراطور معمولاً به فى اختيار الشخص الذى يلى منصب البابوية فتعاقب على هذا المنصب البابا داماسوس الثانى الذى مات بعد أسابيع فخلفه ليو التاسع - قريب Damasus II الامبراطور (١٠٤٨ - ١٠٥٤) ، ثم فكتور الثانى (١٠٥٤ - ١٠٥٧) (٤) . وفى عهد البابا الأخير قام هنرى الثالث بزيارة ايطاليا مرة أخرى لبعض أغراض سياسية ولكنه لم يلبث أن عاد الى ألمانيا لنشوب ثورة فى بافاريا .

وهنا تدو لنا سياسة هنرى الثالث الدينية على جانب كبير من الأهمية والتناقض . ذلك أنه عمل اصلاح الكنيسة وشرع ضد السيمونية - أى بيع الوظائف الدينية - وغيرها من المفايد الكنسية (٥) . ولكنه حرص فى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 290.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 265—266.

(3) Bryce: op. cit. pp. 148—149.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 297—298.

(5) Eyre: op. cit. pp. 132—133.

الوقت نفسه على السيطرة عليها وعلى البابوية جميعا دون أن يدري أن: .
السيطرة كانت من الأمراض الخطيرة التي تشكو منها الكنيسة عندئذ . وأبرز
مثل لهذه السيطرة تدخل هنري الثالث في عزل البابوات وتعيين من يشاء دون
الرجوع الى أية مجامع دينية . ومن الواضح أن هدف هنري الثالث من ذلك
كان سلب نبلاء روما سيطرتهم على البابوية ، علاوة على انبات حقسه في
تعيين أساقفة ألمانيا وتقليد هم علمانيا مادام هو الذي يعين البابا نفسه (١) .
على أنه اذا كان ليو التاسع ومن بعده فكتور الثاني لم يتجاسرا على معارضة
الامبراطور ، فان التطور نحو تحرير الكنيسة من سيطرة السلطة العلمانية بدأ يظهر
في ببطء على عهد البابا ستفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) . ولم يلبث أن اتخذ
هذا التطور شكل هجوم على السلطة العلمانية في عهد البابا نيقولا الثاني
(١٠٥٩ - ١٠٦١) (٢) .

وهكذا أدت سيطرة الامبراطورية على الكنيسة ورجالها من جهة ، ومحاولة
الكنيسة التحرر من هذه السيطرة من جهة أخرى ، الى نزاع حاد بين
الامبراطورية والبابوية ، ظهرت أولى فصوله على مسرح المصور الوسطى بعد
وفاة الامبراطور هنري الثالث ١٠٥٦ .

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 251

(2) Eyre: op. cit. p. 133.

الباب الحادي عشر

إيطاليا والبابوية

كانت إيطاليا في ختام القرن العاشر مقسمة الى عدد من الوحدات تتنازع النفوذ فيها والسيطرة عليها عدة قوى أوربية كبيرة . فالبيزنطيون امتلكوا أبوليا وكالبريا في الجنوب ، بعد أن نجحت قوات الامبراطور باسل المقدوني في طرد المسلمين من تلك الجهات واحراز نصر بحري عليهم واسترداد معاقلهم في الجنوب الشرقي من إيطاليا (٨٨٤ - ٨٨٧) (١) . هذا وإن ظلم المسلمون يسيطرون على بعض المراكز في جنوب إيطاليا الغربي وجزيرة صقلية ، وذلك بعد أن سخطت سيراكيوز عاصمة الجزيرة في أيديهم سنة ٨٧٧ . ومع أن المسلمين فشلوا في اتخاذ مقر ثابت لهم في جنوب إيطاليا ، إلا أنهم استمروا يؤثرون في توجيه مصائر ذلك الجزء من أوروبا ، ولا سيما الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة (٢) . وبالإضافة الى البيزنطيين والمسلمين ، وجد عدد من الدوقيات اللمباردية في بنفتو وسالرنو وكابوا في الجنوب (٣) . أما شمال إيطاليا ووسطها فقد أقام فيهما اللمبارديون عدة امارات قوية ، كما ظهرت في تلك الأجزاء بعض المدن التجارية النشيطة مثل أمالفى ونابلى . هذا فضلا عن البابوية التي أخذت تعمل من جانبها على أن يكون لها نفوذ سياسى فوق نفوذها الدينى . فاذا أضفنا الى هذه القوى المتعددة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي شرع أباطرتها يتدخلون في شئون إيطاليا ويطمعون في الربط بينها وبين ألمانيا تحت سيطرتهم ، أمكننا أن نكون فكرة عن الفوضى السياسية التي أضحت فيها إيطاليا في تلك الحقبة (٤) .

=

(1) Diehl, Marçais: Le Monde Oriental, pp. 440—441.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 399—400.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 103—104.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 167—168.

قيام دولة النورمان فى جنوب ايطاليا :

وقد ساعدت هذه الحالة من الفوضى وعدم الاستقرار على امتداد نفوذ النورمان الى جنوب ايطاليا فى القرن الحادى عشر ، حتى استطاعوا أن يكونوا دولة قوية أسهمت بدور هام فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . ذلك أن النورمان الذين استقروا فى غرب فرنسا سرعان ما اعتنقوا المسيحية وتأثروا بالحضارة الفرنسية ، ولكن دون أن يفقدوا روح المغامرة وحب الغزو . وبعبارة أخرى فانهم أخذوا عن الفرنسيين تقواهم الدينية وورثوا عن أجدادهم حب التنقل والترحال ، حتى قام كثيرون منهم بأسفار بعيدة المدى بقصد زيارة الأماكن المقدسة أو الهجرة . وكثيرا ما انتهت هذه الأسفار بتأسيس دويلات نورمانية كان لها شأن كبير فى العصور الوسطى . من ذلك ما حدث حوالى سنة ١٠١٩ من أن أربعين حاجا نومانيا مروا بجنوب ايطاليا - قرب مونت جارجانو Monte Gargano على الشاطئ الشرقى - فى طريق عودتهم من الأراضى المقدسة الى وطنهم (١) وفى ذلك الوقت كان ميليس Meles - أحد مواطنى مدينة بارى Bari قد استغل فرصة توغل المسلمون وثار ضد السلطات البيزنطية ، فاستعان بهؤلاء النورمان فى تحقيق غرضه ، واستغلهم كجند مرتزقة . وقد رحب زعيم هؤلاء الحجاج بالفرصة ، كما شجع البابا بندكت الثامن الفكرة ، وبفضل هذه المعونة تمكن ميليس من الانتصار على القوات البيزنطية مما أكسب النورمان شهرة كبيرة فى ايطاليا كجند محاربين شجعان . (٢)

وعندما عاد هؤلاء الحجاج الى نورمانديا نقلوا الى ذويهم ما شاهدوا عليه البلاد الايطالية من فوضى وتفكك ، الأمر الذى أغرى كثيرين من الطموحين على الهجرة من نورمانديا الى جنوب ايطاليا ليعملوا جندا مأجورين . ويقال ان دوق نابلى رحب بهم سنة ١٠٣٠ بعد أن ساعده ضد أمبر كابوا اللباردى ، مما جعل هذا الدوق يكافئ رانولف - زعيم النورمان - بمنحه

(1) Haskins: The Normans in European History, p. 198

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 104—105.

منطقة غنية يقيم فيها مع قومه بصفة دائمة + وفي هذه المنطقة أسس النورمان مدينة أفرسا Aversa سنة ١٠٣٠ ، التي تعتبر أول مركز دائم لهم في إيطاليا (١) . وهكذا أخذت جموع النورمان تتكاثر في جنوب إيطاليا في النصف الأول من القرن الحادى عشر ، حيث وجدوا في هذا الوطن الجديد ميدانا صالحا لنشاطهم وتحقيق أطماعهم المادية والسياسية . وإشتهر من زعماء النورمان في إيطاليا في هذه الحقبة ثلاثة اخوة يلقبـون بلقب « هوتفيل Hauteville » هم وليم وهمفرى ودروجو ، وقد أحرزوا جميعا صيتا دائما في ميدان الحرب والقتال (٢) . وكان أن قدم هؤلاء الاخوة مساعدتهم الى البيزنطيين سنة ١٠٣٨ لطرد المسلمين من صقلية ، حتى أصبح وليم هوتفيل أميرا على النورمان في أبوليا سنة ١٠٤٢ واتخذ ملفى Melfi مركزا له (٣) . وعندما توفى سنة ١٠٤٦ اعترف الامبراطور الغربى هنرى الثالث بأخيه دروجو أميرا على أبوليا . ولكن حدث حوالى ذلك الوقت أن حضر من نورمنديا أخ رابع لهؤلاء الثلاثة ، هوروبرت جويسكاد الذى لم يلبث أن أصبح زعيما للنورمان في إيطاليا بعد وفاة همفرى سنة ١٠٥٧ (٤) . وقد اشتهر روبرت جويسكارد هذا (ت ١٠٨٥) كسياسى ماهر وقائد شجاع لا يعرف الرحمة أو الوفاء بالعهد فى سبيل الوصول الى هدفه . ومن أعماله أنه وجه كل جهوده نحو غزو جنوب إيطاليا وأراضى الدولة البيزنطية وتقويض نفوذها فى شبه الجزيرة (٥) ، دون أن يدري أن توسع النورمان فى جنوب إيطاليا ، وما صاحب هذا التوسع من أعمال الفسبب والعنف ، أثار حقد البابوية ومخاوفها . ذلك أنه على الرغم من ترحيب البابوات والأساقفة الكاثوليك بأولئك النورمان ليكونوا عوناً لهم ضد المسلمين من جهة والكنيسة الشرقية من جهة أخرى ، إلا أن النورمان أثاروا كره الجميع بعد أن اشتهروا بالتهب والسلب والقسوة (٦) . هذا فضلا عن أنهم

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 3. p. 268.

(٢) Stephenson: op. cit. p. 247.

(٣) Diehl, Marçais: Le Monde Orientale, p. 560.

(٤) Haskins: The Normans in European History, p. 201

(٥) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 474.

(٦) Orton: op. cit. p. 188.

أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ، فتارة يحاربون مع الأمراء اللمباردين وطورا
فى صف القوات البيزنطية ، دون أن يكون لهم هدف من وراء كل ذلك سوى
توسيع رقعة أراضيهم الخاصة على حساب البيزنطيين واللمباردين والبابوية
جميعا .

وكان أن دفع شعور الخوف والاستياء البابا ليو التاسع الى أن يوجه جيشا -
خليطا من الألمان والإيطاليين - لهاجمة النورمان سنة ١٠٥٣ . ولكن النورمان
انتصروا على هذه الحملة البابوية فى موقعة كيفيتاتى Civitate فاثبتوا
مرة أخرى كفايتهم الحرية (١) ، حتى استطاع زعيمهم روبرت جويسكارد
أن يفزوا كالبريا بأكملها سنة ١٠٥٧ (٢) . ويبدو أن هزيمة البابوية أمام
النورمان وقتئذ كانت ذات نتائج مهمة ، لأنها أثبتت للمعاصرين - وبخاصة
البابوية - أنه لا يمكن طرد النورمان من إيطاليا ، هذا فى الوقت الذى حالت
تقوى هؤلاء النورمان دون استغلال انتصارهم فى تتبع البابوية ومعاقبها (٣) .
وفى ذلك الوقت بالذات كانت البابوية فى حاجة الى حليف قوى ، بعد أن
أخذت تحس خطر الأباطرة الألمان على كياناتها وتطلع فى التحرر من سيطرتهم،
مما جعلها تغير نظرتها تجاه النورمان وتفكر فى اتخاذهم حلفاء لها يساعدونها
فى تحقيق استقلالها والتخلص من خطر الأباطرة من جهة ونبلاء روما من
جهة أخرى . وأخيرا تمت هذه الصفقة السياسية بين البابوية والنورمان على
عهد البابا نقولا الثانى (١٠٥٨ - ١٠٦١) وتحت تأثير ووساطة الكاردينال
هلدبراند (٤) ، الذى ذهب بنفسه سنة ١٠٥٩ الى كابوا ومهد للاتفاق النهائى الذى
أبرم فى ملفى Melfi ، والذى اعترفت فيه البابوية بشرعية حكم النورمان
لجنوب إيطاليا مقابل اعترافهم بالتبعية للبابا ودفع مبلغ معين من المال له
سنويا (٥) .

ولا شك فى أن هذه الخطوة الحاسمة كان لها أثر خطير فى تاريخ أوروبا

-
- (1) I Iaskins: The Normans in European History, p. 203
 - (2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 403.
 - (3) Eyre: op. cit. p. 130.
 - (4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 114.
 - (5) Haskins: the Normans in European History, p. 204.



المصور الوسطى . ذلك أن قيام دوقية أبوليا النورمانية كان الخطوة الأولى نحو قيام مملكة نابولي ، ونشأ من ذلك أن هذه الخطوة أدت الى فصل جنوب إيطاليا عن شمالها مما كان له ابعاد الأثر فى تاريخ إيطاليا . هذا الى أن اتفاقية ملفى هيأت للبابوية حليفًا قويًا فى الجنوب ، اتجهت اليه عندما تأزم الموقف بينها وبين الامبراطورية نتيجة لحركة الإصلاح الواسعة التى شرعت البابوية نى انهوض بها(١) . وسرعان ما أثبتت الأحداث أن مملكة النورمان التى قامت فى جنوب إيطاليا أثرت تأثيرًا خطيرًا فى تاريخ إيطاليا بوجه عام والبابوية بوجه خاص . ولم يلبث الكاردينال هلد براند نفسه - عندما أصبح بابا تحت اسم جريجورى السابع سنة ١٠٧٣ - أن استبد به القلق عندما وجد النورمان ابتلعوا جميع الجزء الجنوبى من إيطاليا ، سواء الممتلكات البيزنطية أو اماراة بفتو التابعة للبابوية . لذلك أدرك جريجورى السابع خطر النورمان على سلطة الكنيسة وأمالك البابوية وحاول أن يحد من ذلك الخطر عن طريق الاستعانة بوليس كونت برجنديا(٢) . على أن محاولات هذا البابا - المعروف بالعنف والصرامة - لم تفلح فى وقف التوسع النورمانى اذ لم يلبث أن غزا روبرت جويسكارد سالرنو وأمالفى(٣) . ثم شاءت الظروف عندئذ أن يدخل البابا جريجورى السابع فى صراعه العنيف ضد الامبراطورية ، مما جعله يتلهف على مساعدة النورمان ، فأقر جويسكارد سنة ١٠٨٠ على ما بيده من أراضى مقابل قيام الأخير بحماية البابوية من خطر الامبراطور(٤) .

وقد حقق روبرت جويسكارد رغبة البابوية فعلا وقدم لها بعض المساعدات، ولكن ذلك لم يصرفه عن التوسع فى جنوب إيطاليا حيث كان أخوه الأصغر يعمل منذ سنة ١٠٦١ حتى تم استيلاء النورمان على بارى سنة ١٠٧١ بعد

(1) Eyre: op. cit. p. 138.

(2) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 303-304.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 179.

(4) Orton: op. cit. p. 189.

حصار ثلاث سنوات ، وبذلك تم طرد البيزنطيين نهائيا من إيطاليا (١) ، وأصبحت الخطوة التالية أمام النورمان هي الاستيلاء على جزيرة صقلية وانتزاعها من المسلمين . وأخيرا توفي روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥ قبل أن يحقق بقية أطماعه الواسعة في الشرق ، وفي الدولة البيزنطية نفسها ، وإن كان يكفيه أنه ثبت أقدام النورمان في جنوب إيطاليا (٢) . وبوفاة روبرت جويسكارد انتهت فترة الغزو النورمانى في جنوب إيطاليا ، وهى الفترة التى استمرت نصف قرن ، وبدأ دور آخر - استمر نصف قرن أيضا - استحكم فيه النزاع الداخلى بين النورمان أنفسهم ، حتى استطاع روجر الثانى توحيد جميع الأراضى التى فتحها النورمان واتخاذ لقب ملك سنة ١١٣٠ (٣) . وهكذا قامت مملكة الصقليتين - التى شملت جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية - والتى غدت من أبرز ممالك غرب أوروبا وأرفعها حضارة فى العصور الوسطى ، وذلك بحكم مركزها المتوسط بين الشرق والغرب .

شمال إيطاليا ووسطها فى القرن الحادى عشر :

هذا عن جنوب إيطاليا ، أما شمالها فقد تعرض منذ القرن الحادى عشر لمتطورات اقتصادية وسياسية أدت الى نشأة ما يعرف باسم القومونات - أو المدن ذات الكيان الاقتصادى والسياسى المستقل (٤) . وفى بداية القرن الحادى عشر ظهرت البندقية فى صورة جمهورية مستقلة لها دوقها الذى ينتخبه نبلاؤها ولها نفوذها السياسى وكيانها الاقتصادى الخاص (٥) . وفى خلال ذلك القرن أيضا ظهرت جنوا وبيزا كقوى مستقلة أخذت تسهم فى الحروب الصليبية منذ

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 117.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 182.

(3) Haskins: The Normans in European History, pp. 206—218—219.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 220.

عن نشأة القومونات وأهميتها ، أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(5) Stephenson: Med. Hist. pp. 320—321.

نهاية القرن الحادى عشر اسهاما فعليا * ولم تلبث هذه الحركة - حركة استقلال المدن وتحررها - أن امتدت الى سهول البارديا واقليم تسكانيا حيث حصل كثير من المدن على حكمها الذاتي * ومن أمثلة هذه المدن Siena وفلورنسا ولوكا وميلان وبافيا وبرسكيا وبولونيا(١) * وسوف نتكلم عن أهمية نشأة المدن وظهور القومونات فيما بعد فى باب مستقل ، ولكن الذى يعيننا الآن بالنسبة لتاريخ ايطاليا هو أن هذه المدن أو القومونات أظهرت حرصا شديدا فى التمسك باستقلالها السياسى ، فأخذت تقاوم كل سلطة أو هيئة حاولت حرمانها من ذلك الاستقلال سواء كانت هذه السلطة دينية بابوية أو سياسية امبراطورية ، مما جعلها تلعب دورا هاما فى تاريخ ايطاليا السياسى منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وبخاصة فى حوادث النزاع بين البابوية والامبراطورية(٢) * هذا فضلا عن الدور الهام الذى قامت به فى الميدان الحضارى بوجه عام وفى الجانبين الاقتصادى والفكرى بوجه خاص ، مما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد(٣) *

أما وسط ايطاليا فقد وجدت به بعد الغزو للمباردى بعض الدوقيات المستقلة وأهمها دوقية تسكانيا * ولا تهمنا بقية تلك الدوقيات كثيرا ، لسرعة ما طرأ على وضعها السياسى من تغيير وتبدل طوال العصور الوسطى * على أن أهم قوة وجدت فى ذلك الجزء كانت بدون شك قوة البابوية ، التى لم تستمد أهميتها التاريخية من أثرها الروحى وزعامتها للكنيسة الغربية فحسب ، بل أيضا من الدور السياسى الذى أخذت تقوم به فى عناد واصرار لتجعل زعامتها على العالم الغربى حقيقة واقعة(٤) * وهنا نلاحظ أن البابوية لم تستطع أن تحقق أطماعها فى الزعامة والسحر الا بعد أن مرت الكنيسة الغربية بوجه عام بدور من الاسلخ والنطور ، الأمر الذى مكن البابوية من الوقوف على

-
- (1) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 481 - 482.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 222 - 223.
 - (3) Pirenne, Cohen, Focillon: La Civilisation Occidentale au Moyen Ages, pp. 146 - 153.
 - (4) Cam. Med. Hist. Vol. pp. 55 - 58.

رأس الكنيسة فى وجه القوى المعارضة حتى خرجت فى النهاية مرفوعة الرأس •

البابوية والكنيسة الغربية :

امتاز تطور الكنيسة ونموها فى العصور الوسطى بظاهرتين أساسيتين ، الأولى ازدياد سيطرة البابا على رجال الأكليروس والثانية ازدياد تدخل هؤلاء الآخرين فى الشئون العلمانية • وقد رأينا كيف قام شارلمان بتنظيم الكنيسة ضمن نواحي الإصلاح الأخرى التى تمهدها بعنايته وذلك بوصفه رائدا أو زعيما للشعب المسيحى (Rector Populi Christiani) (١) • ولكن اضمحلال امبراطورية شارلمان حرم البابوية من حليفها القوى وتركها وحيدة فى الميدان وسط مظاهر الفوضى الشاملة والأخطار الخارجية التى تعرضت لها منذ منتصف القرن التاسع • ولم يقتصر هذا التدهور على البابوية وحدها ، بل امتد الى بقية الجهاز الكنسى حتى اختلت أحوال الكنيسة الغربية بوجه عام فى الفترة الواقعة بين القرن التاسع ونهاية الحادى عشر (٢) • فالبابا غدا أقرب الى أن يكون نبىلا رومانيا لا سلطان له على كنائس بلدان غرب أوروبا المتعددة فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وأسبانيا وغيرها ، وهى الكنائس التى تباين مدى استقلالها عن السلطة الزمنية أو تبعيتها لها (٣) • أما الأساقفة فكان لهم فى البابوات أسوة سيئة ، وسرعان ما أصبحوا من رجال الاقطاع التابعين للملك أو لكبار الدوقات ، بل ان وظائفهم نفسها غدت اقطاعية ، كما أدى زواجهم الى انصرافهم نحو جمع الثروة ليورثوها أبناءهم (٤) • وهكذا خرج الأساقفة عن دائرة اختصاصهم الدينى الى المشاركة فى الحروب وعقد المجالس القضائية

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 188

(2) Eyre: op. cit. pp. 124—125.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 454.

(4) Idem: Vol. 5, pp. 5—6.

وجمع الضرائب والمكوس الاقطاعية ، لا داخل أراضيهم الخاصة فحسب ، بل فى أراضي النبلاء المجاورين أيضا (١) . وبعبارة أخرى فإن كبار رجال الدين - من أساقفة ومقدمى أديرة - غدوا أفضالا اقطاعيين للملوك وكبار الأمراء ، يؤدون لهم ما جرى عليه العرف الاقطاعى من خدمات والتزامات معروفة (٢) .

على أن هذا الوضع كان لا يمكن أن يسكت عنه المخلصون من رجال الدين ، لاسيما بعد أن رسم القديس أوغسطين فى القرن الخامس الحدود بين السلطتين الزمنية والدينية ، وقال بأن الأولى قامت على أساس من الشر والفدر لأنها من صنع البشر ، لذلك يجب أن تخضع لسلطة الكنيسة ، وهى الهيئة التى تمثل مدينة الله وتعمل على اقرار رسالته (٣) . والواقع أن الكنيسة لم تنس حقوقها فى السمو على السلطة الزمنية ، وهى الحقوق التى سبق أن أوضحها القديس أوغسطين . وكل ما هنالك هو أن شارلمان نظر دائما الى الامبراطورية نظرة دينية ، واعتقد أن وجود دولة قوية وكنيسة قوية فى قبضته من شأنه أن يحقق نوعا من الوحدة بين بلاد الامبراطورية المختلفة وشعوبها المتباينة (٤) . وما دامت الكنيسة قد رضيت بأن يقوم شارلمان بدور حامى حماها ، المدافع عن كيائها ، فإن عليها أن تقبل - وهى صاغرة - تدخله فى كافة شئونها الدينية دون أن تجرؤ على المطالبة بوضع حدود فاصلة بين السلطتين الدينية والعلمانية (٥) . وهكذا ظلت الكنيسة راضية بالأوضاع القائمة ، تخفى رغبتها فى التحرر والسبادة طالما كانت فى قبضة شارلمان القوية . هذا وإن استمرت نظرة القديس أوغسطين ماثلة دائما فى أفكار ذوى الطموح من رجال الكنيسة .

على أن وفاة شارلمان وزوال قبضته القوية عن الكنيسة جعلتها تعمل على

-
- (1) Eyre: op. cit. p. 125.
 - (2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 125.
 - (3) Thompson: op. cit. Vol. I, pp. 413-414.
 - (4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 443.
 - (5) Eyre: op. cit. p. 120.

تحرير نفسها بسرعة من سيطرة السلطة الزمنية ، كما أخذت البابوية تعمل على إبراز أهميتها وتحقيق سموها . من ذلك ما فعله البابا ستفن الرابع (الخامس) (٨١٦ - ٨١٧) من انكار شرعية تنويج لويس التقى فى حياة أبيه ، وقيامه بتنويجه مرة أخرى بيده فى ريمس سنة ٨١٦ تأكيداً لحق البابوية فى منح التاج الامبراطورى (١) . ثم جاءت ثورة ابنى لويس التقى. ضده سنة ٨٣٣ لتهيبه فرصة للبابا جريجورى الرابع يؤكد فيها سلطان البابوية وسموها باسم الوساطة بين الابنين الثائرين وأبيهما . ذلك أنه حدث عندما طلب بعض الأساقفة المشايخين للامبراطور لويس التقى من البابا الخضوع لأوامر الامبراطور بصفته الرئيس الأعلى للامبراطورية والكنيسة جميعاً ، رد عليهم جريجورى الرابع بأنه بصفته بابا لا يعتبر أخاً لبقية الأساقفة وإنما أباً لهم ، يقدمون له فروض الولاء والطاعة (٢) . كذلك اختار جريجورى الرابع أن يؤكد لهم أن أوامره وآراءه ليست أقل قدسية من الأوامر الامبراطورية . لأن يجب ألا تنسوا أن الحكومة الروحية التى يهيمن عليها البابا أعلى قدراً من السلطة الامبراطورية التى لا تعدو أن تكون زمنية ومؤقتة (٣) . وقد أكد هذه الفكرة بعد ذلك البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) الذى تمسك فى آرائه ومسلكه تجاه الامبراطور بمبدأ سمو البابوية على الامبراطورية (٤) ، وهو المبدأ الذى ظلت البابوية تتجاهد فى سبيل تحقيقه منذ عهد جريجورى العظيم حتى عهد بونيفيس الثامن (٥) . هذا الى أن نقولا الأول لم يشأ أن يعترف بأن الامبراطور اليزنطى امبراطور رومانى « لأن الامبراطورية الرومانية لا توجد الا حيث ير بد البابا » . وفى ضوء هذه الآراء جميعاً يبدو لنا نيقولا الأول فى خطابه لمعاصريه من الحكام العلمانيين فى صورة السيد الأمر الذى تجب طاعته « لأن الحاكم الذى لا يطيع أوامر

-
- (1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 134—144.
 - (2) Idem, pp. 168—169.
 - (3) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 115.
 - (4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 453.
 - (5) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 121.

الكنيسة الرومانية وتعليماتها يعتبر عاصا ويستحق اللعنة والحرمان (١) .
ثم جاء تنويج شارلمال الثانى أو الأصلع امبراطورا بيد البابا حنا الثامن
سنة ٨٧٥ ليؤكد أن الامبراطور صنيع البابوية وربيبها ، وأن البابا عندما توج
شارل امبراطورا انما عبر عن ارادة الله والمسيح فى التفضل عليه بهذا
التشريف ، « ومنحه » التاج الامبراطورى (٢) .

على أنه اذا كانت الكنيسة قد أخذت تسعى خلال سنوات الفوضى التى
عمت أوروبا فى القرن التاسع للتحرر من سلطان الدولة ليكون لها كيان خاص
مستقل ، الا أن الفصل بين الكنيسة والدولة بدا أمرا غير عملى فى ظل النظام
الانقطاعى . هذا فى الوقت الذى لم تجد البابوية أمامها سابقة تستند اليها فى
تأكيد سيادتها على الملوك من جهة وعلى بقية رجال الكنيسة من جهة أخرى .
وهنا لجأ رجال الكنيسة الى التزييف والتزوير لاختلاق سوابق تستند اليها
البابوية فى تحقيق أهدافها . وثمة وثيقتان زيفهما رجال الكنيسة لتحقيق
أغراضهم ومبادئهم ، أما الوثيقة الأولى فتسمى « هبة قسطنطين Donation
of Constantine » والغرض منها اثبات سلطة البابوية الزمنية وسيادتها على
الغرب الأوروبى . وهذه الوثيقة المزورة عبارة عن مرسوم قيل ان الامبراطور
قسطنطين أصدره عندما أنشأ روما الجديدة (القسطنطينية) وتنازل بمقتضاه
للبابوية عن روما القديمة ، بل عن كل أراضى الامبراطورية الغربية (٣) .
ويبدو أن هذه الوثيقة زورت فى القرن الثامن بعد أن منح بين الأول
(القصير) البابا سلطة زمنية فى أراضى ايطاليا سنة ٧٥٥ ، فأراد رجال الكنيسة
عندئذ أن يحيطلوا هبة يبين هذه بنحو من الشرعية التقليدية التى تبنت أن حق
البابوية فى مباشرة السلطة الزمنية قديم يرجع الى أيام قسطنطين نفسه (٤) .
ومهما يكن من أمر فقد استمرت البابوية تعتمد على هذه الوثيقة المزورة

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 202 - 203.

(2) Idem: pp. 161 - 162.

(3) Eyre: op. cit. p. 122.

(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 58 - 60.

وتتخذها أساسا لسلطانها الزمني حتى كشف عن تزويرها حوالى سنة ١٤٣٩ ،
أى فى عصر النهضة الايطالية .

أما الوثيقة الثانية فظهرت حوالى ٨٥٠ - ٨٥٧ واسمها الأحكام البابوية
المزورة Forged Decretals وهى تنسب الى شخص غامض اسمه ايسيدور، وان
كان لا يمكن القول برأى قاطع فى حقيقة نشأتها(١) . وكل ما هناك هو أنه
يبدو أنها وضعت فى ريمز أو مينز ، ثم أحكمت آياتها بعد ذلك فى روما .
وكان الهدف الأساسى من وضعها خدمة مصالح الأساقفة المحليين من جهة
والبابوية من جهة أخرى(٢) ، لأنها ترمى الى اضعاف سيطرة رؤساء الأساقفة
وفى الوقت نفسه تعمل على اعلاء شأن البابوية وتضخيم نفوذها(٣) .

وهكذا أخذت هذه المبادئ تسود الدوائر الكنسية فى غرب أوروبا منذ
النصف الثانى من القرن التاسع ، فأنشأ الأساقفة يتجاهلون رؤساءهم ويلجئون
الى البابوية لانصافهم ، كما تدخل البابا نيقلوا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) فى
شئون كنيسة اللورين ، مستندا الى بعض الأحكام المزورة السابقة ، فأصر على
حقوق البابوية فى اصدار التعليمات والأوامر الى مختلف الكنائس المحلية(٤) .
على أنه من الملاحظ أن الفترة الواقعة بين وفاة نيقلوا الأول سنة ٨٦٧ وتويج
أوتو الأول امبراطورا سنة ٩٦٢ ، كانت من أحلك السنوات فى تاريخ غرب
أوروبا من النواحي السياسية والكنسية جميعا . فبالاضافة الى اضمحلال
امبراطورية شارلمان وتقككها ، شهدت هذه الفترة أيضا تدهور البابوية
والكنيسة الغربية بوجه عام(٥) . حقيقة ان الكنائس المحلية فى مختلف بلاد
غرب أوروبا ظلت تنظر الى البابا على أنه زعيمها الروحى ، ولكن نفوذ البابوية
على هذه الكنائس لم يعد أن يكون اسما . فكثير من البابوات فى الفترة
الواقعة بين القرنين التاسع والحادى عشر أهملوا توجيه الكنيسة توجيهها
فعليا رشيدا ، ولم يفكروا فى دعوة مجامع دينية عامة ، وتركوا مهمة هذا

(1) Bryce : op. cit. p. 153.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 448.

(3) Oman: The Dark Ages, p. 456.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 421—422.

(5) Eyre: op. cit. pp. 123—124.

التوجيه ودعوة المجامع الى الملوك فى كل بلد من البلدان حسب مقدرة هؤلاء الملوك ومقدار سيطرتهم على الكنيسة فى بلادهم ، مما أدى الى تفكك الكنيسة وعدم وجود رابطة تربطها فى غرب أوروبا . ومن الواضح أن سيطرة الحكام العلمانيين على الكنيسة لم تؤد فقط الى تفكك الكنيسة فى تلك الحقبة ، وانما أدت أيضا الى انحطاط المستوى الخلقى لرجال الدين لأن الحكام العلمانيين لم يهتموا عند ملء الوظائف الدينية باختيار مرشحين على خلق سليم ، مما أدى الى وصول بعض ضعاف النفوس الى أرفع المناصب الكنسية(١) .

حركة الإصلاح الكلوئية :

ولم يلبث هذا الفساد الذى دعم الكنيسة فى القرنين التاسع والعاشر أن أدى الى ايقاظ بعض الضمائر التى أفرعها ما آل اليه أمر الكنيسة ورجال الدين فى غرب أوروبا(٢) . وكان أن انبعثت الدعوة الى الإصلاح فى النصف الأول من القرن العاشر فى منطقة اللورين حول متزوليج ، حيث كانت الحياة الديرية قوية وسليمة . وهناك بدأ أحد المصلحين - واسمه جيرارد - تلك الحركة بتأسيس كنيسة قرب نامور سنة ٩٢٤ ، ثم ألحق بها ديرا بعد قليل . وسرعان ما سارت تلك الحركة الإصلاحية فى اللورين سيرا طيبا فنأدى المصلحون بالعودة الى تعاليم السلف الصالح وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية . ولكن تلك الحركة الإصلاحية ظلت محلية الطابع ، اذ استمر أنصار الفساد خارج المنطقة أقوى نفوذا ، فقاوم كثير من رجال الدين تلك الدعوة بعد أن ألفوا حياة الضعف والانحلال ، وبذلك حالوا دون انتشارها والافادة منها(٣) . ومهما يكن من أمر فان هذه الحركة الإصلاحية التى ظهرت فى اقليم اللورين لم تكن الوحيدة من نوعها ، اذ عاصرتها دعوة أخرى

(1) Idem: p. 126.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 128.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 128—131..

للاصلاح انبعثت فى حوض الرون الأعلى حيث أسس وليم التقي دوق اكويتن ديرا جديدا فى كلونى سنة ٩١٠ (١) *

وقد روعى فى نظام هذا الدير تجنب الأخطاء والمفاسد التى تردت فيها بقة الأديرة المعاصرة ، ليصبح رأسا لحركة اصلاحية ديرية شاملة * من ذلك. أن دير كلونى لم يقبل أرضا من أمير اقطاعى أو حاكم مقابل خدمات أو ارتباطات اقطاعية مع ذلك الأمير أو الحاكم * وهكذا جاءت جميع المنح التى تلقاها دير كلونى - من أراض وغيرها - حرة غير مشروطة ، ولا يتقاضى صاحبها عنها سوى حسن الثواب من الله والدعوات الطيبات من أهل الدير * . وإذا كان نظام الأديرة البندكتية قد تطلب من الديرين القيام بقسط كبير من العمل اليدوى فى الحقول الا أنه لوحظ عدم تطبيق هذا المبدأ بصورة تكفل تحقيق الغرض المنشود ، لأن معظم الأراضى التى كانت تمنح للأديرة عليها ألقانها المرتبطون بها والذين يقومون بفلاحتها ، الأمر الذى وفر على الديرين عناء العمل فى الحقول من جهة وأوجد فراغا كبيرا فى حياتهم من جهة أخرى * . ولسد هذا الفراغ وتلافى أخطار البطالة روعى فى نظام كلونى مضاعفة الساعات اليومية المخصصة للصلاة والعبادة (٢) *

وقد قام نظام الأديرة الكلونية على أساس الطاعة المطلقة والتفانى فى خدمة المجموع ، فالفرد لا شئ والمجموع هو كل شئ * كذلك أدرك زعماء الحركة الكلونية أن الامراض الخطيرة التى تعرضت لها الكنيسة حينئذ انما جاءت وليدة ارتباط الكنيسة بالدولة ، ولذلك وجدوا فى الفصل بين السلطين العلاج الوحيد الشافى من تلك الأمراض (٣) * . ولعل هذا هو السبب فى حرصهم على أن يكون نظامهم الديرى تابعا للبابوية مباشرة دون أن يكون للحكام العلمانيين أو الأساقفة المحليين اشراف على الأديرة الكلونية التى تقع فى مناطق

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p 661.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 128- 129.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 99.

تفوذهم(١) • وهكذا أصبحت الأديرة الكلوونية تخضع لاشراف مركزى شديد ، اذ لا يوجد لها سوى مقدم واحد فى الدير الرئيسى بكلونى هو المسئول الأول عن بقية الأديرة الكلوونية التى يشرف عليها رؤساء لا يتمتعون باستقلال كبير فى أديرتهم ويخضعون خضوعا مباشرا للمقدم العمام فى كلونى ، الذى له حق التفتيش عليهم بين حين وآخر والذى يخضع بدوره للبابا خضوعا مباشرا(٢) • وسرعان ما اشتهر دير كلونى فانتشر هذا النظام الديرى فى غرب أوربا انتشارا واسعا فى سرعة فائقة ، حتى أن كثيرا من الأديرة البندكنية المعروفة فى فرنسا وألمانيا قبلت النظام الكلوونى ودخلت تحت رئاسته • هذا زيادة على الأديرة الأخرى التى اختارت أن تحتفظ باستقلالها ولكنها تأثرت فى نظمها بمبادئ الإصلاح الكلوونية(٣) • والذى يهنا الآن من أمر هذه الحركة أنها لم نلبث أن تطورت واتسع أفقها ، فبعد أن كانت تستهدف فى أول أمرها اصلاح الحياة الديرية وحدها ، اذا بها فى القرن الحادى عشر تسعى نحو اصلاح الكنيسة اصلاحا شاملا ، معتمدة فى ذلك على ما أصبح للأديرة الكلوونية ورجالها من قوة وعظمة ونفوذ واسع عند منتصف القرن الحادى عشر • حقيقة أن الدعوة الكلوونية تعرضت لمعارضة قوية من كثير من الأساقفة ، بل من بعض المؤسسات الديرية الأخرى التى ألف أهلها حياة الفساد ، ولكن حركة الإصلاح الكلوونية استطاعت أن تستمر فى طريقها سوى دون أن توقفها هذه المعارضة(٤) •

وكانت الكنيسة تعاني عندئذ ثلاثة أمراض خطيرة ، هى السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى • أما السيمونية فالمقصود بها شراء الوظائف

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 664.

(2) Eyre: op. cit. p. 127.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 662.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1 p. 427..

الدينية بالمال (١) ، وهو داء فشا فشوا خطيرا بين رجال الدين حتى توصل كثير من المجرحين وغير الصالحين الى المناصب الدينية الكبرى عن طريق المال ، مما أضعف الكنيسة وشوه سمعتها (٢) . ذلك أن ما تمتعت به الأديرة والأسقفيات من ثروة طائلة وأراض واسعة ، جعلها موضع أنظار الطامعين الذين لم يرضوا بتقديم الأموال الكثيرة الى الحكام العلمانيين أو كبار الأساقفة ليعينهم رؤساء على تلك الأديرة والأسقفيات (٣) . وقد حاول البابا جريجورى السادس (١٠٤٥ - ١٠٤٦) وكذلك البابا ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) مكافحة السيمونية ، وشجعهما فى جهودهما الامبراطور هنرى الثالث ، حتى تم عزل كثير من رجال الدين الذين اشتروا مناصبهم بالمال (٤) . هذا الى أن المجامع الدينية التى عقدت سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٠ أصدرت قرارات شديدة ضد السيمونية والاتجار فى المناصب الدينية (٥) .

أما عن زواج رجال الدين فالمعروف أن معظم الأساقفة ظلوا عزابا ، فى حين أقبل على الزواج معظم القساوسة وصغار رجال الدين (٦) . والواقع أنه لم يوجد قانون كنىسى يفرض حياة العزوبة على رجال الكنيسة ، وإن وجدت بعض تشريعات فى أوائل العصر المسيحى تؤيد مبدأ العزوبة (٧) ، وهى تشريعات لم يمكن تنفيذها فى سهولة على الرغم من جهود البابا جريجورى العظيم فى سبيل تطبيقها (٨) . وهكذا ظلت الكنيسة ترى ضرورة الزام رجال الكليروس

(١) تنسب السيمونية الى سيمون الساحر الذى ورد عنه فى العهد الجديد « ولما رأى سيمون أنه بوضع أيدي الرسل يعطى الروح القدس قدم لهم دراهم ، قائلا أعطيانى أنا أيضا هذا السلطان حتى أى من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس ، فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدراهم » (سفر أعمال الرسل ، الاصحاح الثامن ، ١٨ - ٢٠) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 10.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 122.

(4) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 147.

(5) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 343—344.

(٦) نلفت نظر القارئ الى أننا عالجتا موضوع زواج رجال الكنيسة بشئ من التفصيل فى الباب الخاص بالنظم الدينية فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(7) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 11—12.

(8) Eyre: op. cit. pp. 215—216.

بحياة العزوبة أسوة برهبان الأديرة ، لأنها رأت أن هذه الحياة من شأنها أن تطهر النفس زيادة على تدعيم النظام الكنسى نفسه (١) . والمعروف أن الاتجاه السائد منذ القرن العاشر كان يميل الى توريث الوظائف الاقطاعية ، مما أدى بدوره الى اتجاه رجال الدين المتزوجين نحو توريث وظائفهم الدينية لأبنائهم ، الأمر الذى يجعل منهم طبقة وراثية وينزل أبلغ الضرر بالنظام الكنسى . وعلى ذلك فالكنيسة كانت تقر مبدأ الزواج كتشريع دينى لحفظ السلالة البشرية ولكنها عارضت فى زواج رجال الدين حفظا لكيانها ونظامها . وقد ظهرت هذه المعارضة فى القرارات التى أصدرتها مجامع روما الدينية سنة ١٠٥٠ ، سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٣ ، والتى حرمت على عامة الناس التعامل مع القساوسة المتزوجين (٢) .

على أنه اذا كانت المسائل المتعلقة بالسيمنية وزواج رجال الدين تعتبر من المشاكل الداخلية بالنسبة للكنيسة ، فان مسألة التقليد العلمانى اختلفت عنها فى كونها تنصل اتصالا مباشرا بسلطة الحكام العلمانيين . والمقصود بالتقليد العلمانى هو أن يقوم الحكام العلمانيون - من أباطرة وملوك وأمراء - بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية . والمعروف أن القانون الكنسى نص منذ القدم على أن يكون تعيين القساوسة بوساطة أساقفتهم ، وأن يقوم القساوسة وغيرهم من رعايا الأسقفية بانتخاب الأسقف ، وأخيرا يعتمد كبير كبار الأساقفة - وهو البابا - هذا الاختيار . ولكن هذه الأوضاع تغيرت على مر الأيام ، فأصبح أصحاب الأراضى من الاقطاعيين يقومون بتعيين القساوسة ، فى حين تولى الأباطرة والملوك والدوقات تعيين الأساقفة ، فيكفى أن يسلم أحدهم خاتم الأسقفية وعكازها الى أحد الأفراد ويقول له « تسلم أسقفية كذا » حتى يصبح أسقفا على تلك الأسقفية (٣) .

(1) Thompson: op. cit. Vol. p. 428.

(2) Fyre: op. cit. p. 216.

(3) Orton: op. cit. pp. 166—167.

ومن الواضح أن هذا الوضع أفاد الدولة سياسيا ، اذ جعل كبار رجال الدين تابعين للحكام العلمانيين وجعل الوظائف الدينية بمثابة أقطاعات يمنحها هؤلاء الحكام لرجال الدين ، ولذلك تمسك أباطرة الدولة المقدسة - بوجه خاص - بهذا الحق ، واعتبروا تخليهم عنه خسارة كبرى. تحقيق بسلطانهم السياسى (١) ولكن الكنيسة هى التى خسرت خسرانا مبينا من جراء هذا الوضع الشاذ الذى أدى الى تفككها وعدم ارتباطها تحت زعامة البابوية ، بعد أن أصبح الأساقفة أذنانا للملك أو الامبراطور يعينهم لخدمته وتحقيق أغراضه ، لا لخدمة الكنيسة وتحقيق أغراضها . فالكنيسة كانت تريد من رجالها أن يخضعوا للبابوية وحدها وينصرفوا لخدمة وظائفهم الدينية ، فى حين أراد الحكام العلمانيون أن يسيطروا على رجال الدين سيطرة اقطاعية وأن يتحكموا فى تعيينهم حتى يكونوا أداة فى أيديهم ، ولا سيما أن رجال الكنيسة كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة - التى تستطيع القراءة والكتابة - ومن ثم اشتدت حاجة الحكام العلمانيين اليهم فى الشؤون الادارية (٢) .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى تدخل الملوك والأمراء فى اختيار البابوات أنفسهم ، فأخذ أمراء روما يسيطرون على البابوية - وبوجه خاص بعد وفاة بندكت الثامن سنة ١٠١٤ - واختاروا لهذا المنصب الخطير من يحقق أغراضهم ، حتى ولو كان من غير رجال الدين ، مما جعل كثيرا من البابوات يستجدون بالأباطرة الألمان كما سبق أن رأينا (٣) . ولكن قيام الأباطرة الألمان بحماية البابوية جعل هذه الأخيرة ضيعة لهم ، مما ساء الكرادلة المصلحين ، فانتهزوا فرصة وفاة الامبراطور هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ عن طفل صغير - هو هنرى الرابع - واختاروا البابا ستفن التاسع عقب وفاة

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 237

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 132.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 14-15.

البابا فكتور الثانى سنة ١٠٥٧ (١) * ويبدو أن هذا الاختيار لم يرق فى عيون أمراء روما فطردوا البابا ستفن التاسع وعينو البابا بندكت العاشر ، وعندئذ تمسك الكرادلة برأيهم ورفضوا الاعتراف بالبابا الجديد حتى تم عزله هو الآخر * ولوضع حد لهذه الفوضى دعا البابا نيقولا الثانى مجمعا دينيا فى روما سنة ١٠٥٩ لتنظيم اختيار البابا وانقاذ البابوية من الهوة التى غرقت فيها * وكان أن قرر هذا المجمع أن يتولى الكرادلة وحدهم - وهم أساقفة روما وضواحيها السبع - انتخاب البابا ، على أن يستدعى الناس ورجال الاكليروس بعد ذلك لمجرد الموافقة على هذا الاختيار (١) * هذا فضلا عن أنه تقرر ضرورة اختيار البابا من بين رجال الاكليروس فى روما نفسها ، الا فى حالة عدم توافر المؤهلات والشروط اللازمة للمنصب البابوى فى أحدهم ، فاذا تعذر لأى سبب اجراء عملية انتخاب البابا فى روما فإنه يجوز اجراء هذه العملية فى أى مكان آخر (٣) * وبذلك استطاعت البابوية أن تتحرر من نفوذ نبلاء روما وسيطرة الأباطرة جميعا ، فضلا عن أن اختيار البابا أصبح انتخابيا فى هيئة مختارة من صفوة رجال الكنيسة * لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن هذا الاجراء كان الخطوة الأولى فى سبيل اقامة حكومة مركزية فى الكنيسة تستطيع أن تبشر الاصلاح الكنسى بوجه عام (٤) *

ومن الشخصيات البارزة التى ظهرت فى ذلك المجمع الدينى الكاردينال هلدبراند ، الذى رأى بثاقب بصره اقناع أعضاء المجمع بعدم المساس بحقوق الامبراطور القائم وهو هنرى الرابع ، على أن يحرم خلفاؤه من أى حق فى اختيار البابوات * ولم تلبث شهرة هلدبراند ومكانته أن أدت الى المناداة به بالاجماع لتولى منصب البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم جريجورى السابع ،

(1) Hayward: op. cit. p. 153.

(2) Bryce : op. cit. p. 155.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 37 c

(4) Eyre: op. cit. p. 134.

وبذلك بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البابوية بل فى تاريخ الكنيسة الغربية
فى المصور الوسطى (١) .

البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) :

والواقع أن البابا جريجورى السابع لم يكن مجددا أو مبتكرا ولم يسهم
الا بقسط ضئيل فى نظرية السمو البابوى ، لأن هذه النظرية قديمة ترجع الى
أيام جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤) . بل ان البابا جلاسيوس الأول
(٤٩٢ - ٤٩٦) حاول أن يطبق هذه الآراء الخاصة بسمو البابوية فى علاقته
مع الامبراطور أنسطسيوس (٢) . ولكن اذا كانت نظرية السمو البابوى
فى ذاتها ليست وليدة أفكار جريجورى السابع الا أن من حقه أن يفخر بأنه
أول من طبق هذه النظرية فى اصرار وعناد (٣) . ذلك أنه كان يقدر
ضخامة مهمة البابوية وعظم رسالتها حتى قال « اننى لا أقبل البقاء فى روما
يوما واحدا اذا أدركت أننى عديم الجدوى للكنيسة » .

وكان أن عقد جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ لمعالجة
مشاكل الكنيسة فى ذلك الوقت وهى - كما سبق - السيمونية وزواج رجال
الدين والتقليد العلمانى (٤) . وقد أصدر هذا المجمع عدة قرارات تقضى
بفصل كل من توصل الى منصب فى الكنيسة عن طريق الشراء ، وأن لا
يسمح فى المستقبل بشراء الحقوق الكنسية وبيعها . كذلك تقرر فصل كل
عضو فى الكنيسة اتهم بالتبذل والاستسلام لشهواته . أما عن زواج رجال
الدين فقد دعا جريجورى السابع الجمهور المسيحى الى عدم التعاون مع أى
قس أو أسقف لا يحرص على التمسك بسنة الرسل وتعاليم البابوية ، كما

(1) Byrce: op. cit. p. 155.

(2) Idem, p. 158.

(3) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 271.
(4) Ibid. Vol. 5, p. 61.

منع القساوسة المتزوجين من الوعظ فى الكنائس وحرم على الناس الاستماع اليهم (١) .

على أنه اذا كان جريجورى السابع قد استطاع مكافحة السيمونية وزواج رجال الدين عن طريق تشريعات داخلية فى الكنيسة ، فانه كان من المتعذر عليه مكافحة مبدأ التقليد العلمى دون الاصطدام بالحكام العلمانيين ، وعلى رأسهم امبراطور الدولة الرومانية المقدسة صاحب النفوذ السياسى الواسع فى ألمانيا وإيطاليا . وتتضح لنا نظرة جريجورى السابع الى الحكام العلمانيين ومكانتهم من رجال الدين فى عبارته الشهيرة « ان قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله ، ان البابا سيد الأباطرة لأنه يستمد قداسته من تراث سلفه القديس بطرس » . أما خير مايلخص آراء البابا جريجورى الخاصة بعظمة الوظيفة البابوية وسموها وسلطانها الروحى العالمى ، فهى المجموعة التى تنسب الى ذلك البابا والتى جمعت بعد وفاته بقليل (حوالى سنة ١٠٨٧) . وتعرف هذه المجموعة باسم الارادة البابوية أو الأوامر البابوية (Dictatus Papae) وأهم موادها (٣) : -

- البابا وحده هو الذى يتمتع بسلطة عالمية .
- البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم .
- جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده .
- للبابا الحق فى عزل الأباطرة .
- لا يجوز عقد أى مجمع دينى عام الا بأمر البابا .
- ليس لأى فرد أن يلغى قرارا بابويا ، فى حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس .

(1) Eyre: op. cit. p. 135.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 439—400.

— لا يسأل البابا عما يفعل ولا يحاكم على تصرفاته •

— للبابا أن يجيز لرعايا أى حاكم علمانى التحلل من العهود وايمان الولاء
التي أقسموها لحاكمهم •

وهكذا يبدو من الآراء السابقة أن جريجورى السابع آمن ايمانا قويا بأن البابا له السلطة العليا فى حكم المجتمع المسيحى *Societas Christiani* وأنه يعزل الملوك والأباطرة بوصفه نائباً عن القديس بطرس • فإذا امتنع حاكم علمانى عن تنفيذ تعاليم الكنيسة فإن لها أن تحاربه بالأسلحة الروحية والمادية *Spiritualibus et Saeclaribus armis* وبعبارة أخرى فإن جريجورى السابع رأى أن الطريق الوحيد لاصلاح العالم وتخليصه من الفوضى والشرور ، هو إخضاعه للكنيسة وإخضاع الكنيسة للبابوية • لذلك .. موجه جريجورى السابع مجمع روما الدينى سنة ١٠٧٥ نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد العلمانى هذا نصه :

« ان أى فرد من الآن فصاعدا يتقلد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين ، يعتبر مطرودا من هذه الوظيفة ومحروما من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس • وإذا جرؤ امبراطور أو ملك أو دوق أو كونت ، أو أى شخص علمانى على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فإنه يحرم من الكنيسة فورا (٧) »

ومن الواضح أن تطبيق هذا القرار يعنى تحرير كافة رجال الدين فى الأسقفيات والكنائس والأديرة من اشراف الملوك والأمراء فى مختلف البلاد ، كما يعنى جعل البابا فى روما المشرف الوحيد على رجال الدين. فى العالم

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p.281

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 367..

المسيحي الغربي ، من حيث تعيينهم فى مناصبهم والفصل فى مشاكلهم والاشراف على أعمالهم (١) .

وهكذا أخذت سياسة جريجورى السابع سذر بصادام .عنيف مع الحكام العلمانيين ، فرفض وليم الفاتح ملك انجلترا الاعتراف بسيادة البابويه والتبعية لها (٢) . فى حين لم يعبأ فيلب الاول ملك فرنسا (١٠٦٠ - ١١٠٨) بأراء البابا وطلباته واستمر فى سياسته نحو الكنيسة (٣) . أما أباطرة ألمانيا فكان من الطبيعى ألا يقبلوا قرار جريجورى السابع العنيف الذى يمس سيادتهم واشرافهم على رجال الدين فى بلادهم ، ولا سيما أن نحو نصف أراضى ألمانيا و ثروتها كانت بأيدي رجال الدين من أساقفة وديرين ، فكان معنى تنفيذ قرار جريجورى السابع خروج هذه الأراضى من قبضة الامبراطور ودخولها تحت سيطرة البابا ، الأمر الذى يجعل الحكومة الامبراطورية ضربا من الشكليات أو المستحيلات (٤) .

وهكذا أوشكت البابوية أن تقع فى صدام عنيف مع السلطة الزمنية ، وهو النزاع الذى شغل أوروبا طوال القرنين التالين ، حتى أصبح تاريخها فى تلك الفترة من العصور الوسطى يدور حول محور واحد ، هو البابوية والامبراطورية (٥) .

وهنا نشير الى أن جريجورى السابع عندما شرع فى تنفيذ سياسته الاصلاحية العنيفة لم يعتمد على سلاح التشريعات والأوامر البابوية التى أصدرها فحسب ، وانما اعتمد أيضا على سلاح قوى ، هم رجال الأديرة الكلونية أو « الرهبان السود » كما أسماهم المعاصرون ، وهؤلاء كانوا قوة عظمى ساندت البابا فى سياسته واعتمد عليهم فى تنفيذها ، كما اختار منهم مندوبيه ورسله الى الزعماء العلمانيين والدينيين (٦) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 64—65.

(2) Adams: The History of England, pp. 49 - 50.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 80.

(4) Bryce: op. cit. p. 156.

(5) Ullmann: Medieval Papalism, p. 1.

(6) Hoyer: op. cit. pp. 158.

الباب الثاني عشر

الامبراطورية والبابوية

عندما توفي هنري الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٠٥٦ خلفه ابنه هنري الرابع الذي كان عندئذ في السادسة من عمره ، فلبث تحت الوصاية مدة تجاوزت خمس عشرة سنة (١٠٥٦ - ١٠٧٢) (١) . ولا شك في أن قيام صبي قاصر على عرش الامبراطورية تلك السنوات الطويلة كان له تأثير خطير على الامبراطورية وسلطانها ، في الوقت الذي فتحت الحركة الكلونية روحا جديدة في الكنيسة الغربية أدت الى ازدياد نفوذ البابوية التي وجدت حلفاء أقوياء لها في النورمان بجنوب ايطاليا من جهة وفي كوتية تسكانيا من جهة أخرى (٢) .

ولم يكن منتظرا أن تستطيع آجني Agnes - أم هنري الرابع ، وصاحبة الوصاية عليه - الوقوف في وجه كبار الدوقات والأمراء ، فدير آنسون - Annon - رئيس أساقفة كولونيا - مؤامرة لخطف الملك الصغير ووضع تحت وصايته سنة ١٠٦٢ (٣) ، الأمر الذي استدعى تنحي الامبراطورة الوالدة عن الوصاية بعد ست سنوات (١٠٥٦ - ١٠٦٢) ثم تسليم مقاليد الحكم لهنري الرابع سنة ١٠٦٥ على الرغم من أنه كان وقتئذ في الخامسة عشر من عمره (٤) . ويبدو أن السلطة الفعلية في الدولة أصبحت في تلك الفترة بأيدي أدالبرت Adalbert رئيس أساقفة برمن الذي

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 112.

(2) Eyre: op. cit. p. 137.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 351.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 122.

كان رجلا طموحا فسيطر على شئون الكنيسة والدولة جميعا ، واستباح أموال الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية وغير الدينية . هذا فى الوقت الذى استطاع أدالبرت أن يحتفظ لهنرى الرابع بسلطانه على الجزء الشمالى من ألمانيا (١) . على أن هذا الوضع لم يلبث أن أثار حنق الأمراء ، فعمدوا مؤتمرا فى تريبور Tribur سنة ١٠٦٦ وخيروا الملك الصغير بين عزل أدالبرت أو ترك العرش ، فاختار الملك الحل الأول ، وإن ظل أدالبرت محتفظا بنفوذه خلال فترات متقطعة (٢) . وهكذا لم يتيسر إيجاد حل للموقف يكفل للإمبراطورية شيئا من الاستقرار ، فقامت ثورة فى نورنبرج سنة ١٠٦٩ وأخرى فى بافاريا سنة ١٠٧٠ ، كما أخذت إيطاليا تغت تدرجيا من قبضة الإمبراطورية (٣) .

وبوفاة أدالبرت سنة ١٠٧٢ يمكن القول بأن هنرى الرابع أخذ يباشر الحكم فى صورة عملية . ويبدو أنه كان قليل الثقة فى ولاء أهالى الأجزاء الشمالية من ألمانيا فاختار وزراءه المقربين من مقاطعة سوابيا الجنوبية التى ينتمى هو إليها ، وأكثر من تشييد القلاع فى سكسونيا ونورنبرج فى الشمال (٤) ، كما حشد تلك القلاع بالجند الذين أتوا كثيرا من أعمال البث والاعتداء على الفلاحين . ولم تلبث هذه السياسة التى انتهجها هنرى الرابع أن استتارت غضب أمراء الشمال ، فثارت سكسونيا وبافاريا سنة ١٠٧٣ ، واشترك فى هذه الثورة الأمراء ورجال الدين فضلاعن المزارعين الأحرار (٥) . وعندما نجح هنرى الرابع فى اخماد تلك الثورة سنة ١٠٧٥ صمم على حكم البلاد حكما استبداديا ، وإن كان هذا الأسلوب لم يؤد الى ما كان يطمع فيه من استقرار الأوضاع فى ألمانيا ، وخاصة فى سكسونيا التى ظلت تتحين

(١) Barraclough: op. cit. pp. 93—94.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127—128.

(٣) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 447—448.

(٤) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127—128.

(٥) Barraclough: op. cit. p. 95.

الفرص للثورة ضد الملك ، مما جعلها تلعب دورا مهما في الصراع المقبل بين
هنرى والبابوية (١) .

وفى ذلك الوقت كان الكاردينال هلدبراند قد اعتلى كرسى البابوية سنة
١٠٧٣ تحت اسم البابا جريجورى السابع . ويبدو أن الأساقفة الألمان خشوا
بأس البابا الجديد لما عرف عنه من شدة وصرامة ، فحرضوا هنرى الرابع على
الغاء تعيينه بحجة أنه لم ينتخب بالطريقة الشرعية التى نص عليها مجمع روما
الدينى سنة ١٠٥٩ ، وانما أوصى البابا اسكندر الثانى باختياره خليفة له مما
جعل جموع المصلين على البابا الراحل تنادى بهلدبراند بابا فى كنيسة القديس
بطرس بروما (٢) . ولكن هنرى الرابع اختار ألا يطيع أساقفة ألمانيا فيما
ذهبوا اليه ، واكتفى بأن أرسل الى روما مستفسرا عن الظروف التى أحاطت
باختيار البابا الجديد . وهنا أظهر جريجورى السابع - هو الآخر - كثيرا
من الاعتدال ، فأجل بقية المراسيم الخاصة بتولية المنصب البابوى حتى تتم
موافقة هنرى الرابع على اختياره ، ولم تلبث أن صدرت هذه الموافقة فى
يونيو سنة ١٠٧٤ . وليس أدل على حسن التفاهم بين الملك هنرى الرابع
والبابا جريجورى السابع فى تلك المرحلة من أن الأول استقبل البعثة التى
أوفدها البابا الى ألمانيا سنة ١٠٧٤ بكل ترحاب ، كما وافق هنرى على فصل
خمسة من كبار أعوانه كان البابا اسكندر الثانى قد اتهمهم بالسيمونية وأصدر
قرار الحرمان ضدهم (٣) .

على أن جريجورى السابع لم يلبث أن شرع يعالج أمراض الكنيسة فى
شدة وحزم . وكان أن استغل البابا فرصة الاضطرابات التى نشبت فى
سكسونيا وأصدر فى ديسمبر سنة ١٠٧٤ قرارا بمنع جميع القساوسة
المتزوجين فى ألمانيا من مباشرة الطقوس الدينية فى الكنائس ، مما أوجد
حالة من الاستياء وعدم الاستقرار (٤) . وبعد عدة أشهر - أى فى فبراير

(1) Eyre: op. cit. p. 137.

(2) Hayward: op. cit. pp. 156—157.

(3) Barracklough: op. cit. p. 108.

(4) Ibid.

١٠٧٥ - أصدر جريجورى السابع قراره العنيف ضد التقليد العلمانى ، كما سبق أن أشرنا ، الأمر الذى أزعج هنرى الرابع بوجه خاص وبقية ملوك الغرب بوجه عام وأثار مخاوفهم جميعا (١) . ذلك أن حرمان الملك من حق تعيين رجال الدين معناه قلب نظام الحكم فى الامبراطورية رأسا على عقب ، مما تطلب من هنرى اتخاذ موقف حازم تجاه القرار البابوى السابق . وكان أن تجمعت عدة عوامل لتساعد هنرى على الصمود فى وجه البابا ، أهمها فراغه من ثورة سكسونيا فضلا عن تأييد الأساقفة الألمان له لتخوفهم من شدة البابا الجديد وعنفه (٢) . ومهما يكن من أمر فقد أدت سياسة جريجورى السابع من ناحية وموقف هنرى الرابع من هذه السياسة من ناحية أخرى ، الى فتح باب النزاع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى . والواقع أن هذا النزاع - الذى بدأ حول مشكلة التقليد العلمانى - له أهميته البالغة فى التاريخ ، لأنه أعمق من مجرد خلاف شكلى حول بعض المراسيم الكنسية - كما يظن البعض - وربما كان من الأصوب أن نتذكر دائما أن تقليد رجال الدين والنزاع الذى نشأ حول هذا التقليد ، لم يكن سوى مجورا للحركة الاصلاحية الكنسية الكبرى ، وهى الحركة التى أكسبت ذلك العصر طابعه العام (٣) .

وقد مر النزاع بين البابوية والامبراطورية بعدة أدوار ، يحسن أن نعالج كلا منها على حدة ، مع عدم اغفال بقية التطورات التاريخية التى تعرضت لها الامبراطورية المقدسة خلال حوادث النزاع .

الدور الاول من ادوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

شاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين جريجورى السابع وهنرى الرابع حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة ، وبخاصة فى شمال ايطاليا ، إذ أصر

(١) Bryce: op. cit. p. 156.

(٢) Tout: The Empire and the Papacy, p. 128.

(٣) Eyre: op. cit. p. 137.

(م ٢٣ - أوروبا فى العصور الوسطى)

كلك من البابا والمملك على أنه له وحده حق تعيين من يشغلون هذه المناصب ، وتمسك كلاهما برأيه لأنه رأى فى انتصار خصمه تحطيا للمبدأ السنذى يسمى هو من أجل تحقيقه . فهنرى الرابع وجد فى تمسكه برأيه محافظة على حقه الذى ورثه عن أسلافه ، وأن نجاحه فى فرض رأيه أمر تتوقف عليه هيئته فى ايطاليا وغير ايطاليا من بلدان الامبراطورية ، ولذلك أسرع بتعيين اثنين من أتباعه فى أسقفيتى فرمو Formo وسبوليتو Spoleto على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلا داخل منطقة النفوذ البابوى (١) . أما جريجورى السابع فقد تمسك من جانبته بنظرية السمو البابوى بحكم أن البابا خليفة المسيح فى الأرض ووريث القديس بطرس فى الغرب ، كما اعتبر نجاحه فى فرض رأيه على الامبراطور أمرا تتوقف عليه هيئته ومستقبل البابوية فضلا عن سياسته فى الاصلاح الكنسى ، وهى السياسة التى شرع فعلا فى تنفيذها .

ثم كان أن تأزم الموقف بشكل خطير عندما عين هنرى الرابع أسقفا جديدا لميلان - هو تدالد Tedald - سنة ١٠٧٥ ، وحينئذ أدرك البابا أنه لابد من العمل السريع (٢) . ويبدو أن جريجورى السابع كان مستعدا عندئذ للتحدى والنزال ، فأرسل رسالة شديدة اللهجة الى هنرى الرابع فى أواخر سنة ١٠٧٥ أنذره فيها بالعزل وهيدمه بالويل والثبور ان لم يخضع لرأى البابوية . وفى ذلك الوقت ثارت ثورة الملك فعمد مجمعا فى ورمز Worms (يناير ١٠٧٦) قرر بطلان انتخاب البابا جريجورى السابع ثم عزله من منصبه (٣) . وعندما سمع جريجورى السابع بهذا القرار قابله بشيء من الهدوء فدعا هو الآخر مجمعا فى الفاتيكان (فبراير ١٠٧٦) قرر توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع وعزله من منصبه وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من أيمان الطاعة والتبعية التى أقسموها له ، وبذلك بدأت الحرب سافرة بين العاهلين (٤) .

(١) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 451.

(٢) Fliche: L'Europe Occidentale; Vol. 1, p. 370.

(٣) Barraclough: op. cit. p. 109.

(٤) Hayward: op. cit. p. 160.

ومع أن موقف الطرفين كان حرجا وصعبا ، إلا أنه من الواضح أن هنرى الرابع وجد نفسه فى موقف أشد صعوبة من خصمه ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد على عطف كثيرين من أبناء العالم المسيحى بوصفه الأب الروحى للكنيسة ، فى حين كان هنرى الرابع لا يستطيع الاعتماد حتى على ولاء رعاياه بعد أن وقع عليه البابا عقوبتين : الأولى عقوبة الحرمان بوصفه مسيحيا ، والثانية عقوبة الغزل بوصفه ملكا (١) . وبعبارة أخرى فإن كفتى البابوية والامبراطورية لم تكونا متعادلتين مطلقا عند بداية النزاع ، بل طيلة الأدوار التالية التى مر بها ذلك النزاع ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد دائما على أسلحة قوية أهمها شعور المعاصرين وعواطفهم فضلا عن الأسانيد المستقاة من الكتابات الدينية التى تشهد بسمو مركز الكنيسة ورجالها ، فى حين لم يكن للامبراطور سوى سندانين : أولهما القانون الرومانى الذى يمجّد الامبراطورية وسلطتها وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها ، وثانيهما الجيش الامبراطورى الذى ثبتت عجزه فى أكثر من مناسبة عن إخضاع البابوية (٢) . والواقع أن هنرى الرابع لم يجد له نصيرا سوى تلك الفئة القليلة من رجال الدين الألمان الذين عرفوا بالسيمونية وسوء السيرة ، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلقية ما يجعل منهم سندا حقيقيا للملك . أما ذوو المكانة من القديسين وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعا البابوية فى موقفها المعادى للملك (٣) . وسرعان ما انتهز السكسون فرصة قرار البابا بتحرير أتباع هنرى الرابع ورعاياه من أيمانهم وتعهداتهم وثاروا ضده ثورة عنيفة ، حتى طردوا الحاميات الملكية من أراضيهم (٤) . وهكذا تلفت هنرى الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء ، إذ كانوا جميعا يخشون نزعة الاستبدادية . وكان أن عقد أمراء ألمانيا وأساقفتها

-
- (1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 301
(2) Ullmann: Medieval Papalism; p. 76.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 68.
(4) Eyre: op. cit. p. 138.

مجمعا في تريبور Tribur (أكتوبر ١٠٧٦) قرروا فيه الخروج عن طاعة هنرى الرابع وانذاره باختيار ملك غيره على ألمانيا ان لم ينفرد له البابا فى مدة أقصاها فبراير ١٠٧٧ على أن يقضى الفترة بين أكتوبر ١٠٧٦ وفبراير ١٠٧٧ فى أحد الأديرة محروما من جميع شعائر الملكية وحقوقها (١)

وكان أن انسحب هنرى الرابع الى ذلك الدير يفكر فى موقفه ، وان كان الموقف فى غير حاجة الى تفكير طويل • ذلك أنه وجد نفسه وحيدا أمام خصم عنيد لا يرحم ، فلا بد له من التراجع والاستسلام اذا أراد انقاذ عرشه ، ولا سيما أن الأمراء الألمان وجهوا الدعوة الى البابا للحضور الى أوجسبرج ، مما تطلب من هنرى الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه فى ألمانيا فيؤدى ذلك الى مظاهرة عدائية ضد الملك تضعف مركزه وتجعل البابا يتشدد فى موقفه (٢) • وأخيرا لم يجد هنرى الرابع أمامه حلا سوى أن يرحل سرا الى البابا ، فى الوقت الذى كان الأخير قد بدأ رحلته فعلا الى ألمانيا ، ولكنه أسرع بالعودة عندما علم أن خصمه هنرى الرابع عبر الألب الى ، واحتفى البابا فى قلعة كانوسا التابعة لحليفته ماتيلدا أميرة تسكانيا (٣) • وكان البرد قارسا عندما أخذ هنرى الرابع يصعد الطريق الجبلى الوعر الى قلعة كانوسا ، حيث بقى ثلاثة أيام واقفا على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة فى وجهه ، حتى تعطف البابا وسمح له بالتول بين يديه على شرط التسليم للبابوية بكل تطلبه دون قيد (يناير ١٠٧٧ (٤)) • ويقال ان هنرى الرابع دخل على البابا حافى القدمين ، مرتديا ثوبا من ثياب الرهبان المصنوعة من الصوف ، حتى اذا ما وجد نفسه أمام خصمه ارتضى بين قدميه وانفجر باكيا وهو يصيح « أغفر لى أيها الأب المقدس ، ، فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطا قاسية وزوده بالنصح والارشاد (٥) •

(1) Tout: The Empire and The Papacy, p. 130.

(2) Barraclough: op. cit. 110.

(3) Stephenson: Med. Hist. p. 291.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 69.

(5) Hayward: op. cit. p. 161.

يوهكذا استطاع هنرى الرابع أن يكتسب غفران البابا ويطلب بولاء رعاياه، ولكن بعد أن دفع ثمننا باهظا كلفه كل ما يمتلك من كرامة وهبة • فما هو حاكم الامبراطورية العظيم يذل نفسه للبابوية ويعترف بحقها فى حرمانه من رعاية الكنيسة وعزله من وظيفته • وما هو خليفة قيصر وشارلمان ارتضى أن يقف البابا موقف الحكم بينه وبين شعبه ، ان شاء أمرهم بالخروج عن طاعته وان شاء أمرهم بالامتثال له • لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن الضربة التى أنزلتها البابوية بالامبراطورية فى كانوسا كانت قاصمة ، وأن الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقا بعد ذلك (١) •

والواقع - كما يبدو فى ضوء التطورات التالية - أن هنرى الرابع لم يستفد كثيرا من مقابلة كانوسا ، كما أن هذه المقابلة لم تكن مكسبا على طول الخط بالنسبة لجريجورى السابع (٢) • حقيقة ان البابا خرج من هذه الجولة مرفوع الرأس بعد أن حقق سمو البابوية • ولكن مسلك جريجورى السابع العنيف أثار استياء نسبة كبيرة من الرأى العام فى العالم المسيحى ، فعاب كثيرون على البابا شدته وقسوته ، وهو رجل الدين الرحيم والأب الروحى الذى يجب أن يتحلّى بروح التسامح والعفو عند المقدرة • أما هنرى الرابع فسرعان ما استكشف أن خسارته فى كانوسا فاقت مكسبه لأن خضوعه للبابوية على ذلك الوجه المزرى لم يفده شيئا فى استرضاء أعدائه وخصومه الخارجيين عليه فى ألمانيا ، بل ان أنصاره من اللبارديين فى شمال ايطاليا ساءهم أن يريق الملك ماء وجهه على تلك الصورة المشينة فنادوا بخلفه واحلال ابنه محله (٣) • هذا فى الوقت الذى اعتبر أمراء ألمانيا فرار الملك سرا الى كانوسا خروجاً على العهد الذى أخذه على نفسه تنفيذاً لقرارات تريبور التى قضت بانزوائه فى أحد الأديرة حتى يغفر له البابا (٤) • ولذلك عقد الأمراء

(1) Orton: op. cit. p. 212.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.

(3) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 455..

(4) Barraclough: op. cit. p. 110..

الألمان مؤتمرا في فورخهايم Forchheim (مارس سنة ١٠٧٧) قرروا فيه عزل هنرى الرابع عن العرش واختيار رودلف دوق سوابيا ملكا بدله . وهنا حرص الأمراء قبل البدء فى الاجراءات الخاصة بتتويج الملك الجديد على يد أسقف مينز ، على أن يأخذوا عليه موثقا بالآ يطالب بأى حق وراثى لأبنائه فى العرش وألا يتدخل فى حرية انتخاب الأساقفة (١) .

على أن شعور العطف على هنرى الرابع أخذ يتزايد فى سرعة حتى بلغ حدا أصبحت عنده معظم ألمانيا فى جانبه ، ما عدا سكسونيا التى ناصرت رودلف . وقد استمرت الحرب الأهلية بين الطرفين قرابة ثلاث سنوات (١٠٧٧ - ١٠٨٠) ، ولا يعنينا من حوادثها الكثيرة المعقدة سوى أنها فتحت باب النزاع من جديد بين هنرى الرابع وجريجورى السابع . ذلك أن البابا اختار أن يقف على الحياد فى المرحلة الأولى من مراحل الحرب بين هنرى ورودلف حتى يحصل من الطرفين على اعتراف بسيادته (٢) . وعندما انتصر رودلف على خصمه فى موقعة فلارخهايم Flarchheim (يناير سنة ١٠٨٠) أعلن البابا رأيه صراحة قى أنه يؤيد رودلف وأنصاره من السكسون ، فمقد مجبما دينيا فى مارس من نفس السنة قرر إعادة توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع وإقصائه عن عرش الامبراطورية (٣) .

وهكذا أخذ جريجورى السابع يتأدى بأنه قبل أن تعجل بداية العام التالى سيكون هنرى الرابع قد فقد عرشه وحياته جميعا ، ولكن شات الظروف ألا تحقق له شيئا من أمانيه . ذلك أن هنرى الرابع أدرك أنها معركة حياة أو موت فأظهر اصرارا وحماسة بالتين ولا سيما بعد أن آمن بوجود أنصار كثيرين له فى ايطاليا وألمانيا (٤) . لذلك رد هنرى الرابع على البابا بعقد مجمع آخر فى بركسن Brixen (يونية سنة ١٠٨٠) دعا اليه أنصاره

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 72.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 409.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 133.

من أساقفة ألمانيا وشمال إيطاليا ، وقرر هذا المجمع عزل البابا جريجورى السابع وحرمانه من الكنييسة وانتخاب جيوبرت رئيس أساقفة رافنا ليخلفه فى منصب البابوية (١) . وقد امتاز هذا البابا الجديد - الذى اتخذ اسم كلمنت الثالث - بالخبرة الطويلة والكفاية العظيمة فأسرع عقب مؤتمر بركنس الى رافنا ليوجه الأمور فى شمال إيطاليا ضد منافسه جريجورى السابع . وهكذا اشتد النضال وتعقد الموقف ، بعد أن وجد على المسرح اثنان من البابوات يتنازعان الكرسي البابوى واثنان من الملوك يتجاذبان عرش الامبراطورية (٢) واختار الحظ أن يقف فى جانب هنرى الرابع وكلمنت الثالث فى ألمانيا وإيطاليا جميعا ، اذ دارت معركة حامية (أكتوبر سنة ١٠٨٠) على ضفاف نهر الستر Elster انتصر فيها حزب رودلف من السكسون ولكن رودلف نفسه قتل وبذلك استراح هنرى الرابع من منافس خطير (٣) . وعندما وجد هنرى الرابع أن السكسون أضاعوا ثمرة انتصارهم فى الخلاف حول اختيار خليفة لرودلف ، أسرع بعبور جبال الألب الى إيطاليا (مارس ١٠٨١) لمواجهة خصمه اللدود جريجورى السابع . وكان أن اجتمع هنرى الرابع بنصيره كلمنت الثالث فى رافنا ثم تقدم على رأس قواته صوب روما (٤) . وفى تلك المرحلة الحاسمة لم يجد البابا سندا يعتمد عليه سوى قوة حليفته الأميرة ماتيلدا من جهة وقوة النورمان من جهة أخرى . ولكن شاء سوء حظ جريجورى السابع أن تصاب قوات الأميرة ماتيلدا بهزيمة ساحقة عند فولتا Volta قرب مانتوا ، فى حين كان روبرت جويسكارد النورمانى مشغولا بمشروعه الخاص بغزو الدولة البيزنطية ، مما جعل الطريق مفتوحا أمام هنرى الرابع الى روما (٥) . أما جريجورى السابع فلم يفقد ثباته فى ذلك الموقف وانما اعتمد على حصانة روما ، وبذلك ظل هنرى الرابع فى

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 351—352.

(2) Barraclough: op. cit. p. 125.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale; p. 413.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 78.

(5) Barraclough: op. cit. p. 125.

إيطاليا نحو ثلاث سنوات (١٠٨١ - ١٠٨٤) هاجم خلالها روما عدة مرات دون أن يستطيع الاستيلاء عليها إلا بعد رشوة الحراس لفتح أبواب المدينة (مارس ١٠٨٤) • وفي روما أسرع هنرى الرابع الى دعوة منجم دينى قرر عزل جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة ، وأعقب ذلك اعتلاء كلمنت كرسى البابوية فى روما وتويج هنرى الرابع امبراطورا فى كنيسة القديس بطرس (١) •

أما جريجورى السابع فكان قد احتفى بسانت أنجيلو - قلعة روما الحصينة - ومن هناك أرسل يستحث حلفاءه النورمان فى جنوب إيطاليا للاسراع الى نجدة • وكان أن تقدم جويسكارد النورمانى نحو روما ، لا حرصا على مساعدة البابا جريجورى السابع ولكن خوفا من ازدياد نفوذ هنرى الرابع فى إيطاليا مما يهدد مصالح النورمان ومطامعهم (٢) • ولم يكن هنرى الرابع على درجة من القوة تمكنه من الوقوف فى وجه النورمان ، فآثر مفادرة روما قبل أن يصلوا اليها ، واتجه الى ألمانيا حيث كانت الظروف تستدعى وجوده (٣) • وهنا أسرع أهالى روما الى اغلاق أبواب مدينتهم فى وجه النورمان خوفا من عبثهم ، مما تطلب من جويسكارد استخدام العنف حتى اقتحم المدينة (مايو ١٠٨٤) ، فانساب رجاله فى شوارعها ينهبون ويدمرون ويحرقون كل ما صادفهم حتى احترقت أحياء بأكملها وبيع آلاف من أهل روما فى أسواق الرقيق ، ثم انسحب النورمان بعد ذلك الى جنوب إيطاليا ، تاركين روما تنعم مجددا وحرمتها (٤) • وقد أثار هذه الأحداث للرأى العام ضد جريجورى السابع الذى تسبب فيما حل بروما على أيدي حلفائه النورمان • لذلك خشي جريجورى السابع أن يبقى وحيدا فى روما وسط مظاهر السخط التى أحاطت به ، وآثر مراقبة حلفائه النورمان الى

(1) Hayward: op. cit. p. 162.

(2) Tout: The Empire and The Papacy, p. 135.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 420.

(4) Haskins: The Normans in European History; p. 205

سالرنو حيث مرض ومات فى مايو سنة ١٠٨٥ (١) • وكانت آخر عبارة فاه بها جريجورى السابع وهو على فراش الموت قوله « لقد أخبيت العسالة وكرهت الظلم ولذا أموت مقتربا » (٢) •

على أن وفاة جريجورى السابع لم تضع حلا لمشكلة التقليد العلمانى لأن البابا كلمنت الثالث لم يستطع البقاء فى روما بعد أن حولها النورمان الى حطام ، فغادرها الى رافنا بشمال ايطاليا • وهكذا ظل الكرسي البابوى شاغرا فى روما زهاء سنة بعد وفاة جريجورى السابع حتى اجتمع الكرادلة واختاروا فكتور الثالث لمنصب البابوية (مايو ١٠٨٦) (٣) • وكان هذا البابا الجديد صديقا حميما لجريجورى السابع ومن أنصار مبادئه ، ولكنه كان - بحكم كبر سنه - أضعف من أن يقوم بالدور الذى قام به سلفه العظيم • وعند وفاة فكتور الثالث فى أواخر سنة ١٠٨٧ اختار الكرادلة رجلا أصلب عودا هو البابا أوربان الثانى الذى شابه جريجورى السابع فى تحمسه للإصلاح الكنسى ، ولكنه امتاز عنه بالحرص والمهارة فى انتقاء الوسائل التى ينفذ بها أغراضه ، معتمدا على التحالف بين البابوية من جهة والأميرة ماتيلدا والنورمان من جهة أخرى (٤) • على أن أوربان الثانى لم يستطع الإقامة فى روما طويلا بسبب احتلال قوات البابا الامبراطورى - كلمنت الثالث - لقلعتها ، فأتجه الى جنوب ايطاليا حيث قضى السنوات الأولى من عهده تحت حماية روجر الأول النورمانى (٥) • وكان أهم ما قام به أوربان الثانى فى تلك الفترة العمل على توحيد حركة المقاومة ضد هنرى الرابع فى ألمانيا وايطاليا ، وذلك عن طريق عقد زواج سياسى سنة ١٠٨٩ بين الأميرة ماتيلدا حليفة البابوية وأحد أبناء الأمير ولف Welf الخامس دوق بافاريا ، وهو أقوى منافسى هنرى الرابع (٦) •

(1) Hayward: op. cit. p. 162.

(2) Bryce: op. cit. p. 160.

(3) Hayward: op. cit. p. 163.

(4) Barraclough: op. cit. p. 126.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.

(6) Fliche: L'Europe Occidentale; p. 435.

وفى ذلك الوقت كانت الأحوال قد هدأت نسييا فى ألمانيا ، فأخذ هنرى الرابع يوجه نشاطه نحو إيطاليا وانتقل إليها من جديد سنة ١٠٩٠ (١) . وامتازت الأعمال الحربية التى قام بها هنرى الرابع فى إيطاليا بين سنتى ١٠٩٠ - ١٠٩٢ بالنجاح والتوفيق ، فاجتاح أراضى الأميرة ماتيلدا واستولى على مدنها وقلاعها ، ما عدا قلعة كانوسا التى منى بالفشل أمامها لمناعتها (٢) . ويبدو أن عجز هنرى الرابع أمام كانوسا شجع خصومه ، فحرضوا ابنه كونراد على الثورة ضد أبيه سنة ١٠٩٣ وانحاز كثير من المدن للمباردية الى الابن الثائر الذى توج فى ميلان ملكا على إيطاليا فى السنة نفسها ، وقام بتتويجه رئيس أساقفتها انسلم بموافقة ماتيلدا أميرة تسكانيا وزوجها الولفى (٣) . أما البابا أوربان الثانى فقد شجعت هذه الأحداث على العودة الى روما فى أواخر سنة ١٠٩٣ ، ومن ثم أخذ يجوب البلاد ويعقد المجمع الديسية لتقوية جانب الكنيسة . وكان أن أعلن البابا أوربان الثانى الحرب الصليبية ضد المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ ، وبذلك حقق للبابوية نصرا عظيما وجعل منها الزعيمة الفعلية للعالم المسيحى فى صراعه الطويل ضد المسلمين (٤) . وقد أدت هذه الأوضاع الجديدة بالامبراطور هنرى الرابع الى مغادرة إيطاليا يائسا سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ لم يجد أمامه خلا سوى تسوية مشاكله فى ألمانيا تسوية هادئة ، فعين الابن الأكبر للأمير ولف دوفا على بافايا فى حين أقنع الابن الأصغر لذلك الأمير بترك عروسه ماتيلدا التى تكبره سنا . أما كونراد - ابن الامبراطور - فقد حرمه أبوه من وراثة العرش وأحل محله أخاه الصغير الذى توج فى حياة أبيه (٥) .

ولم ينقطع البابا أوربان الثانى فى تلك الأثناء عن العمل على توطيد مركزه فى إيطاليا وتصفية المشاكل المعلقة بين البابوية والنورمان فى الجنوب ، وذلك

-
- (1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 146.
 - (2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.
 - (3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 440—441.
 - (4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 147.
 - (5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 139.

عندما توفي فجأة في يوليو ١٠٩٩ ثم لحق به منافسة البابا الامبراطوري كلمنت الثالث في العام التالي . وعلى الرغم من أن هنري الرابع رغب حينئذ في المصالح مع البابوية الا أن الشروط التي طلبها أوربان الثاني تم بمسك بها خلفته باسكال الثاني جعلت تحقيق هذا الصلح أمرا متعذرا (١) . ذلك أن البابا الجديد باسكال الثاني الذي تم انتخابه في أغسطس سنة ١٠٩٩ كان شديد التمسك بمبادئ جريجوري السابع وآرائه ، ومن ثم بدأ أعماله باصدار قرار الحرمان للمرة الثالثة ضد هنري الرابع ، كما أخذ يحرض السكسون ضده حتى ثاروا بزعامة ابنه هنري الصغير سنة ١١٠٤ (٢) . ويبدو أنه لم يتبق لدى هنري الرابع وقتئذ من الصبر والعزيمة ما يكفي للدخول في صراع جديد ضد البابوية ، فاستسلم لابنه هنري الخامس وتنازل عن العرش سنة ١١٠٥ ثم لم يلبث أن توفي الأب في العام التالي .

وسرعان ما أدرك هنري الخامس أن خيانه لأبيه لم تفده كثيرا ، وأن البابوية التي اعترفت به ملكا في حياة أبيه أخذت تمكر أمامه الجود داخل ألمانيا وخارجها . هذا في الوقت الذي استكشفت البابوية أن هنري الخامس لم يقل عن أبيه تمسكا بحقوقه في التقليد العلماني ، وأنه أخذ - بمجرد اعتلائه العرش - يملأ الأسقفيات الشاغرة في الامبراطورية وفق هواه دون الرجوع الى رأى البابوية (٣) . وهكذا استمرت مشكلة التقليد العلماني بدون حل ، اذ تمسك كل من البابا والامبراطور بحقوقه في تقليد الأساقفة . وبعد أن قضى هنري الخامس سنتين في حروب ضد هنغاريا وبوهيميا ، عزم على تصفية الموقف مع البابوية . ولكن هنري الخامس - على النقيض من والده - قرر الاتفاق أولا مع كبار الأمراء لجعل من ألمانيا جبهة متحدة تسانده في صراعه المقبل مع البابوية (٤) . وهكذا استطاع هنري الخامس أن يستأنف معركة التقليد العلماني وهو مطمئن تماما الى مساندة أمراء

(1) Barraclough: op. cit. pp. 126—127.

(2) Hayward: op. cit. p. 170.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 454—455.

(4) Barraclough: op. cit. pp. 128—129.

ألمانيا وأساقفتها ، فرحل الى ايطاليا سنة ١١١٠ على رأس جيش من ثلاثين ألف مقاتل ليتوج امبراطورا في روما وليثبت حقوق الامبراطورية (١) وفي تلك المرة لم يصادف هنرى الخامس مقاومة تذكر في ايطاليا بسبب حالة الانقسام التى كانت تعانىها من جهة وعدم كفاية البابا باسكال الثانى من جهة أخرى . وربما كان من العوامل التى أضعفت مركز البابا فى تلك المرحلة أن ماتيلدا - أميرة تسكانيا - وهى الحليفة التقليدية للبابوية فى نضالها ضد الامبراطورية ، أسرعت هذه المرة بالخضوع لهنرى الخامس وأعلنته وريثا لها فى امارتها ، وبذلك نكثت عهدا سابق بمنح أراضيها للبابوية (٢) . وفي هذه المحنة لم يبق أمام البابا باسكال الثانى سوى أن يفكر فى الوصول الى حل سلمى مع هنرى الخامس عندما اقرب الأخير من روما على رأس قواته فى أوائل سنة ١١١١ (٣) .

أما شروط الاتفاقية التى عرضها البابا على هنرى الخامس فجماعت غريبة فى طابعها جديدة فى نوعها ، اذ تقضى بأن تتنازل الكنيسة عن كل ما لها من أراض وحقوق اقطاعية وقضائية حصلت عليها منذ أيام شارلمان (٤) ، مكتفية بالعشور وبما يتبرع به الخيرون ، وفى مقابل ذلك تنتهى مصلحة الامبراطور فى التمسك بتقليد الأساقفة ، ويترك هذا الحق للبابا وحده . ومن هذا العرض يتضح مدى استعداد الكنيسة للتضحية بكل ما تمتعت به من حقوق وامتيازات دنيوية مقابل احتفاظها بحقوقها الروحية ، وعلى رأسها تقليد الأساقفة والاشراف عليهم (٥) . ومن الطبيعى أن يقبل هنرى الخامس هذا العرض الذى يعطيه ملكية ضياع الكنيسة الواسعة ، ولكن المشكلة كانت تكمن فى موقف الأساقفة ورجال الكنيسة الذين سيفقدون أملاكهم وحقوقهم

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 155.

(2) Barraclough: op. cit. p. 129.

(3) Orton: op. cit. p. 216.

(4) Barraclough: op. cit. p. 129.

(5) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 460—461

وينخفضون فى نميشتهم الى مستوى معين لم يعتادوه فى القرون الأخيرة (١) -
وعندما اكتظت كنيسة القديس بطرس فى روما بالجموع التى وفدت لمشاهدة
تويج الإمبراطور فى يوم الأحد ٢٢ فبراير سنة ١١١١ ، بدأ البابا الحفل
بقراءة نص الاتفاقية الجديدة بينه وبين هنرى الخامس ، فثار الأساقفة الألمان
والإيطاليون جبيما واشتد سخطهم على البابا الذى قبل أن يضحى بأملاتهم
وحقوقهم مع احتفاظه هو بحقوق البابوية وأملاتها سليمة لم تمس (٢) •
ولم تلبث أن امتدت الثورة الى طرقات روما حيث أخذ الناس يعملون القتل
قيمن يصادفونه من الألمان ، مما جعل البابا يعدل عن الاتفاقية ويواجه هنرى
الخامس وحيدا دون نصير • وكان أن ألقى ملك ألمانيا القبض على البابا
والكرادلة وأجبرهم على الرضوخ له فى مسألة التقليد العلماني ، فرضى
البابا أن يقوم الملك بتعيين الأساقفة وتقليدهم حسبما يرى ، بذلك انتصر
هنرى الخامس وثار لما حل بأبيه فى كانوسا (٣) •

على أن المخلصين من أبناء الكنيسة لم يرضوا عن هذا الاستسلام فاشتد
حقهم على البابا باسكال الثانى ، ولم يجد البابا مخرجا من موقفه سوى نقض
الاتفاقية المعقودة بينه وبين الإمبراطور ، على أساس أنها تمت تحت تأثير
الضغط والارهاب (٤) • وهكذا أخذت الصعاب تحيط بالإمبراطور هنرى
الخامس لا سيما بعد أن دبرت بعض المؤامرات وقامت عدة ثورات ضده فى
أنحاء متفرقة من ألمانيا (٥) • وفى ذلك الوقت توفيت الأميرة ماتيلدا فى
إيطاليا سنة ١١١٥ بعد أن أوصت أخيرا بممتلكاتها الواسعة للبابوية ، ولو أن
وصية الأميرة ماتيلدا نفذت فعلا واستولت البابوية على ممتلكاتها لأصبح البابا
أعظم سلطة زمنية فى إيطاليا ، ولكن الإمبراطور هنرى الخامس أسرع الى
إيطاليا فى العام التالى لاثبات حق الإمبراطورية فى تلك التركة ، واحتل روما

(1) Cam. Med. Vol. 5, pp. 102—103.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 143.

(3) Barraclough: op. cit. p. 130.

(4) Hayward: op. cit. p. 172.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 144.

سنة ١١١٧ حيث توجت زوجته الانجليزية (١) . أما البابا فقد فر من روما ليحتمي بالنورمان في الجنوب ولكنه لم يلبث أن مات سنة ١١١٨ قبل أن يبت برأى حاسم في توقيع عقوبة الحرمان على الاسراطور (٢) . وقد خلف باسمال الثاني البابا جلاسيوس الثاني (١١١٨ - ١١١٩) ثم البابا كالكستس الثاني (١١١٩ - ١١٢٤) . وكان الأخير سياسيا قديرا جمع بين الصفتين الدينية والدنيوية لكونه ابن حاكم برجنديا . لذلك صمم البابا كالكستس الثاني من أول الأمر على فض النزاع مع الامبراطورية ، فمقد مجعما دينيا لهذا الغرض في ريمس كما أرسل مندوبين الى الامبراطور للتفاهم معه ، بل ان البابا اتجه بنفسه نحو موزون Mouzon (أكتوبر ١١١٩) لمفاوضة الامبراطور ، لولا أن الأخير حضر على رأس مظاهرة عسكرية ضخمة جعلت البابا يفضل الاسراع بالعودة من حيث أتى (٣) . على أنه يبدو أن الامبراطور هنري الخامس كان قد مل النزاع هو الآخر فظهر استعدادا للتفاهم ، وبذلك أخذ الطرفان يبحثان الاشكال لأو مرة في جو مشبع بروح الاعتدال والرغبة في التفاهم . وليس معنى ذلك أن طريق التفاهم أصبح ممهدا سهلا ، اذ يبدو أن الجروح القديمة لم تكن قد اندملت بعد ، ومن ثم دفع الشك الجانبين الى الدخول في تفاصيل صغيرة حتى انتهى الأمر بقطع المفاوضات وتوقيع قرار الحرمان ضد هنري الخامس سنة ١١٢٠ (٤) .

ولم يلبث هنري الخامس أن أدرك عاقبة المبالغة في التشكك والاسراف في سوء الظن لا سيما بعد أن لمس ازدياد نفوذ كبار الأمراء في ألمانيا . هذا في الوقت الذي عاد البابا كالكستس الثاني فأرسل الى الامبراطور موضحا له أن هدف البابوية ليس اضعاف الامبراطورية وتقليل شأنها وإنما تعظيم قدرها وتقوية نفوذها (٥) . وهكذا عادت روح الاعتدال والرغبة في التفاهم لتمهد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 104.

(2) Barraclough: op. cit. p. 131.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 479.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 146.

(5) Barraclough: op. cit. p. 132.

لاستئناف المفاوضات التي قدر لها النجاح تلك المرة ، حتى انتهى الأمر بعقد اتفاقية ورمز Worms الشهيرة بين هنري الخامس وكالكستس الثاني سنة ١١٢٢ (١) . وتنص هذه الاتفاقية على أن يكون انتخاب الاساقفة ومقدمي الأديرة خارج ألمانيا وفق القانون الكنسي دون أى تدخل من جانب السلطة العلمانية ، وبعد الاحتفال بتقليد الأسقف دينيا يستطيع الامبراطور أن يكلفه أو يزوده بأية سلطة . أما فى ألمانيا فيكون اختيار الاساقفة عن طريق الانتخاب ، وللإمبراطور أو مندوبه حق حضور عملية انتخاب الأسقف . دون الالتجاء الى السيمونية أو العنف ، . وبعد أن يتم انتخاب الأسقف ، قانونيا يقلده الامبراطور تقليدا علمانيا قبل تقليده الدينى (٢) .

ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تحقق كل ما كانت تصبو اليه الكنيسة لأن حضور الامبراطور أو مندوبه عملية انتخاب الأسقف من شأنه أن يؤثر فى سير الانتخاب ، ولكن يكفى - على أى حال - أن الكنيسة أحرزت نصرا ولو جزئيا بتحديد سلطة الامبراطور فى اختيار رجال الدين مما جعل البابا يظل سيد الموقف فى أوروبا . وبعبارة أخرى فاننا نخرج من هذه الاتفاقية بأن الامبراطورية دخلت دائرة النزاع مع البابوية حول التقليد العلماني وهى فى أوج قوتها وسلطانها ، وخرجت من هذا النزاع مكسورة الجناح بعد ما نزل بها من هزائم نكراء بحيث يظهر الفارق واضحا بين موقف كل من هنري الخامس وسلفه هنري الثالث (٣) وقد حاول بعض الكتاب أن يصور الموقف عند عقد اتفاقية ورمز بأن الامبراطور كان أمامه أن يختار بين الاحتفاظ بالرغيف كاملا أو الاكتفاء بنصفه فأجبرته البابوية على الاكتفاء بالنصف ، فى حين كان على البابوية أن تختار بين النصف الثانى للرغيف أو البقاء دون نصيب ففازت بالنصف . وهكذا لم يستأثر فريق دون آخر بتقليد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 107.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 483.

(3) Bryce: op. cit. p. 161.

رجال الدين وبقى الأمير مناصفة بين الطرفين (١) .

ولكن اذا كانت اتفاقية ورمز سنة ١١٣٢ وضعت حدا للنزاع حول التقليد العلماني وأنهت الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ، الا أنها لم تضع حدا للصراع بين السلطين الدينية والدنيوية (٢) . ذلك أنه يتضح من دراسة شروط هذه الاتفاقية أنها لم تمس جوهر النزاع بين السلطين ولم تتعرض للمشكلة الأساسية التي كمن فيها الخلاف ، وهي أيهما أسمى وأيهما يجب أن تكون له السيادة العليا : البابوية أم الامبراطورية (٣) ؟ وما دامت هذه المشكلة الكبرى قائمة دون حل فانه لا يمكن القول بأن النزاع بين البابوية والامبراطورية قد وصل نهاية ترضى الطرفين ، لأن مشكلة التقليد العلماني لم تكن في حقيقة أمرها الا مظهرا للتنافس بين البابوية والامبراطورية حول سيادة العالم (٤) .

احوال الامبراطورية بعد اتفاقية ورمز :

أما عن نتائج هذا الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلماني فمن الواضح أنها كانت على جانب كبير من الخطورة بالنسبة للامبراطورية . ذلك أن محاولة البيت السالي إقامة ملكية قوية باءت بالفشل ، بمعنى أنه ليست البابوية أو الامبراطورية هي التي خرجت فائزة من هذا الصراع ، وانما كان كبار الأمراء في ألمانيا هم الذين انتهزوا فرصة انصراف ملوكهم الى النزاع مع البابوية ليدعموا قوتهم وسلطانهم (٥) . وهكذا أدى الصراع حول مشكلة التقليد العلماني الى ازدياد شدة التيار الاقطاعي في ألمانيا حتى غدت حصون الأمراء وقلاعهم بمثابة المراكز الأساسية للتنظيم

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 463.

(2) Barraclough: op. cit. p. 133.

(3) Idem: pp. 139—140.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 184.

(5) Barraclough: op. cit. p. 134.

السياسى فى البلاد • وقد ظهر أثر هذا التطور بوضوح فى المجتمع الألمانى اذ أصبح ضعاف الأحرار - وبخاصة من المزارعين - أضعافا ، فى حين غدا أقوىائهم فرسانا وأفعالا ، تربطهم روابط عديدة بسادتهم الاقطاعيين ، الأمر الذى يجعلنا نقرر أن النزاع حول التقليد العلمانى ترك أثرا خطيرا فى بناء المجتمع الألمانى فى تلك الحقبة من العصور الوسطى (١) • ومن الواضح أن انتشار النظام الاقطاعى وازدياد نفوذ كبار الأمراء جاء على حساب الملكية وسلطانها ، لأن هذا الازدياد وما صحبه من تناقص نسبة الأحرار من السكان معناه أن الملك أو الامبراطور لم يعد له نفوذ مباشر الا على نسبة متناقصة من أهالى البلاد ، فى حين لم تعرف الأغلبية المتزايدة سلطانا مباشرا سوى سلطان سادتهم الاقطاعيين (٢) •

أما البابا كالكستس الثانى والامبراطور هنرى الخامس فلم تقدر لهما الحياة طويلا بعد اتفاقية ورمز ، اذ توفى الأول فى ديسمبر سنة ١١٢٤ ولحق به الثانى فى مايو سنة ١١٢٥ • وقد ساعدت كثير من الظروف المختلفة التى أحاطت بالعرش الألمانى والبابوية على تهدئة الموقف بعد اتفاقية ورمز • ففى ألمانيا أجمع الأمراء عقب وفاة هنرى الخامس على اختيار لوثر الثانى دوق سكسونيا ملكا ، وهو المدبوق الذى عارض هنرى الخامس معظم حكمه والذى كان محبوبا من الألمان بسبب بلائه ضد السلاف (٣) • وكان من أشد أنصار لوثر الثانى الأمير هنرى المتكبر دوق بافاريا الذى تزوج ابنة لوثر وأنجبت هذه الزوجية هنرى الأسد واث دوقيتى بافاريا وسكسونيا (٤) • على أنه يبدو أن اختيار لوثر الثانى للعرش سنة ١١٢٥ لم يعجب آل هو هشتاوفن

(١) Idem: pp. 136—138.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 108, 163 & Barracklough op. cit. p. 139.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 334—335.

(٤) Eyre, op. cit. p. 159.

(م ٢٤ - أوروبا فى العصور الوسطى)

أمرء سوابيا ، هذا فضلا عن أن لوثر الثانى لم يكن الرجل القادر على
لسترداد هيبة الامبراطورية وعظمتها نتيجة لضعفه وتقدم سنه .

هذا عن ألمانيا ، أما الشطر الثانى من الامبراطورية وهو ايطاليا ، فلن
البابوية سرعان ما وجدت نفسها فى مأزق خطير أمام توسع النورمان فى
جنوب ايطاليا بعد أن تم لهم الاستيلاء على صقلية سنة ١٠٩١ (١) . ومن ثم
وحدوا صقلية وكالبريا وأبوليا تحت سيطرتهم مما أفزع البابوية ، فهبت
تدافع عن نفسها أمام هذا الخطر العظيم . وكان أن أخذ البابا هنريوس
الثانى (١١٢٤ - ١١٣٠) يجاهد عبثا لتأليف حلف من أمرء ايطاليا ضد
النورمان ، حتى اضطر اخيرا الى الاعتراف سنة ١١٢٨ بمركز روجر الثانى
فى أبوليا وصقلية . ولم يلبث النورمان أن استصغروا لقبى « كونت » و
« دوق » اللذين تلقب بهما أمراؤهم الأوائل فاحتفل فى يوم رأس السنة
عام ١١٣٠ بتتويج روجر الثانى ملكا فى بالرمو (٢) . ثم كان أن نشأ نزاع
حول الكرسي البابوى بعد وفاة البابا هنريوس الثانى ، ففر البابا انوسنت
الثانى الى ملك ألمانيا مستنجدا به ضد خصومه ، ولما أنجده لوثر الثانى ،
كافأه البابا بتتويجه امبراطوريا فى روما سنة ١١٣٣ . والمهم فى أمر هذه
الزيارة التى قام بها لوثر الثانى لايطاليا سنة ١١٣٣ هو أنه خالف سياسة
سلفه هنرى الخامس واعترف بحق البابوية فى تركة الأميرة ماتيلدا ، على
أن يأخذ الملك هذه التركة من البابا كإقطاع مقابل ايجار سنوى . ومعنى
ذلك أن البابوية حصلت على دليل جديد يظهر الامبراطور فى صورة فصل
إقطاعى للبابا (٣) .

وعند وفاة الامبراطور لوثر الثانى سنة ١١٣٨ ، كان أقوى رجلين فى
ألمانيا هما هنرى المتكبر دوق بافاريا وسكسونيا وعميد البيت الولفى ، وكونراد
هو هشتاوفن دوق سوابيا . وقد خشي كبار النبلاء قوة هنرى وبطشه ، كما

(1) Haskins: The Normans in European History p. 209.

(2) Idem, p.. 210—211.

(3) Barracough: op. cit. p. 157.

تخوفت الكنيسة من قيام رجل قوى مثله فى عرش الامبراطورية ، ولذلك تم اختيار كونراد الثالث هوهنشتاوفن ملكا على ألمانيا « ١١٣٨ - ١١٥٢ » (١) . ومنذ ذلك الوقت أخذ يشتد التنافس والعداء بين الولفين - وهم أمراء سكسونيا - والجليليين - وهم دوقات أسرة هوهنشتاوفن - نسبة الى قلعة فى اقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم (٢) . وقد تطور اللفظ الأول فى الصيغة الايطالية الى الجلفين Geulfs وأصبح يطلق على أعداء الامبراطورية بوجه عام فى نزاعها مع البابوية ، فى حين أصبح اسم الجليليين يطلق على أنصار الامبراطورية وأعداء البابوية بوجه عام (٣) .

وكان كونراد الثالث هوهنشتاوفن ضعيفا ، وهو أول ملك من ملوك ألمانيا لا يتوج امبراطورا منذ أوتو العظيم (٤) . وزاد من ضعفه أن تغيير البيت الحاكم أكثر من مرة سنة ١١٢٥ ثم سنة ١١٣٩ وما تبع ذلك من حروب أهلية ، أدى الى انكماش الأراضي الخاصة بالتاج ، وبالتالي ، الى ضعف الملك الذى استمد قوته فى ظل النظام الاقطاعى من ضياعه الخاصة . وهكذا وجد كونراد الثالث نفسه لا يمتلك قوة مادية - لا سيما فى شمال ألمانيا - تمكنه من الوقوف موقفا قويا من أعدائه فى الداخل والخارج . وقد جاء ضعف الملكية الألمانية فى تلك الحقبة مصحوبا بظاهرة واضحة هى ازدياد نفوذ كبار الأمراء فى انتخاب الملك ، وهى الظاهرة التى غدت بمثابة الطابع المميز للفترة الواقعة بين سنتى ١١٠٦ ، ١١٥٢ (٥) . أما فيما يتعلق بموقف كونراد الثالث من ايطاليا والبابوية فيلاحظ أنه أضاع معظم جهوده فى الحملة الصليبية الفاشلة المعروفة بالثانية ، مما أضعف هيئته فى ايطاليا حتى أعان البابا انوسنت الثانى فى السنة نفسها التى اعتلى كونراد الثالث العرش (مجمع ١١٣٩) عدم ارتباطه باتفاقية ورمز ، وأن البابا له السيادة العليا على

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 231.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 347—349 & 404.

(3) Eyre: op. cit. p. 159.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 358—359.

(5) Barraclough: op. cit. pp. 158—160.

جميع الحكام العلمانيين الذين لا يحق لهم التدخل فى شئون الكنيسة سواء ما يتعلق بأراضيها أو بتقليد رجالها (١) • وعلى الرغم من كل ذلك فقد أبى كونراد الثالث أن يدخل فى حرب سافرة مع البابوية ، وفضل العمل على توطيد نفوذه فى ألمانيا عن طريق الحد من نفوذ البيت الولفى ، مما أدى الى حرب أهلية لم تنته الا سنة ١١٤٢ (٢) •

وعندما مات كونراد الثالث سنة ١١٥٢ خلفه ابن أخيه فردريك الأول بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠) الذى كان شابا فى الثلاثين من عمره امتاز بالشجاعة والفصاحة والكبرياء ، مع اتصافه بسرعة الغضب والايمان المطلق بعظمة الوظيفة الامبراطورية وسموها (٣) • وقد أخذ فردريك بربروسا يعمل منذ اعتلائه العرش على استرداد مكانة الامبراطورية ومجدها المفقود ، وهو المجد الذى لا يتحقق - فى نظره - الا بالربط بين شطرى الامبراطورية فى ألمانيا وإيطاليا • لذلك بدأ بعقد معاهدة كونستانس مع البابا سنة ١١٥٣ وفيها تفهد فردريك الأول بعدم عقد صلح مع روجر الثانى ملك صقلية دون موافقة البابا ، وأن يقوم فردريك باخضاع أعداء البابا والثائرين ضده مقابل تبويب البابا له امبراطورا ومساندته ضد خصومه فى ألمانيا (٤) •

ولكن فردريك كان أعقل من أن يذهب الى إيطاليا وينصرف الى شئونها قبل أن يوطد نفوذه فى ألمانيا • لذلك أخذ يتقرب الى الأمراء ويسترضيهم ، فرد بافاريا الى هنرى الأسد عميد الولفين وأعطاه سلطانا شبه مطلق عليها وعلى سكسونيا ، كما استرضى بقية الأمراء حتى قوى نفوذهم على حسابيه ، وبعد ذلك بدأ يوجه بصره شطر إيطاليا (٥) • ويبدو أن الموقف فى إيطاليا كان خطيرا حينذاك الى الدرجة التى جعلت فردريك الأول يسرع بالذهاب

(1) Hayward: op. cit. pp. 178—179.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 475.

(3) Bryce: op. cit. p. 166.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 247—248.

(5) Thompson: op. cit. Vol. 1, 447.

«لها قبل أن يفرغ من اتمام مشروعاته الرئيسية في ألمانيا نفسها . ذلك أن البابوية سرعان ما أنهكتها الصراع ضد النورمان في الجنوب ، في حين استطاعت المدن اللباردية في شمال إيطاليا أن تتحرر من نفوذ الأمراء الاقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة في ادارة شئونها (١) وكان أن اشتد التنافس بين هذه المدن حتى انتهى الأمر بتكتلها في حلفين متضادين ، أحدهما بزعامة ميلان والثاني بزعامة بافيا ، وإن كانت رغبتها في التمتع بالاستقلال ومباشرة نشاطها الاقتصادي جعلتها تتفق جميعا في سياسة واحدة ، هي مقاومة أية سيطرة تحاول الامبراطورية فرضها عليها (٢) . ولم يحاول أحد حكام الامبراطورية - مثل لوثر الثاني أو كونراد الثالث - أن يتدخل لاختتام هذه الحركة التحررية التي لم تلبث أن امتدت الى روما نفسها . ذلك أن أهالي روما قاموا بثورة ضد البابا انوسنت الثاني سنة ١١٤٢ مطالبين بتحويل مدينتهم هي الأخرى الى قومون مستقل ، حتى انتهى الأمر بفرار البابا ايوجنيوس الثالث Eugenius III من روما سنة ١١٤٧ (٣) . والتربس في أمر هذه الثورة أن زعيمها - وهو أرنولد البريشي Arnold of Brescia كان من رجال الدين ، فأمن بما سبق أن نادى به البابا باسكال الثاني سنة ١١١١ من آراء تستهدف تخلي الكنيسة عن أراضيها الاقطاعية واكتفائها بالعشور والعودة الى حياة البساطة التي اتسمت بها المسيحية الأولى (٤) .

ومهما يكن من أمر ، فقد استعجد البابا أيوجنيوس الثالث (١١٤٥ - ١١٥٣) ثم البابا أدريان الرابع (١١٥٤ - ١١٥٩) بالملك فردريك بربروسا ، الذي لبي النداء سنة ١١٥٤ ، كمادة أسلافه من حكام الامبراطورية الرومانية المقدسة . وهنا نلاحظ أن الغرض الأساسي من ذهاب فردريك الأول الى إيطاليا في تلك السنة كان اكتساب رضا البابوية وإثبات حسن نية لها ،

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 361.

(2) Eyre: op. cit. p. 165.

(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 486.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 371--372.

وليتوج ابراطورا فى روما مقابل ما يؤديه للبابا من خدمات أهمها تحطيم قوة أرنولد البريشى وتثبيت سلطة البابوية فى روما (١) • وكان أن أستطاع فردريك بجيشه الصغير الذى لم يتعد ألفا وثمانمائة فارسا أن يخضع المدن اللمباردية ، فاعترفت له بالسيادة بعد أن أربها وأعطاه درسا قاسيا (٢) • وبعد ذلك اتجه فردريك الى روما حيث كان أدريان الرابع قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١١٥٤ ، وهو الانجليزى الوحيد الذى تولى هذا المنصب فى العصور الوسطى (٣) • وكان هذا البابا الجديد قوى الشخصية واسع المعرفة ، فلم يستسلم للاخطار التى واجهت البابوية عندئذ ، وانما أنزل قرار الحرمان ضد روما وأنزل اللعنة على أهلها الثائرين ، وعندئذ أحجم الحجاج عن زيارة مدينة منضوب عليها ، ففقد أهلها موردا غزيرا لثروتهم واضطروا الى طرد ارنولد البريشى والدخول فى طاعة البابوية (٤) •

على أن مشاكل البابوية لم تقف عند ذلك الحد ، إذ أغار وليم النورمانى على كامبانيا Gampania على الشاطئ الغربى جنوبى روما - ونهبه ودمره ، وهدد بالزحف على روما نفسها • لذلك أسرع أدريان الرابع بتجديد اتفاقية كونستانس التى سبق أن عقدها أيوجينوس الثالث مع فردريك الأول سنة ١١٥٣ ، حتى انتهى الأمر بتتويج فردريك الأول امبراطورا فى كندراثة القديس بطرس بروما (١١٥٥ - ١١٥٦) (٥) • وقد تم التتويج سرا وبسرعة ، خوفا من غضب أهالى روما الكارهين لفردريك ، والذين اشتدت ثورتهم عندما أعلن الخبر ، فى حين تناقصت جيوش الامبراطور واشتدت به الحاجة الى المؤن والامدادات ، فلم يستطيع الثبات فى وجه أهالى

-
- (1) Barraclough: op. cit. p. 178.
 - (2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 248.
 - (3) Orton: op. cit. p. 232.
 - (4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 249.
 - (5) Hayward: op. cit. p. 184

روما التأثيرين واضطر الى الفرار منها وبصحبة البابا (١) * وسرعان ما أدرك
فردريك صعوبة البقاء في إيطاليا ، ولا سيما بعد أن سمع بأن الأوضاع في
ألمانيا تستدعى عودته اليها ، فعبر جبال الألب الى بلاده تاركا البابا وحده
في شمال إيطاليا . وهكذا اضطر أدريان الرابع الى مصالحة أهالي روما على
أسس الاعتراف بمدنيتهم قومونا مثل غيرها من القومونات الإيطالية . وعلى
هذا الأساس استطاع العودة الى روما في صيف سنة ١١٥٥ (٢) *

أما الامبراطور فردريك بربروسا فقد عاد الى ألمانيا ليواصل جهوده في
توحيدها وتقوية سلطانه على الأمراء . قد تم للامبراطور ما أراد حتى بدا
في نظر المعاصرين أعظم قوة في أوروبا ، لا سيما بعد أن مد نفوذه الى
برجنديا عن طريق الزواج من وريثتها سنة ١١٥٦ (٣) . وزاد من نفوذ
فردريك الأول وسطوته على أوروبا أن بولسلاف الرابع صاحب بولسندا
وبولسلاف الثاني صاحب بوهيميا دانا له بالنبعية ، في حين اعترف له ملك
الدانين - بل هنري الثاني ملك إنجلترا - بالسيادة (٤) ، وبذلك لم يبق
أمام الامبراطور سوى تدعيم نفوذه في إيطاليا . وكانت العلاقة قد ساءت بين
فردريك الأول والبابا أدريان الرابع عقب انسحاب الأول الى ألمانيا في صيف
سنة ١١٥٥ تاركا البابا وحيدا في إيطاليا . وهنا نعود فنكرر القول بأن
المشكلة الكبرى بين الامبراطورية والبابوية كانت لاتزال قائمة . واذا كانت
الظروف قد اضطرت البابا والامبراطور الى الاتفاق لمواجهة الأخطار المشتركة
التي حددت نفوذهما من ناحية القومونات الإيطالية من جهة وثورة
أرنولد البريشي من جهة أخرى وخطر النورمان في الجنوب من جهة
ثالثة ، فان هذا الاتفاق لم يكن معناه اطمئنان الطرفين بعضهما الى بعض بأي
حال من الأحوال .

والواقع أن مركز البابا أدريان الرابع كان ضعيفا فعلا عندما تركه الامبراطور

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 421.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 250.

(3) Barraclough: op. cit. p. 173.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 492.

وحيدا فى صيف سنة ١١٥٥ (١) • فالامبراطور ترك البابا دون أن يساعده فى اخضاع روما أو دفع الخطر النورمانى الذى هدد الأملاك البابوية تهديدا واضحا • لذلك أدرك البابا أدريان الرابع أنه لابد من الاعتماد على نفسه ، فألف حلفا مع أمراء أبوليا الاقطاعيين الذين اشتدت رغبتهم فى التخلص من سيطرة النورمان ، كما أجرى مباحثات مع مانويل الأول امبراطور الدولة البيزنطية (١١٤٣ - ١١٨٠) لمساعدته فى حربهم (٢) • ويبدو أن وليم النورمانى أحس بخطر هذه المحالفات التى يعقدها البابا ضده ، فأسرع الى عقد اتفاقية بفتتو سنة ١١٥٦ مع البابوية ، ورضى باعلان تبعيته للبابا مقابل موافقة البابوية على قيامه فى حكم أبوليا وصقلية (٣) • وفى نفس هذه السنة أنزل وليم الأول النورمانى هزيمة كبرى بالبيزنطيين عند برنديزى حتى اضطر الامبراطور مانويل كومنين الى عقد الصلح مع الملك النورمانى سنة ١١٥٨ ونجحت وساطة البابوية فى اتمام ذلك الصلح (٤) • هذا فى الوقت الذى استرضى البابا أهالى روما بأن أقرهم نهائيا على قيام القومون الرومانى وبذلك تغلب أدريان الرابع على جميع المشاكل التى واجهته دون حاجة الى مساعدة الامبراطورية •

الدور الثانى من ادوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

هكذا يبدو أن كلا من البابا أدريان الرابع والامبراطور فردريك الأول استطاع أن يمكن لنفسه ويقوى مركزه فى بلاده ، ولم يبق بعد ذلك سوى أن يواجه كل منهما الآخر • والواقع أن فردريك الأول استاء من تحالف البابا مع وليم النورمانى من جهة ومع أهالى روما من جهة أخرى واعتبر ذلك نقضا للعهد بين الطرفين ، فى حين أخذ البابا أدريان الرابع يتخوف من ازدياد نفوذ الامبراطور واتساع سلطانه بعد أن استقرت له الأمور داخل

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 422.

(2) Vasiliev: op. cit. Tome II, p. 13.

(3) Orton: op. cit. p. 233.

(4) Ostrogorsky: op. cit. p. 342.

الامبراطورية وخارجها (١) * وصادف أن اختار البابا مندوبا أرسله الى ألمانيا - هو الكاردينال رولاند ، الذي عرف بصلاحه رأيه وفوة عقيدته في سمو الكنيسة ، فذهب المندوب ليغرب عن استياء البابا من بعض تصرفات الامبراطور ، لا سيما حبس كبير أساقفة لوند Lund الذي كان صديقا حميما لأدريان الرابع . وعندما دخل المندوب البابوي على الامبراطور في مجمع بسانسون Besancon سنة ١١٥٧ حياه تحية غربية ، اذ قال « ان البابا يحييك كوالد والكرادلة يحيونك لاختوة » فدهش فردريك من هذه التحية التي جعلت من الكرادلة اخوة مساوين للامبراطور ، وهو السيد العظيم خليفة قيصر وشارلمان (٢) * على أن الذي ضايق فردريك هو أن رسالة البابا اليه احتوت عبارة مؤداها أن التاج الامبراطوري يعتبر Beneficium من البابا (٣) * وهذا اللفظ اللاتيني يحتمل معنيين : اذ يمكن تفسيره على أنه يعني « حميلا أو معروفا Benefit » كما يمكن تفسيره بمعنى اقطاع « Benefice » (٤) * واختار الامبراطور وأنصاره أن يفسروا اللفظ بمعناه الأخير ، أي أن البابا يعتبر التاج الامبراطوري منحة أقطعها للامبراطور ووهبها له * ومن ثم ثار فردريك لكرامته وكرامة وظيفته الامبراطورية ، وأيده في موقفه الأساقفة الألمان * ولم يكن الامبراطور مبالغا في غضبه أو ثورته لأن المندوب البابوي نفسه أصر على تفسير اللفظ على أنه يعني « اقطاع » ، وقال لفردريك في شجاعة « ممن اذن يتسلم الامبراطور امبراطوريته ان لم يتسلمها من البابا (٥) ؟ » ولكن فردريك أدرك جيدا أن التسليم بهذا المبدأ يعني خضوع الامبراطور للبابا ، ولذلك رد مدافعا عن حقوقه « انا تتسلم الامبراطورية من الله عن طريق انتخاب الأمراء ، ان شريعة الله تقضى بأن يكون حكم العالم بواسطة سيفي الامبراطورية والبابوية ،

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 253.

(2) Ibid.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 390—420.

(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 341—342.

(5) Bryce: op. cit. p. 166.

كما قضت تعاليم القديس بطرس بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله ويكرموا الملك (١) • وعلى هذا فإن كل من يقول بأننا تسلمنا التاج الامبراطورى اقطاعا من البابا يعتبر ملحدا باطل العقيدة لأنه يخالف أوامر الله وتعاليم القديس بطرس • (٢)

أما البابا أدريان الرابع فقد ارتبك فى ذلك الموقف واضطر الى التصريح فى أوائل العام التالى بأنه قصد باللفظ معناه العام - أى معروف أو جميل - ولم يقصد معناه الاقطاعى الخاص • وبذلك تجنب البابا الاصطدام السريع المباشر مع الامبراطورية ، وإن ظل سوء النية قائما عند الطرفين (٣) • وبعبارة أخرى فإن أهمية هذا الحادث تبدو فى أنه كشف النقاب عن حقيقة شعور كل من البابوية والامبراطورية نحو الطرف الآخر كما مهد لتجدد النزاع السافر بين الجانبين • وإذا كان النزاع بين الامبراطورية والبابوية قد اتخذ فى دوره الأول من مشكلة التقليد العلمانى محورا له فإنه فى هذا الدور الثانى تركز فى مشكلة القومونات الايطالية (٤) •

ذلك أن الامبراطور فردريك بربروسا كان - كما سبقت الإشارة - يعتقد اعتقادا راسخا فى عظمة الامبراطورية ، ويؤمن بأنه خليفة قيصر وشارلمان ، ومن ثم يجب أن يتمتع بما كان لهذين الامبراطورين من نفوذ عالمى وسلطان واسع • وقد رأى الامبراطور فردريك الأول أن كثيرا من الحقوق التى تمتعت بها المدن اللمباردية انما هى فى حقيقة أمرها حقوق منحها ملوك الفرنجة لكونتات المدن ومنهم انتقلت الى أساقفتها حتى استغلت القومونات فرصة مشكلة التقليد العلمانى فاستأثرت بهذه الحقوق (٤) • وبعبارة أخرى

(١) من الواضح أن الامبراطور استند فى هذه العبارة الى ما حاء فى العهد الجديد : (أكرموا الجميع ، أحبوا الاخوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك) رسالة بطرس الأولى ، الاصحاح الثانى ، ١٧ •

(2) Tout: The Empire and The Papacy, p. 254.

(3) Bryce: op. cit. p. 197.

(4) Eyre: op. cit. p. 65.

(5) Barraclough: op. cit. p. 180.

فان سيطرة الامبراطورية على المدن اللمباردية لا تغنى أكثر من استرداد حقوق الامبراطورية المفقودة في شمال ايطاليا * ومن الواضح أن تطبيق هذه الآراء عمليا كان يعنى اخضاع المدن اللمباردية في شمال ايطاليا لسلطة الامبراطورية المباشرة ، بل أيضا فرض السيطرة الامبراطورية على الأراضى البابوية نفسها بما فيها تركة الأميرة ماتيلدا التى استأثرت بها البابوية * ويطيى أن البابا كان لا يمكنه أن يفر هذا الوضع ، لأن أخضر ما كانت تخشاه البابوية هو ازدياد نفوذ الامبراطور في ايطاليا مما يؤدي الى وقوع البابا تحت رحمته * ولم يلبث أن أتاح الانشقاق بين المدن اللمباردية فرصة طيبة لتدخل الامبراطور (١) ، واذا وقف حزب كريمونا وباڤيا في جانب الامبراطور ضد الحزب الآخر الذى تزعمته ميلان * وكان أن عبر الامبراطور فردريك الأول جبال الألب في يولية سنة ١١٥٨ فخضعت له ميلان بعد مقاومة عنيفة ثم عقد الامبراطور مجمعا في رونساجليا Roncaglia (نوفمبر سنة ١١٥٨) أعلن فيه تمسكه بحقوقه في تعيين حكام امبراطورين (Podesta) في المدن اللمباردية يسرفون على سك العملة وجمع الضرائب (٢) *

على أن الأمور لم تتم للامبراطور في شمال ايطاليا في سهولة ويسر ، اذ توفى البابا أدريان الرابع سنة ١١٥٩ فخلفه الكاردينال رولاند الذى تلقب باسم اسكندر الثالث ، والذى ظل في منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاما (١١٥٩ - ١١٨١) حرص طوالها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها ، مما جعل النزاع بين البابوية والامبراطورية يتخذ جميع مظاهر العنف التى رأيناها في الدور الأول * وكان أن تألف تحالف بين سقلية والبابوية وميلان مما أحل بالتوازن الذى حققه فردريك في ايطاليا سنة ١١٥٤ - ١١٥٥ (٣) * وسرعان ما تجددت ثورة المدن اللمباردية وعلى رأسها ميلان بتحرر من البابوية ، فطلدت الحكام الامبراطورين وأخذ يشهد فيها شعور التعصب العنصرى ضد الدخلاء الألمان * وهنا واجه فردريك الموقف

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 279.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 427.

(3) Barracklough: op. cit. pp. 181 182.

بشدة وحزم فأخذ يحاصر المدن الثائرة ويدمرها - كما فعل مع كريما Crema - . أما ميلان فقد صمدت وقاومت حصار الامبراطور ثلاث سنوات حتى أرغمتها المجاعة على الاستسلام سنة ١١٦٢ ، وعندئذ دمرها فردريك تدميرا شاملا كما أخذ زعماءها رهائن عنده ، وبذلك أصبح الامبراطور سيد الموقف فى شمال ايطاليا (١) .

أما عن موقف فردريك الأول من البابا اسكندر الثالث فانه كان يعرف اخلاقه وآراءه جيدا ، لأن اسكندر البابا لم يكن سوى رولاند الكاردينال الذى أزعجت شدته الامبراطور فى مجمع بسانسون سنة ١١٥٧ . ولذلك صدم فردريك باختياره للبابوية ولم يجد أمامه سوى العودة الى سلاح الامبراطورية القديم ، وهو تعيين فكتور الرابع بابا امبراطوريا منافسا للبابا اسكندر الثالث (٢) . واذا كان اسكندر الثالث قد اضطر الى الانسحاب من روما بعد عدة أيام من توليه منصبه ، الا أنه ظل متمسكا بموقفه ، لا سيما بعد أن تم عقد مجمع دينى سنة ١١٦٠ تحت رعاية لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا ، وقرر كبار الأساقفة فى هذا المجمع الاعتراف ببابوية اسكندر الثالث والوقوف الى جانبه . وقد شجع هذا القرار البابا اسكندر الثالث على الفرار الى فرنسا بعد أن سقطت ميلان فى يد الامبراطور سنة ١١٦٢ وأضحى موقف البابوية محفوفا بالخطر فى ايطاليا (٣) وفى العام التالى - أى سنة ١١٦٣ - عقد اسكندر الثالث مجمعا فى تور أصدر قرار الحرمان ضد البابا الامبراطورى فكتور الرابع وأعوانه من الكرادلة (٤) .

وعلى الرغم من أن فردريك الأول استكشف عند عودته الى ألمانيا سنة ١١٦٢ أن كثيرا من رجال الكنيسة الألمانية وقفوا الى جانب البابا اسكندر

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 497.

(2) Hayward: op. cit. p. 185.

(3) Laviss, op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 39.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 257.

الثالث مطالبين بعقد مجمع لتسوية الخلاف بين البابوية والامبراطورية ، الا أنه لم يتأثر بهذه الازمة وأصر على موقفه + وعند وفاة البابا الامبراطوري فكتور الرابع أثناء زيارة الامبراطور لاطاليا للمرة الثالثة سنة ١١٦٤ ، اختار الامبراطور البابا باسكال الثالث ليحل محله (١) + وفي تلك الأثناء أخذ الحكم الالمانى فى شمال ايطاليا يتصف بالقسوة والخشونة حتى أصبح الايطاليون يعاملون على أنهم أعداء الامبراطور لا رعاياه + وليس هناك من شك فى أن هذه السياسة كانت خطرا على مصالح الامبراطورية وأهدافها ، حتى تألف حلف فيرونا سنة ١١٦٤ لمقاومة الحكم الامبراطورى (٢) + وفى ذلك الوقت لم يستطع البابا الامبراطورى باسكال الثالث أن يحتفظ بمركزه فى روما ، كما أن تلك الأخبار شجعت اسكندر الثالث على المغامرة والعودة الى ايطاليا سنة ١١٦٥ ، فدخل روما دخول الظافر وأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور (٣) + وسرعان ما تجدد نشاط المدن اللباردية ، فتقدمت البندقية لمساعدة حلف فيرونا ، مما جعل الامبراطور يعجل بالعودة الى ايطاليا للمرة الرابعة سنة ١١٦٦ + وفى تلك المرة لم يبدأ فردريك بالمدن اللباردية (٤) ، وانما اختار أن يستأصل « رأس الأفعى » فزحف على روما مباشرة وحاصرها حصارا عنيفا حتى سقطت فى يده سنة ١١٦٧ ، وعندئذ كانت خيبة أمل الامبراطور كبيرة عندما عرف أن غريمه اسكندر الثالث تمكن من الفرار جنوبا محتميا بحلفائه النورمان (٥) + ومهما يكن من أمر فقد دخل فردريك الأول روما فى تلك السنة ليتوج امبراطورا - للمرة الثانية - بيد البابا الامبراطورى باسكال الثالث + وجدير بالملاحظة أن العداء بين الامبراطوريتين الغربية والشرقية بلغ أشده فى هذه المرحلة ، فلم يحاول الامبراطور فردريك ببربروسا اكتساب الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الى جانبه

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 394.

(2) Barraclough: op. cit. p. 182.

(3) Hayward: op. cit. p. 186.

(4) Eyre: op. cit. p. 166.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 441.



ضد النورمان حلفاء البابا ، بل على العكس اتصل فردريك بقلج أرسلان سلطان قونية السلجوقي والعدو اللدود للامبراطور البيزنطى (١) .

ثم كانت أن أخذت المصائب تترى على الامبراطور ، فانتشر الطاعون فى جيشه وفنك برجاله فتكا ذريعا ، مما جعل المعاصرين يفسرون ذلك فى ضوء غضب الله ولعنة البابا اسكندر الثالث على الامبراطور . وقد شجعت هذه الأخبار المدن اللمباردية ، فكانت فيما بينها ما يعرف باسم الحلف اللمباردى سنة ١١٦٨ الذى اتسع حتى شمل جميع مدن سهول ايطاليا الشمالية من ميلان حتى البندقية ، ومن برجامو حتى بولونيا . وهكذا انسدت المسالك فى وجه الامبراطور فردريك ببروسا بحيث أنه لم يستطع العودة الى ألمانيا فى ربيع سنة ١١٦٨ الا بمشقة بالغة (٢) . وسرعان ما اكتسب الحلف اللمباردى قوة جديدة عندما باركه البابا باشاء مدينة جديدة تحمل اسمه - هى مدينة ألسندريا أو اسكندرية - Alexandria الى الشمال الغربى من جنوا (٣) .

وكان أن ساد السلام مدن العصبة اللمباردية مدة ست سنوات توفى أثناءها البابا الامبراطورى باسكال الثالث سنة ١١٦٨ وحل محله كالكستس الثالث . ولكن ايطاليا أصبحت من الناحية العملية خارج نفوذ الامبراطور فى الوقت الذى ازداد نفوذ البابا اسكندر الثالث زيادة كبيرة حتى فى ألمانيا نفسها . على أن الامبراطور فردريك ببروسا لم يكن بالرجل الذى يرضى بهذا الوضع ، وهو صاحب العقيدة الراسخة فى عظمة الامبراطورية وسموها . لذلك قام بحملته الخامسة على ايطاليا سنة ١١٧٤ ، وحينئذ تأهبت المدن اللمباردية للدخول من جديد فى صراع رهيب ضد الامبراطور (٤) . ولا يعنينا من حوادث هذه الفترة المتشابكة - بين حروب ومفاوضات - سوى

(1) Ostrogorsky, op. cit. p. 342.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 259.

(3) Hayward, op. cit. n. 187.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 445.

موقعة لينانو ، Legnano الى الشمال الغربى من ميلان ، وهى الموقعة الفاصلة بين جيوش مدن الحلف اللباردى من جهة والجيوش الامبراطورية من جهة أخرى (٢٩ مايو ١١٧٦) • ويبدو أن الروح الوطنية والشعور بالفوارق العنصرية واللغوية فملت فعلها عندئذ لتجتمع مختلف المدن فى شمال ايطاليا فى هيئة جبهة متحدة تقف فى وجه سيطرة الألمان وتدخلهم (١) • وهكذا حلت الهزيمة فى هذه الموقعة بالجيوش الامبراطورية ، ولم يستطع فردريك الأول الفرار الى بافيا الا بمشقة بالغة • وثمة أهمية أخرى لهذه الموقعة ، هى أنها تعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ أوروبا الحربى ، نظرا لأنها المرة الأولى التى استطاعت فيها جيوش المدن الناشئة أن تنزل الهزيمة بجيش امبراطورى يتبع النظم الاقطاعية التقليدية التى عرفتها أوروبا منذ القرن التاسع (٢) •

أما عن الموقف بين فردريك الأول وأعدائه بعد لينانو فيبدو أن نشوة النصر صرفت المدن اللباردية عن مطاردة الامبراطور وفلول جيشه ، بل ان بعض المدن - مثل كريمونا - أخذت تفكر فى عقد صلح منفرد مع الامبراطور (٣) • ولم يكن فردريك الأول أقل رغبة فى الصلح بعد أن سئم النضال وهدده بعض أعوانه - مثل رئيس أساقفة كولونيا - بالانشقاق غنه ان لم يسو أموره تسوية سريعة مع البابا • أما البابا اسكندر الثالث فقد أظهر من جانبه وقتئذ كفاية سياسية ، فلم يمانع فى فتح باب المفاوضات مع الامبراطور سنة ١١٧٦ (٤) • وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين بعض الوقت بسبب اصرار البابوية على شروطها وتمسكها بأرائها ، حتى انتقل البابا الى البندقية فى مارس سنة ١١٧٧ ليكون على مقربة من سير المحادثات • وأخيرا لم يجد الامبراطور فردريك مقرا من الخضوع والتسليم ، فدخل البندقية حيث كان البابا اسكندر الثالث فى انتظاره يحيط به جمع حافل من الكرادلة (٥) • ولم تلبث أن تكررت تمثيلية كانوسا بعد مرور مائة عام

(1) Bryce: op. cit. p. 175.

(2) Eyre: op. cit. 166.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 262.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 502.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p 448.

بالضبط ، فأتى الامبراطور فردريك الأول العظيم ، خليفة قيصر وشارلمان ،
ليزتمى بين قديى البابا اسكندر الثالث باكيا طالما منه الصلح والغفران ، مثلما
فعل سلفه - العظيم أيضا - هنرى الرابع مع البابا جريجورى السابع سنة
١٠٧٧ (١) .

وهكذا تم الصلح بين الامبراطورية والبابوية فى أغسطس ١١٧٧ ، فوافق
فردريك الأول على رد جميع الأراضي المقتسبة من البابوية ، وتعهد كل من
الطرفين بمساعدة الطرف الثانى ضد أى عدو يهدده . هذا علاوة عما وافق
عليه الامبراطور من عمل هدنة مع حلفاء البابا النورمان فى صقلية لمدة خمس
عشرة سنة ، وهدنة أخرى مع المدن اللمباردية لمدة ست سنوات (٢) . وقبل
أن تنتهى هذه الهدنة الأخيرة مع المدن اللمباردية تم توقيع صلح كونستانس
سنة ١١٨٣ بين المدن اللمباردية والامبراطورية ، وهو الصلح الذى نص على
أن تتمتع هذه المدن بجميع أركان الاستقلال السياسى والقضائى والاقتصادى
والحربى ، مع احتفاظ الامبراطور ببعض المظاهر التى تصور سيادته الاسمية ،
مثل موافقته على تعيين حكام المدن وفرض ضريبة شكلية تافهة للمساهمة فى
نفقات الجيوش الامبراطورية . على أنه من الواضح أن هذه الشروط لا
تخفى الحقيقة الواقعة وهى أن المدن اللمباردية أصبحت دويلات مستقلة
بمقتضى معاهدة كونستانس ، وأن نفوذ الامبراطور فى شمال ايطاليا أضحى
اسما ، مما أدى الى تفكك الامبراطورية وانفصال ايطاليا عن ألمانيا فى
تطورها (٣) .

الامبراطورية عقب صلح البندقية سنة ١١٧٧ :

وقد أتاح الهدوء الذى ساد العلاقة بين الامبراطور وايطاليا عقب صلح
البندقية فرصة لفردريك الأول لبوجه عنايته نحو شئون ألمانيا ، بعد أن شغلت
الأحداث الايطالية عنها طويلا . وكان منبع الخطر الرئيسى الذى هدد سلطة

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 263.

(2) Barraclough: op. cit. n. 183.

(3) Bryce: op. cit. p. 175.

(م ٢٥ - أوروبا فى العصور الوسطى)

الامبراطور فى ألمانيا هو هنرى الأسد الذى استغل فرصة انشغال الامبراطور ليحصل على امتيازات واسعة ، ويزيد من أملاكه ونفوذه على حساب جيرانه فى الشمال والجنوب ، حتى غدا خطرا حقيقيا هدد الامبراطور فضلا عن بقية الأمراء . هذا الى أن زواج هنرى الأسد من ماتيلدا ابنة هنرى الثانى ملك انجلترا (١) ، جعله على صلة وثيقة بالبلاط الانجليزى ، ومكنه من اتباع سياسة خارجية مستقلة عن سياسة الامبراطورية . وقد ظهرت بعض أركان هذه السياسة فى مشروعات هنرى الأسد لضم الدانمرك وفى البعثات الدبلوماسية المتبادلة بينه وبين الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، على الرغم مما كان من عداوة شديدة بين هذا الامبراطور والامبراطور فردريك بربروسا . بل ان هنرى الأسد تعمد زيادة القسطنطينية سنة ١١٧٢ وهو فى طريقه الى الأراضى المقدسة مما أثار الشكوك بأنه يتآمر مع الامبراطور البيزنطى ضد فردريك (٢) . لذلك وجه فردريك الأول جهوده نحو هنرى الأسد فأنزله به الهزيمة سنة ١١٨٠ وعندئذ قسم سكسونيا بين عدد من النبلاء ولم يترك لهنرى سوى أجزاء محدودة (٣) .

ثم كان أن أحرز الامبراطور فردريك الأول نصرا سياسيا عظيما سنة ١١٨٤ عندما وضع مشروعا لزواج ابنه وخليفته هنرى من الأميرة كونستانس وريثة مملكة صقلية (٤) . ومن الواضح أن هذا الزواج جاء على جانب خطير من الأهمية لأن من شأنه أن يؤدى فى المستقبل الى التوحيد بين الامبراطورية ومملكة صقلية مما يجعل الأملاك البابوية فى وسط إيطاليا تقع بين شقى الرمح (٥) . ولم يكن هذا هو كل ما صادفه الامبراطور فردريك الأول من توفيق فى تلك المرحلة ، إذ أن الحلف اللمباردى تفكك بعد أن أحست المدن اللمباردية بزوال الخطر الامبراطورى ، فاشتد التنافس فيما بينهما ، فمما مكن الامبراطور من النفاذ الى شئون إيطاليا مرة أخرى وصادف

(1) Adams: The Hist. of England pp. 291—292.

(2) Barraclough: op. cit. p. 187.

(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 200—201 & 507.

(4) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 280.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 453.

أن توفي البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨١ فترك فراغا كبيرا في روما لأن أحدا من البابوات الخمسة الذين خلفوه في منصبه بين سنتي ١١٨١ ، ١١٨٨ لم تتح له فرصة البقاء طويلا في الوظيفة البابوية ليقوم بعمل ذي أهمية في التاريخ (١) . وقد أوشك النزاع بين البابوية والامبراطورية أن يتجدد سنة ١١٨٤ عندما ماطل البابا لوكيوس الثالث في تنصيب هنري - ابن الامبراطور فردريك الأول - في حياة أبيه ، ثم تجدد النزاع فعلا في عهد البابا أوربان الثالث (١١٨٥ - ١١٨٧) عندما عين كل من البابا والامبراطور رئيسا لأساقفة تريير Trier وتمسك كل منهما برأيه (٢) . وسرعان ما تألف حلف ضد الامبراطور فردريك الأول من البابا ورئيس أساقفة كولونيا وهنري الأسد ، ولكن موقف الامبراطور أصبح قويا بعد أن استمال اليه أعداءه القدامى في ايطاليا وألمانيا ، وعلى رأسهم مدينة ميلان التي شهدت الاحتفال بزواج هنري ابن الامبراطور من الأميرة كونستانس . وعلى الرغم من الهزائم التي لحقت بالبابا وحلفائه في ألمانيا وإيطاليا إلا أن أوربان الثالث أصر على موقفه واستعد لاصدار قرار الحرمان ضد الامبراطور ، في الوقت الذي جاءت الأخبار من الشرق بانتصارات صلاح الدين على الصليبيين بالأراضي المقدسة سنة ١١٨٧ . وبعد ذلك بأيام قلائل توفي البابا أوربان الثالث فعمل خليفته جريجوري الثامن على لم شعث القوى المسيحية لارسال حملة جديدة الى الشرق تثار لما حل بالصليبيين على أيدي صلاح الدين (٣) . على أن هذا البابا لم يمكث في منصب البابوية سوى أسابيع قليلة توفي بعدها فخلفه كلمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١) الذي استأنف سياسة سلفه في ضم صفوف الغرب المسيحي فاسترضى الامبراطور فردريك ببروسا بأن عزل رئيس أساقفة تريير المفضوب عليه من الفريق الامبراطوري ، كما وعد فردريك بتتويج ابنه هنري . وهكذا عادت للامبراطور فردريك الأول سيادته من جديد على ألمانيا وإيطاليا ، فنفي هنري الأسد وثبت الأمن والنظام في شطري الامبراطورية (٤) . وفي سنة ١١٨٩ غادر الامبراطور فردريك

(1) Hayward: op. cit. pp. 189—191.

(2) Idem. p. 189.

(3) Tout: The Empire and the Papacy. pp. 270—271.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 509.

بربروسا ألمانيا على رأس الشطر الألماني من الحملة الصليبية الثالثة فى الوقت الذى كان الأمير هنرى الأسد يدير له المؤامرات من منفاه فى البلاط الانجليزى • وقد انتهز هنرى الأسد فرصة سفر الامبراطور الى الشرق وعاد الى ألمانيا محاولا استرجاع سكسونيا بالقوة ، مما جعل السياسة الأوربية تمر فى تلك الحقبة بدور شديد التعقيد بسبب علاقة الصداقة بين ألمانيا وفرنسا من جهة وعداؤ انجلترا لفرنسا وبالتالى لألمانيا من جهة أخرى (١) • أما فيما يتعلق بفردريك بربروسا فقد شامت الأقدار أن يلقى هذا الامبراطور الشيخ حتفه غرقا فى أحد أنهار آسيا الصغرى سنة ١١٩٠ قبل أن يصل الى الأراضى المقدسة •

وكان أن جاء فى العرش بعد فردريك بربروسا ابنه هنرى السادس (١١٩٠ - ١١٩٧) الذى ورث عن أبيه مقدرته وقوة عزيمته وتشبعه بفكرة الامبراطورية العالمية (٢) • ذلك أنه وضع لنفسه برنامجا ضخما يتضمن جعل المنصب الامبراطورى وراثيا فى ذريته والغاء مبدأ الانتخاب فى اختيار الامبراطور ، واستغلال مركز زوجته كورثية لعرش صقلية فى تدعيم نفوذه فى جنوب ايطاليا • على أن هنرى السادس لم يستطع اتمام مشروعاته السابقة دون الاصطدام مع خصومه ومنافسيه ، وعلى رأسهم هنرى الأسد الذى ذكرنا أنه عاد من منفاه بانجلترا ليطالب بأملاكه ويستعيد نفوذه (٣) • هذا فى الوقت الذى كان وليم ملك صقلية قد ترقى فى أواخر سنة ١١٨٩ وأراد الوطنيون اعطاء عرش المملكة لتتكرد بدلا من كونستانس زوجة هنرى السادس والوريثة الشرعية للعرش (٤) •

ويبدو أن هذه المشكلة الأخيرة كانت أهم المشاكل فى نظر هنرى السادس حتى أنه صفى المسائل المعلقة بينه وبين هنرى الأسد ، ثم عبر جبال الألب الى

(1) Barraclough: op. cit. p. 195.

(2) Bryce: op. cit. p. 201.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 460.

(4) Eyre: op. cit. p. 167.

إيطاليا فى أوائل سنة ١١٩١ حيث اكتسب تأييد أهالى روما وتغلب على مما طلة البابا كاستين الثالث Calixtus III حتى تم تنويجه مع زوجته الامبراطورة نونساس فى شهر أبريل من السنة نفسها (١) * وعندما زحف هنرى السادس جنوبا لاسترداد مملكه صقلية من مقتصبها تنكرد ، تنكر نه الحظ بسبب مقاومة نابلى وانتشار الطاعون بين الجنود الالمان ، حتى اضطر الامبراطور الى العودة شمالا الى المانيا (٢) * وكانت الاوضاع فى ألمانيا عندئذ تنذر بمصام جديد بين الهوهنشتاوفن والجلفيين او بعبارة اخرى بين الامبراطور وهنرى الأسد ، فعلا قامت الحرب بين الطرفين سنة ١١٩٢ * ولم نلبث أن تعقدت حوادث هذه الحرب عندما ثار أمراء الراين سنة ١١٩٣ نتيجة لسياسة هنرى السادس ، وبذلك اشتدت أواصر التحالف بين الهوهنشتاوفن فى ألمانيا وآل كاييه فى فرنسا ضد أفصالحهم الولفيين وأمراء الراين وملك انجلترا (٣) * على ان الحظ حالف هنرى السادس ، اذ حدث فى الوقت الذى ثار أمراء الراين أن وصله خبر وقوع ريتشارد ملك انجلترا - أثناء عودته من الحملة الصليبية الثالثة - فى أسر دوق أوستريا الذى سلمه بدوره لهنرى السادس * وقد ظل ريتشارد فى الأسر أكثر من عامين أرسل خلالها فيلب ملك فرنسا الى حليفة هنرى السادس يطلب منه عسدم الافراج عنه ، ولكن هنرى السادس أفرج عنه أخيرا سنة ١١٩٤ بشروط قاسية (٤) * وسرعان ما تابعت انتصارات هنرى السادس على خصومه ، فحضع أمراء الراين واستسلم هنرى الأسد وبقي حلفائه ، وبذلك أصبح هنرى السادس سيد الموقف فى ألمانيا ، مما مكّنه من توجيه كل جهوده نحو إيطاليا (٥) *

وقد ساعدت هنرى السادس فى تحقيق أطماعه الإيطالية المقدرة التى امتاز بها

(1) Hayward: op. cit. p. 191.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 464.

(٣) كان ملك انجلترا عندئذ يعتبر فصلا اقطاعيا لملك فرنسا بالنسبة للأراضى الواسعة التى كانت تحت سيادة الأول فى غرب فرنسا ، نورمانديا وأنجو ومين وتورين وبواتو وجوين وجاسكونى) *

(4) Adams: op. cit. pp. 374—376.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 306—309.

على الانحناء أمام التيارات الصغيرة والثورات المحلية حتى تمر بسلام ، هذا فضلا عن انشغال المدن اللباردية فى شمال ايطاليا بما نشب بينها من خلاف . وهنا نجد هنرى السادس يحرص على عدم الزج بنفسه فى تلك الخلافات ، وعلى استرضاء مختلف الفرق المتنازعة ، مما مكّنه من الحصول على معونة بحرية من جنوا وبيزا فى حربه ضد صقلية ، كما حرم مملكة صقلية من الحصول على مساعدة حلفائها فى شمال ايطاليا . أما البابا كالستين Galestine III (ت ١١٩٨) فكانت تنقصه الجرأة واكتفى بالوسائل السياسية لرقلة مشروعات الامبراطورية مما جعل ملك صقلية يواجه هنرى السادس وحيدا منفردا (١) .

وكان تنكرد قد توفى عند وصول هنرى السادس الى ايطاليا سنة ١١٩٤ ، فحل محله ابنه وليم الثالث الذى لم يستطع مواجهة الامبراطور ، فتمكن هنرى السادس قبل نهاية سنة ١١٩٤ من الاستيلاء على مملكة الصقليتين ، حيث ترك زوجته كونستانس تنوب عنه فى حكمها فى حين عاد هو الى ألمانيا سنة ١١٩٥ . وهكذا حرمت البابوية من أقوى حلفائها فى ايطاليا بعد . أن أصبحت الأجزاء الجنوبية فى قبضة الامبراطورية (٢) . أما هنرى السادس فقد بلغ وقتئذ درجة من اتساع النفوذ لم يصل اليها امبراطور فى غرب أوروبا منذ أيام شارلمان ، لا سيما بعد أن خلصه الموت من خصمه هنرى الأسد سنة ١١٩٥ (٣) . ويلاحظ بصفة خاصة أن نجاح هنرى السادس فى صقلية يعتبر نقطة تحول فعالة فى تاريخ الامبراطورية وسياستها الخارجية ، لأن هذا النجاح لم يجعل الأباطرة ورثة النورمان فى أراضيهم بجنوب ايطاليا وصقلية فحسب ، بل ورثوهم أيضا فى أطماعهم الخاصة بالسيطرة على البحر المتوسط . وفى عدائهم الشديد للدولة البيزنطية ، الأمر الذى جعل السياسة الخارجية للامبراطورية المقدسة تتحول عن مجراها الطبيعى الى مجرى آخر لا يتفق ومصالح الامبراطورية (٤) . وبعبارة أخرى فان ضم صقلية الى الامبراطورية سبب للاخيرة مشاكل داخلية

(1) Hayward: op. cit. p. 191.

(2) Eyre: op. cit. p. 167.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 469.

(4) Barraclough: op. cit. p. 197.

وخارجية لم تستطع أن تتحملها ، اذ استمرت صقلية مدة ستين عاما
منذ سنة ١١٩٠ - تستأثر بجهود الأباطرة الذين صبروا أبصارهم عن شئون
ألمانيا ، حتى انتهى الأمر بانتهاء أسرة هوهنشتاوفن وتفكك حكومه ألمانيا (١) .
أما هنرى السادس فقد حصل سنة ١١٩٦ على موافقة أمراء ألمانيا على اختيار
ابنه فردريك الثانى ليخلفه فى عرش الامبراطورية ، ثم ذهب بعد ذلك الى
إيطاليا حيث توفى سنة ١١٩٧ وهو يتأهب للقيام بحملة صليبية كبيرة (٢) .

وصادف فى ذلك الوقت أن البابا كالستين الثالث لحق بالامبراطور بعد أربعة
أشهر تقريبا ، فخلفه سنة ١١٩٨ البابا أنوسنت الثالث الذى امتاز بشخصية
عظيمة مكنته من تحقيق كل ما كانت تطمح فيه البابوية من سمو فى ضوء
مبادئ جريجورى السابع واسكندر الثالث . وقد شبه أنوسنت الثالث البابوية
بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوءه من الشمس ، وبذلك
عاد الى نعمة سيادة البابوية على الامبراطورية مما هدد بفتح باب النزاع من
جديد بين السلطين (٣) . وربما كان من العوامل التى ساعدت أنوسنت الثالث
على الظهور عدم وجود امبراطور قوى على رأس الامبراطورية الغربية ، لأنه
حدث بعد وفاة هنرى السادس أن انفصل تاج صقلية عن الامبراطورية وعندئذ
لم تبذل أية محاولة جديدة للاحتفاظ بوحدة عرشى صقلية وألمانيا (٤) .
ويبدو أن كونستانس - الامبراطورة الوالدة - آثرت الاحتفاظ لابنها بملك
صقلية ، مبتعدة به عن ألمانيا ومشاكلها ، وفى سبيل ذلك أعلنت تبعيتها للبابوية
وتعهدت بدفع مبلغ معين من المال للبابا سنويا . وهكذا استطاعت كونستانس
أن تحكم نابلى وصقلية باسم ابنها فردريك الصغير فأبعدت الموظفين الألمان
الذين شكوا منهم الأهالى ، كما أوصت قبل وفاتها سنة ١١٩٨ بأن يخلفها البابا

(1) Ibid.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 512.

(3) Tout: The Empire and the Papacy: p. 314.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 44-45.

فى الوصاية على ابنها الصغير (١) • وقد قام البابا انوسنت الثالث بالوصاية على فردريك الثانى على خير وجه كما أخذ يمكن للبابوية فى أواسط ايطالياب وشمالها بعد طرد الحاميات الالمانية من روما ، هذا فى الوقت الذى أخذ البابا يرقب - بارتياح - حوادث الانقسام التى هددت ألمانيا بحرب أهلية (٢) •

ذلك أن فيليب دوق سوابيا - وعم فردريك الثانى - أسرع الى ألمانيا عقب وفاة أخيه هنرى السادس للاحتفاظ بعرشها للهوهنشتاوفن ، حتى انتهى الامر باختياره ملكا على ألمانيا سنة ١١٩٨ • على أن عددا كبيرا من الامراء أيدوا أوتو - الابن الثانى لهنرى الاسد - الذى كان يعيش فى بلاط ريتشارد ملك انجلترا ، وعندئذ أمد ريتشارد بالمال وأرسله الى ألمانيا ليستخلص حقوقه بوصفه ممثل الولفيين (٣) ، مما جعل ألمانيا مسرحا لحرب أهلية استمرت عشر سنوات وامتت بانتصار فيلب سنة ١٢٠٧ ، ثم مقتله فى العام الالى • وهكذا تبسم الحظ لأوتو الرابع الذى لم يجد أمامه من ينافسه من بيت هوهنشتاوفن ، فأسرع الى الزواج من ابنة غريمه فيلب ليربط بين الجلفين والجيليين • هذا الى أنه عمل على استرضاء البابوية ، فقصدا ايطاليا سنة ١٢٠٩ ليقوم بالزيارة التقليدية التى تمسك بها ملوك ألمانيا وليبحث مع البابا مشكلة تركة الأميرة ماتلدا (٤) • وقد انتهز أوتو الرابع فرصة مقابلته للبابا وأعلن ولاءه للبابوية كما أقسم على أن يحافظ على حرية انتخاب رجال الدين ، وعلى أن يساعد البابا ضد خصومه ، فكافأه البابا على ولانه بتويجه فى أكتوبر من العام نفسه (٥) • على أن موقف أوتو من البابوية بعد أن توج امبراطورا اخلف كثيرا عن موقفه منها وهو يسعى لاكتساب عطفها للوصول الى العرش • ذلك أن أوتو الرابع لم يلبث أن أفرغته سياسة البابا انوسنت الثالث وأطباعه ، فاضطر - وهو الامبراطور

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 317.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 45.

(3) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 233.

(4) Barraclough: op. cit. p. 212.

(5) Hayward: op. cit. p. 193.

الجلفى - الى اتباع سياسة خصومه من ال هوهنشتاوفن تجاه البابوية (١) + وهكذا اخذت العلاقة بين البابوية والامبراطورية تتخذ شكل حرب بارده ، بدا أوتو الرابع يعمل على ابعاد فردريك الثانى عن عرش صقلية لادخالها تحت سلطانه ، مما افزع البابا انوسنت الثالث ، لا سيما بعد ان تمسك أوتو الرابع بحق الامبراطورية فى تركة الأميرة ماتيلدا (٢) + ولم تلبث هذه الحرب الباردة أن تحولت الى حروب ساخنة عندما شرع أوتو الرابع فى تنفيذ أطماعه عمليا ، فاحتل تسكانيا سنة ١٢١٠ ثم غزا ابوليا وأخذ يناهض لفزو صقلية بمساعدة الاسطول البيزى (٣) + وقد ارتاع البابا من تلك الاحداث ، فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور ، وابعح لرعاياه الخروج عن داعته ، كما أعلن فردريك الثانى امبراطورا + وهكذا انقلبت الاوضاع فى اوربا فاصبح أوتو الرابع - وهو ابن هنرى الأسد الولى - يقوم بدور الهوهنشتاوفن فى مناوئة البابوية والتمسك بسيادة الامبراطورية ، فى حين أخذ البابا يساند فردريك الثانى الجبلينى سليل الهوهنشتاوفن (٤) + وكيفما كان الامر فقد آنت السياسة البابوية أكلها ، فاجتمع عدد من امراء ألمانيا الكارهيين للامبراطور فى نورنبرج Nurnberg سنة ١٢١١ ، واعتبروا قرار البابا ضد الامبراطور مرسوما بعزله ، واختاروا فردريك الثانى ملك صقلية - وابن هنرى السادس - ملكا على ألمانيا بدلا من أوتو الرابع المحروم من الكنيسة + ومن الواضح أنه لم يكن من مصلحة البابا أن يختار الألمان فردريك الثانى ملكا عليهم حتى لا تعود البابوية من جديد بين فكي الكماشة فيحيط بها النفوذ الامبراطورى من الشمال والجنوب (٥) ، ولكن الموقف الذى كان فيه البابا أنوسنت الثالث عندئذ جعله لا يفكر فى شىء سوى التخلص من أوتو

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 73.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 318.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 74.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 621.

(5) Barraclough: op. cit. p. 212.

الرابع ، فوافق على اختيار فردريك الثانى لعرش ألمانيا دون أن يدري ما سترتب على هذا الاختيار من نتائج فريية (١) .

أما فردريك الثانى فلم يلبث أن غادر صقلية - وكان فى السادسة عشر من عمره - وقصد روما حيث أعلن ولاءه للبابوية ، ثم قصد ألمانيا حيث رحبت به سوابيا وبافيا ، حتى تتم تنويجه رسميا ملكا على ألمانيا بيد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢١٢ (٢) . ولم يبق امام أوتو الرابع عندئذ سوى الاعتماد على إمارة سكسونيا ، فطلب المعونة من خاله حنا ملك إنجلترا الذى كان مغضوبا عليه من البابوية هو الآخر . على أن التحالف بين فردريك الثانى وفيلب أوغسطس ملك فرنسا والبابوية كان أقوى أثرا من التحالف بين ملك إنجلترا وأوتو الرابع وغيرهما من أمراء فلاندرز وبرابانت واللورين (٣) . وسرعان ما أنزل فيلب أوغسطس هزيمة ساحقة بخصومه فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤ ، وهى الموقعة التى تعتبر نقطة تحول ، لا فى تاريخ ألمانيا فحسب ، بل فى تاريخ أوروبا بأسرها . أما فيما يتعلق بألمانيا فإن أوتو الرابع انسحب يجر اذيل الخيبة نحو سكسونيا حيث توفى سنة ١٢١٨ فى حين استسلم أنصاره وأتباعه لفردريك الثانى بسهولة (٤) . وقد احتفل فردريك الثانى بانتصاره بإعادة تنويجه فى كندراية آخن ، وبذلك أصبح بعد موقعة بوفان الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى حكم ألمانيا والصقليتين (٥) . والواقع أن هناك عدة ظروف تجتمعت لتجعل من فردريك الثانى شخصية من أبرز الشخصيات التى شهدتها العصور الوسطى وأشدها غرابة . ذلك أنه ولد من أب ألماني وأم نصف ايطالية ، وتلقى تعليمه فى صقلية على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية ، فنشأ فيلسوفا مجبا للجدل والرياضيات (٦) ، يجيد عدة لغات منها اللغة العربية ، ويتذوق الشعر

- (1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 239.
- (2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 76.
- (3) Adams: op. cit. 431.
- (4) Barraclough: op. cit. p. 214.
- (5) Eyre: op. cit. p. 169.
- (6) Kantorowicz: op. cit. pp. 293—395.

العربى وغير العربى ، هذا كله فضلا عن مهارته كسياسى ومحارب وقانونى ، حتى أطلق عليه المؤرخون « أعجوبة الدنيا » (١) . وقد شاعت الظروف تساعد فردريك الثانى فى أوائل عهده لأن البابا أنوسنت الثالث توفى سنة ١٢١٦ فتحرر فردريك الثانى من سيطرته ، ولا سيما أن البابا الجديد هنريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧) كان هادىء الطبع ، ففضل توجيه جهود العالم العربى نحو الحروب الصليبية بدلا من المنازعات العقيمة بين البابوية والامبراطورية .

الفرد الثالث من ادوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

على أن جهود فردريك الثانى فى التمكين لنفسه من جهة ، واتخاذ ايطاليا وصقلية - لا ألمانيا - مسرحا أساسيا لهذه الجهود من جهة أخرى ، كان من شأنها أن تثير مخاوف البابوية (٢) . وازدادت هذه المخاوف عندما اتضح للبابوية أن فردريك الثانى غير قانع بصقلية وجنوب ايطاليا ، وإنما أخذ يعمل على توطيد نفوذه فى شمالها - أى فى لمبارديا . حقيقة ان فردريك حرص عندئذ على احترام مركز البابوية فى ايطاليا ، ولكن سيطرة الامبراطور على جنوب ايطاليا وشمالها أذرت بوقوع الأملاك البابوية بين شقى الرحى ، مما جعل البابا ينظر الى محاولات فردريك وسياسته بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل (٣) .

وكان فردريك الثانى قد وعد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ بالقيام بحملة صليبية ، كما وعده بفصل صقلية عن الامبراطورية . ولكنه عاد فأخذ يماطل فى القيام بالحملة التى وعد بها ، كما توج ابنه هنرى سنة ١٢٢٠ ملكا ليخلف أباه فى حكم صقلية والامبراطورية جميعا مما ضايق البابوية وأفزعا (٤) . وفى سنة ١٢٢٠ تم تتويج فردريك الثانى امبراطورا فى روما بعد أن جدد

(١) Bryce: op. cit. pp. 203—204.

(٢) Barraclough: op. cit. pp. 222—223.

(٣) Idem, p. 228.

(٤) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 364—365.

المهد بالقيام بالحملة الصليبية • ويبدو ان فردريك لم يكن جادا فى مشروع الصليبي فى الوقت الذى كانت البابويه تتوق لارسال حملة صليبية على وجه السرعة لاصلاح الموقف الذى نجم عن فشل حملة حنسايرين على مصر (١٢١٩ - ١٢٢١) • وأخيرا لجأ البابا الى تشجيع فكرة زواج الامبراطور من الاميرة يولاند وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحة فى الذهاب الى الأراضى المقدسة واسترداد بيت المقدس من المسلمين • وفعلًا تم الزواج سنة ١٢٢٥ ، ومع ذلك لم يخط فردريك الثانى خطوة جدية فى سبيل تنفيذ وعده الصليبي (١) • هذا الى أن فردريك الثانى لجأ بعد توبيجه الى فرض قوانين مشددة على رجال الدين ترمى الى الحد من نفوذهم وانتقاص حقوقهم ، كما عقد مؤتمرا فى كريمونا سنة ١٢٢٦ أعلن فيه تمسكه بحقوقه الامبراطورية كاملة فى السيطرة على لمبارديا ، مما أفرع المدن اللمباردية ، فجددت حلفها ضد الامبراطور وسدت ممرات الألب فى وجهه • وكان صبر البابا هنريوس الثالث قد أوشك أن ينفذ عندئذ ، فأخذ يتأهب لتجديد الحلف بين البابوية والمدن اللمباردية ، ولكنه توفى فى مارس سنة ١٢٢٧ مما أجل فتح باب النزاع بين الامبراطورية والبابوية (٢) •

وعلى الرغم من أن البابا الجديد جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) كان طاعنا فى السن ، الا أنه امتاز بارادة حديدية لا تقبل ، فلم يقبل الاعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية ، وأصر على ضرورة رحيل الامبراطور الى الشرق فورا (٣) • وكان أن أبجر الامبراطور فعلا من برنديزى قاصدا الأراضى المقدسة ، ولكنه عاد بعد أيام مدعيا المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضا فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧ (٤) • وهنا يجدر بنا أن نوضح مرة أخرى أن توقيع هذا القرار على الامبراطور لم يكن سببه معاملة فردريك الثانى فى

(1) Kantorowicz: Frederick the Second, p. 139.

(2) Hayward: op. cit. p. 200.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 146.

(4) Kantorowicz: op. cit. p. 171.

تنفيذ وعده الصليبي فحسب ، بل أيضا تخوف البابوية من سياسة فردريك فى إيطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص (١) . ومهما يكن من أمر فإن هذا الاجراء فتح باب النزاع على مصراعيه بين البابوية والامبراطورية . وكانت ميلان مسئولة الى حد كبير عن فتح هذا الباب لأنها عارضت بشدة احياء النفوذ الامبراطورى فى لمبارديا ، فجددت الحلف اللمباردى لمدة خمس وعشرين سنة جديدة تبدأ من سنة ١٢٢٦ ، كما أنها سدت ممرات الألب فى وجه الجيوش الامبراطورية الوافدة من ألمانيا (٢) . أما البابا فقد أرسل رسله ومندوبيه الى كافة انحاء إيطاليا وألمانيا لابلأغ الناس القرار البابوى ضد الامبراطور وتحريضهم على الخروج عن طاعته . على أنه يبدو أن الامبراطور فردريك لم يتأثر بتلك الدعوة ، وظل ثابتا فى مركزه يرقب فشل عملاء البابا فى تحريك الثورة ضده ، بل على العكس نجح دعاة الامبراطور فى اثارة فتنة ضد البابا فى روما مما اضطر جريجورى التاسع الى القرار منها سنة ١٢٢٨ (٣) .

وأخيرا أدرك فردريك الثانى أن مصالحته تستدعى القيام بحملته الصليبية المزعومة حتى يبدو فى ثوب المجاهد فى سبيل الغرض الصليبي ، فوصل عكا على رأس قوة صغيرة فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ . ويفهم من حوادث هذه الحملة الصغيرة أن فردريك الثانى لم يخرج الى الشرق بقصد الحرب ، وانما كان يبنى مفاوضات المسلمين للحصول على كسب سريع . ولم تلبث هذه المفاوضات أن انقلبت الى نوع من الاستعطاف ، وهو السلاح الوحيد الذى كان بملكه فردريك الثانى عندما قدم الى الشرق فى بضع مئات من أتباعه . وتشير بعض المراجع المعاصرة الى أن فردريك كان يبكى فى بعض مراحل مفاوضاته مع المسلمين عندما يتذكر أنه سيعود الى النارب فاشلا ليواجه البابوية وبقة أعدائه فى إيطاليا وألمانيا (٤) . ويفسر هذا الشعور رسالة أرسلها فردريك الثانى الى السلطان الكامل الأيوبي أثناء المفاوضات يقول

(1) Creighton: A Hist. of the Papacy, p. 26.

(2) Barracough: op. cit. p. 230.

(3) Tou : The Empire and the Papacy, pp. 367- 368.

(4) Kantorowicz: op. cit. p. 185.

فيها » أنل مملوكك وعتيقك • وليس لى عما تأمره خروج ! وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم •• ! (١) » •

وهكذا استطاع فردريك الثانى أن يكتسب عطف السلطان الكامل ، فعقدت معاهدة بين الطرفين سنة ١٢٢٩ سلم بمقتضاها الكامل بيت المقدس للامبراطور الذى استطاع أن يحقق نصرا عجزت عنه بقية الحملات الصليبية الضخمة التى وفدت الى المشرق بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ • وكان أن دخل فردريك الثانى كنيسة القيامة فى بيت المقدس حيث أعلن من ذلك المكان المرموق أن قرار الحرمان الذى أصدره البابا ضده باطل ! ، كما توج نفسه بيده داخل تلك الكنيسة (٢) • وهنا نلاحظ أن تتويج الامبراطور لنفسه فى هذه المناسبة له مغزى عميق ، اذ ربما أراد الامبراطور بذلك أن يعلن بطريقة صامتة فى تلك الكنيسة ذات الأهمية العظمى أنه لم يلق التاج الامبراطورى من رجال الدين ، وأنه تلقاه من الله مباشرة دون وساطة أحد من رجال الكنيسة • هذا وان كانت بعض المراجع المعاصرة تفسر تتويج الامبراطور لنفسه بأن رجال الدين فى بيت المقدس امتنعوا عن تتويج امبراطور محروم من الكنيسة ، مطرود من رحمتها (٣) • ومهما يكن من أمر فإن اقامة فردريك الثانى لم تطل فى الأراضى المقدسة ، اذ عاد بسرعة الى ايطاليا ليجد قوات البابا جريجورى التاسع قد استغلت فرصة غيابه وأغارت على أملاكه فى جنوب ايطاليا • بل بلغ الأمر بالبابا أن أذاع خبر وفاة الامبراطور فى الشرق ليضعف مركزه فى ايطاليا وألمانيا ، واستغل هذه الفرية ليستولى على الأملاك الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من رسالة بعث بها الامبراطور الى أحد أصدقائه المسلمين فى الشرق بعد

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب اليوفانى بالوفيات) •

(2) Kantorowicz: op. cit, p. 199,

(3) Ibid.

عودته (١) • لذلك وقع خبر وصول الامبراطور فردريك الثانى الى ميناء برنديزى (يونيو ١٢٢٩) وقع الصاعقة على البابا جريجورى التاسع ، الذى يبدو أنه كان يخشى هجوما مسلحا يقوم به فردريك الثانى على روما ، فأرسل سنة ١٢٢٩ عدة رسائل الى كبار الأساقفة يأمرهم بسرعة الحضور ومع كل منهم قوة مسلحة للدفاع عن الكنيسة الرومانية ضد هجوم الامبراطور المتوقع (٢) • وأخيرا لم يجد البابا مفرًا من الاعتراف بما حققه الامبراطور من مكاسب للمسيحية باسترداده بيت المقدس ، فعقد صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠ مع الامبراطور ، وبمقتضاه رفع عنه قرار الحرمان مقابل تعهده بحماية أملاك البابا والاعتراف بحق البابوية فى السيادة على صقلية (٣) •

ومن الواضح أن صلح سان جرمانو لم يتعرض لأسباب الخلاف الحقيقية بين البابا والامبراطور ، لذلك لم يكن هذا الصلح أكثر من هدنة مؤقتة بين الطرفين • ومهما يكن من أمر ، فإن فردريك الثانى استغل هذه الهدنة لتقوية نفوذه فى جنوب ايطاليا وصقلية • وهنا يظهر التناقض الشديد بين سياسة الامبراطور فى ايطاليا وسياسته فى ألمانيا ، اذ بينما هو يعمل على توطيد نفوذه فى ايطاليا عن طريق اضعاف الأمراء الاقطاعيين ، اذا به يعتمد على أمرائه

(١) أرسل الامبراطور فردريك الثانى رسالة بعد عودته الى ايطاليا الى الأمير فخر الدين ، رسول السلطان الكامل فى المفاوضات بينه وبين فردريك قبل تسليم بيت المقدس • وفى هذه الرسالة الطريفة يحكى الامبراطور لصديقه المسلم ما فعله البابا فى غيابه ، فضلا عما توضحه الرسالة من شعور عداوى متبادل بين البابوية والامبراطورية عندئذ ، فيقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، من قيصر العظيم امبراطور رومية فردريك ... وبعد علمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا • فنشعره أن البابا باء بالغار والخديعة • أخذ احدى قلاعنا المنيع • واضطر الى أن زعم أننا متنا وحلف القرذالية (الكردالة) على ذلك ، وعلى أن رجوعنا مستحيل ، وراوضوا العامة بمثل هذه الأباطيل ، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن جناية بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا ... » •

انظر المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٣٤ الباب ١٠٣ من التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان لأ. الفضائل الحموى •

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 296 N.I.

(3) Cam. Med. Hist, Vol. 6, p. 147.

الألمان فى امداده بالفوة اللازمة لتنفيذ سياسته الايطالية (١) . لذلك اضطر الامبراطور الى ترك الجبل على الغارب بالنسبة للامراء الألمان ، مما أدى الى تقويض نفوذ الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، لا سيما فى ذلك الوقت الذى أخذت المدن الألمانية تنمو لتتحول الى قومونات ذات نفوذ سياسى واقتصادى مستقل . وفى تلك الأثناء كانت المدن اللمباردية ترقب بعين القلق ازدياد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا ، مما دعى الى تجديد الحلف فيما بينهما سنة ١٢٣٢ لمواجهة هذا الخطر المشترك (٢) . ولم تلبث تلك المدن أن ثارت ضد الامبراطور الذى اعتمد على معونة كبار الأمراء الاقطاعيين حتى تمكن من انزال هزيمة بقوات الحلف اللمباردى عند كورتنوا Cortenuova قرب ميلان سنة ١٢٣٨ ، وبذلك ثار فردريك الثانى لما حل بفردريك الأول فى لينانو سنة ١١٧٦ (٣) . ويبدو أن هذه الهزيمة أثارت شعور اليأس عند كثير من المدن التى أسرع الى عقد الصلح مع الامبراطور ، بل ان ميلان نفسها عرضت حل الحلف اللمباردى الذى اصبح لا يضم سوى ست مدن ، ولكن فردريك أصر على أن يكون استسلام ميلان غير مشروط بقيد ، وبذلك أضاع فرصة طيبة للوصول الى تسوية سرية سريعة (٤) .

ذلك أن البابا جريجورى التاسع كان قد استعد للدخول فى نضال جديد مع الامبراطورية ، ولا سيما أن الاستياء بلغ به حدا كبيرا عندما أخذ فردريك الثانى - عقب انتصاره على المدن اللمباردية سنة ١٢٣٧ - يتصل بأهالى روما ويحرضهم على الثورة ضد البابا (٥) . وفى سنة ١٢٣٨ - ١٢٣٩ أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان - للمرة الثانية - ضد الامبراطور فردريك الثانى ، كما حرض رعاياه على الثورة ضده ، بل بلغ الأمر بالبابا أن عرض تاج الامبراطورية على أخ الملك فرنسا ، ولكن لويس التاسع لم يهتم ببدء البابا الذى

-
- (1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 370.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, n. 151.
 - (3) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 629—630.
 - (4) Barraclough: op. cit. p. 230.
 - (5) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 135.

وجهه اليه فى أكتوبر سنة ١٢٣٩ ، واختار أن يحترم اتفاقية الصداقة التى عقدتها أمه بلاشش مع الامبراطورية (١) . أما جهود البابا فى إثارة المتاعب ضد الامبراطور بألمانيا فقد منيت كلها بالفشل ، مما مكن الامبراطور من مواصلة الحرب ضد البابوية فى ايطاليا ، وهو مطمئن تماما الى ناحية الجبهة الالمانية . وكان البابا يظن أنه يستطيع باكتساب القوى البحرية - جنوا ويزا والبندقية - الى جانبه ، أن يشن هجوما على صقلية ليقضى على المركز الرئيسى لفردريك ، ولكن الهزيمة التى حلت باسطول جنوا سنة ١٢٤١ خيبت أمه (٢) ، فى حين أخذت القوات الامبراطورية تهاجم الأراضى والمدن الموالية للبابا فى أواسط ايطاليا ، فاستولت على أنكونا ودوقية سبوليتو ، كما أصبح الامبراطور سنيذ رافنا وفاينزا Faenza ، بل أنه استولى على بعض المدن الشديدة القرب من روما مثل فوليجنو وفيتربو Viterbo بحيث أنه لم ينقذ البابا عندئذ سوى بقاء أهالى روما على ولائهم له (٣) . وأخيرا لم يجد البابا وسيلة لاجراج مركز فردريك الثانى فى أوروبا كلها سوى عقد مجمع دينى فى روما يشترك فيه كبار رجال الدين بالغرب لانزال اللعنة بالامبراطور . وفعلوا لى دعوة البابا فريق من أساقفة شمال ايطاليا وفرنسا وأسبانيا واجتمعوا فى ربيع سنة ١١٤١ فى جنوا استعدادا للابحار منها الى روما . ولكن عددا كبيرا من مدن ايطاليا البحرية - وعلى رأسها ييزا - كانت موالية للامبراطور ، واستطاعت هذه القوة البحرية أن تنصيد السفن الجنوبية التى تنقل الأساقفة الوافدين لحضور المجمع البابوى ، مما أوقع معظمهم فى أسر الامبراطور وأدى الى فشل مشروع البابا (٤) . ولم ينقذ هؤلاء الأساقفة من قبضة الامبراطور سوى تهديد لويس التاسع ملك فرنسا باعلان الحرب ، وعندئذ أطلق فردريك الثانى سراحهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى توفى البابا جريجورى التاسع (أوغسطس ١٢٤١) وهو فى الثامنة والتسعين من عمره (٥) .

(١) Hayward : op. cit. p. 202

(٢) Barraclough : op. cit. p. 231.

(٣) Tout : The Empire and the Papacy, p. 284.

(٤) Kantorowicz : op. cit. pp. 544-546.

(٥) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 156.

وقد أعقب جريجورى التاسع فى منصب البابويه كلستين الرابع ، ولكنه توفى فى العام نفسه (سنة ١٢٤١) وعندئذ تعذر انتخاب بابا جديد ، فظل كرسى البابوية شاغرا مدة سنة ونصف - بسبب دسائس فردريك الثانى - حتى اختير أنوسنت الرابع فى يونيه سنة ١٢٤٣ (١) . وفى تلك الأثناء كانت المحادثات دائرة بين الفريق الامبراطورى من جهة والبابا جريجورى التاسع ثم أنوسنت الرابع من جهة أخرى للوصول الى اتفاق ينهى حالة النزاع بين الطرفين ، ولكن هذه المحادثات منيت بالفشل مرة بعد أخرى لاصطدامها بصخرة واحدة هى تمسك البابوية بالسيطرة على الموقف بين فردريك والمدن اللمباردية ، فى حين كان فردريك مستعدا للتساهل فى كافة المشاكل الكنسية المتعلقة دون أن يسمح للبابا بالتدخل فى حقوقه الامبراطورية فى لمبارديا (٢) . وكان أن صمم أنوسنت الرابع على مواصلة سياسة جريجورى التاسع تجاه الامبراطورية ، مما جعل قوات الامبراطور - من المسلمين الذين استعان بهم وأسكنهم فى جنوب ايطاليا - تهجم على الأراضى البابوية . وقد اضطر البابا ازاء هذه الأخطار الى الفرار من روما سنة ١٢٤٤ الى جنوا ومنها الى فرنسا حيث عقد مجمعا دينيا فى ليون سنة ١٢٤٥ لبحث المشاكل الكبرى التى تواجه الكنيسة ، وعلى رأسها مسألة النزاع مع الامبراطورية (٣) . وقد قرر ذلك المجمع عزل فردريك من منصبه على أن يختار من يحل محله فى هذا المنصب . ويبدو أن فردريك الثانى أدرك خطر هذا القرار فأصدر نداء الى ملوك أوروبا وحكامها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا من أجله واكتفوا باظهار العطف المقرون بالحرص والتحفظ الشديدين ، على الرغم من أن هؤلاء الملوك كانوا يواجهون الخطر نفسه فى بلادهم نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة ورجالها (٤) . وقد أدرك أنوسنت الرابع بعد الانتصارات التى أحرزها فردريك الثانى فى ايطاليا أنه لن يستطيع كسب المعركة ضد الامبراطورية فى

(1) Hayward : op. cit. p. 203.

(2) Barraclough : op. cit. p. 321.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 156.

(4) Thompson. op. cit. Vol. 2. p. 630.

إيطاليا نفسها ، فأخذ يوجه جهوده منذ سنة ١٢٤٥ نحو ألمانيا لتنظيم عناصر المقاومة الداخلية ضد الامبراطور . وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من أساقفة ألمانيا وأمرائها قرروا سنة ١٢٤٦ اختيار أمير نورنجيا ملكا على ألمانيا ، إلا أن غالبية ألمانيا ظلت على ولائها للامبراطور فى الوقت الذى أخذ فردريك الثانى يستغل كل أداة توصله الى غرضه . وكان الصراع عنيفا - وبصفة خاصة فى الأراضى الإيطالية - فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فبذل البابا جهودا قوية للحيلولة دون قيام وحدة امبراطورية متصلة تمتد من ألمانيا شمالا حتى صقلية جنوبا مما يهدد البابوية تهديدا خطيرا (١) . ويبدو أن الفريق الامبراطورى أحرز تفوقا ملحوظا بين سنتى ١٢٤٥ ، ١٢٥٠ حتى بات الامبراطور يحلم بعبور جبال الألب الى ليون حيث يقيم خصمه أنوسنت الرابع (٢) . ولكن فردريك الثانى فوجئ باشتعال نار الثورة فى بارما ١٢٤٧ ، حتى استطاع أهالى هذه المدينة احراز انتصار كبير على القوات الامبراطورية فى العام التالى . ويعتبر هذا الحادث نقطة تحول خطيرة فى تلك المرحلة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، اذ سرعان ما أخذ التيار يتحول بسرعة ضد الامبراطورية فنار أمراء أبوليا فى جنوب إيطاليا ، كما اشتدت مقاومة المدن المعادية للامبراطور فى شمالها (٣) . حقيقة ان الحظ ابتسم مرة للامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ عندما انتصرت قواته فى شمال إيطاليا ، كما جاءت الأخبار من ألمانيا بانتصار ابنه كونراد على غريمه وليم أمير هولندا الذى اختارته البابوية ملكا على ألمانيا (٤) . ولكن لم يكن لهذه الانتصارات أية ثمرة نتيجة لوفاة الامبراطور فردريك الثانى فى ديسمبر سنة ١٢٥٠ وهو فى طريقه من جنوب إيطاليا الى شمالها .

وبوفاة فردريك الثانى انتهت المصفا العالمية للامبراطورية الرومانية المقدسة،

(1) Barraclough : op. cit. p. 232

(2) Tout : The Empire and the Papacy, n. 390

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 161-162.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 390

لأنه كان فى الواقع آخر الأباطرة العظام الذين تمسكوا بالمقيدة الامبراطورية. وأصروا على سمو الامبراطورية وطابعها العالمى (١) . واذا كنا فى حديثنا عن الصراع بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى قد تعمدنا عدم الاستطراد الى مختلف التطورات التى أخذت تسرى فى جوف الامبراطورية ، وذلك لعرض الصراع فى صورة متصلة الحلقات ، الا أن ذلك لا يعنى الاقلال من شأن هذه التطورات وأثرها . وأول ما نلاحظه أن حوادث النزاع بين الامبراطورية والبابوية صرفت الأباطرة عن ألمانيا وشؤونها ، مما أدى الى ازدياد نفوذ السلطات المحلية . ونخص بالذكر فردريك الثانى الذى جعل لصقلية وإيطاليا المكانة الأولى فى برنامجيه ونشاطه ، مما زاد من أهمية العنصر الايطالى فى الحكومة الامبراطورية وذلك طبعا على حساب ألمانيا . ولا عجب ، فان فردريك الثانى اعتبر نفسه صقليا قبل أن يكون ألمانيا حتى أنه لم يمض فى ألمانيا سوى تسع سنوات من حكمه الطويل الذى امتد من سنة ١٢١٢ حتى سنة ١٢٥٠ (٢) . على أنه من الملاحظ أن هذه الأوضاع لم تعرقل بأى حال التطور الحضارى الذى أسرعته ألمانيا فى طريقه وقتئذ ، فانتعشت التجارة حتى أصبحت ألمانيا مركزا عالميا للتجارة فى غرب أوروبا وأخذت تظهر أهمية كثير من المدن التى ازدهرت فيها الآداب والقانون والنشاط التشريعى ، كما ظهر بعض الشعراء الألمان الذين جابههم فردريك الثانى بقسط من رعايته . وفى ذلك الوقت استمر النفوذ الألمانى فى اتساعه شرقا وشمالا حتى أصبح للألمان سيطرة على أراضى البلطيق والدانمرك فضلا عن العناصر السلافية فى الشرق (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فاننا نكرر القول بأن الامبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهت من الوجهة العملية بوفاة الامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ ، وأن ظلت اسميا حتى القرن التاسع عشر . وقد حدث أن توفى كونراد الرابع ابن

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 164

(2) Barraclough : op. cit. p. 219-220.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 373

فردريك الثانى سنة ١٢٥٤ ، وأعقب ذلك فترة استمرت عشرين سنة ظلت ألمانيا طوالها مسرحا للمنازعات والحروب الأهلية دون امبراطور يحكمها أو يسوس شئونها مما جعل هذه الفترة تعرف بمصر الشغور (Interregnum) فى التاريخ الألمانى . وهكذا يبدو لنا فى وضوح كيف ذهبت الملكية ضحية فكرة الامبراطورية العالمية ، اذ ضحى ملوك ألمانيا بمستقبل بلدهم السياسى القومى فى سبيل تمسكهم بسراب الامبراطورية الرومانية العالمية وجريهم وراء مشروعات فاشلة فى ايطاليا(١) . ولا شك فى أن المدن الألمانية استفادت من ذلك الوضع فائدة كبرى ، اذ أخذ كثير منها يخطو خطوات واسعة فى سبيل الانتعاش الصناعى والتجارى والاستقلال السياسى(٢) . . . وقد شعرت هذه المدن بحاجتها الى الترابط للمحافظة على حريتها واستقلالها مما أدى الى مولد « عصبة الراين » حوالى سنة ١٢٥٤ التى تألفت من عدة مدن أهمها مينزورمز وبازل وستراسبورج ، كما أن التحالف الذى تم بين هامبورج وليوبك حوالى ذلك الوقت وضع أساس العصبة الهانزية Henseatic League

أما قصة النزاع بين البابوية الامبراطورية فقد انتهت على هذا الوجه السلبى بعد أن عجز الأباطرة عن اخضاع البابوية وادخالهم تحت سيطرتهم . ومن السهل الوقوف على أسباب انتصار البابوية ، اذ ظل الأباطرة يستندون الى أحلام الماضى ومجد أسلافهم القدامى ، دون أن يحسبوا حسابا لروح العصر الوسطى - عصور الايمان والدين . أما البابوات فكانوا يستندون الى دعائم أقوى وأكثر تنمغلا فى نفوس الناس ، لأنهم استمدوا قوتهم من نفوذهم الروحى وما للدين من سلطان كبير على قلوب الأفراد . وحسب البابوات قوة أن ينادوا بأنهم خلفاء المسيح فى الأرض وأن بأيادهم مفاتيح الجنة والنار . فإذا كان الأباطرة يسيطرون على الدنيا فإن هذه الدنيا ليست الا عرضا زائلا

(1) Bryce : op. cit. p. 210.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 112-113.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 637.

لا يلبث أن ينتهى بالموت ، وعندئذ تصبح الكلمة فى حياة البقاء والخلود للدين
ولأهل الدين • ويكفى قول المسيح للحواريين • الحق أقول لكم كل ما
تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض
يكون • محلولا فى السماء (١) •

فهرس الموضوعات

الصفحة

٧	الباب الاول : الامبراطورية الرومانية
٣٠	الباب الثاني : الامبراطورية والمسيحية
٥٣	الباب الثالث : البرابرة وسقوط الامبراطورية في الغرب
٩٤	الباب الرابع : الاسلام
١٠٩	الباب الخامس : ايطاليا بين ثلاث قوى
١٢٧	الباب السادس : ظهور الديرية
١٤٧	الباب السابع : شارلمان وامبراطورية الفرنجة
١٧٤	الباب الثامن : الفينكنج
٢٠٤	الباب التاسع : أسرة كاييه في فرنسا
٢٤٥	الباب العاشر : المانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة
٢٨٣	الباب الحادي عشر : ايطاليا والبابوية
٣٠٧	الباب الثاني عشر : الامبراطورية والبابوية



